جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

سلسلة لمحات هندسية من القرآن والسنة النبوية (٥)

علوم الهندسة المعمارية في القرآن والسنة



الدكتور المهندس
خالد فائق صديق العبيدي

عُلومُ الهَندسَة المِعمَاريّة في القُرآن والسُّنّة

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م

ما ورد في هذا الكتاب يعبّر عن رأي صاحبه
ولا يعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات
رقم (م وع/٨/ ١٦٠١ تاريخ ٢٠٠٨/٣/٢٧م)

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
ص.ب: ٤٢٠٤٢ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦+ فاكس:٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨+
موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae
البريد الإلكتروني: quran@eim.ae

جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية

سلسلة لمحات هندسيّة من القرآن والسنّة النبويّة (٥)

عُلومُ الهَندسَة المِعماريّة في القُرآن والسُّنّة

الدكتور المهندس
خالد فائق صديق العبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله، رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. **وبعد**:

فقد نزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه، ونطقه، وتجويده، وترتيبه، وتنظيمه، وقد تكفل الله بحفظ آياته وكلماته من التحريف والتغيير والتبديل، فقال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، وجعله الله المعجزة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، فأعجز البشر أن يأتوا بسورة من مثله، فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾، وقد تناول العلماء هذا الكتاب العظيم بالدراسة والتمحيص، فاستخرجوا منه الكنوز الثمينة، وأسسوا في ظلال آياته قواعد علومهم، وقد أظهرت كثير من الاكتشافات العلمية المعاصرة حقائق مذهلة سبق القرآن إلى ذكرها أو الإشارة إليها، ولا بد من أن تجد التطابق بين ما قاله الله وما خلقه، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾. ويسر

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم أن تسهم في خدمة هذا القرآن العظيم، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية سلسلة الدراسات القرآنية تعميماً للثقافة القرآنية، وإن اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم لتقدم شكرها إلى مؤلف الكتاب وإلى كل مَن ساهم في إخراجه وطبعه ونشره وتوزيعه. سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يجعل هذا العمل في صحيفة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي وراعي جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

اللجنة المنظمة
لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ويدفع عنا بلاءه ونقمه، الحمد لله الذي جعلنا من أمة القرآن، هذا الكنز العظيم الذي لا تنقضي عجائبه حتى قيام الساعة (كما أنبأنا المصطفى - ﷺ -)، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد. .

فهذا هو كتابنا الخامس من سلسلة كتب (لمحات هندسية من القرآن والسُّنة النبوية)، وفيه نسلط الضوء على العمارة وهندستها وفنونها (Architectural Engineering Sciences In The Holy Qur'an & Sunna). وكيف سبق القرآن العظيم في تبيان كل ذلك وأسَّس لمدرسة معمارية غاية في الروعة والجمال والتناغم مع البيئة.

إن العالم الإسلامي يزخر حقًّا بثروات من العلوم والثقافة والآداب والتراث الإنشائي والطابع المعماري، كما يزخر أيضاً بكنوز وثروات مادية ظاهرة وباطنة، وإن مفاتن الشرق لا تحصى ولا تُعَدّ. ولو أخذنا - مثلاً - اللغة العربية بلهجاتها المتعددة الحديثة، واللغة الكلاسيكية بقواعدها وشعرها وأدبها ونثرها ومرادفاتها فسوف تدهشنا هذه الناحية وحدها لما يمتاز به العرب والمسلمون من ثروات أدبية وفنية.

من الحقائق الثابتة، أن العمارة كانت دائماً في العصور الماضية هي الصورة الصادقة والتعبير الدقيق لحضارة الإنسان وتطوره، وسارت معها

العمارة في تطور هادئ رزين لا يفارقها طابعها المميز، وكانت العمارة دائماً تتميز بصفتين متلازمتين لا يمكن فصلهما، فإلى جانب الوجود المادي المستمد من مواد البناء وطرق الإنشاء، هناك المحتوى الحسي المبني من صفات فنية، وهي الغرض والوظيفة بأسلوب خاص وتعبير معين.

حقاً، لقد جاء الإسلام بالثورة المعمارية الأولى في العالم، وأسس أنماطاً معماريةً نقلت التفكير من حيز ضيق لأفق واسع، وبرزت تفاصيل معمارية جديدة وفريدة، وكان لدخول شعوب شتى في الإسلام أثر مضاف لإدخال وصهر ثقافات تلك الشعوب تحت مظلة الأنماط المعمارية الإسلامية.

وكان كل ذلك يعود بشكل رئيسي للسبق القرآني والنبوي في تصنيف علوم هذه الهندسة وتفرعاتها كما سيبين هذا الكتاب.

لقد بيَّنَّا في كتاب الهندسة الوصفية (Descriptive Geometry In The Holy Qur'an & Sunna)، أن الهندسة المعمارية مرتبطة ارتباطاً عضوياً لا انفصام له مع الهندسة التحليلية والوصفية، لذلك سنجد في هذا الكتاب الإشارة لهذا الموضوع في غير موضع. كذلك من المعلوم ارتباط الهندسة المعمارية بأصناف أخرى من الهندسة والعلوم وهو ما تتضمنه بعض مفاصل فصول هذا الكتاب.

بعد أن نعرف العمارة وفنونها ومدارسها الحديثة ننطلق لنتكلم بالتفصيل عن العديد من الأمور التي شخصها وبيَّنها القرآن والسُّنة مثل العمارة والهندسة المعمارية في القرآن والسُّنة النبوية (Architectural Engineering In The Holy Qur'an & Sunna)، أهمية الاتجاهات الأربعة ومسارات الرياح في القرآن الكريم (Directions, Coordination, Northing-Easting & Wind Roots In The Holy Qur'an & Sunna)، البعد المكاني والتخطيط العمراني في القرآن الكريم (Place' Location & Architectural Planning In The Holy Qur'an)، المساحة وعلومها في القرآن الكريم

(Surveying In The Holy Qur'an)، الظل والمنظور في القرآن الكريم (Shadow & Perspective In The Holy Qur'an)، الأمن والأمان وأهميتهما في العمران والتطور (Security & Safety In The Holy Qur'an)، الأحمال والقوى والإجهادات في القرآن الكريم (Loads, Weights, Forces & Stresses In The Holy Qur'an & Sunna)، التاريخ العمراني في القرآن الكريم (Architectural History In The Holy Qur'an)، هندسة التصميم الداخلي (Interior Design In The Holy Qur'an)، هندسة التصميم الخارجي (Landscaping & Exterior Design In The Holy Qur'an)، الصورة القرآنية لعمارة الجنة.

كذلك ننتقل في الفصل الثاني، لنبين أثر الفكر العمراني القرآني على خصائص العمارة الإسلامية (The Effect Of The Holy Qur'an On The Islamic Architecture) فنبحث في العمارة الإسلامية وأثرها العالمي (The International Effect Of Islamic Architecture)، الفلسفة الإسلامية للعمارة (The Islamic Architectural Philosophy)، العمارة الإسلامية والبيئة (The Islamic Architectural-Environmental Interaction)، الوقف وعمارته في الإسلام (The Islamic Endowment -Waqf- and its Architecture)، تطور العمارة الإسلامية (The Development Of Islamic Architecture)، الهوية الإسلامية للعمارة المعاصرة (The Modern Islamic Architecture)، تحذيرات الإسلام من البناء الشاقولي (Be Ware Of The High-Rise Buildings).

في الفصل الثالث، نأخذ نماذج في العمارة الإسلامية (Samples Of The Islamic Architectures) مثل المساجد (The Mosques-Al Masjid-)، الهندسة المعمارية النبوية في إنشاء مسجد صنعاء الكبير (The Architecture Of Profit Mohammed - PBUH- In Building The Big Mosque Of Sana'a)، هندسة الخط والزخرفة (Islamic Ornamentation, Embroidery & Fonts Engineering)، تخطيط المدن والمباني الخدمية (City Planning & Service Buildings)، عناصر التصميم الداخلي (The Interior Design Elements)،

وتفاصيل معمارية أخرى (Islamic Architectural Details)، ثم نتطرق إلى شخصيات معمارية إسلامية.

كذلك سنتطرق إلى الفروق بين الفلسفة المعمارية الإسلامية والفلسفات الأخرى، وخصوصاً الصيحات المعمارية الحديثة ـ أي: ما بعد الحداثة ـ كالتفكيكية والطي وغيرها لنجد أننا في طريقنا لإضاعة تراث عظيم يمثل شخصيتنا المعمارية والثقافية تحت مسميات شتى. كما سنرد في بعض فصول الكتاب على المتهجمين على فكرة السبق القرآني للعلوم عموماً والهندسية خصوصاً ونبين لهم بالحجة أنهم خاطئون، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. وأخيراً نصل للاستنتاجات والتوصيات التي توصل إليها الكتاب.

وقد خصصنا ملحقاً خاصاً في نهاية الكتاب هو الملحق (١) يتحدث عن عمارة الحرمين الشريفين عبر التاريخ (Historical Review For The Haramain Architecture)، فيبين الوصف الخارجي للكعبة المشرفة، صفة الكعبة المشرفة من داخلها، تاريخ بناء الكعبة العمراني، موجز المسرد التاريخي لزمزم، المسرد التاريخي لمقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، المسرد التاريخي للمسعى، موجز توسعة وعمارة المسجد الحرام منذ عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى نهاية التوسعة السعودية الأولى عام **١٣٩٦**هـ، وأخيراً المسجد النبوي الشريف وعناصره ومتعلقاته عبر التاريخ لغاية التوسعة السعودية له.

إن منطلقنا ومنهجية بحثنا في هذا الكتاب وبقية كتب هذه السلسلة هو ما بيَّناه في مقدمتها مستنداً لخاصيتي (البشرى) و(السبق) التي وعد الله تعالى بها في كتابه الكريم وبينها المصطفى ـ ﷺ ـ في سنَّته.

نسأل الله التوفيق والسداد والإخلاص والرشاد في النية والقول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الأول

تعاريف ومصطلحات

تعاريف ومصطلحات

العمارة وهندسة العمارة:

العمارة هي كل ما يعمر شيء وينميه، قال الرازي في مختار صحاحه: (عَمَرتُ) الخراب من باب كتب فهو عامر أي (معمور) كماء دافق وعيشة راضية. و(العمارة) أيضاً القبيلة والعشيرة، ومكان (عمير) أي عامر، و(أعمرهُ) داراً أو أرضاً أو إبلاً أعطاه إياها قال: هي لك عمري أو عمرك فإذا مت رجعت إلي والاسم (العمرى)، واعتمره زاره و(اعتمر) في الحج، واعتمر تعمم بالعمامة، وقوله تعالى: ﴿... وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ الآية، أي جعلكم عمارها، (عمّره) الله (تعميراً) طوّل عمره، و(عمار) البيوت سكانها[(١)].

فعمارة الأرض، أي: تنميتها، وعمارة المال تنميته، وهكذا كل ما ينمي الشيء ـ أي: يخالف تدميره، فهو عمارة. وفن العمارة أو الهندسة المعمارية هو الأسلوب والتقنية التي تجعل من عقل الإنسان سبباً في تطوير البناء والعمران بكل صنوفه ليستفاد منه بنو البشر، فهي مسؤولة عن الجانب الفني في الشكل والهيئة بما يؤمن راحة المستخدم لهذا البناء والعمران، ويدخل في هذا التناغم مع البيئة والتراث حسب فلسفة واضحة وفكر شامل لكل مقومات الحضارة والتراث والعادات لتعطي معاني تحول

---

(١) مختار الصحاح، الرازي (ص٤٥٤)، محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م.

الفكرة إلى لوحة منشأة على الأرض... واللفظ الإنكليزي للعمارة هو (Architecture)، وتعني: فن العمارة أو التشييد أو البناء أو المبنى (مباني) أو أسلوب البناء. وكلمة (Architect) هو المهندس المعماري أو المخطط والمنفذ لمشروع ضخم أو عسير[(١)]. (انظر: الشكل ١).

تعتمد الهندسة المعمارية والعمارة عموماً على عوامل عدة وترتكز على جملة من المرتكزات التي تجعلها في خدمة البشر لأجل عمارة هذه الأرض، ومن ذلك:

١ - ثقافة الشعوب وحضاراتها وما تناقلته من إرث ميَّز شخصيتها وسلوك أفرادها مما أثر على البناء وطرزه ومواده.

٢ - إمكانات تلك الأمة في تحويل إرثها وتجسيد ثقافتها وتحويل مرتكزات حضارتها لأرض الواقع، ومن ذلك إمكانيات تحويل الإرث الحضاري العمراني، ويدخل في ذلك الإمكانات المادية والبشرية والعلمية والتقنية.

٣ - البيئة التي عاشتها الأمة فاستنبطت منها وتأثرت بها، وكذلك ما تحويه من مواد مكنت تلك الأمة من استغلالها في البناء والعمران. فضلاً عن محاكاة البيئة ومحاولة التناغم معها حتى يكون التأثير متبادلاً، ولا يصار إلى الاغتراب عن البيئة بإن تبنى البنايات في بيئة ثلجية، كما تبنى في بيئة صحراوية، أو في بيئة جبلية مثل ما هي في بيئة بحرية، وهكذا...

٤ - أثرها وتأثيرها فيمن حولها من الأمم والشعوب والعلاقة التبادلية بين مجموع الشعوب والأمم عبر التاريخ، سواء بالغزوات أو التجارة أو التناقل والتلاقح الثقافي عبر التراجم أو أي نشاط إنساني آخر.

---

(١) قاموس المورد إنكليزي - عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ١٩٦٧، ص٦٠.

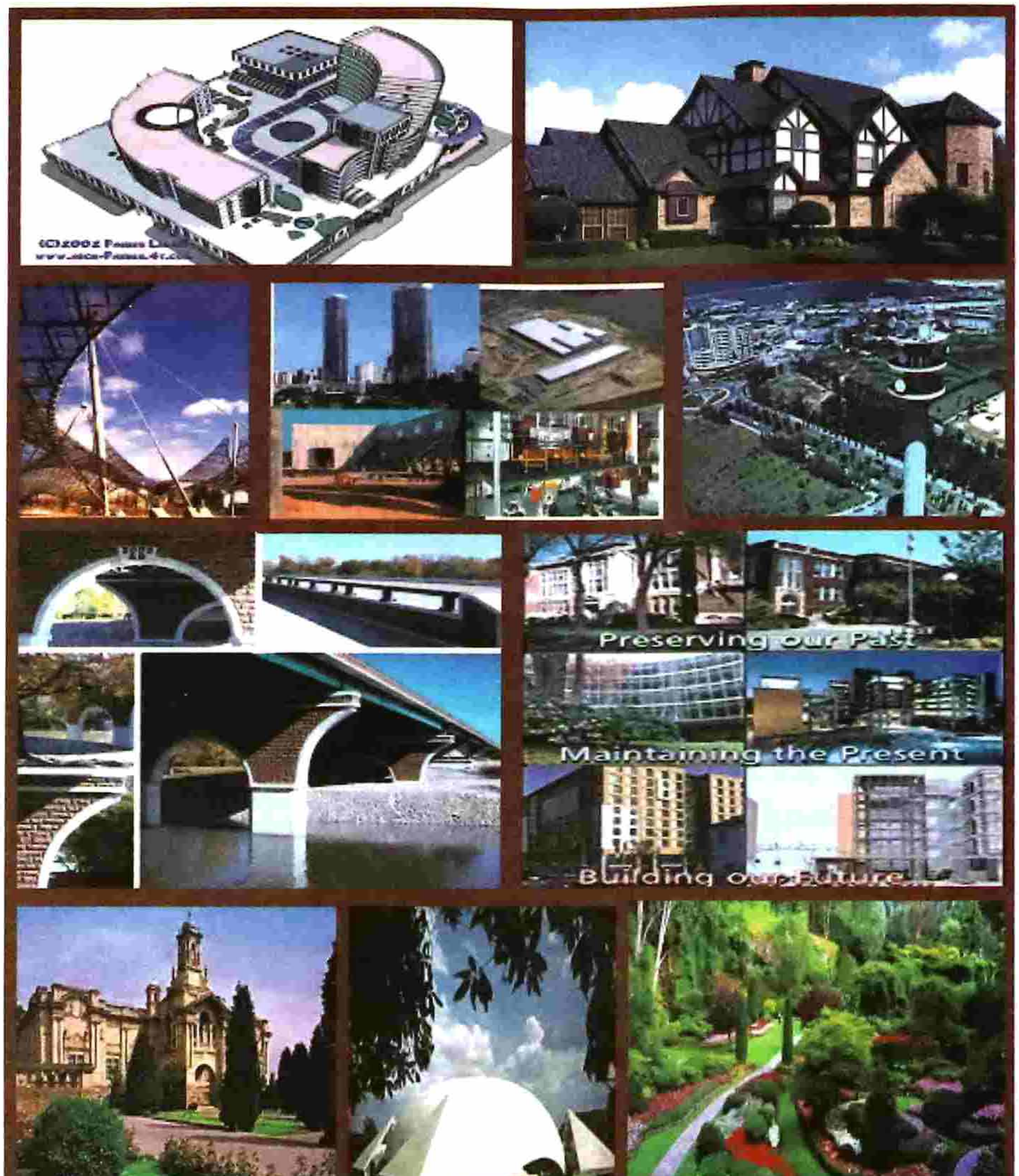
٥ ـ الأحداث التاريخية وتراكم التجارب الحضارية سواء في داخل الأمة الواحدة أو مع بقية الأمم مما أثر على الحس الثقافي للأمة وبالتالي أثر ذلك على نمط البناء والعمران.

وللعمارة وهندستها علاقة متداخلة مع الهندسة الوصفية والتحليلية والرياضيات والمساحة وعلوم المواد والبيئة وكذلك القوى والإجهادات، فضلاً عن علاقتها بأنواع الهندسة الأخرى، وخصوصاً الهندسة المدنية. كما أن هناك علاقة وطيدة بين الفن من جهة والعمارة من جهة أخرى. ففي أي مرحلة من مراحل العصور المختلفة التي مرت على العالم سواء في الشرق أو الغرب، سواء قبل التاريخ أو بعده، فنجد أنه لا يمكن الفصل بين الفن والعمارة، وإذ ما تحدث المؤرخون عن العمارة فيصفونها بأنها عمل إنشائي تكويني، نجد أنهم يطرقون باب الفن فيها، ويتحسسون مواضعه، ويحددون مكانه ومكانته، ويبرزون صور الفنان المختلفة فيها، ويطغون بذلك على العمارة، حتى رأينا أنهم في الماضي وصفوا العمارة بأنها فن، وأطلق عليها قدماء اليونان (أم الفنون)، وكان اليونان على حق في هذه التسمية؛ لأن العمارة كانت في تلك العصور لا تختلف عن النحت أو الرسم، وكان الفن هو المتغلب عليها وأخرجها عن الغرض من كيانها.

ولقد مرت على العمارة عصور وأجيال كثيرة وهي وقف على الحجر والصخر، وعلى المواد التي وجدها الإنسان حوله من الطبيعة، وعرف الإنسان كيف يستغل تلك المواد استغلالاً صحيحاً، فظهرت العقود والقباب والقبوات، وكلها نشأت على أساس علمي إنشائي صحيح، لا على أساس فني. ثم وجَّه الإنسان همه إلى إخفاء تلك الأحجار الصلبة تحت رداء من الزخارف والحليات والكرانيش بطبقات من البياض، فخرجت العمارة من يد المعماري إلى يد الفنان النحات مثل: (مايكل أنجلو ـ رفائيل ـ برنيني ـ سانجالو وغيرهم. . .)، وأخرجت معاولهم تحفاً فنية، ولكنها ليست بمبانٍ سكنية بقدر ما هي نماذج كقطع الأثاث والزينة. . . ينظر إليها الإنسان ويعجب من صنعها كحلية، ويتعجب من كونها بنيت للسكن.

ولما أخرج اليونان العمارة من مثلث الفنون (النحت ـ التصوير ـ العمارة)، وسَمُّوا العمارة بأنها أم الفنون؛ ذلك لأنهم لمسوا بأنفسهم أن العمارة هي التي تكتب تاريخ الفن وتحدد طابعه؛ لأن التصوير والرسم والنحت رهن بوحي الفنان، أما العمارة فهي التي تسخر وحي الفنان المعماري لبناء مطالب الشعب الذي عاصرها، وبذلك جمعت العمارة بين ثقافة العصر وعلومه، واحتياجاته ومطالبه وبين وحي المهندس المعماري وطبعها بطابع الجمال، فجمعت العمارة تحت سيطرتها مجموعة من نواحي الفن المكملة كالنقش والحفر والزخرفة والألوان والإضاءة والأثاث إلى غير ذلك من الفنون الأخرى.

وفي التصنيف العلمي الحديث نجد اختلافاً بين العمارة والهندسة المعمارية، ففي الولايات المتحدة مثلاً، يختلف التخصص في فن العمارة عن الهندسة المعمارية، إذ إن فن العمارة لا يشتمل فقط على دراسة بناء العمارة، بل يكرس الكثير من الأهمية على رسم البناء والنواحي الفنية؛ ويضاف إلى هذه المواضيع دراسة العمارة من الناحية المادية والاجتماعية وناحية البيئة أيضاً. وبالاختصار فإن الذي يتخصص في فن العمارة يأخذ مواد لا تنحصر في فن بناء العمارات أو الهندسة المعمارية، بل أيضاً يأخذ مواد في الوضع الطبيعي والمساحي للبناء بالإضافة إلى استعماله وأهميته الاجتماعية.



الشكل (١): فنون العمارة وهندستها

وفي تقرير لمجلس تقييم فن العمارة الوطني الأمريكي، فإن هناك (٦٠) جامعة تعطي الشهادة الجامعية الأولى في فن العمارة؛ أما عدد سنوات الدراسة للحصول على الشهادة الجامعية الأولى في هذا التخصص فهو (خمس) سنوات مع بعض الاستثناءات؛ وهنا تجدر الملاحظة إلى أن حوالى (١٦) جامعة تدعي بأنها تنوي الاستغناء تدريجياً عن تدريس فن العمارة لمنح الشهادة الجامعية الأولى في هذا التخصص؛ وإنها ستعمل على جعل الدراسة ست سنوات يحصل الطالب بعدها على الشهادة الجامعية الثانية في فن العمارة؛ وهذا يعني أن عدد الجامعات التي ستعطي الشهادة الجامعية الأولى في فن العمارة خلال خمس سنوات سيقل عددها مستقبلا؛ والمتوقع أن خريجي المدارس الثانوية سيلتحقون ببرامج مدتها ست سنوات يحصلون بعدها مباشرةً على الشهادة الجامعية الثانية (Architecture in Master).

فمثلاً تدرِّس جامعة أوكلاهاما برنامجاً في فن العمارة يحصل من ينهيه بنجاح على الشهادة الجامعية الأولى في الدراسات المعمارية التي تسميها هذه الجامعة (Studies Architectural بدلاً من (Architecture). ومدة الدراسة بها أربع سنوات وتشتمل على دروس أساسية في النظرية المعمارية وفي البناء والأمور الميكانيكية؛ وأدوات وأساليب البناء؛ وكذلك تشتمل على العوامل الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بتصميم وبناء العمارات؛ وعند انتهاءُالرابعة لهذا البرنامج يمنح الطالب الشهادة العلمية الأولى في العلوم المعمارية؛ ويكون باستطاعته عندها إذا أحرز تقدماً ملحوظاً متابعة دراسته بنفس الجامعة لمدة سنتين أخريين يحصل بعدها على الشهادة الجامعية الثانية، إما في الهندسة المعمارية أو في فن العمارة(١).

ولكن على العموم، فإن الهندسة المعمارية تشمل تخصصات هندسية عديدة منها ما هو خاص بها كما سنعرف من المساقات أدناه، ومنها ما يدخل في تخصصات أخرى مثل تخصصات الهندسة الإنشائية والتبريد

---

(١) عن موقع فن العمارة (http:/www.geocities.com/big-saber).

والتكييف والأعمال الصحية (MEP: Mechanical-Electrical- Plumbing)).

إن الطابع المعماري ـ أو ما يسمى بالطراز أو النسق المعماري ـ ما هو إلا نتيجة طبيعية لعدة عوامل مشتركة ومتفاعلة مع بعضها مصهورة في بوتقة الانتفاع الكامل للمبنى، وأساليب البناء ومواد الإنشاء، وطبيعة الأقاليم أو المنطقة ثم التقاليد والعادات، هذا بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ومستوى الثروة المحلية[١].

المدارس المعمارية الحديثة:

ولغرض الوقوف على المدارس المعمارية الحديثة التي برزت بعد توسع المجتمعات العالمية خصوصاً بعد الثورة الصناعية الأولى بعد العام ١٧٠٠م، علينا أن نفهم أولاً ماهية بعض المصطلحات الفلسفية المعمارية وعلاقتها ببعضها البعض، ومن ذلك مفهوم الحداثة وما بعدها.

الحداثة وما بعد الحداثة في العمارة:

مرحلة الحداثة (Modernism) في الفن الحديث هي حركة تهدف إلى قطع الصلات بالماضي وإنهاء المرحلة القديمة أو الكلاسيكية، والبحث عن أشكال من التعبير جديدة. أما ما بعد الحداثة (Postmodernism) فهي المرحلة اللاحقة في هذا الاتجاه. يلخص الأستاذ عفيف البهنسي هذا الموضوع في كتابه (من الحداثة إلى ما بعد الحداثة في الفن) بالنقاط التالية:

- **مقومات لغة العمارة والهوية**: في نطاق مفهوم السكن، يتحدث كريستيان نوربوغ شولتز (SCHULZ) عن وظائف إنسانية أساسية، وهي الاتجاه والهوية والذاكرة. ويتضمن «الاتجاه» تنظيم الحيز وأنماط الحركة فيه. أما «الهوية» فهي تعني اختيار الطابع والشكل

---

(١) Standard Handbook of Architectural Engineering, Robert Brown Butler, McGraw-Hill Professional; 1st. edition (1998).. p: v, Introduction.

المعماري المنسجم مع البيئة والإنسان. . . والمقصود «بالذاكرة»، الذاكرة التاريخية والقومية التي تحدد الهوية المعمارية شكلاً وإبداعاً. ومن المؤكد أن العمارة تتبع الوظيفة كما يقول المعماري سوليفان، ولكن شولتز يتحدث عن أبعاد وظائفية للغة العمارة، هي البعد المكاني (TOPOLOGY)، والبعد التكويني أو التركيب الشكلي (MORPHOLOGY)، والبعد التطبيقي الذي يحدد النوعية التشخيصية (TIPOLOGY).

وليس السكن منشأة في فراغ اجتماعي، بل هو خلية عمرانية اجتماعية، يحقق أهدافاً ثلاثة غير هدف السكن، هي «اللقاء» مع الآخرين، «والتوافق» بينهم، وتحقيق التفرد «والسكينة». إن ما يسمى «النموذج الأصلي» (ARCHETYPE) يعني وجود أشكال معمارية أساسية ذات مصطلحات وتسميات تميزها. وإذا تركنا العناصر المجردة الثابتة مثل: (جدار وأرض وسطح)، فإن ثمة مصطلحات تخص العناصر التكوينية (المورفولوجية) مثل: (كرة ومكعب وأسطوانة ومخروط وهرم. . .) وهي مصطلحات تشكيلية مجردة. أما المصطلحات التي تخص الوظيفة (بيت، معبد) أو تخص النماذج الأصلية (ARCHETYPE)، فإنها ليست شكلاً واحداً، بل تتجلى مختلفة باختلاف المكان والزمان، وهذا ما يسمى بالملامح المعمارية التي تحددها الحياة الراهنة والذاكرة التاريخية. ولغة العمارة هي لغة الذاكرة كما يقول هيدغر.

ولكن لغة العمارة هي واسطة تتحقق فيها العمارة، وهي متجذرة في العالم وليست لغة مبتكرة، ونماذجها الأصلية «معطاة مرة واحدة وإلى الأبد». ويقول شولتز: «يتطلب عصرنا المنفتح لغة معمارية جديدة نختارها من بين النماذج الأصلية، ثم «نؤولها» بحرية اعتماداً على ذكرياتنا المتنوعة. والتأويل يعني الكشف عن علاقات خفية أكثر مما يعني اختراعاً حراً.

- **الحداثة والثورة المعمارية**: عند الحديث عن العمارة الحديثة، فإن المناخ الذي يجب أن نتحدث فيه هو المناخ الثوري الذي يهدف

إلى تغيير مفهوم العمارة تغييراً شاملاً، والعمارة (القبلية)، أي: التي انتشرت زمناً طويلاً قبل الحداثة ـ منذ العمارة الإغريقية مروراً بعصر النهضة وحتى الكلاسيكية المحدثة ـ هذه العمارة قد استوعبت مبدأين أساسيين، المبدأ الأول: هو النموذج الأصلي (ARCHETYPE)، والمبدأ الثاني: الصورة المتكاملة أو الغشتالت (GESTALT).

وتتجلى العمارة حسب شولتز في محاولة التأويل أو الربط والتركيب، أو ما يسمى بالتأليف فيقول: «وهكذا فإن النموذج الأصلي كصورة كلية متكاملة (غشتالت)، يكشف عن طريقة أساسية للوجود بين الأرض والسماء»، وهذا التأليف يحقق بالتالي وظيفة البناء المطروحة ضمن زمان ومكان محددين. ولكن العمارة بدت جامدة عند حدود النموذج الأصلي المكرور في عمارة عصر النهضة والكلاسيكية المحدثة التي قادتها مدرسة الفنون الجميلة بباريس.

منذ نهاية القرن الماضي حاول سوليفان إنقاذ العمارة من الشكل الثابت المكرر وربطها بالوظيفة، بمعنى أنه ليس من شكل ثابت للعمارة طالما أنه ليس من وظيفة واحدة للعمارة. ولقد تابع المعماريون الأمريكيون والألمان هذا المبدأ، وكان المعماري الألماني ميس فان در روه (ROHE VAN DER) (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩) قد استخلص من هذا المبدأ بقوله: «إن على العمارة أن تخضع للحياة وأن تخدمها، وليس عليها أن تفرض فرضاً على الإنسان والمجتمع»، فكانت بداية الحداثة.

وتعني هذه الآراء تحولاً كاملاً عن العمارة السابقة، بل رفضاً لجميع مقوماتها الثابتة والمفروضة على الإنسان والمدينة والحضارة، ولهذا كانت دعوة للثورة التي تحققت فعلاً وبسرعة خارقة، بفضل مفاهيم العصر الجديد، عصر العولمة والتقنيات وثورة المواد والكهرباء. ولقد رفض جروبيوس (GRPIUS) زعيم مدرسة الباوهاوس والحداثة المعمارية فكرة النموذج الأصلي والطراز وقال: «لا بد أن نقطع كل صلة مع الماضي

حتى يتسنى لنا تصور عمارة تنسجم مع عصر التقنيات»، وهكذا ظهرت العمارة التي تنسجم مع عالم موحد في صناعته واكتشافاته، وكان بناء الحديد والفولاذ مظهراً مميزاً لهذه العمارة التي أطلق عليها اسم العالمية.

لقد تجلت مفاهيم الحداثة المعمارية في المعرض الذى أقيم في أكاديمية الفنون الملكية بلندن سنة **١٩٨٦**، تحت عنوان: «تراث الحداثة»، بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على ولادة لوكوربوزييه (LE CORBUSIER) المعماري الفرنسي السويسري (**١٨٨٧ ـ ١٩٦٥**). وفي هذا المعرض عرضت نماذج لثلاثة من رواد الحداثة، هم: نورمان فرستر (FOSTER) مصمم عمارة بنك هونغ كونغ الذي وصل الذروة في استغلال التقنيات الحديثة. وريتشارد روجر (ROGERS) المشارك مع بيانو (PIANO) في تصميم بناء مركز بومبيدو في باريس، وجيمس سترلينغ (STIRLING) مصمم متحف شتات غاليري في شتوتغارت ـ ألمانيا.

- **نقد الحداثة المعمارية**: لقد انفصلت الحداثة المعمارية نهائياً عن لغة العمارة، هذه اللغة التاريخية التي عبرت عن الإنسان الذى أنشأ العمارة من أجله. وبقيت عمارة الحداثة بدون لغة وبدون هوية» لأن اللغة هي المعبر عن الهوية» كما يقول هيدغر الفيلسوف الألماني، وليس بإمكاننا اعتماد عمارة لاهوية لها ولا تساعد الإنسان على العيش في بيئته التاريخية والاجتماعية. لقد كانت العمارة تعبر عن مفهوم قومي، ثم أصبحت اعتباطية فاقدة الشخصية، فالعمارة كما يقول هيدغر هي: «بيت الوجود». «الزاين». ومع أن العمارة هي خلية عمرانية، فإنها أصبحت في عالم الحداثة بعيدة عن شروطها التي تحدثنا عنها «اللقاء والتوافق والسكينة». ولقد تجاهلت عمارة الحداثة هوية التشخيص (FIGURAL IDENTITY) إذ أصبحت الأشكال كما يقول فان در روه، نتيجة عملية التصميم والابتكار.

إن إهمال لغة الذاكرة التاريخية في الحداثة المعمارية، دفع المعمار إلى التعويض عن التاريخ بالحوافز الصناعية، فأصبحت الحداثة مجرد

هواية ومغامرة اعتباطية. واعتقدت الحداثة أنها انتصرت عندما تبنت الرأي القائل بـ: «إن جميع المشاكل المعمارية قابلة للحل عن طريق الحداثة»، وإنه ليس من قلق إذا ما نحن تخلينا عن التاريخ الجمالي للعمارة. ولا يرى روجرز نفسه هذا القول صحيحاً بل يعتقد أن «شعارات الحداثة أصبحت دوغماتية عقائدية، وما هي إلا تبرير للتدهور الاقتصادي الذي تحاول الحداثة إنقاذه»، ويضيف: «كانت الحداثة تحوي عوامل ضعفٍ قاتلة، كما كانت تحتوي على إمكانيات عالية»، ويتفق عدد كبير من المعماريين على مهاجمة الحداثة لنزعتها النخبوية واتجاهها في تدمير المدينة على الرغم أنهم من ممثلي الحداثة. ويقول جنكز: إن الحداثة تنكرت لمقوماتها، الإخلاص للمواد والاتساق المنطقي والاستقامة والبساطة مما أعلنه لوكوربوزييه وفان در روه.

- **ما بعد الحداثة المعمارية**: لم يكن جنكز أول من أعلن عن نهاية الحداثة، ولكن كتابه: «عمارة ما بعد الحداثة» حدد تاريخ نهايتها معلناً عن قيام عمارة ما بعد الحداثة. وعلى الرغم من معارضة كثير من المعماريين لفكرة نهاية الحداثة، فإن دعوة جنكز قد لامست عواطف الناس الذين باتوا يبحثون ـ دون جدوى ـ عن ذواتهم الثقافية من خلال العمارة. ولقد أسهم ستيرلينغ قليلاً في دعم هذه الدعوى وحدد مفهوم ما بعد الحداثة بقوله: «نستطيع التطلع إلى الوراء حيث تاريخ العمارة لنجعله خلفية لنا»، ولكن قوله هذا لا يصل إلى حدود رفض الحداثة، بل إلى الاتفاق معها وذلك عن «طريق استعمال عناصر «موتيفات» من العمارة القديمة.

لقد استعمل اصطلاح «ما بعد الحداثة» لأول مرة سنة **١٩٣٤**، للدلالة على مظاهر رد الفعل ضد الحداثة، ثم استعملها المؤرخ توينبي سنة **١٩٣٨**، للإشارة إلى العولمة والتعددية الثقافية التي لا بد من ظهورها حسب طبيعة الدور التاريخي. ثم تكاثر عدد الكتاب الذين تحدثوا عن بعد الحداثة، واختلفت آراؤهم، حتى ظهر جنكز محاولاً تحديد معنى ما بعد الحداثة منتقداً ما كتبه إيهاب حسن وليوتارد (LYOTARD) حول اسم ما

بعد الحداثة من أنه استمرار لاسم الحداثة مع التعالي عليها. ويعرِّف جنكز عمارة ما بعد الحداثة: «إنها تتجه نحو أسلوب البناء التقليدي لخلق تواصل بين العمارة والجمهور العام والنخبة المهتمة بموضوع العمارة».

وهكذا، فإن عمارة ما بعد الحداثة تجمع بين القديم والحديث، وبمعنى آخر، فإن هذا الاتجاه لا يمكن أن يكون مجرد إحياء للقديم، لأن عالم التقنيات معاش على أوسع نطاق. ولكن من القديم نستطيع أن نحقق خيارات متعددة، هذه التعددية (PLURALITY) هي من ميزات عمارة ما بعد الحداثة التي تجعلها متجددة، متنوعة حسب الثقافات الذوقية. ولم يقتصر موضوع بعد الحداثة على العمارة فقط عند جنكز، بل تعداه للحديث عن عمران بعد الحداثة (URBANISM) خاصة في منطقة عمارة بعد الحداثة، ويتحدث في ذلك عن ثلاثة شواهد تحقق فيها عمران بعد الحداثة خلال الثمانينيات، نفذها ستيرلينغ في جامعة كورنيل، وكوروكاوا الياباني في متحف هيروشيما، وبيريدوك (PREDOCK) في مركز الفن الحديث في جامعة ولاية أريزونا.

عمران هذه الشواهد محدود في منطقة صغيرة، ولكن عندما يصبح عمران مدينة كاملة، فإن الأمر سيصبح مبرراً عندما تنطلق العمارة في مجال التعددية، هذه التعددية التي تتجلى أيضاً في أجناس الناس وفي أزيائهم وتنوع تنميق واجهات محلاتهم التجارية. وتتمثل عمارة ما بعد الحداثة في اتجاهين رئيسيين يمثلهما ستيرلنغ (STIRLING) وكرير (KRIER)، فالأول نراه يستخدم الأشكال البسيطة التقليدية والكلاسيكية، ويضمنها أحياناً إفريزاً مصرياً، ويستفيد من المعابد الإغريقية مثل البارثنون، ويستعير من الفن الأندلسي الأقواس المفصصة مع تحريفات تفرضها المواد الحديثة، مثل: الإسمنت المسلح والتقنيات[١].

---

(١) عن كتاب (من الحداثة إلى ما بعد الحداثة في الفن) - عفيف البهنسي - دار الكتاب العربي- دمشق- ط١-١٩٩٧، (ص١٠٥-١١١).

تعرِّف الموسوعة البريطانية الفلسفة التفكيكية بما يأتي: (أصل التفكيكية (Deconstruction)، مدرسة أو حركة للنقد الأدبي أسست من قبل الفرنسي جاكيوس ديريدا (Jacques Derrida) في ستينيات القرن العشرين الميلادي، وهي ثورة فكرية أدبية في العالم الغربي غيرت مفاهيم كثيرة كما فعلت مفاهيم كارل ماركوس السياسية وسيغموند فرويد النفسية. واستراتيجيتها أخذت من عشوائية واعتباطية فيرديناند دي سوازرز، وأسست بذلك لها دور مهم في مرحلة الأدبيات الفنية والمعمارية بما يعرف «ما بعد الحداثة (Postmodernism)»، ولا تزال هذه الفلسفة مثيرة للجدل... وهذه الفلسفة تهتم بتساؤلات عديدة تتعلق باتجاهات معاكسة للدين مثل السبب والتأثير والوجود واللاوجود لغرض تهديم هذه الأفكار وبناء أفكار معاكسة لها، فهي تقوض الأفكار العقلانية (Logocentrism) في الفلسفات الأخرى ومنها الدينية التي تعني بالكلمة والأخلاق كالصدق والكرامة، إلا أنها تعني بالسببية والنسبية... وبالنسبة للمدارس العالمية (الغربية بالذات) فهي تعتبر مدرسة منطقية بعد مرحلة ما بعد النقد، وقد لاقت قبولاً كبيراً في الولايات المتحدة خصوصاً في جامعة يال (Yale University)، وبالذات من بول دي مان وهيليز ميلر وآخرين ممن أخذوا منحًى آخر فيها مثل جيوفري هارتمان، كاثرين بيلزي، هارولد بلوم، أيجينو دوناتو، شوشانا فيلمان، مايكل فوكالت، بربارا جونسون، إدوارد سايد، جوناثان كولار، وجايا تري سبايفاك)[١].

هناك ما يعرف ضمن مفهوم ما بعد الحداثة في الهندسة المعمارية بالتفكيكية (Deconstruction)، وتعتبر واحدة من أحدث الصيحات في الفلسفات المعمارية التي جاءت بعد الكلاسيكية، الحداثة وما بعد الحداثة... هذه الفلسفة المعمارية والفنية تدخل ضمن مفهوم العولمة

---

(١) الموسوعة البريطانية - بريتانيكا - (Britanica) الصادرة عن دائرة المعارف البريطانية، النسخة الإلكترونية، عام ١٩٩٩م، موضوع التفكيكية.

الهندسية والفنية والثقافية، ففي هذه الفلسفة الجديدة رؤيا واضحة لإذابة وصهر كل لمحة تاريخية أو تراثية أو كل فلسفة تخص البلدان والحضارات وعلى رأسها الحضارة الإسلامية، من أجل أن يقطعوا كل صلة بيننا وبين تاريخنا ويسلبوا هذه الهوية الرائعة والانتساب المشرف ويحوِّلوا اتجاه تفكيرنا صوب ما يسمى بالتقدمية والحضارة الحديثة والجمالية في الفن الحديث، وغير ذلك مما ابتدعوا بهرجه لجعل عيوننا شاخصة باتجاهه فاتبعناه ـ مع الأسف ـ وانجرفنا وراء موجاته دون تفكر أو تمحيص أو تأمل.

يعتبر المعماري الأمريكي (ايزنمان) رائد التفكيكية المعمارية وهي الصورة الهندسية للفلسفة التفكيكية الأصلية، وفكرتها تعتمد على تهشم الشكل الهندسي تصميماً وإنشاءً. وجاءت بدايات تطبيقاتها في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين الميلادي لتلغي الأفكار المعمارية السابقة (الحداثة، وما بعد الحداثة) التي ظهرت في الستينيات والسبعينيات، وفي نهاية التسعينيات وبداية القرن الجديد هناك صيحة جديدة أو (صورة جديدة) هي عمارة الطي (Folded Architect) لتطوي صفحة التفكيكية وتقوي فكرة التهديم للتراث والانسلاخ من الارتباط بالماضي. ثم لحقتها أفكار أخرى ولا تزال الأفكار تقدح تنصب في غالبيتها على الاهتمام بالمظهر دون الجوهر، والبذخ والمبالغة دون التوازن والتبسيط، وإقحام تقنيات المواد والآلة دون البساطة والتيسير، ورفع الكلفة دون مراعاة مقدرة ٩٠٪ من سكان العالم البسطاء.

والأغرب من كل هذا، ذاك السباق المحموم لسلخ الأمم عن ماضيها وسلبها مميزات معمارها بحجة التحديث والتقدم العمراني، ومن يدري ما سيتبعها من صيحات تبعدنا أكثر فأكثر عن تراثنا الرائع تحت عناوين وأسماء شتى، وشعارات تدخل ضمن المفهوم العام للعولمة، ومنها: حرية الفكر والانطلاق بآفاق فكرية أوسع للبشرية! وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ عندما قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً**

بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[(١)].

ما تدرِّسه الهندسة المعمارية:

نبين في هذه الفقرة أهم العلوم والتخصصات والمساقات التي تدرِّسها جامعاتنا ومعاهدنا اليوم في هذه الهندسة كي نتدبر عظمة سبق آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تلك العلوم والتخصصات وإن اختلفت التسميات والاصطلاحات.

تدرِّس الهندسة المعمارية علوماً شتى وتنقسم أقسامها إلى أقسام عديدة يمكن تصنيفها بعدة أصناف وأشكال، منها مثلاً: قسم التخطيط والبيئة، ويضم: شعبة تخطيط المدن، شعبة التنظيم العمراني، وشعبة البيئة. ثم قسم التصميم المعماري، ويضم: شعبة المنشآت السكنية، شعبة المنشآت العامة، وشعبة العمارة الداخلية والفنون المساعدة. ويمكن كذلك إجمال العلوم التي تدرِّسها الهندسة المعمارية في عصرنا المتقدم بما يلي[(٢)(٣)]:

١ ـ عناصر العمارة والرسم الهندسي.

٢ ـ الرسم النظري والنماذج.

٣ ـ الرياضيات والميكانيك والتوازن.

---

(١) أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء **٣٤٥٦**)، مسلم (العلم **٢٦٦٩**)، أحمد (باقي مسند المكثرين **١١٣٩١**، **١١٤٣٣**، **١١٤٨٧**)، انظر: المصادر. وانظر أيضاً كتاب: (المنهاج)، للشيخ هاشم محمد، ج/**٢**، ص**١١٢**. وانظر كذلك كتابنا: (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ص **٥١- ٥٢**.

(٢) جميع المساقات والحصص التدريسية مأخوذة من أرصن وأجود المعاهد المتخصصة في العالم وعبر الشبكة العالمية الإنترنت. وانظر: كتاب الهندسة الوصفية، العبيد - سلوم، جامعة البعث، دمشق- سوريا، **١٩٩٩**م.

(٣) Standard Handbook of Architectural Engineering, Robert Brown Butler, McGraw-Hill Professional; 1st. edition (1998).

٤ ـ الهندسة الوصفية.

٥ ـ التصميم المعماري ونظرياته.

٦ ـ الظل والمنظور.

٧ ـ الإنشاء المعماري.

٨ ـ مواد البناء.

٩ ـ تاريخ العمارة وعمارة الحضارات القديمة.

١٠ ـ التصميمات التنفيذية.

١١ ـ حساب الإنشاءات.

١٢ ـ نظريات العمارة ونظريات الإنشاء.

١٣ ـ علم الاجتماع العمراني.

١٤ ـ التخطيط العمراني وتخطيط المدن.

١٥ ـ تصميم فراغات خارجية.

١٦ ـ العمارة الداخلية وتصميم الفراغات الداخلية ـ أو كما يعرف بالتصميم الداخلي ـ.

١٧ ـ طرق وعمليات التصميم.

١٨ ـ العمارة الإسلامية المعاصرة.

١٩ ـ علوم بناء.

٢٠ ـ علوم أحكام.

٢١ ـ علوم البيئة.

٢٢ ـ البناء والتشييد.

٢٣ ـ إدارة التشييد.

٢٤ ـ تنسيق المواقع.

٢٥ ـ اقتصاديات البناء.

٢٦ ـ الإسكان.

٢٧ ـ التشريع العقاري.

٢٨ ـ الكميات والمواصفات وتنظيم المشروعات واقتصادها.

٢٩ ـ خواص المواد.

٣٠ ـ مقاومة المواد.

٣١ ـ البيتون المسلح.

٣٢ ـ المساحة.

٣٣ ـ الخدمات ونظمها، مثل: التمديدات الكهربائية، الإنارة، الصوت، التدفئة والتكييف.

٣٤ ـ الهندسة الصحية والبلديات.

٣٥ ـ الورش المهنية.

وتتعلق هذه التقسيمات والعلوم بتفاصيل كثيرة، منها:

- مواد البناء (الخصائص المشتركة، المواد الإنشائية وغير الإنشائية)، قوة المواد (الخواص الديناميكية والأداء تحت الأحمال)، مادة الحديد (الخواص الطبيعية والفيزيائية، التصنيفات والأنواع)، مادة الخرسانة(عناصرها ومكوناتها، الخواص الطبيعية، نسبة الخلط والإضافات)، الخشب (التصنيف والنوعيات، الخواص الطبيعية، مراحل القطع والتصنيع)، مواد العزل (حراري، مائي، صوتي)، مواد التشطيبات الأساسية والتكسيات الداخلية (اللياسات، الدهانات)، مواد التشطيبات الأساسية للواجهات الخا رجية (الرخام، مواد، الأرضيات الداخلية والخارجية).

- دراسة تاريخ العمارة، مثل: العمران القديم كعمارة ما قبل التاريخ (البحث عن المأوى، الكهوف والمغارات، بناء المساكن)، ثم

تحليل العمائر التاريخية المختلفة (المصرية القديمة، غرب آسيا، الإغريقية، الرومانية، الصينية وغيرها...) من حيث العوامل المختلفة التي أثرت عليها (المواقع، المناخ، الدين)، والملامح الأساسية المميزة لكل منها الوظيفة، الإنشاء، الجمال، الاقتصاد. كذلك دراسة العمارة الإسلامية وأثرها في العالم، وتطور العمارة الإسلامية منذ نشأتها وتكاملها، ثم عمارة عصر النهضة في إيطاليا مع التركيز على أعمال المعماريين المشاهير، كما تتطرق الدراسة إلى أفكار عصر «البارك» والمبالغة في الزخارف وقصور الملوك والأمراء، ثم تأثير الثروة الصناعية على العمارة واتجاهات الفكر المعماري في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وصولاً لظهور العمارة الحديثة في الغرب، وظهور عدة اتجاهات مختلفة لإحياء العمارة الإسلامية. وأخيراً دراسة مبادىء عمارة النصف الأول من القرن العشرين من خلال أعمال معمار من الجيل الأول (فرانك لويدرايت، والتر جروبيوس وميس فان درروه ولوكوربزييه) ثم تطوير استخدام الخرسانة المسلحة في العالم وأعمال معماريي الجيل الثاني (لوي كاهن ومارسل بروير وفيليب جونسون وأوسكار نيماير وأ لفار ألتر وجيمس استرلنج)، ثم معماريي الجيل الثالث الذين أخذوا يفكرون في تغيير العمارة مع الزمن واقتراح المباني العملاقة والوحدات الكبسولية مع تركيز على أفكار مجموعة الارشيجرام الإنجليزية ومجموعة الميتابولزم اليابانية.

- دراسة طرق الإسقاط المختلفة لمعرفة العلاقة بين النقطة والخط والمستوى في الفراغ، ورسم المناظر الأساسية ومعرفة طرق الإسقاط الثلاثية والمساعدة، ودراسة نفاذ النقطة والخط وتقاطع المستويات وإيجاد علاقة التعامد بين الخط والمستوى فراغياً، إضافة إلى دراسة فرد وتقاطع الأجسام والأشكال اللولبية والتعبير عن ذلك بالرسم.
- دور الحرف المهنية في تشكيل التصميمات الداخلية والخارجية

للمباني، الجبس وطرق تحضيره (تشكيل بالحفر على الجبس ومجسمات بالجبس)، الخشب وكيفية الممارسة عملياً (تشكيل بالحفر على الخشب، تشكيل بالحرق على الخشب) الزجاج المعشق الملون وكيفية تصميم وإنتاج عمل تشكيلي، الحروف الزخرفية على المعادن (عمل تشكيل جمالي أو كتابي على لوحة معدنية) المقدمة، الجوانب الرياضية، الرموز. وكذلك التعريف بدور الحرف والمهارات ذات العلاقات بالعمارة، طرق البناء بكافة أنواع الكتل البنائية كالطابوق والحجر وغيرها، طرق البناء بكافة أنواع الحجارة والأعمال الخرسانية، النجارة، أعمال الحدادة والتسليح، التركيبات الكهربائية، التركيبات الصحية، أعمال التشطيبات أو الدهانات.

- العلوم الأساسية للمعماريين مثل الميكانيكا (الكميات الفيزيائية، الوحدات)، خواص المادة (تعريف المرونة، الإجهاد)، قوانين الموائع، الصوت (أنواع الموجات وسرعتها، مصادر الصوت) الكهرباء (الشحنات الكهربائية، المواصلات)، الحرارة (درجة الحرارة وأنواع الترمومترات التي نستخدمها في قياسها)، الضوء (مصادر الضوء، خصائص الضوء...). كذلك العلوم الرياضية مثل: التفاضل (الإحداثيات، ميل ومعادلة الخط المستقيم، ميل المنحنى، مشتقة الدالة، قوانين المشتقات...)، التكامل (المحدود والغير محدود، تكامل الدوال المثلثية، المساحة تحت المنحنى...)، الهندسة التحليلية (الإحداثيات «الكارتيزية» والأسطوانية والكروية، الدائرية...).

- تحديد متطلبات واحتياجات المبنى والعوامل المؤثرة في ذلك، تحليل مكونات المبنى المعمارية والإنشائية، التعريف بطرق الإنشاء المختلفة ومواد البناء المستخدمة وإنشاء المباني الهيكلية من الخرسانة المسلحة بأنواعها والمختلفة والمباني الهيكلية من المنشآت الحديدية، ودراسة فواصل التمدد والهبوط في المباني.

- دراسة وتحليل عناصر الحركة الرأسية في المباني من السلالم والمنحدرات بأنواعها وأشكالها المختلفة الداخلية والخارجية وطرق تصميمها وحسابها وتنفيذها وتفاصيلها المعمارية ومواد بنائها، والتعرف على كيفية العزل الحراري وامتصاص الصوت بالجدران.

- دراسة أسس التصميم المعماري والعوامل المؤثرة عليه (مادية، فيزيائية، إنسانية)، ومبادئ التكوين المعماري (الوحدة، التنوع، النسب)، وتحليل المباني إلى عناصرها (الارتفاع، الاتصال والحركة، الخدمة)، والشروط الواجب توفرها في المباني (منفعة، متانة، جمال)، والمعايير التصميمية لأنواع المباني المختلفة (سكنية، عمل، مواصلات).

- التعريف بالإسكان وإيضاح الفرق بين المساكن والإسكان والسكن الملائم ومشكلة الإسكان والحلول المناسبة وأنواع الإسكان والاحتياجات الحالية والمستقبلية ودور الحكومة في الإسكان، والجانب الجماعي في الإسكان، المجاورة السكنية وموقع اتساعها، والفكرة من التصميم وتطبيقاتها المعمارية والعوامل المؤثرة على الوحدة السكنية المجاورة والتعريف بأهمية المسكن العائلي ومكوناته (مكان إيواء الزوجين، مبيت الأطفال، مكان الاستقبال، المرافق).

- علوم المساحة وقياسات بالشريط وتعديلها على المستوى الأفقي والمائل، رفع نقاط وتسويات، تسوية بروفيل ورسم بروفيل، واستخدام جهاز الثيودولايت في القياسات الخطية المستقيمة وذات الزوايا، المسح السطحي (خطوط الكنتور، الشبكية، مسح مبنى قائم في الطبيعة، تطبيقات ميدانية).

- دراسة المفردات الإنشائية وطرق تصنيعها مثل الأبواب ومعرفة أنواعها وأقسامها المختلفة والنماذج المتعددة لها ودراسة تفاصيلها المعمارية وطرق تجميعها وتنفيذها ومواصفاتها والمواد المستخدمة في ذلك، ودارسة الشبابيك وطرق تصنيفها وتجميعها وتنفيذ المواد

المستخدمة في ذلك، ودراسة تفاصيلها المعمارية والإنشائية ونماذجها المختلفة، ودراسة العزل الحراري والحماية من الرطوبة بالسقف الأخير بالمبنى وأرضيات الدور الأرضي والتعرف على طرق وتنفيذ وتشطيب الأرضيات داخلياً وخارجياً والأسقف المستعارة.

- تعريف التخطيط العام الحضري (من خلال المنظور الجغرافي والاقتصادي والهندسي والجيولوجي والاجتماعي والإداري) تاريخ تطوُّر التخطيط الحضري (الفرعوني، الإغريقي، الروماني)، وكذلك التخطيط الاقتصادي (أهدافه ومراحله)، التخطيط العمراني (أهدافه ومراحله).

- الأقاليم المناخية المختلفة للعالم وخصائصها، (العوامل البيئية المؤثرة على التصميم، أشعة الشمس)، (العوامل التي تتحكم في تحديد قوة تأثير أشعتها، طرق الحماية من أشعة الشمس)، الحرارة وتأثيرها على المبنى (العوامل المؤثرة في درجات الحرارة، الانتقال الحراري)، التهوية وتأثيرها (تأثير التهوية على درجة حرارة الأسطح الداخلية والخارجية، الاعتبارات التي تخضع لها عملية التوجيه، توجيه المباني في المناطق الحارة الجافة) الطرق التقليدية للمعالجة المناخية للمباني في المناطق الحارة الرطبة، المعالجة السلبية للطاقة (الجدران المزدوجة، الأسقف المزدوجة، ملاقف الهواء، كاسرات الشمس، المباني تحت الأرض)، الإضاءة الطبيعية ومميزاتها (الأشكال المختلفة للإضاءة الطبيعية في الأماكن الحارة)، توصيات عامة للاماكن الحارة الجافة من حيث (التخطيط العمراني، أشكال المباني، التوجية، مواد البناء). وكذلك الصرف الصحي، تكييف الهواء، دواعي استخدام التكييف، خواص خليط الهواء وبخار الماء، الصوتيات وغير ذلك من منظومات الخدمات العامة والخاصة.

- تعريف الفراغ الداخلي وعناصر وطرق تحديده بالعناصر الأفقية والرأسية، خصائص الفراغات الداخلية، متطلبات الفراغ الداخلي، تصنيف الفراغات الداخلية، خصائص الفراغات الداخلية عبر العصور المختلفة.
- المبادىء الأساسية لتخطيط وتصميم المواقع البيئية العمرانية والمعمارية، مراحل التصميم المختلفة، التنسيق المعماري، التخطيط والتصميم للفراغات الخارجية.
- الطرق الهندسية لتحليل واختيار الموقع والفكرة التصميمية لإنشاء الساحات العمرانية، التخطيط والتصميم للفراغات الخارجية لمختلف المنشآت.

الفصل الثاني

العمارة والهندسة المعمارية
في القرآن والسُّنة النبوية

العمارة والهندسة المعمارية في القرآن والسُّنة النبوية

مدخل

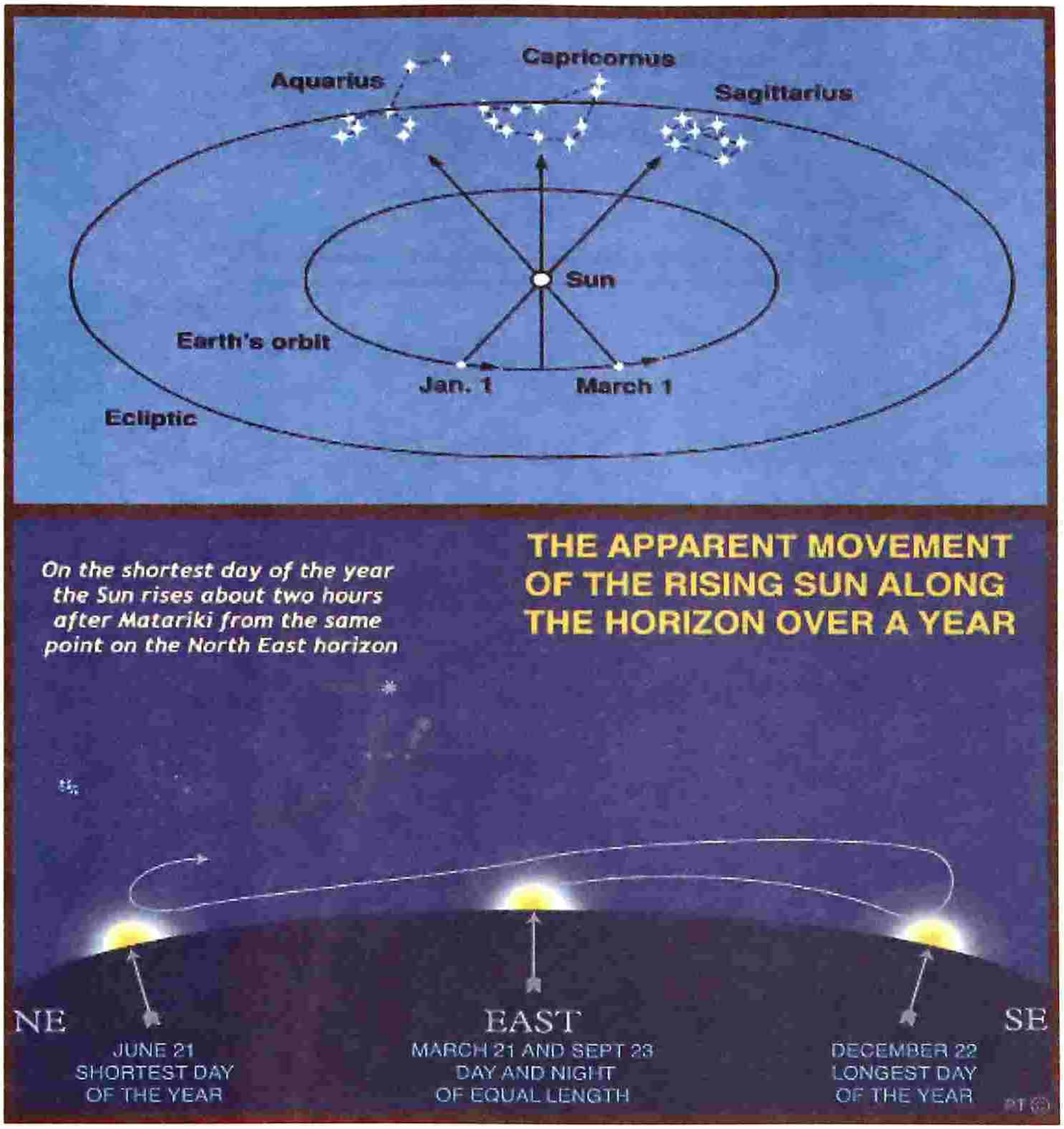
في موضوع السبق والإعجاز القرآني في الهندسة المعمارية سنقف عند تفاصيل كثيرة نحاول أن نتدبرها خلال هذا الفصل. إذ لا يخفى على أحد أن الهندسة المعمارية تدخل في فلسفة الكون والنظرة الفنية والجمالية له، وكل ما يتعلق بربط الظواهر الكونية مع نفسية البشر وكيفية قولبة ذلك كله لفائدة الإنسان. وعليه، فإن البيئة بما تحويه من مكان وريح وشمس وغير ذلك كلها تدخل ضمن هذه الفلسفة.

وإذا ما نظرنا إلى آيات القرآن الكريم من هذا المنظار فإننا سنجد كوناً مقروءاً يتناغم مع الكون المنظور. فهلموا بنا إخوتي الأكارم لنتفحص ما ذكر من سبق عجيب في القرآن الكريم في هذا النوع من الهندسة لنجد أنفسنا أمام حقيقة رائعة ساطعة، وهي أن كل ما قسمته فهرستنا الحاضرة من علوم وتفاصيل في العمارة وهندستها كان قد سبق بها القرآن الكريم بل أكثر من ذلك، فلنبحر معاً في آيات الله البينات المتعلقة بالهندسة المعمارية ونرى كم من الخير والعظمة أعطانا الله إياها في كتابه الكريم مما يجعلنا في غنى عن تفكيكيتهم الجوفاء هذه.

أولاً: أهمية الاتجاهات الأربعة ومسارات الرياح في القرآن الكريم:

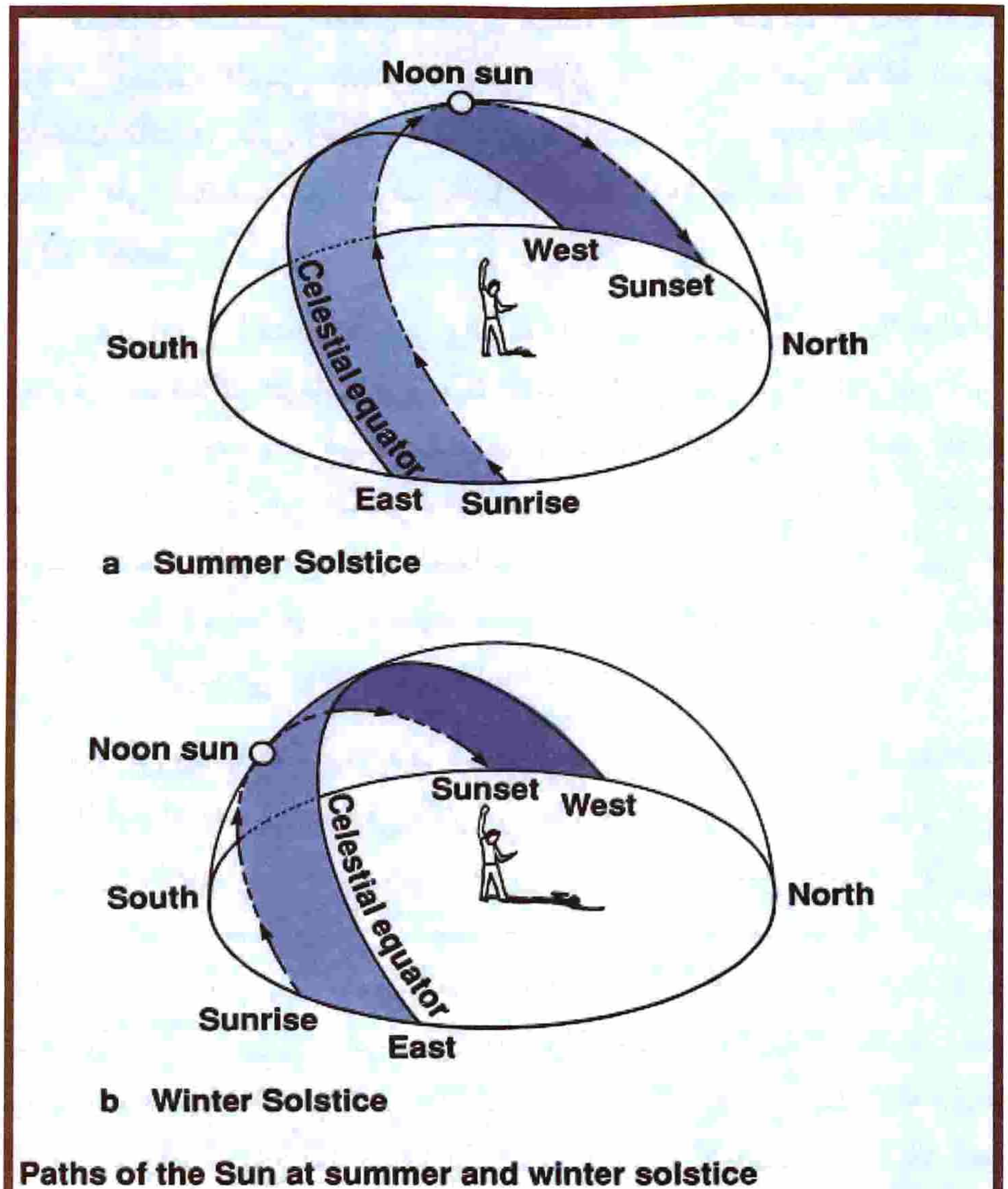
معلوم أن من ضمن ما يدرِّس في اختصاص الهندسة المعمارية ما يعرف بالاتجاهات ومواضع الشروق والغروب وهبوب الرياح بسبب

الأهمية الكبرى للشمس ومسارها، الرياح واتجاه هبوبها، والجهات الأربع بشكل عام في تحديد اتجاه وأسلوب تصميم المنشآت لأن لهذه العوامل تأثيراً مباشراً على هذا التصميم كما يبين الشكل: (٢ ـ أ) و(٢ ـ ب).



الشكل (٢ ـ أ): الشكل العلوي يبين مدارات الأرض حول الشمس واختلاف زاوية سقوط الأشعة الشمسية عليها خلال فصول السنة. والشكل السفلي يمثل اختلاف مشارق الشمس خلال السنة بين كانون الثاني/ يناير ـ وآذار/ مارس ـ وكانون الأول/ ديسمبر.

(عن كتاب أساسيات الفلك، سيدز وهاريسون، مؤسسة وادسورن للطباعة والنشر، ١٩٩١، ط/٣، الأشكال: ٢ ـ ١١، ٢ ـ ١٥)



الشكل (٢ ـ ب): حركات الأرض حول الشمس وحول نفسها وما تسببه من شروق وغروب يومي للشمس حسب فصول السنة وتغير تلك المشارق والمغارب حسب مناطق الكرة الأرضية وأثر كل ذلك على تصميم المباني والمنشآت. والشكل يبين اختلاف زاوية الشمس ظهراً خلال الصيف والشتاء

(عن كتاب أساسيات الفلك، سيدز وهاريسون، مؤسسة وادسورن للطباعة والنشر، ١٩٩١، ط/٣، الشكل ٣ ـ ٥)

فلحركة الشمس خلال فصول السنة وكذلك هبوب الرياح أهمية كبيرة في تصميم المبنى معمارياً، وهي تؤثر تأثيراً كبيراً على تكلفة المبنى من حيث تأثيرها على أحمال التبريد والتكييف. كما إن تلك الحركة تؤثر معمارياً على التصميم بما يعرف بالظل والضوء وهو ما سنعرج عليه لاحقاً في هذا الفصل.

ولقد أولى الكتاب العزيز والسُّنة المطهرة أهمية كبيرة للاتجاهات المكانية والتوقيتات الزمانية في حياة البشر والمتعلقة بدوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، فمنها يستنبط أزمنة العبادات والتوجه نحو القبلة فضلاً عن أهميتها في السفر والحضر. فالاتجاهات في القرآن الكريم حظيت باهتمام بالغ ومن ذلك الجهات الأربع، فتجد أن الله تعالى يبين أنه سبحانه رب المشارق والمغارب، ورب المشرقين والمغربين، ورب المشرق والمغرب في آيات بينات عديدات.

وإن لورود آيات عديدة فيها ذكر للشمس والنجوم والرياح والاتجاهات والإحداثيات له أهمية كبيرة في أكثر من علم من العلوم، لكن المنظار الذي يعنينا هو المنظار الهندسي، يقول تعالى مرشداً إلى أهمية الجهات الأربع: ﴿. . . قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: من الآية١٤٢]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمـٰن: ١٧]. وقد جاءت كلمة المشرق بكل صيغها وتفاعيلها (١٧ مرة) في القرآن الكريم، أما الشمس فقد جاء ذكرها (٣٣ مرة)، وأما الرياح فقد بيَّناها في كتاب القوى والإجهادات. وهناك أيضاً جهة الشمال والشمائل (١٢ مرة)، واليمين (٢٤ مرة). وأدناه بعض هذه الآيات الكريمات:

١ - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

٢ - ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ

حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

٣ ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨].

٤ ـ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

٥ ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ [الرحمٰن: ١٧ ـ ١٨].

٦ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٥].

٧ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠].

وإذا كان المشرق والمغرب يتعلق بجهة الشرق والغرب، فما هي المشارق والمغارب؟! لنتعرف أولاً ما قصد الآيات الكريمات برب المشرقين والمغربين والمشارق والمغارب وما قول أهل اللغة والتفسير في ذلك:

- بيَّن صاحب اللسان في تعريف المشرق والمغرب، وكذلك صيغتي المثنى والجمع لهما، فأما الشرق لغة فيعرفه لنا صاحب لسان العرب بأنه: (والشرق المشرق، والجمع أشراق، والتشريق الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق، ويستعمل في الشمس والقمر والنجوم، وفي الحديث: «**لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا**»، هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت قبلته على ذلك السمت فمن هو في جهة الشمال والجنوب. فأما من كانت قبلته في جهة المشرق أو المغرب فلا يجوز له أن يشرق ولا يغرب إنما

يجتنب ويشتمل. والشرقي الموضع الذي تشرق فيه الشمس من الأرض، وأشرقت الشمس إشراقاً أضاءت وانبسطت من على الأرض، وقيل: شرقت وأشرقت طلعت. وحكى سيبويه شرقت وأشرقت أضاءت، وشرقت ـ بالكسر ـ دنت للغروب، وآتيك كل شارق، أي: كل يوم طلعت فيه الشمس، وقيل: الشارق قرن الشمس، يقال: لا آتيك ما ذر شارق التهذيب، والشمس تسمى شارقاً، يقال: آني لآتيه كلما ذر شارق، أي: كلما طلع الشرق وهو الشمس. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: الشرق الضوء والشرق الشمس وروى عمرو عن أبيه أنه قال: الشرق الشمس ـ بفتح الشين ـ والشرق الضوء الذي يدخل من شق الباب ويقال له: المشريق. ومكان شرق ومشرق وشرق شرقاً وأشرق أشرقت عليه الشمس فأضاء، ويقال: أشرقت الأرض إشراقاً إذا أنارت بإشراق الشمس وضحها عليها وفي التنزيل: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، وقيل: الشمس حين تشرق يقال: طلعت الشرق والشرق. وفي الصحاح طلع الشرق ولا يقال: غربت الشرق ولا الشرق كما قال ابن السكيت. والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس والشرق والشرقة والشرقة موضع الشمس في الشتاء فأما في الصيف فلا شرقة لها والمشرق موقعها في الشتاء على الأرض بعد طلوعها وشرقتها دفاؤها إلى زوالها. ويقال ما بين المشرقين، أي: ما بين المشرق والمغرب وأشرق الرجل، أي: دخل في شروق الشمس. وفي التنزيل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الآية، أي: مصبحين، وأشرق القوم دخلوا في وقت الشروق، كما تقول: أفجروا وأصبحوا وأظهروا. فأما شرقوا وغربوا فساروا نحو المشرق والمغرب. وفي التنزيل: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الآية، أي: لحقوهم وقت دخولهم في شروق الشمس وهو طلوعها، والمشرقان مشرقا الصيف والشتاء. وقال الفراء وغيره من أهل العربية في تفسير قوله

تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾ الآية، يقول هذه الشجرة ليست مما تطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط أو في وقت غروبها فقط ولكنها شرقية غربية تصيبها الشمس بالغداة والعشية فهو أنضر لها وأجود لزيتونها وزيتها وهو قول أكثر أهل التفسير)[١]. وأما الغرب فيقول عنه: (غرب الغرب والمغرب بمعنى واحد. ابن سيده: الغرب خلاف الشرق وهو المغرب. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾ الآية، أحد المغربين أقصى ما تنتهي إليه الشمس في الصيف والآخر أقصى ما تنتهي إليه في الشتاء، وأحد المشرقين أقصى ما تشرق منه الشمس في الصيف وأقصى ما تشرق منه في الشتاء، وبين المغرب الأقصى والمغرب الأدنى مائة وثمانون مغرباً)[٢].

- بيَّن صاحب البرهان الفروق بين الحالات الثلاث التي ذكرت بها الجهات في الشرق والغرب في القرآن الكريم المفرد، المثنى والجمع قائلاً: (ومنها مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة بالجمع وأخرى بالتثنية وأخرى بالإفراد لاختصاص كل مقام بما يقتضيه، فالأول: كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ الآية، والثاني: كقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾ الآية، والثالث: قوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾﴾ الآية. فحيث جمع كان المراد نفي المشرق والمغرب، وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وارتفاعها فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وارتفاعها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً

---

(١) لسان العرب (ج: ١٠ ص: ١٧٤-١٧٥)، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر - عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.

(٢) لسان العرب (ج: ١ ص: ٦٣٧)، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر - عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.

ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً ومقابلهما مغرباً. وقيل: هو إخبار عن الحركات الفلكية متحركة بحركات متداركة لا تنضبط لخطة ولا تدخل تحت قياس لأن معنى الحركة انتقال الشيء من مكان إلى آخر وهذه صفة الأفلاك، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ الآية. فهذا وجه اختلاف هذه الألفاظ بالإفراد والتثنية والجمع وقد أجرى الله العادة أن يطلع القمر في كل ليلة من مطلع غير الذي طلع فيه بالأمس، وكذلك الغروب فهي من أول فصل الصيف في تلك المطالع والمغارب إلى أن تنتهي إلى مطلع الاعتدال ومغربه عند أول فصل الخريف، ثم تأخذ جنوباً في كل يوم في مطلع ومغرب إلى أن تنتهي إلى آخر مثلها الذي يقدر الله لها عند أول فصل الشتاء، ثم ترجع كذلك إلى أن تنتهي إلى مطلع الاعتدال الربيعي ومغربه وهكذا أبداً. فحيث أفرد الله له لفظ المشرق والمغرب أراد به الجهة نفسها التي تشتمل الواحدة على تلك المطالع جميعها والأخرى على تلك المغارب من غير نظر إلى تعددها، وحيث جيء بلفظ الجمع المراد به كل فرد منها بالنسبة إلى تعدد تلك المطالع والمغارب وهي في كل جهة مائة وثمانون يوماً، وحيث كان بلفظ التثنية فالمراد بأحدهما الجهة التي تاخذ منها الشمس من مطلع الاعتدال إلى آخر المطالع والمغارب الجنوبية وبهذا الاعتبار مشرقان ومغربان. وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع منه فأبدى فيه بعض المتأخرين معاني لطيفة، فقال: أما ما ورد مثنى في سورة الرحمٰن فلأن سياق السورة سياق المزدوجين، الثاني: فإنه سبحانه أولاً ذكر نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعليم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهر نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات فإن منه ما هو على ساق ومنه ما انبسط على وجه الأرض، وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض ثم

أخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض ثم ذكر نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان والجان، ثم ذكر نوعي المشرق والمغرب ثم ذكر بعد ذلك البحر من الملح والعذب فلهذا حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة. وإنما أفردا في سورة المزمل لما تقدم من ذكر الليل والنهار فإنه سبحانه أمر نبيه بقيام الليل ثم أخبر أنه له في النهار سبحاً طويلاً، فلما تقدم ذكر الليل والنهار تممه بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار فكان ورودهما منفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع، لأن ظهور الليل والنهار فيهما واحد وإنما جمعا في سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ الآية)[١].

⊙ ذكر أهل التفسير والحديث بعض أوجه هذا الأمر بين مشرق ومغرب معروفين، ومشرقي ومغربي الصيف والشتاء والفصول، ومشارق ومغارب شتى في أصقاع الأرض. فقد قال البيضاوي: (﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾ الآية، أي: مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك)[٢]. وقال بعضهم عن مجاهد: رب المشرقين للشمس في الشتاء مشرق ومشرق في

---

(١) البرهان في علوم القرآن (ج: ٤ ص: ١٥ ـ ١٦)، الإمام العلامة بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية رحمه الله تعالى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) تفسير البيضاوي (ج: ٥ ص: ٢٧٥). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

الصيف، ورب المغربين مغربها في الشتاء والصيف[١]. بينما ذكر القرطبي في تفسيره: (قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ الآية، أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال وأقصر يوم في الأيام القصار)[٢]. وفصّل ابن كثير في هذا قائلاً: (هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السماوات والأرض وما بينهما، أي: المخلوقات، ورب المشارق، أي: هو الملك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ الآية، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ الآية، يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر)[٣].

والخلاصة هنا: أن المشارق والمغارب هي جميع مشارق الشمس ومغاربها في كل أصقاع الأرض، فالله تعالى هو المتصرف في تدبير شؤون هذه الجهات. وأما المشرقان والمغربان فهما مشارق ومغارب الفصول الأساسية وهما الصيف والشتاء، وبكل الأحوال بينت الآيات الكريمات أهمية هذا الموضوع في النسق القرآني وسياق الآيات سواء في التحدي الإلٰهي للناس أن يأتوا بمثل هذه المعجزة كقول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ للنمرود عندما زعم أنه إله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى

---

(١) صحيح البخاري (الجزء الخاص في التفسير، ج: ٤ ص: ١٨٤٧)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م. وانظر: التبيان في تفسير غريب القرآن (ج: ١ ص: ٤٠١)، ابن الهائم، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد، تحقيق ضاحي عبدالباقي محمد، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.

(٢) تفسير القرطبي (ج: ١٥ ص: ٦٤). تفسير الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥م.

(٣) تفسير ابن كثير (ج: ٤ ص: ٣). تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أو بتنبيه الناس لهذه النعمة كي يتدبروها ويستفيدوا من آثارها في شؤون حياتهم. وهنا بيت القصيد ألا وهو استفادة أهل العمارة من الجهات عموماً وجهات الشروق والغروب خصوصاً لما لها من أهمية دخول الضياء للمبنى، وكذلك جهات هبوب الرياح ودخول الهواء للمبنى كذلك. وكذلك قصة تحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس نحو البيت الحرام وكيف كان ـ ﷺ ـ يرجو من ربه لفرط حبه لمكة والكعبة أن تحول القبلة نحو أول بيت وضع للناس بيت الله العتيق. فجاء جواب ربه متوافقاً مع هواه ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤]، وكان نفر من المسلمين يصلون العصر حين بلغهم هذا الأمر وكانوا متوجهين نحو بيت المقدس فتحولوا وهم في الصلاة باتجاه الكعبة المشرفة فسمي المسجد بمسجد القبلتين، وقد أثر هذا الأمر على بعض السفهاء من قريش فاستهزؤوا بما حصل وجاء الجواب القرآني مباشرة لهم بأن الاتجاهات هذه هي لله تعالى يصوبها حيث يشاء: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، وهكذا تبين لنا أن تلك الآيات الكريمة بمجموعها ومجمل معانيها تشكل مشهداً قرآنياً رائعاً لحركة الشمس ومدلولاتها الهندسية المعمارية المهمة رغم احتواء المعنى طبعاً على الفوائد الأخرى والتي تتناولها علوم أخرى.

ثانياً: الظل والمنظور في القرآن الكريم:

كما اهتم القرآن الكريم بالمشارق والمغارب والاتجاهات الأربعة والرياح، فقد اهتم القرآن الكريم بنتائج حركة الشمس وأثر ذلك على

الأرض بما يعرف بالظل وهندسته التي كان لها الأثر الأكبر في حياة كثير من الشعوب ودراستها للزمن قبل الإسلام وبعده.

ومعلوم أن من ضمن العلوم التي يهتم بها المعماريون ما يعرف بالظل والمنظور، أي: توصيف الأشكال المرئية برسوم تعطي البعد الثالث عبر الأفق، وكذلك أثر التظليل وإدخال ظل الأجسام الحقيقية في الشكل المرسوم.

تجد في القرآن الكريم مواضع عديدة تبين الظل وأثره في حياة الناس ومعيشتهم، فلقد أشار الله تعالى إلى الظل في كتابه الكريم في أكثر من آية وحملت فيها من المعاني اللفظية العلمية لكي نتفكر ونتدبر هذه المعاني ونصل إلى نهايتها إلى بعض من دلائل قدرة الله في هذا الكون العظيم. وقد جاء في كتب التفسير أن الظل هو عتمة الفجر حتى طلوع الشمس، أما الظل بمعناه العام فهو يشمل الخيال الناتج عن الشخص أو الشاخص في اتجاه سقوط أشعة الشمس.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨]. . . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٧].

الآيتان: [٤٥ و٤٦] من سورة الفرقان تبين حقيقة دوران الأرض حول نفسها، كما أن كواكب المجموعة الشمسية ليست فيها كواكب ساكنة يسكن فيها الظل، فهي تدور جميعها حول نفسها وحول الشمس مثل الأرض تماماً. كما أن سنة عطارد أقصر من يومه أما عندما تكون حركة الكوكب حول نفسه بقدر سرعته حول الشمس فإنه لا يلامسه من الشمس من إشعاع سوى وجه واحد. . . ويختلف طول الظل تبعاً لزاوية سقوط أشعة الشمس، فإذا كانت الشمس عمودية على رأس الشخص فإن الظل يلبس الجسم ولا يظهر له أي وجود، ويمكن رؤية ذلك بوضوح عند خط

الاستواء في **٢١** آذار و**٢٢** أيلول، إذ تكون الشمس عمودية على رأس الشخص فلا يظهر له أي ظل بل يقال في الاصطلاح العلمي: إن الظل قد لبس الشخص نفسه ويكون ذلك في وقت الظهيرة. أما إذا تواجد الشخص على أي خط عرض أخر بعيد عن خط عرض الشمس فإن ظل الظهيرة يكون له مقدار ويطلق عليه اصطلاح أقصر ظل عن ذلك اليوم، ويعتبر علمياً الليل الذي نراه في نصف الكرة الأرضية ما هو إلا ظل وجه الأرض المقابل للشمس على نصف الأرض البعيد عن الشمس. (انظر: الشكل **٣** ـ أ، ب)[١].

لننتبه إلى ما جاء في سورة الفرقان في الآيتين: [**٤٥، ٤٦**] إذ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾. تدعونا هذه الآية الكريمة أن نرى صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه، بينما الظل الذي خلقه وخلق أسبابه ومده ولو شاء سبحانه لغيَّر في أسبابه فجعله ساكناً لا يتحول ولا يزول كما يحدث في بعض كواكب المجموعة الشمسية، فالكوكب عطارد أقرب الكواكب إلى الشمس حيث يقابلها بوجه واحد فقط إذ يكون النهار سرمدياً أبدياً وليله ليلاً أبدياً سرمدياً ومن ثم يكون فيه الليل ثابتاً وساكناً، هذا ما جاء به العلم الحديث ليوضح لنا بعض نظريات الظل. ويكون الظل أنواعاً فيوجد ظل الشجرة وهو أجمل أنواع الظل، فالشجرة بما فيها من فروع ورقية تعمل بمثابة مرشح لدرجة حرارة الشمس فيكون ظلها ظليلاً، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿. . . وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: من الآية ٥٧]، أي: ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً، وقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»، كما أنه يوجد ظل السحب البيضاء التي تحجب أشعة الشمس من الوصول إلى سطح الأرض وتعمل السحب عمل المظلة البيضاء مع الفارق فيما صنعه الإنسان

(١) عن بحث (الظل في القرآن الكريم)، الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي.

بأنه ليس له صفه امتصاص الأشعة الشمسية بينما ما صنعه الله من الغمام والسحب البيضاء له خاصية امتصاص الأشعة الشمسية إذ لا يصل إلى الإنسان إلا ما يحتاجه من ضوء وحرارة هادئة، وقد أشار الله تعالى إلى السحاب الأبيض في سورة البقرة الآية **٥٧** بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ . . .﴾ [البقرة: من الآية ٥٧]، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿. . . فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ . . .﴾ [البقرة: من الآية ٢١٠]. وكذلك في سورة الأعراف، إذ قال الله تعالى: ﴿. . . وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ . . .﴾ [الأعراف: من الآية ١٦٠]. وسحب الصيف البيضاء حينما تأتي من الله تعالى رحمة لبني البشر يجب أن نفكر فيمَ خلقها الله تعالى؟ ليخفف عن البعض بظلال من الغمام بينما يترك الآخرين في سعير الحر اللافح القاتل، والجميع يعرف أنه توجد ضربة شمس تقتل الإنسان والحيوان وتحرق الغابات وتهلك الزرع إذ تصل الحرارة فيها إلى ما يزيد على خمسين درجة مئوية، وتقابلها أيضاً ضربة ظل الناتجة عن ظل المباني أو ظل أي جسم صناعياً وهو لا يغني ولا يحمي، ومن ثم يموت بعض الأشخاص أيضاً من ضربة الظل الصناعي مثلها في ذلك مثل ضربة الشمس وإن كانت أقل قليلاً في درجة حرارتها. أما السحابة البيضاء التي تعمل في ظلل من الغمام فإنها مثل سحابة الصيف المعروفة لا تمطر ولكنها تمتص جزءاً من الأشعة الشمسية أثناء مرورها من خلالها فيكون الظل الذي وضعه الخالق بنظرية علمية لتستفيد منه مخلوقات كوكب الأرض. تمر علينا بعض آيات الله الكونية من دون أن ننتبه أنها تخضع إلى نظرية الظل، فمثلاً خسوف القمر ما هو إلا سقوط ظل كوكب الأرض على القمر بطريقة علمية دقيقة، إذ تحدث ظاهرة الخسوف القمري عندما تقع مراكز الشمس والأرض والقمر على خط مستقيم شبه الظل للأرض والخسوف الكلي في منطقة الظل الكامل للأرض. وقد استدل العرب الأوائل على كروية كوكب الأرض من خلال ظاهرة الخسوف القمري حيث يقع الظل على سطح القمر في صورة معينة لو كان للأرض أي شكل هندسي غير كروي لما حدث التقاطع على سطح القمر في شكل خط مستقيم. أما كسوف الشمس، فهو أن يقع ظل القمر

على كوكب الأرض ويكون ظهور ذلك بوضوح في حالة الكسوف الكلي للشمس إذ ينطبق قرص القمر حاجباً أشعة الشمس من الوصول إلى كوكب الأرض، ولكن في منطقة لا تزيد مساحتها على ٢٠٠ ميل مربع، إذ يقع ظل القمر على سطح الأرض ويحدث إعتام كامل في سماء المنطقة، وتظهر كأنها ليل إذ ترى النجوم والكواكب لامعة. بغض النظر عن أن هذا الوقت هو الظهيرة أو بعدها أو قبلها بثلاث ساعات فهذا بوقت الكسوف الكلي للشمس. وهكذا نرى أن ظل الأرض يحدث لنا خسوف القمر وجسم القمر يحدث ظلاً للقمر على كوكب الأرض والظاهرتان تحدثان كل عام ولكن لا ننتبه لآيات الله الكونية، وجاءت إشارة في كتاب الله الكريم إذ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا . . .﴾ [النحل: من الآية ٨١][(١)].

استخدم مقياس الظل للدلالة على الوقت، فنظرية المزولة الشمسية أساسها طول الظل لعصاة مثبتة في مركز قرص خشبي إذ يقسم طول النهار عند منتصفه، أي: وقت الظهيرة ليكون طول الظل مدلول وقت معين، وبديهياً فإن قياس المزولة للوقت هو قياس تقريبي ويختلف عند وجود الشمس في كل برج من أبراجها المعروفة، وبصفة خاصة في برج الحمل حيث بداية الربيع، ثم برج السرطان حيث بداية الصيف، ثم برج الميزان حيث بداية الخريف، ثم برج الجدي حيث بداية الشتاء، ويكون كل ذلك محسوباً لنصف الكرة الشمالي فقط لتختلف هذه الفصول الأربعة في نصف الكرة الجنوبي.

كما أن حركة الظل يمكن بها تحديد صلاة الظهيرة إذ يكون فيها الظل أقصر ما يكون عن ذلك اليوم، وتحديد صلاة العصر بطول الظهيرة مضافاً إليها الظل الكامل المحسوب له ظل الظهيرة، أما صلاة المغرب في اختفاء الظلال تماماً باختفاء قرص الشمس، وليس في كل ظل نجد الراحة، فهنالك عذاب من الظل أشار إليه الله تعالى في سورة المرسلات

---

(١) عن بحث (الظل في القرآن الكريم)، الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي.

في الآيتين: **٣٠** و**٣١** التي بيَّنا معناها الهندسي الوصفي في كتاب الهندسة الوصفية من هذه السلسلة، إذ قال جل وعلا: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

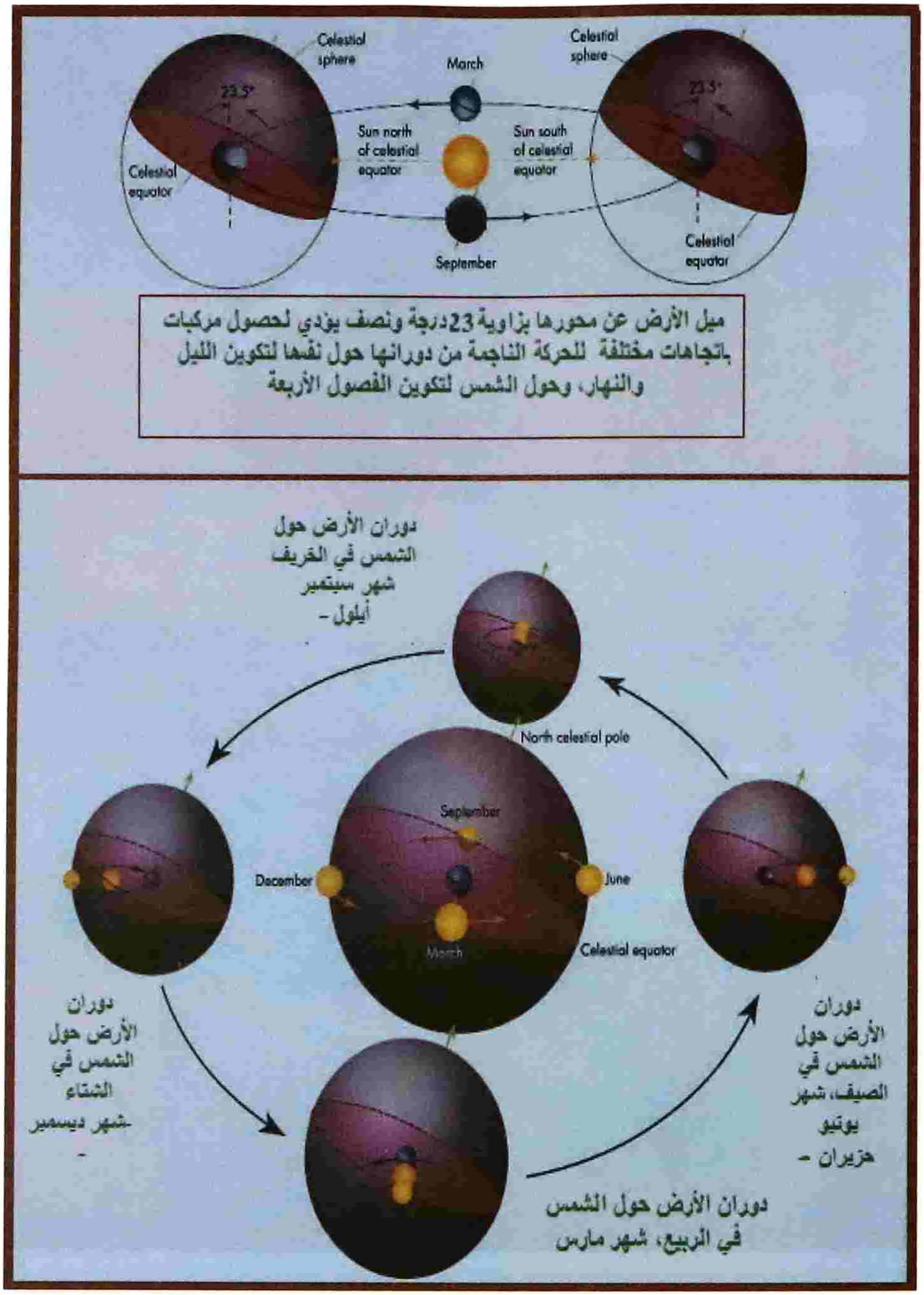
وأفاد المفسرون في ذلك أن ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو نفسه ولا يغني من اللهب، فإن لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فيكون من شدته وقوته له ثلاث شعب، وهكذا جاءت الآية الكريمة لتوضح لنا أن الدخان الناتج عن اللهب يعمل ظلالاً ولكنها مملوءة بالسموم والحرور. نسأل الله تعالى أن يرحمنا من عذاب يوم الظلة وأن يظللنا بوشاح رحمته في يوم لا ظل إلا ظله، ولنرفع أكف الضراعة ونبتهل إليك يا رحمان يا رحيم أن تطفئ نار الحروب البشرية الحمقاء التي تأكل الطيب قبل الخبيث وأن ترفع راية الإسلام في كل مكان[1].

وهكذا نبّه الكتاب العزيز لأهمية الظل في حياتنا، وفي ذلك دعوة للأخذ بأسباب هذه الظاهرة في تعاملنا معها سواء في موضوع الزمن وقياسه، أو الاستفادة من الراحة والدعة التي يوفرها كبديل عن الحر الذي تضرب الشمس بلهيبها خصوصاً في وقت القيظ.

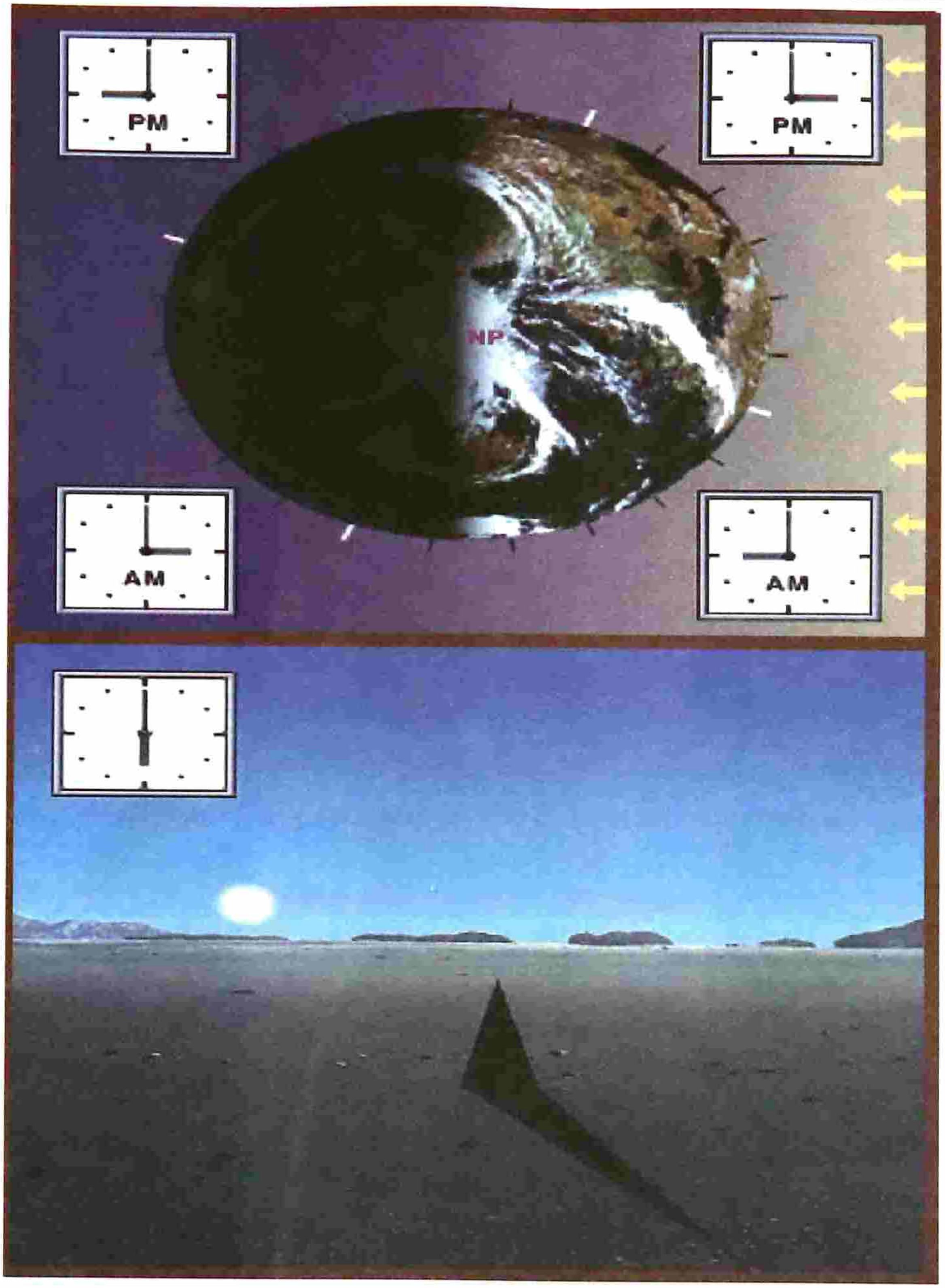
وفي هذه لعمري إشارة هندسية رائعة أخذ بها الأقدمون قبل النزول غريزياً، ولكن القرآن الكريم شخّص ظاهرتها وأعطاها أهميتها مما دفع المسلمين بعد ذلك وخصوصاً مهندسيهم ومعمارييهم بأخذ احتياطاتهم المضاعفة للاستفادة من هذه الظاهرة المهمة.

---

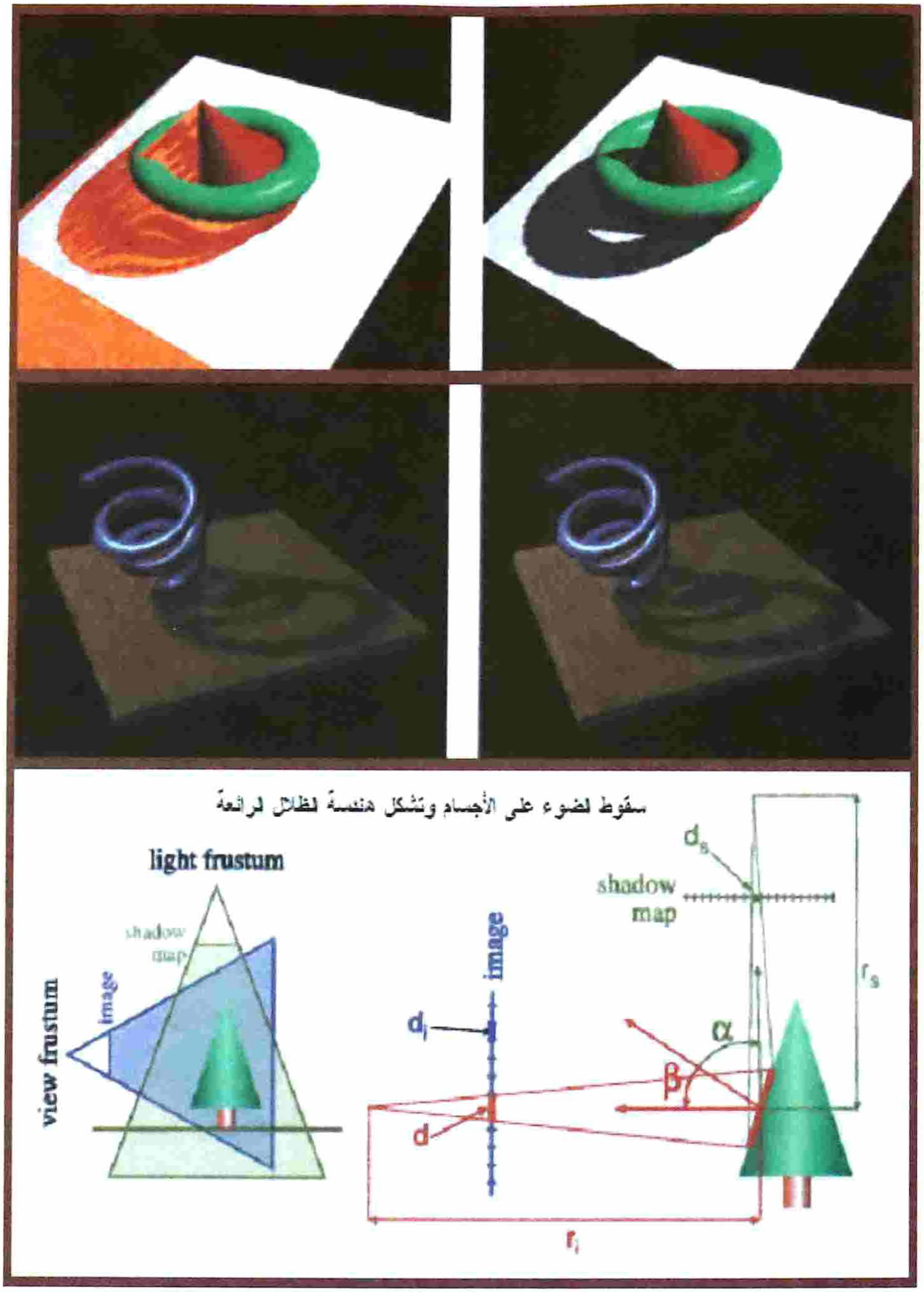
(١) عن بحث (الظل في القرآن الكريم)، الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي.



الشكل (٣ ـ أ): دوران الأرض حول نفسها والشمس وميل محورها الجغرافي ٢٣ درجة كلها عوامل تؤدي لتغير الظل للأشياء الموجودة عليها جراء سقوط أشعة الشمس



الشكل (٣ ـ ب): حركة الأرض حول نفسها
والشمس وتشكل الظلال في ديناميكية ضوئية هندسية عجيبة
ـ عن الموسوعة الفلكية العالمية ريد شيفت ٤ ـ



الشكل (٣ ـ جـ): تشكل هندسة الظلال العجيبة من سقوط الضوء على الأجسام المختلفة بزوايا مختلفة

كما تدعونا الآيات الكريمات الآنفات الذكر إلى التأمل في أن هذه الظلال إنما جاءت لسقوط الشمس على الأجسام وما في ذلك من هندسة ضوئية كما في الشكل (٣ ـ أ، ب، جـ) التي فصلنا أمرها ضمن كتاب آخر ضمن هذه السلسلة وهو كتاب (الهندسة الضوئية)، كما أنها تدعونا للنظر في الآفاق والأنفس والتركيز على حقائق الأشياء دون ظلالها.

على أن القرآن الكريم بيَّن لنا هندسة ضوئية ترتبط بالظل والضوء وتناوبهما كذلك لكنها من نوع آخر، وهو ما فصله الله تعالى في قضية نوم أهل الكهف وموقع كهفهم وتناوب الشمس عليه ودخول ضوئها من اليمين والشمال بشكل لا يؤذي القوم من جهة ولا يحرمهم من أهمية ضوء الشمس من جهة أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]. هذه الآية الكريمة بيَّنا تفصيل سبقها لعلوم حديثة جداً في كتاب الهندسة الضوئية. ومعنى الآية: أن الشمس كانت ضرورية لحمايتهم فبدونها كانوا هلكى، فكانت تأتيهم في شروقها وغروبها من خلال فجوات في كهفهم.

يقول أهل التفسير: (فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل. وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه. وهذا بيِّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء

عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: تقرضهم تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره. ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ...﴾، قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل ﴿...ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ...﴾، أي: في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الآية، أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ومن أضله فلا هادي له)[١].

فدخول الضوء على هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى وأرشدهم للهروب بدينهم إلى كهف في أطراف مدينة فيلادلفيا (قرب عمان بالأردن اليوم)، ثم أنامهم لزمن طويل جداً، ثم أحياهم كان في أمره هندسة ضوئية عجيبة. فقد كان للضوء ودخوله عليهم من فتحات الكهف ومدى تأثير ذلك على بقائهم أحياء أهمية كبيرة.

تدبر الآية معي أخي الكريم، فموقع الكهف الذي اكتشف في عهود قريبة في منطقة قرب عمان بالأردن التي كانت تسمى فيلادلفيا[٢]، وتوسطه وهندسة فتحاته التي قدرها الله تعالى جعلت من دخول الضوء إليه يصبح

---

(١) تفسير ابن كثير (جزء ٣ ـ صفحة ١٠٣). تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

(٢) انظر: كتاب (الآثار والتاريخ) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت. وهنالك رأي آخر يقول أن الكهف موجود في تركيا، وينطبق عليه ما ينطبق على كهف الأردن من المواصفات القرآنية والتاريخية.

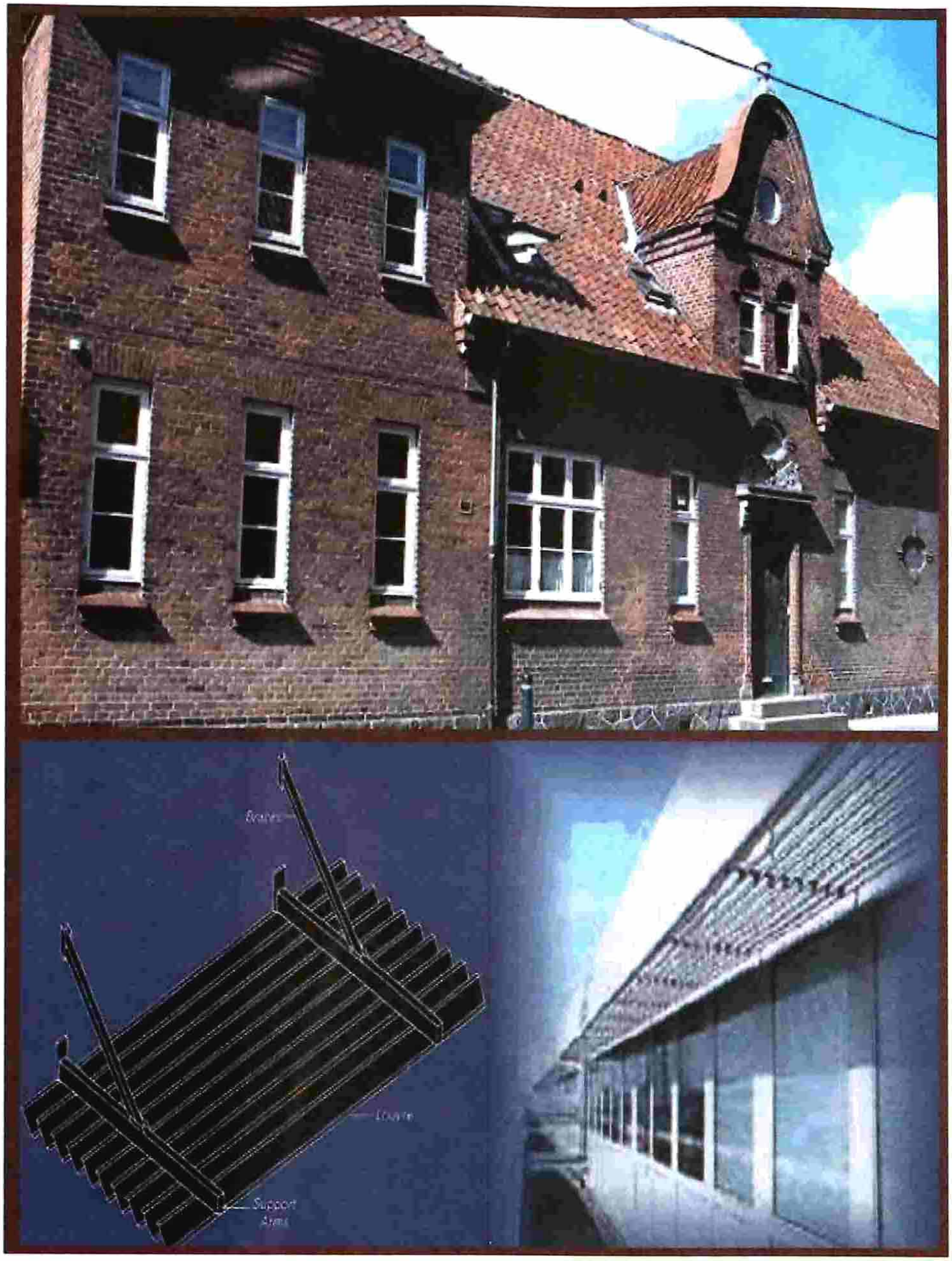
بشكل يوفر لهؤلاء الفتية ما يحتاجونه من ضوئها لغرض منحهم الطاقة والشفاء دون أن تحرقهم بلهيبها كما في حال كون الفتحات كبيرة أو أن الكهف مفتوح من أعلاه على السماء مثلاً كما في الشكل (٤).

وبذلك أقرَّ القرآن الكريم بحقيقة أهمية الضوء للبقاء من جهة وضرورة هندسة دخول الضوء من خلال فجوات ليكون وسطياً بين النور والدفء اللذين يجلبهما الضوء معه وبين الأذى الناجم من التأثير المباشر لضوء الشمس على الجسم لفترات طويلة، وهو مفهوم تقنية كاسرات الشمس (Sun breaker) التي توضع فوق الشبابيك لمنع ضوء الشمس من الدخول كاملاً إلى داخل المبنى بل يكسره بزاوية مقبولة ليدخل أثره مما يجعله مقبولاً ونافعاً ودافئاً بدل أن يكون مؤذياً بحرارته القوية، وهذا الأمر مستخدم في بناياتنا اليوم كما في الشكل (٥)، فسبحان الله.



الشكل (٤): الكهف الذي اكتشف قرب عمان بالأردن، وتوضح الصور دخول ضوء الشمس في داخل الكهف من فجواته بشكل يعطي ضوءً وظلاً يسهل العيش داخله لأصحاب الكهف الذين ذكروا في سورة الكهف

ـ عن الشبكة العالمية، الموقع (http://com.z6z.com) ـ



الشكل (٥): يبيِّن كاسرات الشمس (Sun breaker) التي تعلو الشبابيك لتمنع الأثر المباشر لضوء الشمس في هندستنا المعمارية. والشكل السفلي يبيِّن أحد أنواع كاسرات الشمس الحديثة

- الصورة عن الشبكة العالمية، http://www.bbsa.org.uk/exSun.html -

ثالثاً: البعد المكاني والتخطيط العمراني في القرآن الكريم:

أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة للمكان باعتباره أحد المحاور الأساسية في حياة البشر، وبينت آيات عديدات في الكتاب الكريم أسماءً لمدن ودول ومناطق جرت فيها أحداث ومعارك وشؤون ونشاطات أخرى عديدة. كما وردت مصطلحات عمرانية عديدة تبين مدى اهتمام القرآن الكريم بهذا الأمر الحيوي.

كذلك فلوسطية المكان والموقع أهمية في القرآن الكريم، إذ جعل لهذه الأمة وسطية واعتدالاً في التشريع، وكذلك في الموقع الجغرافي المكاني ليبين أهمية الوسطية علماً وتشريعاً وفكراً وعملاً ونواحٍ اجتماعية، فضلاً عما بيناه من التعريف الرياضي في موضع آخر(١) بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

يقول الدكتور وليد البدري في بحثه حول المكان في القرآن ما يلي: (دين الإسلام في جوهره دين مدني يرتبط ارتباطاً وثيق العرى بالمدينة والتحضر والعمران، ومقوماتها وعوامل تطورها الاجتماعية والاقتصادية، إذ ورد أن الأسماء التي علمها الله لآدم حين خلقه قد حوت العديد من المفاهيم والمصطلحات التي تعذَّر على الملائكة ـ وهم من صفوة الخلق ـ إدراكها، كما وردت على لسان الأنبياء والرسل وفي كتبهم وصحفهم ومنذ الدعوات الأولى لهم اصطلاحات المدنية والتحضر التي يوردها القرآن الكريم، إذ ورد فيه مصطلح البنى والبناء (**٢٣**) مرة، وعمَّر (**١٩**) مرة، ولفظة دار (**٤٨**) مرة، ومسكن (**٤٣**) مرة، وبيت (**٧١**) مرة. ولقد نشر

---

(١) راجع موضوع موقف الإسلام من العلوم الرياضية والهندسية والإحصائية ضمن الكتاب الأول من هذه السلسلة، وفيه بيَّنا موضوع (الوسط الحسابي) في القرآن الكريم.

الإسلام وهو دين الفطرة وعمَّقَ هذه المصطلحات ومنذ ولادته مما يثبت حضريَّته، لأن هذه المفاهيم لا تنبثق إلا من فكر عمراني زاهر وفي ظل حضارة ذات جذور عميقة... ويُبرز القرآن الكريم في **(٣٩)** موضعاً لفظة سلطان، وفي **(٨٦)** موضعاً لفظة حكم، وفي **(١١٣)** موضعاً لفظة ملك، وفي موضعين لفظة وزير، أما اصطلاح الأمن فقد ورد **(٤٩)** مرة في القرآن الكريم).

ويضيف: (ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن هناك اهتماماً كبيراً في آيات القرآن لمعطيات الحياة المدنية من علاقات ومبادئ ونظم، وذلك من خلال ذكره لمواضع القرى والبلدان وما آل إليه حالها). ويضيف الباحث: (أن القرآن الكريم وزع المكان إلى عدة أنواع، فمنها التوزيع الجغرافي للمواقع وقد تحدث فيها عن عدة أقوام ومواقع مثل عاد وسبأ والطائف ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وكذلك ثمود ومدين وأيلة وسدوم وبيت المقدس وأنطاكية. وأخيراً، نينوى وبابل ومصر ومنف... وكذلك تحدث عن أنماط التوزيع الجغرافي وأشكاله والعوامل المؤثرة في اختيار المواقع وتطورها كالمناخ والسطح والأساس الاقتصادي للمواقع وتطور وظائفها، كما تطرق إلى الأهداف المنظورة بذكر القرى والبلدان في القرآن).

أما أهم المصطلحات التي درسها الباحث وتطرق لها القرآن الكريم، فهي:

١ ـ **القرية**: لفظة يمانية جمعها قرى، والنسبة إلى القرية قروي، وتطلق على المسكن والبيت يؤوي الكائن الحي، وفي الحديث الشريف أن نبياً من الأنبياء أمر بقرية النمل فأُحرقت، وفي الحديث أيضاً: «**أمرت بقرية تأكل القرى**» وهي مدينة الرسول ـ ﷺ ـ ومعنى أكلها القرى: ما يفتح على أيدي أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها. وجاء في قاموس المنجد: أن القرية هي الضيعة والقاري ساكن القرية، أما قاموس أكسفورد فيؤكد: «القرية هي من يجهز المدينة بالزرع ومشتقات الحيوان»، بينما يبرز وبستر في قاموسه شكل وحجم القرية فيقول: إنها ذات بيئة أبسط وحجم أصغر من المدن، ويتطابق تعريف أكسفورد مع تعريف ابن خلدون في

مقدمته التاريخية إذ يقول عن القرية: ويسكنها من كان معاشه في الزراعة والقيام بالفلح أو من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر ويسمَّوْن شاوية، ومعناه: القائمون على الشاة والبقر وهم لا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة... وللجغرافيين في دراساتهم تأكيد واضح على خصائصها وصفاتها المميزة ووظيفتها التي تعكس تباين أنماطها مع التأكيد على شكل ووظيفة ونشوء القرية... هذا وقد ورد ذكر القرية في القرآن الكريم ستاً وخمسين مرة.

لكن تعبير القرية كمصطلح قرآني قد يشمل أي مجتمع سواء أكان يعيش في قرية صغيرة حسب مفهومنا الحالي للقرية أو للمدن والحضارات بشكل عام كما تجد ذلك واضحاً في آيات عديدة(١).

٢ ـ **الريف**: ويراد به الخصب والسعة في المأكل والمطعم، وأُريفَتْ الأرض، أي: أخصبت، ورأفت الماشية الريف، أي: رعته. وجاء في قاموس وبستر أن الريف هو المنطقة الحيوية المتصفة ببساطة العمران والنشأة، وفي قاموس أكسفورد: أنه النطاق الذي يمارس البشر فيه الزراعة والرعي... ولم ترد كلمة الريف في القرآن الكريم، إلا أنها وردت في حديث للرسول ـ ﷺ ـ: «**كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف**»، وأراد به أننا من أهل الضرع «البادية» لا من أهل الريف «المدن»، ومن هذا الحديث يتضح لنا وجود ترادف بين معنى القرية ومعنى الريف، وفي الدراسات الحديثة في حقل الجغرافية عن الريف هناك تأكيد على مظهره العام ومكوناته الأساسية الطبيعية والبشرية والعلاقات المكانية الناتجة عنها.

٣ ـ **البادية**: البادية عكس الحاضرة والتحضر، فبالرجوع للمعاجم نجد أن بدا يبدو، أي: برز يبرز، ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه، والبادية اسم الأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قيل: بدواً والبادية خلاف الحاضرة

---

(١) يجد القارئ الكريم تفاصيل مهمة في ذلك في كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

التي يراد بها القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها، وتبدى الرجل، أي: أقام بالبادية وتشبه بأهلها أي: البداوة. ويسكن البادية البدو، وهم الخارجون من الحضر إلى المراعي والصحارى، قيل: بَدَوا، أي: تباعدوا عن أعداد المياه ذاهبين إلى النجع حيث مساقط الماء ومنابت الكلأ، وكل مُنتجِع مبدى وجمع المبدى مباد وهو البدو، وهؤلاء السكان في تنقل مستمر من موضع إلى آخر وقد يلبثون في مواطن ثابتة بعض السنة أو يشرعون في الاستقرار، فيقال لهم: شبه رحل أو شبه بداة. ويعرفهم ابن خلدون «بأنهم المقتصرون على الضروري في أحوالهم لذا كان اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة... والبدو في القرآن الكريم هم الأعراب، ذكرهم الله تبارك وتعالى في عشرة مواضع في كتابه العزيز، جميعها مدنية النزول، اثنتان منها لغرض المدح في سورة التوبة، الآيتان: **٩٧** و**١٢٠**، وثمانية لغرض الذم في سورة التوبة أيضاً، الآيات: **٩٠** و**٩٨** و**٩٩**، **١٠١**. وسورة الأحزاب، الآية: **٢٠**. وسورة الحجرات، الآية: **١٤**.

وجاء ذكر لفظة البدو في عدة أحاديث عن النبيّ - ﷺ - من أكثرها شهرةً: «**لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية، ولا يبيع حاضر لباد**»[(١)]... وينظر الجغرافي إلى البدو على أنهم جماعات اعتمدت تربية

---

(١) اللفظ من حديثين صحيحين لكنهما منفصلان، فلفظ: «**لا يبيع حاضر لباد**» جاء في حديث ورد بعدة صيغ عند أكثر أهل السنن وأصحها ما جاء في البخاري، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد). قال فقلت لابن عباس ما قوله: «**لا يبيع حاضر لباد**». قال: لا يكون له سمساراً. والمعنى: «**لا تلقوا الركبان**»: لا تستقبلوا حملة البضائع وتشتروها منهم قبل وصولهم للأسواق. (سمساراً): دلالاً وهو في الأصل القيم بالأمر والحافظ له، ثم استعمل في متولي البيع والشراء لغيره ويأخذ على ذلك أجرة. صحيح البخاري انظر: (**٢/ ٧٥٧/ ٢٠٥٠، ٢٠٥١، ٢/٧٥٨/٢٠٥٢، ٢٠٥٥، ٢/٧٩٥/٢١٥٤**). وأخرجه مسلم في البيوع باب تحريم بيع الحاضر للبادي رقم **١٥٢١** كما جاء الحديث في سنن النسائي (**٧/٢٥٦/ ٤٤٩٦، ٧/ ٢٥٨/ ٤٥٠٦**)، كما جاء في سنن الدارقطني، المعجم الكبير والأوسط والصغير، سنن=

الماشية دعامة اقتصادية رئيسية لها، لذا تتسم حياتها بطابع الحركة التي تحكمها ظروف مناخية تتأثر بتوزيع الأمطار وتوقيتها.

ويمكننا أن نطلق التعريف القرآني للبادية بأنه ما يعرف عند علوم العمارة وفنونها بأنه المكان الواسع أو الريفي (Rural)، وعكس الحاضرة والتحضر والمعروف معمارياً أو هندسياً بأنه المدني أو الممتليء عمارة وتنظيماً في مساكنه وطرقه ومبانيه (Urban).

٤ ـ **البلد**: كل موضع مُستَحيز من الأرض عامر أو غير عامر، خال أو مسكون، والبلد الأرض مطلقاً، ويقال: البلد (الدار) يمانية أو المقبرة، ورد ذكره في القرآن الكريم تسع عشرة مرة... والبلد من الأرض ما كان مأوى للحيوان وإن لم يكن فيه بناء، والجمع بلاد وبلدان، والبلد جنس المكان كالعراق والشام، والبلدة الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق، والبلد مكة تضخيماً لها، والبلد ما لم يحفر من الأرض ولم يوقد فيه، وَبَلَدَ بالمكان أقام.

ولقد تباين معنى هذا المفهوم حديثاً إذ تشير المصادر الحديثة إلى إن البلد نطاق من الأرض ضخم في مساحته وسكانه منفتح وغير مغلق، يحتوي على بنايات ضخمة ومنازل كبيرة ونشاط غير زراعي للبشر فيها، وقد تستعمل بمعنى القطر أو الوطن الواحد... ويطلق على البلد تسمية الحضرة والحاضرة وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، ويذكر ابن خلدون «أن الحضر هم

= البيهقي الكبرى، سنن النسائي الكبرى، المنتقى لابن جارود، شرح معاني الآثار وغير ذلك من كتب الآثار. أما اللفظ الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية**»، فقد أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه الكبرى بسند صحيح كما قال الألباني، ففي سنن أبي داود (**٢/٣٣٠/٣٦٠٢**) عن أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية**»، قال الشيخ الألباني: صحيح، وقال عنه الذهبي في التلخيص: لم يصححه المؤلف وهو حديث منكر رغم نظافة سنده. انظر: المصادر.

الحاضرون، أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرقى مما دعاهم إلى السكون والدعة وتوسعة البيوت واختطاط المدن والحاضرة الحي العظيم، والحاضر القوم ويقال للمقيم على الماء: حاضر، وجمعه حضور وهو ضد المسافر، وفلان حاضر بموضع كذا، أي: مقيم به، وكل من نزل على الماء ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً فهو حاضر سواء نزلوا في القرى أو الأرياف.

ويعدّ التعريف الحديث للحضر أكثر تخصيصاً لحيز المكان وأدق تميزاً لنشاط السكان إذ تذكر بعض المصادر إن الحضر تجمع سكاني كبير لا أثر فيه للنشاط الزراعي، وهناك اختلاف في القواعد الخاصة في اعتبار سكان منطقة ما حضراً ومن بلد لآخر، مما يؤدي إلى اعتبار صنف من الناس بينَ بينْ لأن عددهم قليل ومع ذلك فهم لا يمارسون نشاطاً زراعياً فيقال لهم: شبه حضر.

٥ ـ **المدينة**: هي المصر (المصر: الحاجز والحد بين الأرضين) مفعلة من دان، أي: مَلَكَ، أو هيَ مَدَنَ إذا أقام. ولغة: هي مكان الإقامة أو الاستقرار، فمَدَنَ بالمكان، أي: أقام به، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة قصد بأربع منها مدينة يثرب التي نُورت بمقدم الرسول ـ ﷺ ـ عليها بالإسلام. ويتفق الاصطلاحان المدينة والقرية على استقرار وثبات جماعة من السكان في حيز مكاني معين نقيض في نوع النشاط البشري. . . والديان من أسماء الله تعالى، معناه: الحَكَمُ القاضي، والديان القهار والحاكم والسائس وهو فعال، أي: من دان الناس أي قهرهم على الطاعة فأطاعوا. . . ويؤكد الجغرافيون في دراستهم للمدينة على نشأتها وتطورها وتركيبها الداخلي مع تأكيد على نمط التوزيع وعلاقاته المكانية والخصائص الوظيفية والأشكال العمرانية والإنسان الذي أعدها. ولقد ذكرت عدة مدن في الكتاب العزيز إما باسمها المباشر أو بلفظ غير مباشر كما هو الحال في ذكر مدن مكة، يثرب، المدينة، بابل، الأحقاف، مصر (وهي كناية عن مدن مصر القديمة)، وغيرها. بينما ذكرت

مدن بشكل غير مباشر مثل القدس الشريف، نينوى في قصة قوم يونس وهي أول قرية يمتدح الله تعالى أهلها بعد أهل المدينة الأكارم لأنهم أنابوا واستغفروا، أنطاكية في قصة الرسل الثلاثة في سورة يس، فيلادلفيا، أي: عمان اليوم في قصة أهل الكهف، سبأ في قصة انهيار السد، أقصى الشرق في قصة ذي القرنين وغير ذلك. كما ذكر أقوام بعينهم كالروم، يأجوج ومأجوج، قوم فرعون، بنو إسرائيل، قوم لوط، قوم تبع، أصحاب الأيكة وبقية أقوام الرسل ـ عليهم السلام ـ أجمعين، كذلك ذكر الفرس وهم من غلبوا الروم بصيغة المبني للمجهول في أوائل سورة الروم قروناً بين ذلك كثيراً(١).

وكما أنك تجد في علوم وفنون العمارة وهندستها تصنيف المقاطعات الكبيرة (County) والمدن الكبيرة (City) والصغيرة التي تصل لحد القرية (Town)، فإنك تجد القرآن الكريم سباقاً لتوضيح ذلك عندما يفرق لك بين القرية والمدينة والبادية والريف وغير ذلك، فالمصطلحات قد تختلف ولكن المعنى الضمني واحد.

الدور والمنازل والمساكن والبيوت هي أهم وحدة سكنية على الإطلاق، إذ هي التي تمثل سكن واستقرار أهم لبنة للمجتمع ألا وهي الأسرة. وأما سواها من البنيان والمنشآت فكله جاء خادماً لها في أمور الدنيا والآخرة ومكملاً لاحتياجاتها من مساجد ومدارس ومستشفيات وأسواق ومؤسسات ودوائر وغير ذلك مما بيَّنا في كتاب الهندسة المعمارية.

ولقد أولى القرآن الكريم أهمية كبيرة لمصطلحات ومفردات عديدة تتعلق بعوامل المكان والزمان في بناء وتشييد الوحدات السكنية التي هي المنازل والبيوت، وإن كانت في بعض المواضع تتعدى معنى الوحدة السكنية لمعاني مجازية أخرى أوسع لما في لغة العرب من سعة وبلاغة

(١) المكان في القرآن، بحث للدكتور وليد البدري، الجامعة الإسلامية ببغداد، قسم العقيدة، بتصرف.

وشمولية ودقة وحركية لفظية جميلة، أو أنها عنت مبانٍ لها أغراض وظيفية أخرى غير سكنية كحال بيوت العبادة أو المساجد، أو لحال تلك المنشآت، ولكن ليس في الدنيا بل في الآخرة، والقرآن الكريم عادة ما يستعير من لغة العرب مصطلحات مستخدمة شائعة ليضفي عليها معانٍ جديدة لم تعهدها الألسن وقت النزول لأنها تتعلق بمكان وزمان آخر هو الدار الآخرة.

لنتأمل التلخيص التالي لما جاء من مفردات تتعلق بتلك الوحدات السكنية في كتاب الله تعالى:

١ ـ ورد مصطلح البنى والبناء (**٢٣**) مرة.

٢ ـ ألفاظ العمران مثل (عمَّر) وغيره جاءت (**١٩**) مرة.

٣ ـ لفظة دار وديار ومشتقاتها جاءت (**٤٨**) مرة، منها ما عنى دار للسكن، أو صفة الجنة التي هي دار للمتقين دار السلام وحسن المقام، أو جهنم كدار بوار وساءت مقاماً والعياذ بالله.

٤ ـ لفظ السكن والمسكن والمساكن ومشتقاتها وردت (**٤٣**) مرة، منها مساكن في الدنيا، ومنها مساكن طيبة في الآخرة.

٥ ـ كلمة بيت وبيوت ومشتقاتها (**٧١**) مرة، منها ما عنى البيت كمسكن للبشر والحيوان كبيت العنكبوت، ومنها ما عنى بيت الله أو المسجد كالمسجد الحرام أو أي مسجد آخر كقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦]، أو بيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنفال: ٥] التي تؤخذ على معنى البيت أو معنى الوطن الذي هو مكة المكرمة.

٦ ـ كلمة منزل ومنازل ومشتقاتها جاءت في كتاب الله تعالى (٣ مرات)، منها ما عنت منازل القمر أو منازل مباركة.

٧ ـ كلمة قصر وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥].

٨ ـ الصرح الذي هو القصر المنيف الكبير الفخم جاء في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤] كما سنفصل لاحقاً.

٩ ـ كلمة ملجأ كمكان للجوء والسكن مؤقتاً أو بشكل دائم جاءت ٣ مرات لتعني الملجأ المادي أو الملاذ الروحي إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٧]. . . ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨]. . . ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧]. ومن ذلك ما جاء في قصة أهل الكهف ولجوئهم للكهف في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠]، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٦].

رابعاً: الهندسة الوصفية في القرآن الكريم:

هذا التخصص من أهم التخصصات التي تعتمد عليها الهندسة المعمارية بل العديد من التخصصات الهندسية الأخرى كما علمنا من

الفصل الأول، وقد خصصنا له كتاباً تكلمنا فيه عن السبق القرآني والنبوي في مجال الأشكال الهندسية التي جاءت تصريحاً أو تلميحاً، وهذا الكتاب هو (الهندسة الوصفية في القرآن والسُّنة النبوية)، وتطرقنا فيه لأمور كثيرة فبإمكان القارئ الكريم الرجوع إليه. وهنا اقتضى ذكر هذا التخصص المهم مع التنويه لذلك الكتاب كي يربط القارئ الكريم كل تلك التخصصات.

خامساً: الأحمال والقوى والإجهادات في القرآن الكريم:

هذا التخصص أيضاً يعتبر من ركائز التخصصات الهندسية ليس في مجال الهندسة المعمارية فحسب، بل في كل التخصصات الهندسية الأخرى.

وقد خصصنا له كتاباً تكلمنا فيه عن السبق القرآني والنبوي في مجال تصنيفات وتفاصيل القوى والإجهادات والأحمال التي جاءت تصريحاً أو تلميحاً في الكتاب والسُّنة قبل مصنفاتنا الحديثة. وهذا الكتاب هو (الأحمال والقوى والإجهادات في القرآن الكريم)، وتطرقنا فيه لأمور كثيرة فبإمكان القارئ الكريم الرجوع إليه.

وهنا أيضاً، اقتضى ذكر هذا التخصص المهم مع التنويه لذلك الكتاب كي يربط القارئ الكريم كل تلك التخصصات.

سادساً: المساحة وعلومها في القرآن الكريم:

بالنسبة لعلوم المساحة التي تعتبر من التخصصات المهمة للكثير من الفروع الهندسية مع أنها اليوم أصبحت تخصصاً مستقلاً، فإننا بيَّنا السبق القرآني الرائع لعلومها وتصانيفها وتفاصيلها في كتاب (المساحة وعلوم الأرض) ضمن هذه السلسلة. لذلك نوهنا هنا لهذا التخصص، وأما تفاصيله فبالإمكان الرجوع لها في ذلك الكتاب.

سابعاً: الأمن والأمان وأهميتهما في العمران والتطور:

لا يختلف اثنان في أن لا عمارة إلا مع الأمان والاطمئنان، فالعمارة

لا تستقيم مع تدهور الأوضاع الأمنية والفتن التي تجتاح المجتمعات فتقتل وتخرب وتحرق وتفسد، والعمارة تحتاج لتخطيط وتدبير وإمكانات مالية ضخمة، وغير ذلك من عوامل نجاح واجبة التوفير لغرض الخروج بأحسن النتائج للهدف المرجو.

والأمن نوعان، أمن سياسي واجتماعي، وأمن اقتصادي وازدهار تجاري، والاثنان متلازمان تلازماً عضوياً، فلا يتحقق الأول إلا بتحقق الثاني والعكس صحيح. وقد ربط القرآن الكريم بين هاتين النعمتين ربطاً لا انفصام له في آيات عدة مبيناً هذه العلاقة الهندسية الاقتصادية الاجتماعية السياسية المهمة.

هاتان النعمتان هما الأمان السياسي والعسكري والاجتماعي، كذلك الرخاء والتقدم الاقتصادي، وقد جاء ذلك في مناسبات عديدة في الكتاب العزيز منها دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما أسكن زوجه السيدة هاجر وابنه سيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام ـ في واد غير ذي زرع: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد عاتب الله تعالى قريش وأهل مكة بأنهم لم يشكروا نعم الأمان عموماً فحق عليهم القحط في المأكل والمشرب والحرمان من الأمان لعلهم يعودون عن غيهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، وهذه القرية هي مكة كما قال المفسرون.

دعونا نفصل أكثر فيما صنفه القرآن الكريم في هذا الأمر:

⊙ الأمن السياسي والعسكري والاجتماعي:

١ ـ ذكّر قريشاً بنعمة البيت الحرام الذي يظل آمناً تجبى إليه ثمرات

كل شيء رغداً بينما يتخطف الناس من حوله، وأمرهم بأن يشكروا ربهم الذي أعطاهم نعمة الأمان ونعمة الشبع من نعم الله رغم فقر المنطقة من أي زرع، بقوله تعالى في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾. فالأمان وحماية البيت هنا عن كل ما يجري في الأرض من أحداث، والذي يقلّب صفحات التاريخ يتعجب لكون ما حصل لمكة المكرمة من أحداث وتقلبات تعتبر قليلة بل تكاد تكون معدومة مقارنة بما حصل لسواها من المدن عبر التاريخ. فإنك لا تجد مثلاً أحداثاً دامية أو مذابح أو أمور مشابهة حصلت لهذه المدينة عبر التاريخ. بل حتى ما حصل في حالات الصراعات القبلية في هذه المدينة منذ تكوينها بين خزاعة وجرهم أخوال سيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ، ومن ثم الغزوات الأجنبية كغزو الأحباش والذي ذكرنا قصته في الكتاب الأول، ثم في عهد البعثة الشريفة وما حصل في فتح مكة إذ أطلق الرحمة المهداة ـ ﷺ ـ الناس ولم يعاقبهم على ما فعلوه بالمسلمين، فحمى الله تعالى بيته العتيق ومنع أن يتطور الصراع إلى أن يكون دموياً. أما ما حصل في أوقات أخرى من التاريخ الإسلامي كما في حالة ثورة عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أو غيرها سواء في مكة أو في المدينة، ثم ما حصل في العهد العباسي والعثماني والمملوكي وصولاً إلى غزو الجيش المصري في عهد محمد علي باشا لإخماد الحركة الوهابية، لم يكن دموياً أو مأساوياً كما حصل في تاريخ مدن أخرى.

أما ما حصل من أمر القرامطة وسرقة الحجر الأسود وما فعله في سنة**٣١٧** هـ أبو طاهر سليمان الجنابي فهو من أشنع وأدهى ما حصل لهذه الأرض المقدسة، وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها

يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هَجَر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد، حتى إن المهدي عبيدالله العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة، فأعاد الحجر الأسود بعد عقدين من الزمن، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده، وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم(١).

٢ ـ كأن كل ذلك الاستثناء لهذه المدينة وهذا الحفظ العجيب لها من ملمات الدهر يشكل حفظاً خاصاً وعناية متميزة لهذه المدينة التي تحوي بين جنباتها أطهر بقعة ألا وهي بيت الله العتيق، وكأن

---

(١) انظر القصة كاملة في كتب التاريخ والسير، مثل: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمٰن بن حسن الجبرتي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان. الكامل في التاريخ، تاريخ ابن الأثير، ابن الأثير، تحقيق أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ط/١، ٢٠٠٥م. تاريخ الخلفاء، عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة ـ مصر، ط/١، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م. تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل ببيروت، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط/١٥، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م وغيرها.

الكلمة الخالدة التي أطلقها عبد المطلب بن هاشم جد النبيّ - ﷺ - إبان الغزو الحبشي عام الفيل يتردد صداها عبر العصور: (للبيت رب يحميه)... وإنك تجد ذلك كله مثبتاً في القرآن الكريم كما جاء في سورة الفيل مثلاً. ويقول تعالى موضحاً دعاء أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يكون البيت الحرام آمناً مرزوقاً طيباً، ومن ثم استجابة الله تعالى لذلك الدعاء: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٦]... ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]... ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]. بل إن الله تعالى ذكّر كفار مكة بهذه النعمة العظيمة، وكأن هذه التذكرة تمثل قانوناً خاصاً بهذة المدينة العظيمة بأنها ستكون بمنأى عن أي اضطراب في حركة الأمم والشعوب، وهذا ما حصل فعلاً: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]... والأكثر من ذلك والأعجب أن الله تعالى أمر بعدم قتال الكفار والمشركين في هذا المكان لقدسيته: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١]. فالآية تذكر واجب قتال الكفار والمشركين إبان المعارك بينهم وبين المسلمين في عهد النزول في أي مكان إلا عند المسجد الحرام،

فانظر وتدبر لقدسية المكان بحق دم الكافر فكيف بحق دم المؤمن!... بل إن من مشاعر الحج أن لا يقتل صيد بر ولا تقطع شجرة، وما ذلك إلا لتعليم الناس قدسية هذا المكان الطاهر.

ولقد فصلنا في كتاب المساحة وعلوم الأرض الكثير عن الحفظ الجيولوجي والطوبورغرافي لمكة المكرمة، وكيفية تشكيل الجبال حولها منذ أزمنة سحيقة كالمعصم حول اليد لتكون تلك الحماية العسكرية المهمة التي كان لها أثرها البالغ في منظومة الحفظ الشاملة لبيت الله العتيق عبر التاريخ.

٣ ـ الجانب الروحي والوحدة الروحية في هذه الرقعة الجغرافية لزائر هذا المكان الطاهر: يعلم كل من حج أو اعتمر مدى الاستقرار النفسي والذهني والروحي الذي يصيب حتى العصاة والمبتعدين عن منهج الله تعالى عند دخوله لهذا المكان، وقد علمتم ما ذكرنا من أمر البحوث التي بينت مركزية مكة المكرمة للطاقات والإشعاعات الكونية كما بينا في كتاب المساحة وعلوم الأرض ضمن هذه السلسلة، وسبحان الله العظيم... وعندما أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالمناداة بالحج ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧]، تعجب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، إذ كيف يمكن إيصال الصوت لكل الناس في كل الأرض، فأخبره الله تعالى أن اعمل بالأسباب فعليك المناداة وعلينا الإيصال، فيقول بعض العلماء: وصل الصوت لكل صلب رجل وجنين امرأة... هذه الوقفة على جبل عرفات الذي يذكر بعض العلماء أن آدم وحواء عند نزولهم للأرض كل في مكان مختلف التقيا فيه لكل أجناس البشر، بل كل مشاعر الحج تنبئك بأن الوحدة بين المسلمين في هذه الأرض الطاهرة على صغر رقعتها الجغرافية مسألة حتمية من الله تعالى رغم أنوف كل القوى التي تريد عكس ذلك مهما بلغت قوتها،

وكان الله تعالى يتحدى أي قوة تمنع وحدة المسلمين الروحية دون أي تمييز وتفرقة حتى وإن منعوا من الوحدة بمفهومها السياسي والجغرافي... فتأمل أخي الكريم أي قوة تحفظ هذا الدين؟!!...

من هنا، يتبين لنا مدى الأهمية التي أولاها الله تعالى للأمن الذي به تحفظ الأنفس والأرواح وتقام العدالة وتوزع الثروات.

⊙ **الأمن الاقتصادي والغذائي:**

لا تكتمل صورة الأمن السياسي والاجتماعي إلا بتكامل الأمن الغذائي والاقتصادي بشكل عام، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم في قصص عدة، منها:

١ - قصة قوم فرعون وما أصابهم من القحط في تسع آيات نزلت بهم وكانوا كلما أصابهم القرح هرعوا لموسى أن يدعو ليرفع عنهم الكرب ويعدونه بأن يؤمنوا بما جاء فيفعل وينكثون. وهذه القصة تبين أهمية الأمن الاقتصادي والغذائي في حياة الشعوب.

٢ - قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى نقلاً عن قول سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: ٥٥]. أي: اجعلني وزيراً للخزانة أي المالية حتى أوزع الثروات بالعدل وأحفظ حقوق العباد فأنا في ذلك من المتخصصين. وقد جاء ذلك بعد قصته ـ عليه السلام ـ مع رؤيا الملك وما حصل من قحط للبلاد وكيف علمهم سيدنا يوسف أن يخزنوا من قوت الشعب للأوقات العسيرة وفعلاً أفادتهم النصيحة إذ خلصتهم من هلاك حقيقي بعد قحط دام لسبع سنين عجاف.

أما الإشارة والمثل القرآنيان للغذاء الأساسي الأهم للبشر الذي تشترك فيه كل شعوب الأرض ألا وهو القمح والشعير، فقد جاء بمثل يضرب على مضاعفة العمل الصالح، إذ يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن تخزين هذا المحصول الاستراتيجي تبين لنا قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ التي ترويها لنا سورة يوسف أسلوباً رائعاً في ذلك. فكما هو معروف أن حسابات زراعة القمح تتطلب دراسات لكميات الضوائع والتلفيات أثناء تخزينه ونقله ورشه، ثم الخسائر المحتملة من موت جزء منه، فضلاً عن متوقع الناتج المرتبط بالمطر أو الري السيحي وما يعتري كل ذلك من احتمالات. ومنذ قرون خلت وحتى في وقتنا التقني المتطور هذا لم تخل عملية تخزين القمح من خسائر وتلفيات جراء الجو وتقلباته، أو القوارض والحشرات وما تفعله من تدمير أو لغير ذلك من العوامل، فكان لزاماً من التفكير بطرق أكثر نجاعاً واقتصادية وسهولة وللحفاظ على جودة غذاء البشر الأساس هذا أطول مدة ممكنة. ثم توصلوا أخيراً إلى تلك الطريقة الوحيدة الفريدة التي تحقق كل ذلك، ألا وهي الإبقاء على الحب في سنبله دون طحنه أو قشره، ثم بعد ذلك تستمر العملية لسنين، وقد أثبتت البحوث أن هذه التقنية الاقتصادية والسهلة توفر حاصلاً لا يتلف بالوقت وتقلبات الجو حسب، بل يزيد الغلة الناتجة وكمية المحصول تراكمياً.

ولكن المتأمل لقصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ مع ملك مصر وكيف أنه أعطاهم حسابات دقيقة لسنوات الأزمة الاقتصادية التي ألمت بالبلاد، ليعي تماماً أن كل تقنياتنا الحاسوبية ونظرياتنا الاحتمالية تقف صغيرة أمام ذلك الإنجاز المهم لذلك النبيّ الكريم ابن الكريم الذي كان ينطق بما يأمره ربه جلّ وعلا، والذي أعطى سبقاً لهذا الحل مما توصل إليه علمنا الحديث بكل تطوره، وإذا ما أضفنا بعداً آخر لهذا الإعجاز، وهو أن تلك القصة لم تفصل في أي كتاب سماوي سوى القرآن، لتجد أن هذا يعني أن القرآن الكريم حقاً هو كون مقروء.

اسمع لكتاب ربك وهو يقص عليك القصص الحق لسيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ مع ملك مصر بعد أن رأى رؤيا في المنام أفزعته، فكانت تلك الرؤيا سبباً لتذكر أحد زملاء سيدنا يوسف في السجن عقب خروجه منه ونسيانه وصية سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ بأن يذكر مظلمته عند الملك عسى أن يخرجه من سجنه. وبعد ذلك فسّر سيدنا يوسف الرؤيا بأنها أزمة اقتصادية ستعصف بالبلاد، وبعد تحقق ذلك أخرجه الملك من سجنه وعينه وزيراً للمالية والاقتصاد ليقيم التوحيد وينشر الحق والعدل الاجتماعي والاقتصادي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٩].

وهنا التنبيه القرآني البين بأن العدل في توزيع الثروات والأمن الغذائي والاقتصادي هو الطريق الحق لنمو المجتمعات وازدهارها. فبالله عليكم من أين أتى سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ بهذه الدقة في الحساب والتخمين في قضية تخزين الغذاء وأثر ذلك في الأمن الاقتصادي والغذائي، ومن أين للقرآن الكريم تلك التفاصيل غير المذكورة في ما سبق من كتب سماوية؟! ومن أين لنبينا وسيدنا محمد ـ ﷺ ـ كل تلك المعلومات؟! أليس الجواب واضحاً؟ فسأتركه لفطنتكم وذكاءكم. وسبحان ربك عما يصفون وتعالى علواً كبيراً.

ثامناً: التاريخ العمراني في القرآن الكريم:

نستمر بتجوالنا في هذه الرحاب الطاهرة لنصل إلى موضوع آخر من موضوعات الهندسة المعمارية، وهو التسلسل التاريخي للعمارة في قصص القرآن الكريم. فلقد بين لنا القرآن الكريم أطواراً من التقدم العمراني لأقوام سبقت وأمم سلفت فامتدح أقواماً وذم آخرين ولكل سبب وحكمة.

ويمكننا أن نقسم التاريخ العمراني في القرآن الكريم حسب نوع المسكن وأسلوب بنائه، أو من حيث الرقعة الجغرافية الخاص بها والأمة والحضارة التي ينتمي إليها. ولكن، على العموم يمكننا إجمال كل ذلك بما سنستعرضه أدناه:

(١) ذكر السكن في الكهوف وهو أقدم أنواع السكن للبشر، والذي عادة ما كان مرتع الأنبياء والصالحين في نجواهم ودعواهم، كما هو الحال في قصة أهل الكهف والسورة التي سميت باسمهم لما كان لهم من أمر عجيب وسرد غريب لم يألفه البشر. ولكن ما يهمنا أن القرآن الكريم قد صنّف هذا النوع من المسكن في هذه القصة المشوقة كأحد أصناف السكن، وإن كان هرباً وملجأً من ظلم حاكم جائر.

(٢) نحت البيوت في الجبال وبناؤها فوق تلك الجبال أو في داخلها كنوع متقدم وراق في العمارة وأساليبها وصل له البشر بعد مسيرة زمنية طويلة. وهذا ما هو مذكور في قصص عاد وثمود وأساليب بنائهم العجيبة في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وكذلك قوله تعالى من نفس السورة المباركة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]، وهذه الآيات المباركات هي عن قصة سيدنا هود وسيدنا صالح ـ عليهما السلام ـ الذين بعثا لقوم عاد وثمود حيث قالا لهم: إنكم تتخذون من الجبال بيوتاً فارهة وتتخذون مصانع لمصالحكم دون الانتباه إلى مصيركم ولتجعلوها لمختلف أغراض الحياة

ظانين أنكم بهذا ستخلدون في الأرض ولا تموتون مع أنكم نسيتم ذكر الله وشكره على هذه النعم. والريع المرتفع من الأرض والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة، وأن القصد من ذلك هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ فهو توصية بأن ينفق الجهد وتنفق البراعة وينفق المال فيما هو ضروري ونافع لا في الترف والزينة ولمجرد إظهار البراعة والمهارة ويبدو كذلك من قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾، أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر، حتى تتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشييد العلامات على الطريق والمرتفعات، وحتى ليحول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بواسطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ووقايتهم من تقلبات الجو ومن غارات الأعداء[١].

وفي الآية الأخرى، يبيِّن الله تعالى لهؤلاء القوم عن طريق نبيه صالح ـ عليه السلام ـ أنكم تتركون في البيوت تنحتونها من الصخور مهارة وبراعة وفي أناقة وفراهة[٢]. وفي هذا قال البخاري رحمه الله تعالى: (قال ابن عباس ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾، أي: كأنكم تخلدون، الريع الارتفاع من الأرض وجهة ريعه، وأرياع واحدة ريعة، ﴿مَصَانِعَ﴾ كل بناء فهو مصنعة، فرهين فرحين، ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بمعناه، ويقال: فارهين حاذقين، ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ هو أشد الفساد، عاث يعيث عيثاً. وقال تعالى في سورة الأعراف، الآية: ٧٤، منبئاً عن قوم ثمود مع سيدنا صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾. كذلك ذكرت هذه المسألة في آيات أخرى وهي آيات

(١) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ج/٥، ص ٢٦٠٩ ـ ٢٦١٠.

(٢) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ج/٥، ص٢٦١١.

سورة الفجر بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨]. وعن ثمود ذكرت الآية: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩].

قبل النظر إلى الكشوف الأثرية التي تتعلق بثمود، من المفيد العودة إلى قصة هؤلاء القوم في القرآن الكريم لنقرأ مواجهتهم مع رسولهم، والقرآن كتاب يخاطب كل الأزمنة، لذلك كان تكذيب ثمود لرسولهم من الحوادث التي سردها القرآن ليتعظ بها كل الناس على مر العصور.

لقد كان قوم صالح ـ عليه السلام ـ وهم ثمود يتخذون من الجبال بيوتاً فينحتونها في الصخر داخل الجبال تماماً، مثلما نشاهد اليوم بعض الآثار المشابهة كما في مدينة البتراء بالأردن. (انظر: الشكل ٦ ـ أ، ب) التي يعتقد أن كلتا المدينتين تعودان لنفس الحضارة وهي حضارة الأنباط كما سنبين. يقول تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٩]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]

لكن قوم ثمود كذبوا نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ رغم كل تحذيراته لهم وزادوا بتحديه بأن يأتيهم بما يعدهم مستعينين بقوة بنائهم وهندستهم الصخرية الحصينة التي عجز أي مهاجم عن اقتحامها، معتقدين أن القياس الذي يتصورونه قياس بشري ولم يخطر ببالهم أن من يتعاملون معه هو رب العزة القادر على أن يأتي ببنيانهم من القواعد، فجاءهم العذاب من حيث لا يحتسبون، عذاب يناسب هندسة بناءهم الحصين بموجات صوتية شديدة دمرت حصونهم وقتلت عتاتهم.

أرسل الله صالحاً ـ عليه السلام ـ إلى ثمود، وصالح هو فرد من أفراد القوم، إلا أن قومه لم يكونوا يتوقعون أن يأتيهم بدين الحق، لذلك فقد فوجئوا عندما سمعوا دعوته وأنه هجر ما كانوا عليه من الانحراف والضلال، كان أول ما جابهوه به أن قذفوه وشتموه:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦١، ٦٢].

القليل من القوم استجابوا لصالح ـ عليه السلام ـ، إلا أن غالبية القوم لم يقبلوا دعوته، وكان أشدَّهم عداوةً عِلْيَةُ القوم وزعماؤهم، غضبوا من صالح لأنه دعاهم لعبادة الله، فكذَّبوه وحاولوا أن يضطهدوا الذين آمنوا معه ويعذبوهم، ولم تكن ثمود أوَّلَ من يفعل ذلك، فهم يكررون الخطأ الذي وقع فيه كلٌّ من قوم نوح وعاد الذين عاشوا قبلهم، لهذا نجد أن القرآن يقرن بين هؤلاء الأقوام الثلاثة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩].

وبالرغم من تحذير صالح لقومه، ظل القوم يشككون برسالته، ولم يؤمن بما جاء به إلا نفر قليل منهم، وهؤلاء هم الذين أنقذهم الله مع صالح من الهلاك الذي حل بالقوم المكذبين، واستمر زعماء القوم على اضطهادهم لهذه الفرقة المؤمنة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وأصرَّ القوم على عنادهم وتشكيكهم بنبوة صالح ـ عليه السلام ـ، علاوة على ذلك كانت هناك مجموعة منهم أنكرت صالحاً ـ عليه السلام ـ وكفرت بما جاء به جهاراً وبوقاحة، هؤلاء هم الذين ائتمروا بقتل صالح ـ عليه السلام ـ. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٤٧ ـ ٥٠].

وجاءهم صالح ـ عليه السلام ـ بآية الناقة ليرى هل يغير ذلك من نظرتهم فيتبعونه أم لا؟ قال لقومه أن يشاركوا ناقته بمائهم، وأن لا يتعرضوا لها بالأذى، فما كان من قومه إلا أن قتلوا الناقة. تروي لنا سورة الشعراء القصة في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩].

أما صراع صالح ـ عليه السلام ـ مع قومه فتعرضه لنا سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣٢].

هؤلاء القوم لم يواجهوا العقاب مباشرة بعد فعلتهم، مما زاد عنادهم وتكبرهم فقاموا بمهاجمة صالح ـ عليه السلام ـ، أنكروا عليه دعوته واتهموه بالكذب.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

أحبط الله مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحاً من بين يدي من أرادوا به سوءاً. وبعد أن استنفذ صالح ـ عليه السلام ـ جميع الوسائل والطرق في تبليغ الرسالة، وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]. وبعد ثلاثة أيام وقع العذاب على القوم وهلكت ثمود، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧، ٦٨][1].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٦].

يروي لنا القرآن أن ثَمُوْد كذبوا واستهتروا بالنذر التي أرسلها الله إليهم مثل عاد فلاقوا نفس المصير، وقد ظهرت إلى الضوء اليوم بفضل الأبحاث والدراسات التاريخية والجيولوجية أشياءُ لم تكن معروفة قبل، مثل المنطقة التي أقام بها قوم ثمود، والبيوت التي بنوها، ونمط الحياة التي كانوا يعيشونها، إن ثمود التي ذكرت في القرآن الكريم هي حقيقة تاريخية أثبتتها العديد من الكشوف الآثارية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

(١) بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية. وانظر الموقع: http://www.perishednations.com

[الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]... يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير ما جاء في الآيات الكريمات من سورة الحجر: ٨٠ ـ ٨٤، ما نصه: (أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم ـ عليه السلام ـ ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الايات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿... تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: من الآية ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ [فصلت: ١٧]، وذكر تعالى أنهم: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: ٨٢] الآية، أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم**»، وقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾، أي: وقت الصباح من اليوم الرابع. ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾، أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك)(١).

ويقول القرطبي رحمه الله تعالى: (أول من نحت الجبال والصخور والرخام: ثمود فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف كلها من الحجارة، وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: ٨٢]، وكانوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (جزء ٢ ـ صفحة ٧٣٣)، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

لقوتهم يخرجون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم ﴿بِٱلۡوَادِ﴾، أي: بوادي القرى قاله محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال: أتى رسول الله - ﷺ - في غزاة تبوك على وادي ثمود وهو على فرس أشقر فقال: «**أسرعوا السير فإنكم في واد ملعون**». وقيل: الوادي بين جبال وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوار وأحواضاً وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو واد)[١].

تعد مدائن صالح من أقدم الآثار وأشهرها وأعظمها عبرة، ومدائن صالح تقع بالقرب من مدينة تبوك في شمال المملكة العربية السعودية، وتشمل عدة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال لأقوام حكموا شعوب هذه المنطقة من آشوريين وأنباط ورومان وعرب، كما ارتبطت المدائن بقوم ثمود الذين عايشوا النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ كما صرح القرآن الكريم بذلك. وأول انطباع لدى زائر هذه المدينة هو الرهبة والخشوع رغم مرور عهود طويلة على هلاك قومها، والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في آيات عدة. وكان أول ذكر لقوم ثمود في نقش الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) حيث سجل في هذا النقش انتصار الملك الآشوري على قبائل ثمودية في شمال الجزيرة العربية.

وحينما تدخل مدائن صالح ترى كأنك مقبل على كتلة جبلية واحدة متراصة بعضها متشابك في بعض (انظر: الأشكال ٦ ـ جـ، د)، وهذه الكتلة هي سلسلة جبال الأناصف، والفرق بين هذه الكتلة والأخرى هو بعض انخفاض بسيط في قممها بحيث ترى أن منظر الأثالث أقل في الارتفاع من الجبال النصفية، لكن إذا ولجت داخل مدينة الحجر وجدت نفسك بين جبال متقطعة كل جبل على حدة، ويفصل بين كل جبل وآخر شارع مستقيم، إلا أن الرمال المتكاثفة تغطي الشارع كله تقريباً في بعض الأماكن، وتارة ترى بين كل ثلاثة جبال أو أربعة شارع، والشوارع كلها

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن (جزء **٢٠** ـ صفحة **٤٤**)، أبو عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٥**م.

منظمة وفسيحة كأنها قد خططت في العصر الحاضر، ثم ترى الجبال منفصلة عن بعضها انفصالاً فنياً. وخلال تجوالك في هذه الديار تجد نفسك أخي القارئ الكريم بين آلاف الجبال المنفصلة عن بعضها بشكل هندسي رائع حتى لتخال نفسك أنك تمشي بين شوارع من جبال، وكل جبل منها منحوت بنقوش غاية في الدقة والإتقان.

صدق الله وأخطأ معاوية، هذه جملة خالدة قالها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ عندما قصد الحج إبان حكمه ومر على مدائن صالح وقال خلال سيره: أين الزورع والنخيل وأين المياه والعيون وأين الجنات والفواكه، والله سبحانه وتعالى يقول في أهل هذه الديار: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍۢ ﴿٢٥﴾﴾، الآية. ويقول العلامة حمد الجاسر يرحمه الله: إن صالحاً هذا رجل عباسي مسلم وأن منطقة مدائن صالح كانت معروفة ومسكونة وباقية إلى ما بعد القرن الثالث الهجري، ويدل على ذلك ما نقش على آثارها وقد سميت بهذا الاسم بعد أن كان اسمها (الرحبة).

يقول المؤرخ محمد عبدالحميد مرداد في كتابه (مدائن صالح): أن مدائن صالح هي بلاد عربية نحتت بأيد عربية تشهد للعرب بالذكاء وشدة الحذق وبطولة الاختراع وسلامة الذوق وحسن التفكير، وأنه في تجواله بهذه المدائن قد رأى أشباحاً ورسوماً وكهوفاً وأراضي سائخات وجبالاً ملونةً بعضها أحمر وبعضها رمادي، كل جبل منها يعبر عن سكنى عائلة مستقلة عن الأخرى.

ولا ترى النقوش على وجه الجبال إلا في داخلها أو على قممها أو ما كان معداً للزينة والتحفة، ثم ترى مداخل البلاد من طريق (العلا) كأنك داخل على جبال مقوسة أو شوارع منظمة، كما يسمى في الوقت الحاضر بأقواس النصر، كما أن الجبال التي على حافة مداخل البلد مشطورة نهائياً كأنها قسمت بسيف حاد حتى لا يزدحم الناس بالدخول، وتشاهد مداخل شارع مجالس السلطان مرتفعة ومنحوتة نحتاً رائعاً، وهذا المدخل الرئيسي المؤدي لمجالس السلطان أعظم روعة من المجالس السابقة.

ومدائن صالح سميت في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمدينة الرحبة وقد مرّ عليها في طريقه إلى غزوة تبوك، وكان بعض المسلمين قد نزلوا بها وأعدوا فيها الطعام، فلما علم الرسول ـ ﷺ ـ بذلك أمرهم بالكف عن الطبخ وأن يقدموه للإبل مع الرحيل من ذلك المكان، وقال لهم ـ ﷺ ـ كما جاء في الصحيحين: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم ما أصابهم**»(١).

ويشاهد عند مدخل كل جبل دهليز مفرغ، ثم سلم من الصخر يصعد إلى بعض المجالس الجبلية وبعض المصاعد التي توصل إلى غرف واسعة، أمامها مقدمة جبلية فيها نحت كالشباك تطل منه على نوافذ صغيرة يدخل منها نور وشمس وريح، حتى أن الهواء إذا انطلق بشدة في جوف هذه الجبال يخيل إلى الزائر أنه أصوات موسيقية، كما يشاهد على المداخل ونوافذ معظم الجبال نقوشاً قديمة الحفر، وبعض الكتابة «الثمودية» كأنها توحي باسم صاحب الجبل المنحوت وأفراد عائلته وتاريخ نحته.

وعند مدخل المدينة بعد اجتياز سهول أودية يطلق عليها (أودية المعظم) القريبة من الشام يرى الزائر جبلاً شامخاً رفيعاً منفصلاً عن بقية الجبال يسمى بجبل (الحوار)، أي: فصيل الناقة التي عقرها قوم نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ بعد أن طعنها قدار بن سالف، وسبب عقر الناقة

---

(١) جاء في صحيح البخاري (ج ١ ـ ص ١٦٧، ج ٤ ـ ص ١٦٠٩، ج ٤ ـ ص ١٧٣٧)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم**»، (أرقام ٣١٩٨، ٣٢٠١، ٤١٥٧، ٤١٥٨، ٤٤٢٥).. وأخرجه مسلم في الزهد والرقائق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (ج٤/٢٢٨٥/٢٩٨٠). وقوله عليه الصلاة والسلام: «**هؤلاء المعذبين**»، أي: لا تدخلوا ديارهم وهم ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ وهم أصحاب الحجر وهو واد بين المدينة والشام. انظر: المصادر.

كما قال ابن كثير وابن جرير وأصحاب التاريخ قالوا: إن قدار يهوى (قطام)، ومصدع يهوى (قبال) فيجتمعان بهما، وفي بعض الليالي قالتا لقدار ومصدع: لا سبيل لكما إلينا حتى تعقرا الناقة وتقتلاها، فقالا: نعم وخرجا وجمعا أصحابهما وقصدوا الناقة وهي على حوضها فقال الشقي قدار لأحدهم: أذهب فاعقر، فأتاها متعاظماً ذلك وهاب منها فبعث آخر فكان مثل صاحبه حتى أرسل كثيراً منهم فكانوا يتعاظمون قتلها، فمشى إليها وتطاول فضرب عرقوبها فوقعت تركض، وكان ذلك في واد فسيح يتخلله شعب أسود بين جبلين أسودين شاهقين على شكل الهرمين، وتسمى هذه الشعب بالمزحم، وبالقرب من هذا الوادي بئر مطمورة تعرف حتى اليوم بـ(بئر الناقة).

وقرب المزحم توجد جبال مختلفة الأشكال والأحجام والنحت والنقش والاسم ولا زالت باقية حتى هذه اللحظة ولها مسميات مختلفة مثل الأثالث وسميت بذلك بسبب غرق ثلثيها في الأرض كما يؤكد ذلك البدو الرحل، والأناصف، أو الجبال النصفية وهي من تسمية البدو أيضاً حتى الوقت الحالي وهي التي نصفها غائر في الأرض ونصفها العلوي بارز على وجهها وتشمل معظم وادي الحجر إلى حدود هدية قرب المحطة السابعة للسكة الحديدية من الأردن.

وبعض الجبال منحوت ومفرغ تفريغاً فنياً لدرجة أنه يصلح للسكنى والنزهة والتحصن والوقاية. ولعل من أشهر الجبال الموجودة في هذه المنطقة:

- جبل الذهب: وارتفاعه أكثر من ألف قدم ويبعد عن جبل الحوار بنحو خمسة وثلاثين جبلاً، وهو متصل بسلسلة صغيرة من الجبال المنحوتة هو في وسطها كأنه سنام بعير ضخم، كما يوجد به عروق ملونة كأنها أسلاك كهربائية عارية. ويرجع البعض سبب تسميته بالذهب تقديراً له بين الجبال ولقيمته الحجرية الصلبة وصلاحيته للنحت والحفر والسكنى.

- جبل الطيور: وهو على بعد نصف ميل من المزحم مكان عقر الناقة، وهو أيضاً غير منحوت، وهو أعلى من جبل الذهب قليلاً، ويوجد عليه تماثيل للطيور، وعلى حافته بعض الأعشاب الجميلة، وبأسفله نحت بشكل مبسط.
- جبل صرخود: وهو منحوت من عدة نواح من أطرافه الأربعة، وكل نحت يكفي لجلوس أربعة أشخاص، ويوجد فيه مغارات في كل مغارة تمثال صخري يشبه أصنام الوثنيين.
- جبل بلاعم: وهذا الجبل ليس به نحت كبقية الجبال المنحوتة المعدة للسكنى، ويدل عدم نحته على أنه ذو قيمة معدنية، وفي قمته مغارة صغيرة تصلح للاستظلال أو للوقاية من الأمطار.
- جبل دحدر: وهو جبل شامخ قريب من جبل الحوار يفصل بينهما جبل أسود صغير، وليس به نحت، ومن المحتمل أنه يحتفظ ببعض الكنوز المعدنية.
- جبل الكهوف: وهو من الجبال الشامخة، وبه **١٦** مغارة، كل مغارة منها منحوتة بشكل مربع وتسع لجلوس تسعة أشخاص، وتدل حالته على تهيئته لاستقبال الضيوف وكأنه دار للضيافة، ويتميز هذا الجبل أيضاً بشكله الرائع الجذاب، فضلاً عن أن الوادي القائم به خصب وذو أعشاب كثيفة تصلح لرعي المواشي، وبعضها ذات زهور برية.
- جبل بكرة: وهو عبارة عن كتلة صخرية تشبه في مجموعها جبلاً صغيراً كأنه ذو قروح ملتئمة مغروزة فيه عروق جبلية مسودة تشبه خط اللحام الذي يستخدم في لصق شيئين مثل عمودين. والبعض يطلق على هذا الجبل العبرة، ارتكازاً إلى أن ناقة الله قد خرجت منه عبرة وآية لقوم ثمود ومعجزة لرسول الله صالح ـ عليه السلام ـ.
- جبل جنيدع: يتوسط مجموعة من الجبال النصفية المنحوتة وهو بينها بمثابة القصر الكبير ويقع في وادي تبر، ويرجع البعض سبب تسميته بالجنيدع نسبة إلى «جندع» وهو أول من آمن بنبي الله صالح ـ عليه السلام ـ.

- جبل العذاب: وهو الجبل الوحيد المنفصل عن بقية الجبال على مسافة بعيدة تتراوح ما بين الثلاثة إلى الأربعة أميال وهو قريب من وادي المزحم الذي تم فيه عقر ناقة النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ، ويشبه هذا الجبل القلاع الحديثة، ولدقة نحت سلمه فإنه يمكن تسلقه بسهولة، ومن هذا الجبل ـ كما يذكر البعض ـ انطلقت شرارة الهلاك لأمة بأسرها شاملة الزورع والأودية والسهول والحيوانات.

- جبل المروج: وهو جبل مرتفع شامخ يزيد ارتفاعه على ألف قدم، ويوجد بسفحه أعشاب مختلفة الألوان والرائحة، وبقمته استراحة فسيحة تنبت حولها أعشاب ذات منظر جميل، ويبدو أنها كانت مخصصة لأثرياء قوم ثمود. كما يوجد في وسط الجبل نحت في سقفه تمثال محكم الشكل والدقة في الصنع يشبه رأس النسر[١].

الشكل (٦ ـ جـ، د) يبين بعضاً من تلك الجبال والبناء الفخم والعظيم الذي شيده هؤلاء القوم.

تاريخ (الحجر) لا نعرف عنه إلا القليل، ويمكن القول بأن المدينة تأسست في بداية الألف الأول ق.م، ثم شهدت فيما بعد سيطرة الدادانيين[٢]. والأنباط عرب ـ كما يقول أكثر المؤرخين ـ، وامتد حكمهم من القرن الأول قبل الميلاد إلى سنة **١٠٦** ميلادي عندما سقطت دولتهم في أيدي الرومان. وقد سكن الأنباط مدينة الحجر واتخذوها عاصمة ثانية جنوبية لدولتهم الأنباط، وكانت البتراء عاصمتهم الشمالية، أما أصل الأنباط فليس معروفاً، وبعض المراجع تؤكد أنهم كانوا جماعة من الأعراب استقروا تدريجياً، ولم يبنوا مساكن لهم أو يشربوا الخمر، وكانوا رعاة. وقد لعب الأنباط دوراً هاماً في تاريخ المنطقة من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي[٣]. وتستمد مدينة الحجر شهرتها التاريخية من أصحابها قوم

---

(١) انظر: الموقع (http://www.alkhorcity.net/forums/printthread.php?t=ww8& page=3).

(٢) مجلة أطلال، العدد ١١، ص:٥٨.

(٣) مجلة أطلال، العدد ١٠، ص:١٣٦.

ثمود الوارد ذكرهم في القرآن، وتعرف الحجر في العصور القديمة باسم (هجراء) كما ذكرت في القرآن والسُّنة وفي مؤلفات الجغرافيين العرب القدامى باسم الحجر أو ديار ثمود ولم تذكر باسم مدائن صالح، والحقيقة أنه يصعب تحقيق المواقع الأثرية ولمن تنسب. إن نسبة مدينة الحجر إلى مدائن صالح يرجع إلى أحد الأسباب التالية:

أ ـ قد يكون الرحالة الأندلسي الذي أطلق على الحجر اسم مدائن صالح مجرد تسمية جديدة ابتكرها من خياله وقصد بصالح النبيّ.

ب ـ هناك من يرى أن المنطقة المعروفة بـ «مدائن صالح» نسبة إلى النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ، فقد ورد في حولية الآثار، العدد العاشر ما نصه: (أما اسم مدائن صالح فيرجع إلى أوائل العصر الإسلامي أو قبل الإسلام مباشرة ويرتبط باسم النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ)[١].

ج ـ من المحتمل أن العامة في زمن الرحالة الأندلسي كانت تطلق اسم مدائن صالح على الحجر. ولعله من المتعارف عليه عند علماء الآثار أن ما تسميه العامة لا يلتفت إليه، سيما إذا كان الموقع يحمل اسماً قديماً ذكرته النصوص القديمة، وكثيراً ما يطلق على مواقع أثرية تسميات للعامة مثل العماير، الزرايب، قبور أو مساكن قوم فلان، وغير ذلك.

د ـ ربما أن الرجل الذي تنسب إليه مدينة صالح ليس صالحاً النبي، وإنما نسبة الموقع إلى أحد الولاة من العباسيين.

هـ ـ من المحتمل أن يكون هناك خلط بين الحجر وبين مدينة صالح القديمة القريبة منها، وقد بين العلاقة الجاسر رحمه الله، أنه حدث خلط بين بلدة قديمة هي مدينة صالح والحجر وهي قريبة من الحجر، ومدينة صالح تلك عرفت قديماً بالرحبة، وكانت في وادي القرى، وخربت في منتصف القرن الرابع الهجري، والرجل الذي تنسب إليه مدينة صالح ليس صالحاً النبيّ ـ عليه السلام ـ، وإنما هو من بني عباس كما

---

(١) مجلة أطلال، العدد ١٠، ص: ١٣٥.

ذكر ياقوت الرحبة حين قال: والرحبة ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى[١].

و ـ ما كتب في المراجع معلومات كثيرة لكنها ليست ثابتة، والباحثون يجتهدون، وحيث أنه ليس لها بديل، لذا تبقى وتتداول على أنها حقيقة، والحديث قد يطول.

أما الحجر، فموضع ثمود بلا شك عند أغلب الباحثين والآثاريين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أكثر من آية. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الآية، قال القرطبي رحمه الله: (الحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا، أي: المدينة)، وقال الأزهري وقتادة: هي ما بين مكة وتبوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود. وفي تفسير الطبري: هي أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح، كما ورد في تفسير الجلالين، واد بين المدينة والشام وهم ثمود. وفي الصحيح عن ابن عمر أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[٢].

وفي العصر العباسي كانت المنطقة تسمى أيضاً بـ«الحجر»، ويؤكد ذلك قول البحتري قبل ألف سنة من الزمن في البيت التالي:

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٣، ص٣٣، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥م.

(٢) جاء في صحيح البخاري (جزء ٣ ـ صفحة ١٢٣٧)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. وفي صحيح مسلم (جزء ٤ ـ صفحة ٢٢٨٦) عن عبدالله بن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

وكانوا ثمود الحجر حق عليهم وقوع العذاب والخصي لهم سقب

كما أشار صاحب كتاب لسان العرب إلى الحجر بقوله: الحجر ديار ثمود ناحية الشام عند وادي القرى وهم قوم صالح النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ[(١)]. كذلك أشار الفيروزآبادي إلى الحجر وذكر أنها ديار ثمود أو بلادهم[(٢)]، كذلك بينها صاحب تاج العروس[(٣)]. أيضاً ذكر ياقوت الحجر حين قال: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، قال الإصطخري: (الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهي من وادي القرى على يوم، بين جبال، وبها منازل ثمود)[(٤)].

هنا يبرز سؤال مهم وهو: ما المبرر الذي جعلنا نستبعد اسم هذه المدينة (الحجر) وهي مذكورة في الزمن القديم وفي القرآن والحديث وفي العهد العباسي بهذا الاسم؟ ومما يؤسف له أننا استبدلناه باسم أطلق على هذا الموضع قبل عدة قرون من الزمن، لذا نأمل من المعنيين أن يستبدلوا اسم مدائن صالح باسمها الصحيح (الحجر) كما وردت في القرآن وفي النصوص القديمة[(٥)].

يمكننا أن نفهم من الآيات القرآنية أن ثمود كانوا من سلالة عاد، وقد توافقت الاكتشافات الأثرية مع هذا المفهوم، فأظهرت أن جذور ثمود

---

(١) لسان العرب، ج٤، ص١٦٥، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر ـ عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي، (ج١، ص٤٧٥). الفيروزآبادي، أبو إسحاق إبراهيم، تحقيق أبي الوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

(٣) تاج العروس (ص٢٦٦٠)، الزبيدي، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

(٤) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٢، ص٢٢١، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥م.

(٥) انظر: الموقع (http://www.aletrah.com/forum/showthread.php?t=9028)

الذين عاشوا في شمالي الجزيرة العربية، تعود إلى جنوبي الجزيرة حيث عاشت عاد (انظر: الشكل ٦ ـ هـ).

من بين الأقوام التي ذكرها القرآن هؤلاء القوم الذين يتوفر لدينا اليوم الكثير من المعلومات عنهم، إذ تثبت السجلات الأثرية أن قوم ثمود كانوا موجودين فعلاً في أحد الأزمان.

يعتقد أن أصحاب الحجر المذكورين في القرآن الكريم قوم ثمود، وقد ذكرهم القرآن الكريم باسمهم الآخر: «أصحاب الحِجْر». لأن هذه المدينة هي إحدى المدن التي أوجدها هؤلاء القوم، ويتوافق وصف الجغرافي الإغريقي بليني مع هذا. كتب بليني: إن «دوماثا» و«هجرا» كانتا منطقتي إقامة ثمود، وهذه الأخيرة هي التي بنت مدينة الحِجْر المعروفة اليوم[1].

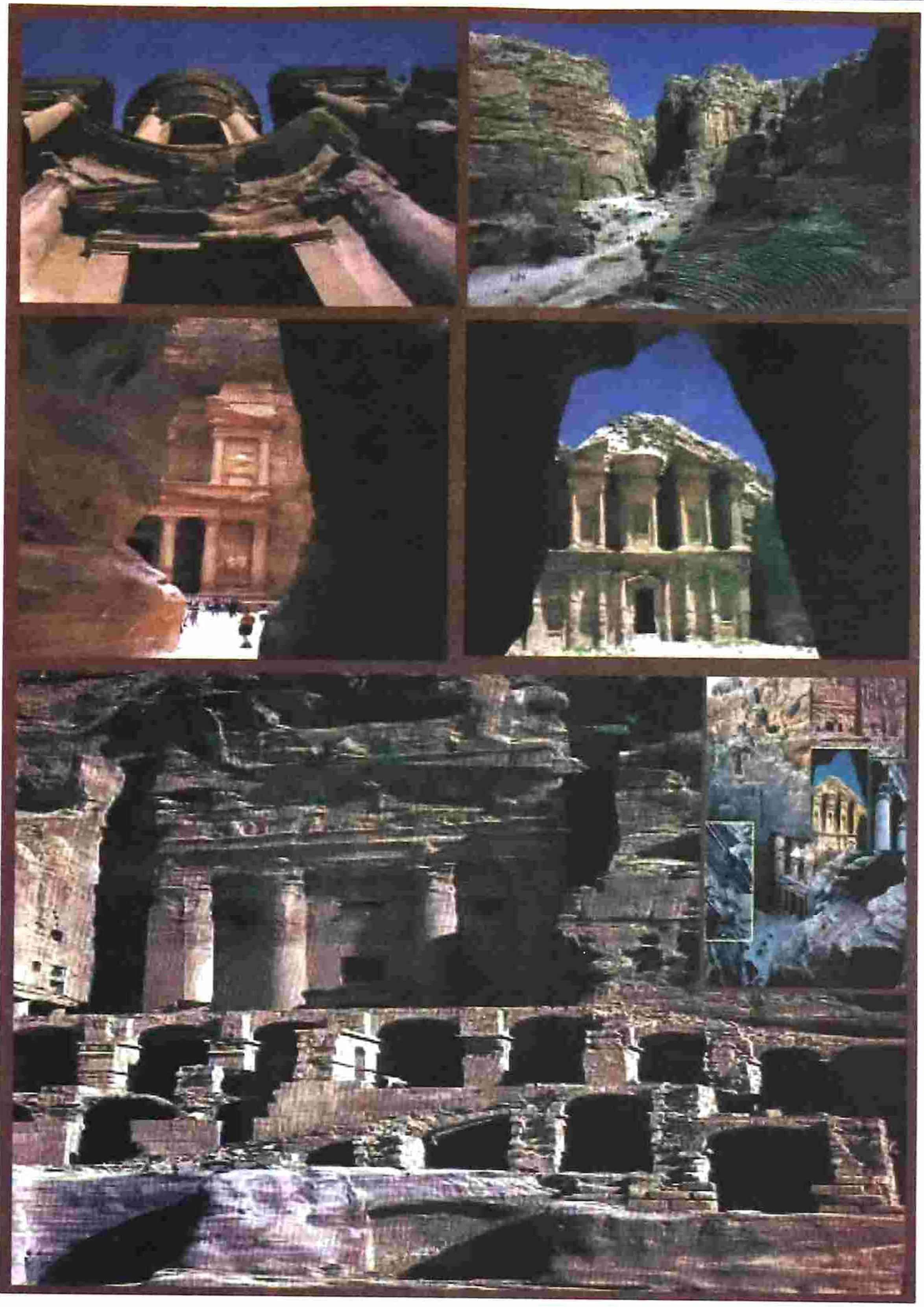
إن أقدم المصادر القديمة التي تشير إلى ثمود هي سجلات النصر التاريخية للملك البابلي، سيرجيون الثاني (القرن الثامن قبل الميلاد) الذي هزم هؤلاء القوم في إحدى حملاته على شمالي الجزيرة العربية، كما يشير الإغريق إليهم على أنهم «تامودي»، أي: ثمود في كتابات أرسطو وبتولمي وبليني[2].

لقد اختفى هؤلاء القوم قبل سيدنا محمد ـ ﷺ ـ بشكل كامل، حوالى ٤٠٠ ـ ٦٠٠ ميلادي.

---

(١) هيكر «الموسوعة الإسلامية: العالم الإسلامي، تاريخ، جغرافية، إنثوغرافيا، وقاموس بيبلوغرافيا، المجلد ٥/١، صفحة ٤٧٥، وانظر: بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية.

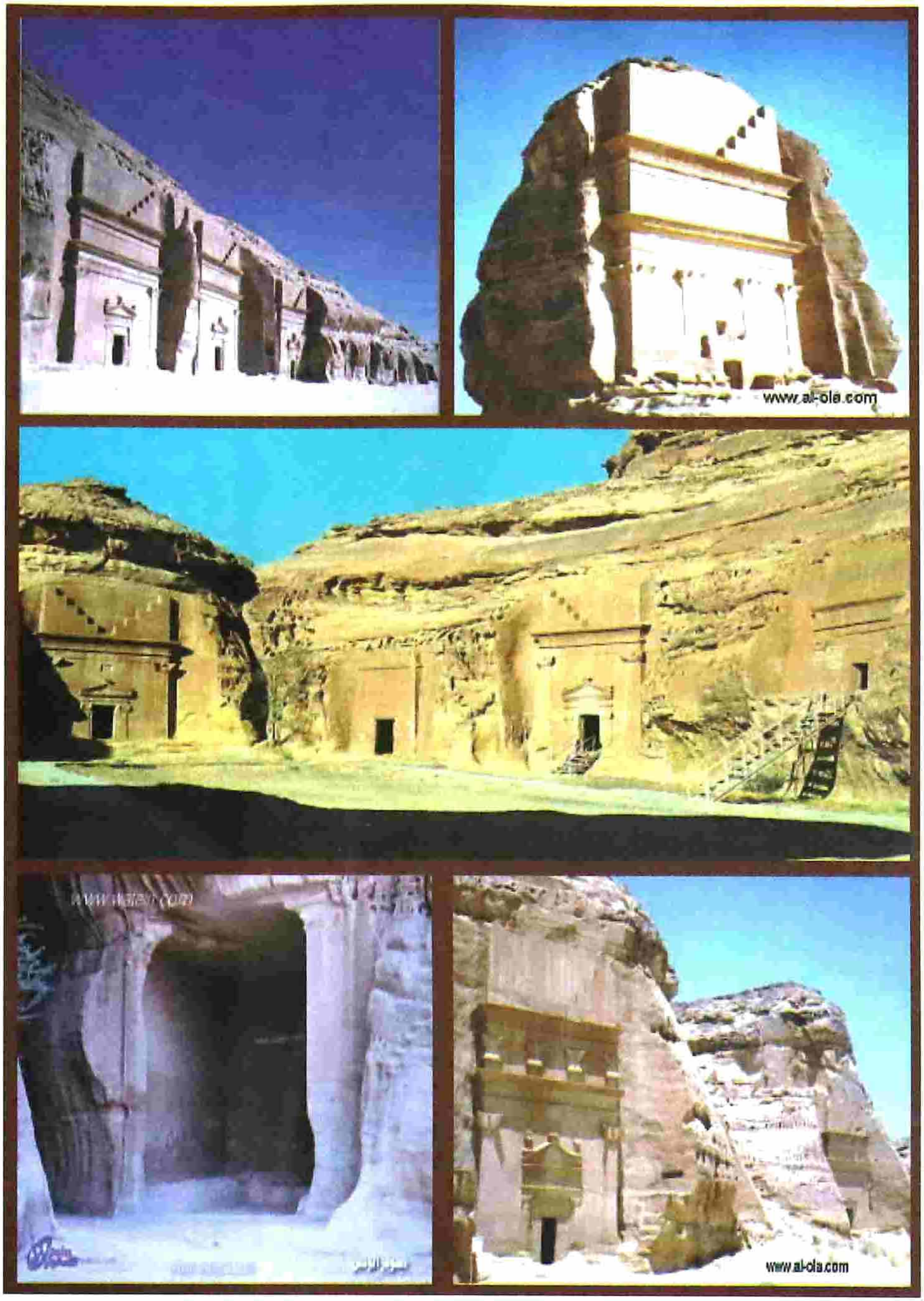
(٢) تاريخ العرب، فيليب حتي، جبرايل جبور، إدوار جرجي، دار الكشاف للنشر والطباعة، ط/١١، ٢٠٠٢م، صفحة ٣٧. وانظر: بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية.



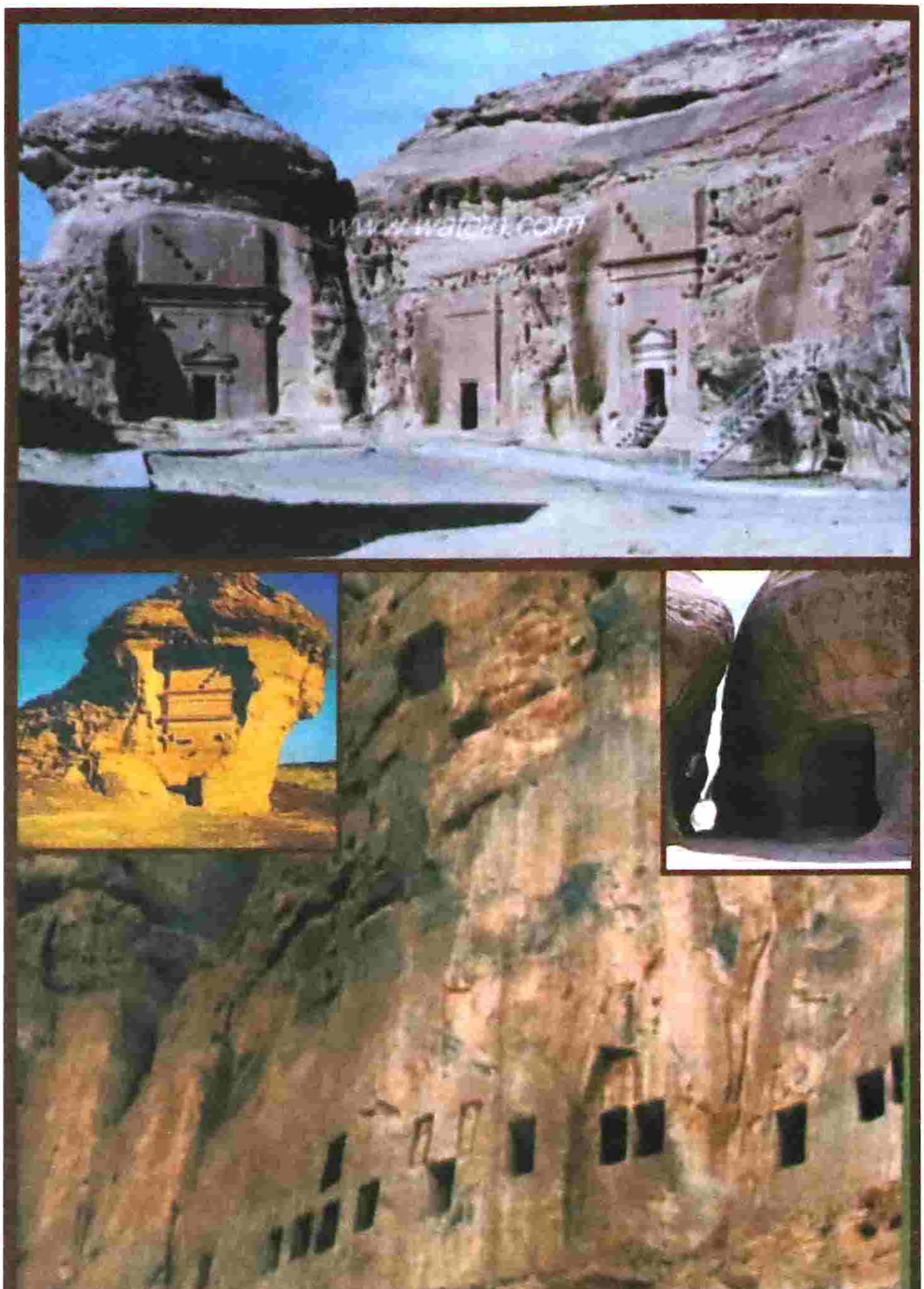
الشكل (٦ ـ أ): آثار البتراء في الأردن التي تشبه لحد كبير آثار قوم ثمود في الحجر بشمال الجزيرة العربية واللتان تعودان لحضارة البتراء على أرصن الأقوال التاريخية



الشكل (٦ ـ ب): صورة تخيلية لمدينة البتراء الصخرية أيام عزها. . . صورة لـ«ديفيد روبرتس» وهو أحد الرسامين المستشرقين رسمت عام ١٨٣٩م



الشكل (٦ ـ جـ): آثار مختلفة لمدينة الحجر بشمال الجزيرة العربية وهي مدائن صالح وموطن حضارة ثمود البائدة وفق أرصن البحوث



الشكل (٦ ـ د): يلاحظ صلادة وقوة وحصانة البناء المحفور في الصخور وصعوبة اختراقه من قبل أي عدو



الشكل (٦ ـ هـ): يبيّن بعد منطقة الحجر (موطن قوم ثمود) بشمال الجزيرة العربية عن منطقة أوبار (موطن قوم عاد) بجنوب الجزيرة العربية

ويَذْكُر القرآن عاداً وثَمُود مقترنتين، بل إنه يُذَكِّر ثَمُود بعادٍ ويأمرهم أن يتعظوا منهم، هذا يعني أن ثَمُوداً كان لديها الكثير من المعلومات عن عاد. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

كما يفهم من الآية أن ثمود كانت على علاقة بعاد، وقد تكون عادٌ جزءاً من تاريخ ثمود وحضارتها، لقد نصح صالح قومه بأن يتعظوا من عاد ويأخذوا منهم العبرة.

أخبر رسول عاد قومه عن قوم نوح الذين عاشوا قبلهم، وكما أن هناك رابطة تاريخية هامة بين عاد وثمود، كذلك هناك رابطة تاريخية هامة بين قوم نوح وعاد، هؤلاء الأقوام يعرفون بعضهم حتى إنه من الممكن أن يكونوا من نفس السلالة.

إلا أَنَّ عاداً وثَمُود متباعدتان جغرافياً، ولذلك قد يبدو لأول وهلة أنه لا يوجد صلة مباشرة بينهما، إذن فلماذا اقترن ذكر ثمود بعاد في الآيات القرآنية؟. . . وبقليل من التأمل يظهر الجواب جلياً: أن المسافة الجغرافية بين القومين هي مسافة هائلة، تاريخياً تكشف المصادر التاريخية عن اتصال وثيق جداً بين ثمود وعاد، تعرف ثمود عاداً لأن هذين القومين، أغلب الظن جاؤوا من نفس المنشأ، تحت عنوان: «ثمود»، كتبت الموسوعة البريطانية المصغرة: (قبيلة أو قبائل في الجزيرة العربية القديمة يبدو أنها كانت من القبائل المشهورة، وبالرغم من أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب، إن قوم ثمود الذين عاشوا بين الشام والحجاز يعرفون تحت اسم «أصحاب الحجر»، لقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة ليس عند جبل أثلب فحسب، بل عبر وسط الجزيرة العربية أيضاً)[١].

لقد أسس الأنباط وهم قبيلة عربية قديمة، مملكة في وادي الرم في الأردن، في هذا المكان والذي يدعى أيضاً وادي بترا، يمكن أن تجد أفضل نماذج النحت الحجري الذي قام به هؤلاء القوم، وكذلك الذي ذكر ثموداً بتطاولهم وتفوقهم في فن البناء. واليوم وبالرغم من كل ما كانوا عليه، لم يبق منهم اليوم سوى هذه البقايا التي تخبرنا عن الفن الذي كان يطبع عصرهم، وتبدو في الأشكال أمثلة عن النحت الحجري في وادي بترا.

---

(١) ثمود «دائرة المعارف البريطانية الصغيرة». وانظر: بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية.

وجد مخطوط شبيه بالأبجدية الثمودية في جنوب الجزيرة العربية، وإلى الشمال عبر الحجاز[١]، وجد المخطوط في بادئ الأمر في شمال اليمن الوسطى، والتي تعرف بثمود وترتبط من جهة الشمال بالربع الخالي، ومن الجنوب بِحَضْرَمَوت ومن الغرب بِشَبْوَة.

وقبل مشاهدتنا لموقع عاد في جنوب الجزيرة، كان واضحاً جداً أن ثمود كانوا يقطنون منطقة عاد، وخاصة منطقة الحضارمة، أحفاد عاد وعاصمتهم، هذه العلاقة بين عاد وثمود يوضحها القرآن من خلال خطاب صالح لقومه بقوله لهم أنهم أخذوا مكانهم كما قال الله تعالى في الآيات: **٧٣، ٧٤**، من سورة الأعراف.

لقد دفعت ثمود ثمن عصيانها فلاقت مصير الهلاك، ودُمِّرت مصانعها ومبانيها فلم تمنع عنها حضارتها التي شيدتها عقاب الله والمصير الأسود الذي كان لها بالمرصاد، هلكت ثمود ونالها العقاب الإلٰهي الذي نال من كان قبلها ومن جاء بعدها من الأمم العاصية المتمردة على الله وشرعه[٢].

ففيما عدا الربط بين التطور المادي والتطور الخلقي الذي تشير إليه الآية، بيَّنت الآيات أن وجوب سمو الإنسان ورقيه أن يكون متلازماً بين أمرين مادياً والأهم خلقياً بأن لا يفسد في الأرض، فإننا نجد إشارة هندسية واضحة وهي أن القصور، وهي أرقى منزلة من البيوت وأعظم بناءً، تبنى على السهول والأراضي المنبسطة لسهولة التنفيذ عليها، أما على الجبال فإن الأمر أصعب تنفيذاً، لذلك جاء التعبير بصيغة البيوت وليس القصور. على الرغم من أنهم كانوا ينحتون الجبال نحتاً جميلاً راقياً إلا أنه لا يصل إلى مرحلة القصور بسعة حجمها وكبر مساحة بناءها.

---

(١) بريان دو، جنوب الجزيرة العربية، تيمس وهدسون **١٩٧١**، ص**٢١-٢٢**، وانظر: بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية.

(٢) بحث (كذبت ثمود بالنذر)، بقلم الكاتب التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية. وانظر: الموقع: http://www.perishednations.com

هنا أود أن أشير إلى روعة الربط للقصة التاريخية ذات الحكمة والفائدة لمن يقرأها وإشارات الآيات إلى علوم مختلفة كما هو الحال في الآيات السابقات، حيث أشارت إلى علوم هندسية معمارية لهؤلاء الأقوام، حيث إنهم رغم تطورهم المادي نسبياً في هذه العلوم والفنون إلا أنهم أفسدوا وظلموا فلم تغن عنهم علومهم ولا حضاراتهم من الله شيئاً، كما بينت سبقاً لعلوم تقنية وهندسية أخرى تحدثنا عنها في كتب أخرى من هذه السلسلة(١). وفيما عدا سرد القرآن لقصة قوم عاد مع هود ـ عليه السلام ـ وقوم ثمود مع صالح ـ عليه السلام ـ فإن القرآن أشار إلى موضوع بناء الدور بشكل فاره واستخدام الصناعات والمعامل الخاصة لكافة شؤون الحياة في وقتها. لم ينكر القرآن ذلك إلا أنه إذا كان الأمر من باب التفاخر والتعالي ولم يكن لخدمة البشر أو طاعة الله فإن العواقب ستكون وخيمة وسيؤدي بصاحبه إلى الضياع والتفسخ الخلقي والعقلي، أما إذا كان مسخراً لطاعة الله ورضوانه فانه سيؤدي بالتأكيد إلى دواعي رحمة الله ورضاه لأن الإنسان هو خليفة الله على الأرض ينشر فيها الأخلاق الحميدة ولا يجعلها محطة للفساد والإفساد أو للتعالي والتكبر والظلم لخلق الله.

(٣) ذكر بناء الحضارات القديمة وأساليب بناؤهم الفخم الذي كان يراد به التكبر والظلم والتطاول. فعن قوم فرعون وبناء الأهرامات التي هي قبور للملوك جاء قوله تعالى في آيتين هما: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص: ١٢]، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٣]، **(انظر: الشكل ٧).**

كما ذكرت بابل وما حصل فيها من أمر الملكين هاروت وماروت بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى

---

(١) راجع كتاب العلوم والهندسة العسكرية ضمن هذه السلسلة.

ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢]، (انظر: الشكل ٨).

كما ذكرت نينوى وقوم يونس، وكذلك محاججة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - للنمرود في قصره الفخم، وكان ذلك في نينوى، وقيل: في أور، وقيل: في بابل، ومعلوم ما كان في هذه المدن العريقة من بناء فخم. (انظر: الشكل ٩).

(٤) ذكرت سبأ وحدائقها وجنانها وسدودها وبنيانها المتطاول (انظر: الشكل ١٠) في تفاسير آيات سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥]، وهذا نمط من البناء يتعلق بذكر الحدائق والجنان وأهميتها. كما بينت هذا الأثر قصة صاحب الجنة في سورة الكهف الآيات: **٣٢ - ٤٣**، بقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾. فبينت هذه الآيات، وكذلك آيات سورة سبأ علاقة تعبدية وخلقية عظيمة وهي ضرورة شكر نعم الله في البناء والجنان وما شاكلها، وإلا سيصيبها ما أصاب أصحاب هذه القصص. ولعلنا فصلنا أمر بناء السد في قصة سبأ في كتاب هندسة المياه والري. كما، وبينا أثر فعل التصميم الخارجي في قصة صاحب الجنة لاحقاً في هذا الكتاب.

(٥) جاء ذكر بناء الكعبة من قبل سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام ـ وكما سنفصل لاحقاً، وكان ذلك في بيئة صحراوية قاحلة متعبة، ولكن ذلك يهون في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

(٦) جاء تطور عمراني آخر، وهو البناء الفخم الذي عمله سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ بفخامته وهيبته والذي لم يكن كسابقه للتفاخر والتطاول رغم ما وصل له من عمران فاق ما كان في النقطة السابقة، لأنه ببساطة كان من أجل الدعوة إلى الله تعالى وترسيخ الدولة المسلمة وتدبير شؤونها. وقد سخَّر لسيدنا سليمان جيوش من المعماريين المهرة من الجن والإنس يبنون له ما يشاء من تماثيل وقصور وأمور أخرى عديدة. وهذا ما نجده في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وكذلك قوله تعالى في سورة النمل، الآية: **٤٤**، عن قصة الملكة بلقيس ملكة سبأ وقصتها مع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ حيث رأت ما رأت من عجائب ملكه ـ عليه السلام ـ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾. ففي الآية الأولى والثانية يتوضح لنا روعة البناء الذي بناه سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ومدى التكامل المعماري للصرح الذي كان فيه، حيث إن أرضيته كانت من القوارير، أي: من الزجاج أو من المرمر المزجج الشفاف الذي يرى من خلاله، وكيف أن الجن كانوا مجندين له

يصنعون له التماثيل والمحاريب والجفان. يقول الدكتور عبدالكريم زيدان في تفسير الآية الخاصة بالملكة بلقيس في كتابه «المستفاد من قصص القرآن» حول قوله تعالى في سورة النمل، الآية: **٤٤** ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾: إن سليمان ـ عليه السلام ـ أمر ببناء قصر عظيم من قوارير، أي: زجاج وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره أي لا يعرف أن القصر بُني من الزجاج يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ووضع سليمان سريره في صدره وجلس عليه، وإنما بنى سليمان ـ عليه السلام ـ القصر بهذه الكيفية وأجرى الماء وحيتانه تحته ليريها ما خصه الله تعالى من العجائب والخوارق، ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته وثباتاً على الدين، فلما رأته بلقيس حسبته لجة، أي: ماءً عظيماً وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه فقال لها سليمان ـ عليه السلام ـ: إنه صرح ملس من الزجاج(١). ولقد كانت المفاجأة قصراً من بلور أقيمت أرضيته فوق الماء وظهر كأنه لجة، فلما قيل لها: ادخلي الصرح حسبت أنها ستخوض تلك اللجة فكشفت عن ساقيها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان ـ عليه السلام ـ عن سرها: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾!! ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره معلنة إسلامها مع سليمان لا لسليمان، ولكن لله رب العالمين(٢).

وفي الآية: **١٣**، من سورة سبأ ذكرت المحاريب والجفان،

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج/**١**، ص**٤٤٦** نقلاً عن تفاسير ابن كثير والزمخشري.

(٢) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ج/**٥**، ص**٢٦٤٣**.

فالمحاريب من أماكن العبادة، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره، والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، وقد كانت تصنع لسليمان ـ عليه السلام ـ جفان كبيرة للطعام تشبه الجوابي وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها، وهذه كلها نماذج لما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به بأذن الله وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله تعالى وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد(١). وفي العمارة الحديثة نلاحظ أنه من أحدث المنشآت الهندسية وأرقاها وأكثرها تعقيداً ما يعرف بالمباني المائية (Aquarium Buildings)، التي أصبح المعماريون في دول العالم يتسابقون لتشييد تلك البنايات فأصبحنا نرى أنفاقاً تخرق المحيط ونوايا لإنشاء فنادق تحت المحيط، فواعجباً اتعظنا ممن سبقونا أم نحن من المستهزئين(٢)؟! (لاحظ الشكل ١١).

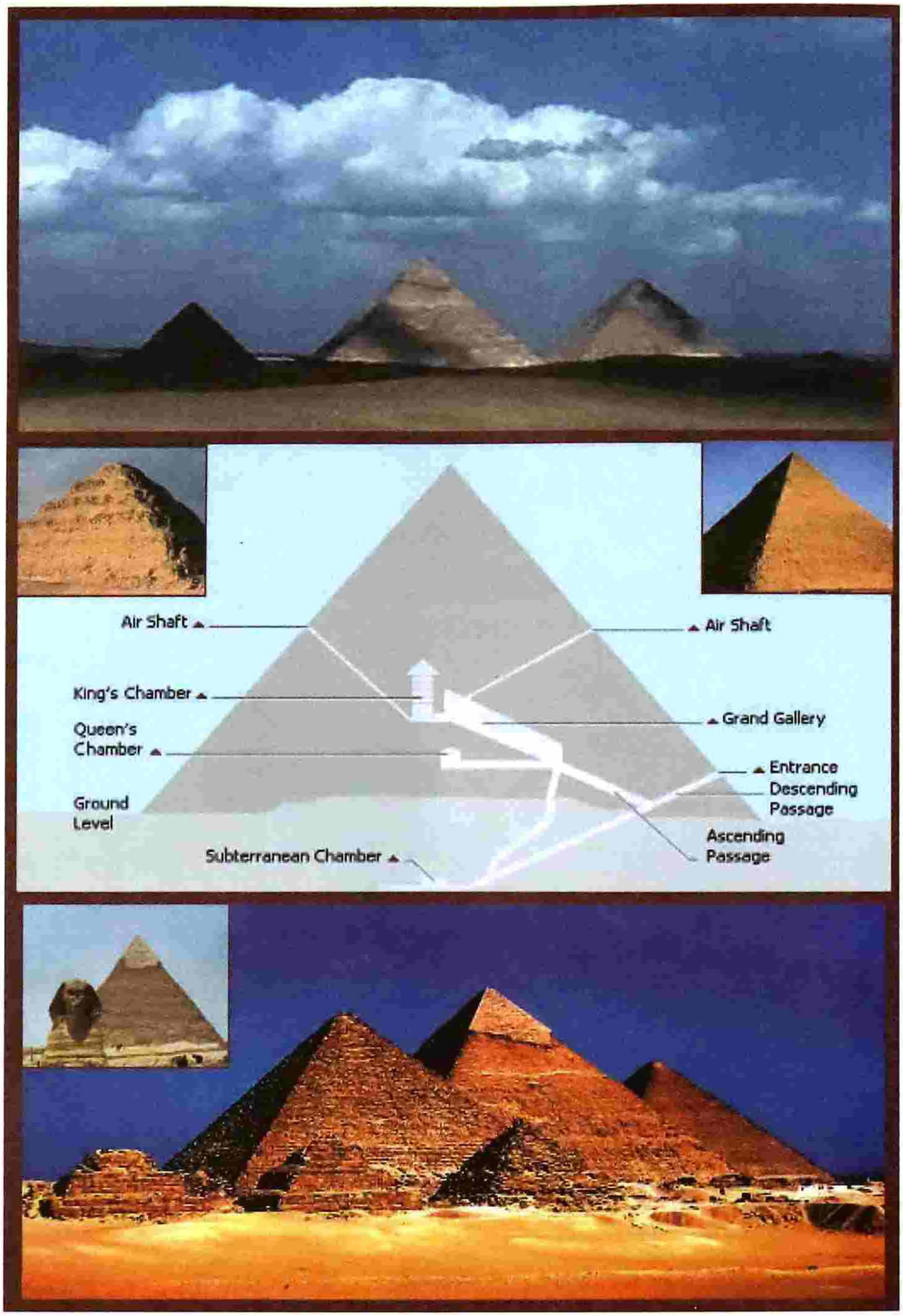
(٧) ذكر ذو القرنين فتوحه وأسلوب عمارته وبناءه للسدود والذي بيناه في كتاب الهندسة المدنية: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٤ ـ ٩٨]. هذا البناء العملاق الذي فصلنا أمره في كتاب الهندسة المدنية لو قيض للعالم بأسره في عصرنا الراهن بكل إمكاناته العظيمة أن ينجز مثله لكلفه الأمر عملاً يقدر بمليارات الدولارات، وموارد بشرية

(١) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ج/٥، ص٢٨٩٩.

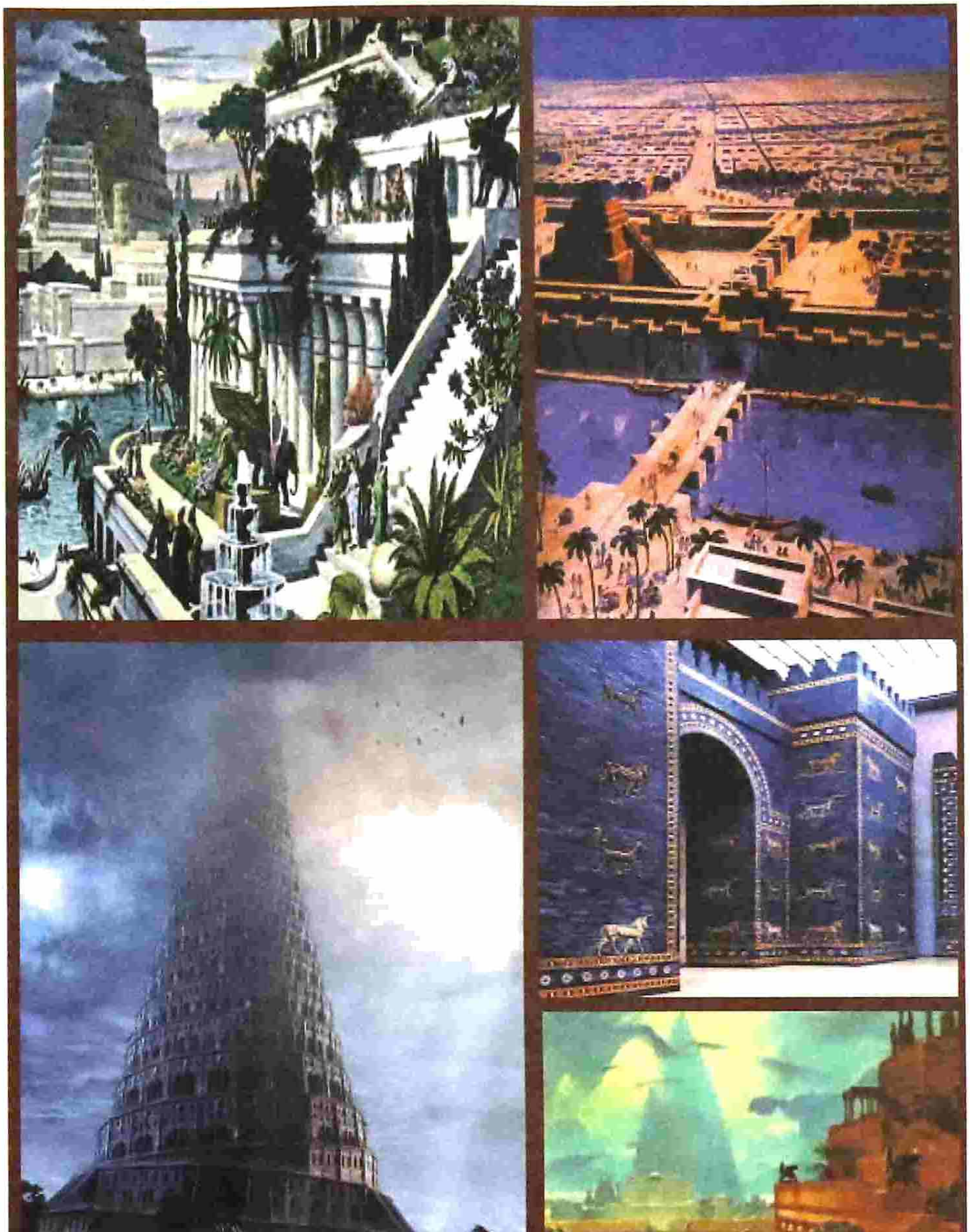
(٢) العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٠٥، بتصرف.

بعشرات الألوف، وزمن لا يقل عن عشر سنوات وخام الحديد والنحاس بآلاف الأطنان، فيا ترى كيف قدر لهؤلاء القوم الذين تحدثنا عنهم في كتاب المساحة أن ينجزوا ذلك البناء المهيب الذي هو باختصار جبل شاهق من الحديد والنحاس؟![١].

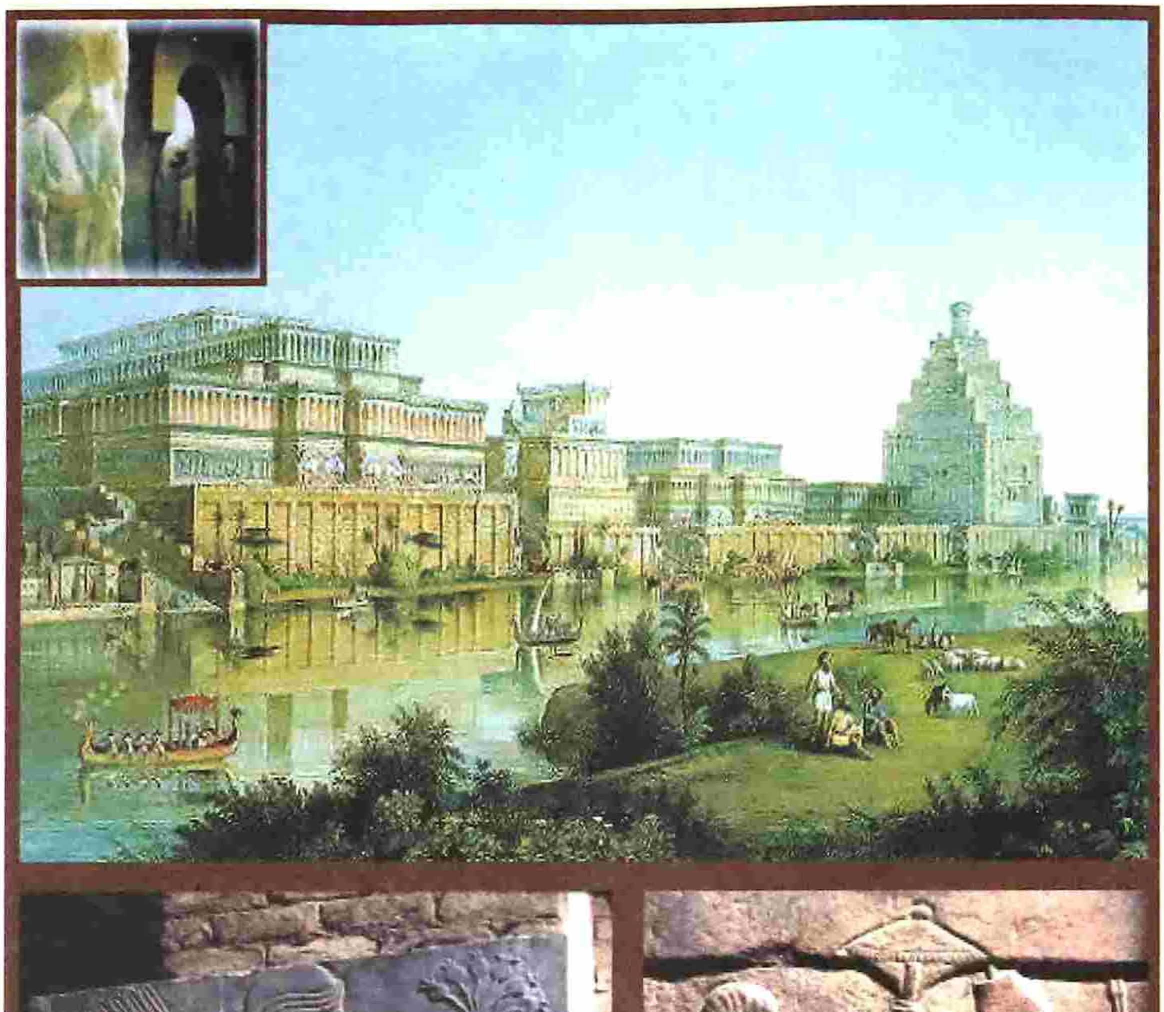
(١) تفاصيل الموضوع برمته في كتابنا (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت، وكذلك في كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، طبع دار المسيرة بعمان.



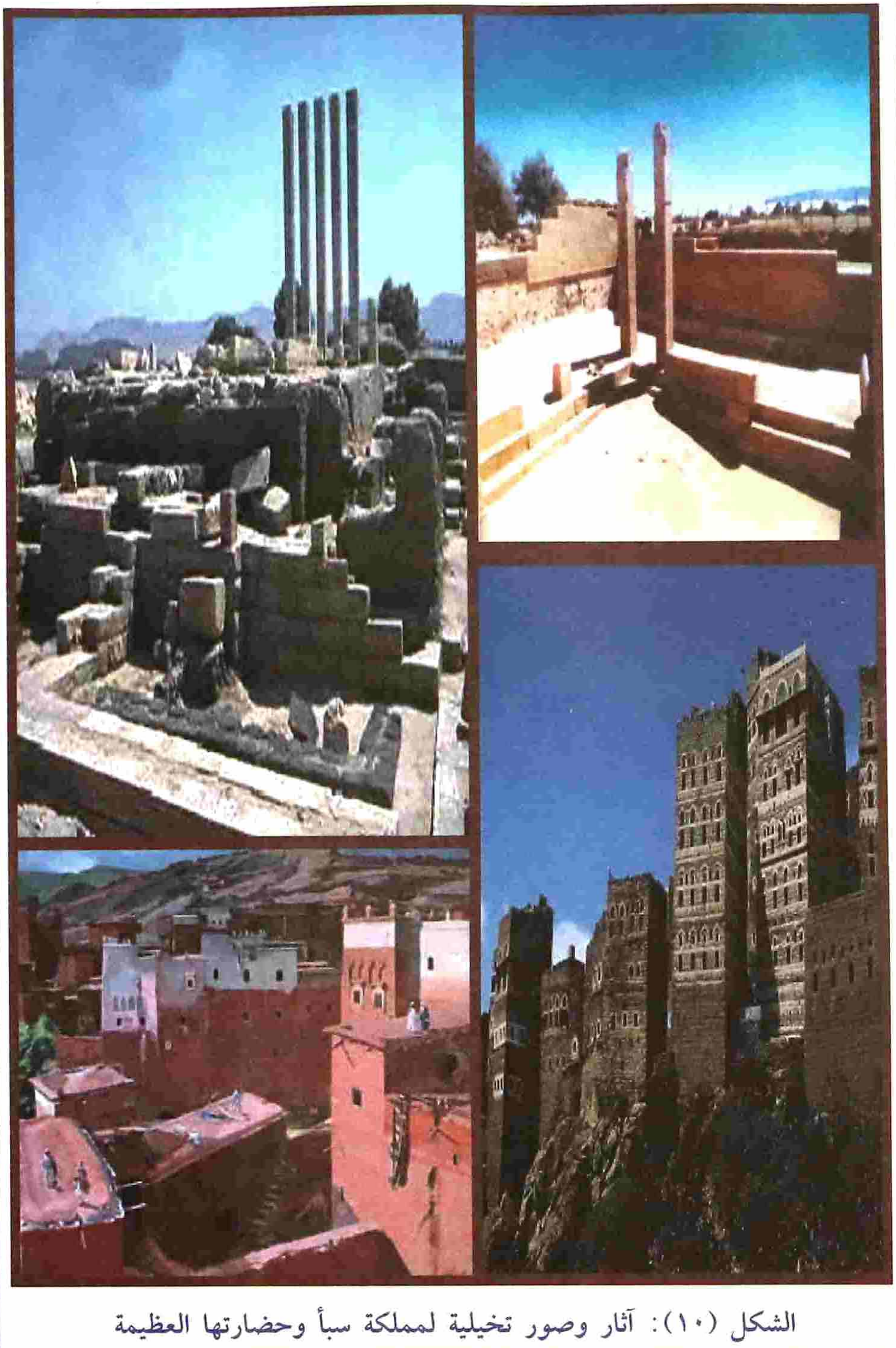
الشكل (٧): أهرامات مصر الفرعونية وزقوراتها الهرمية العملاقة



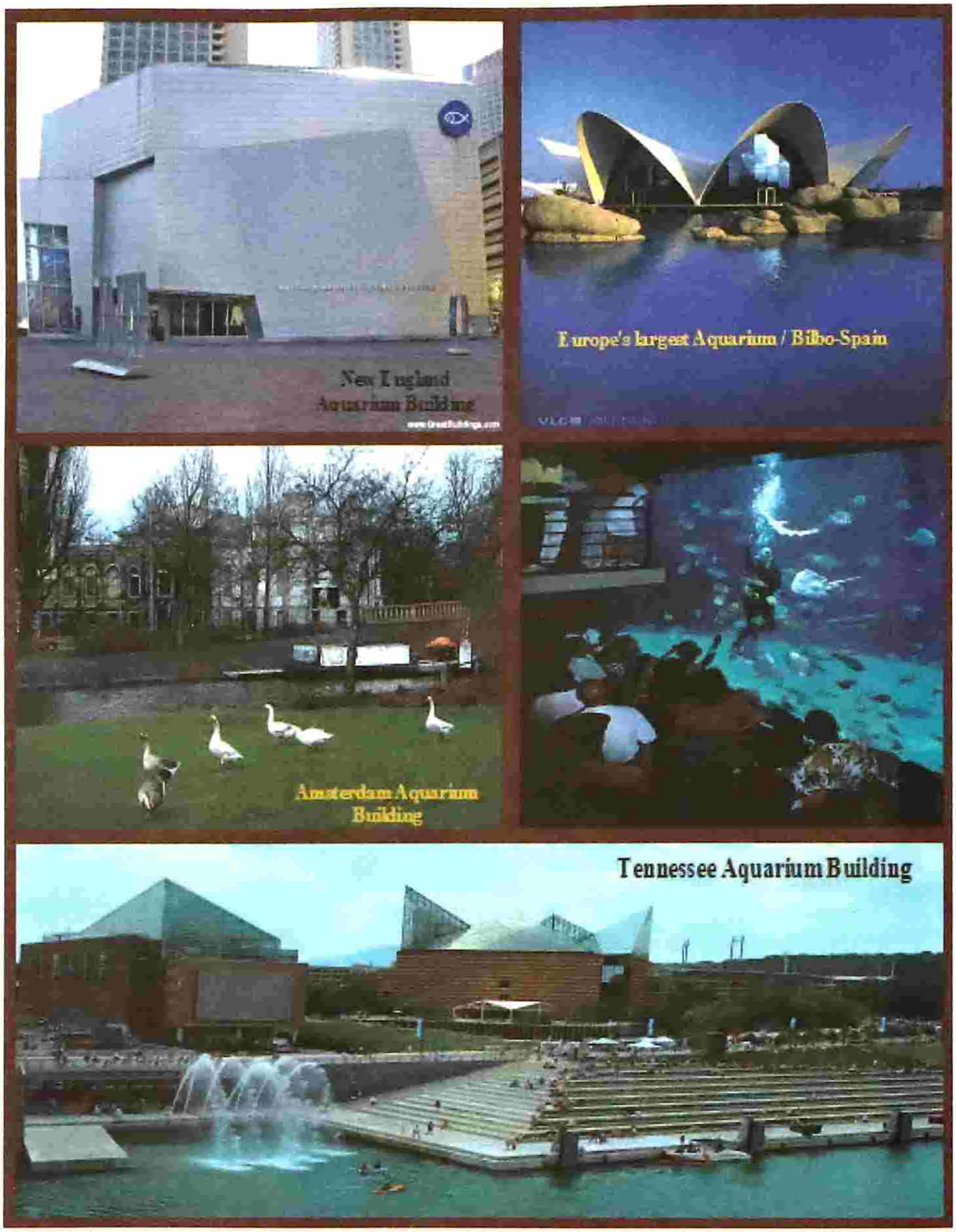
الشكل (٨): مدينة بابل وبرجها العملاق وجنائنها المعلقة



الشكل (٩): حضارة نينوى وآشور وقصورها الفخمة شمالي وادي الرافدين

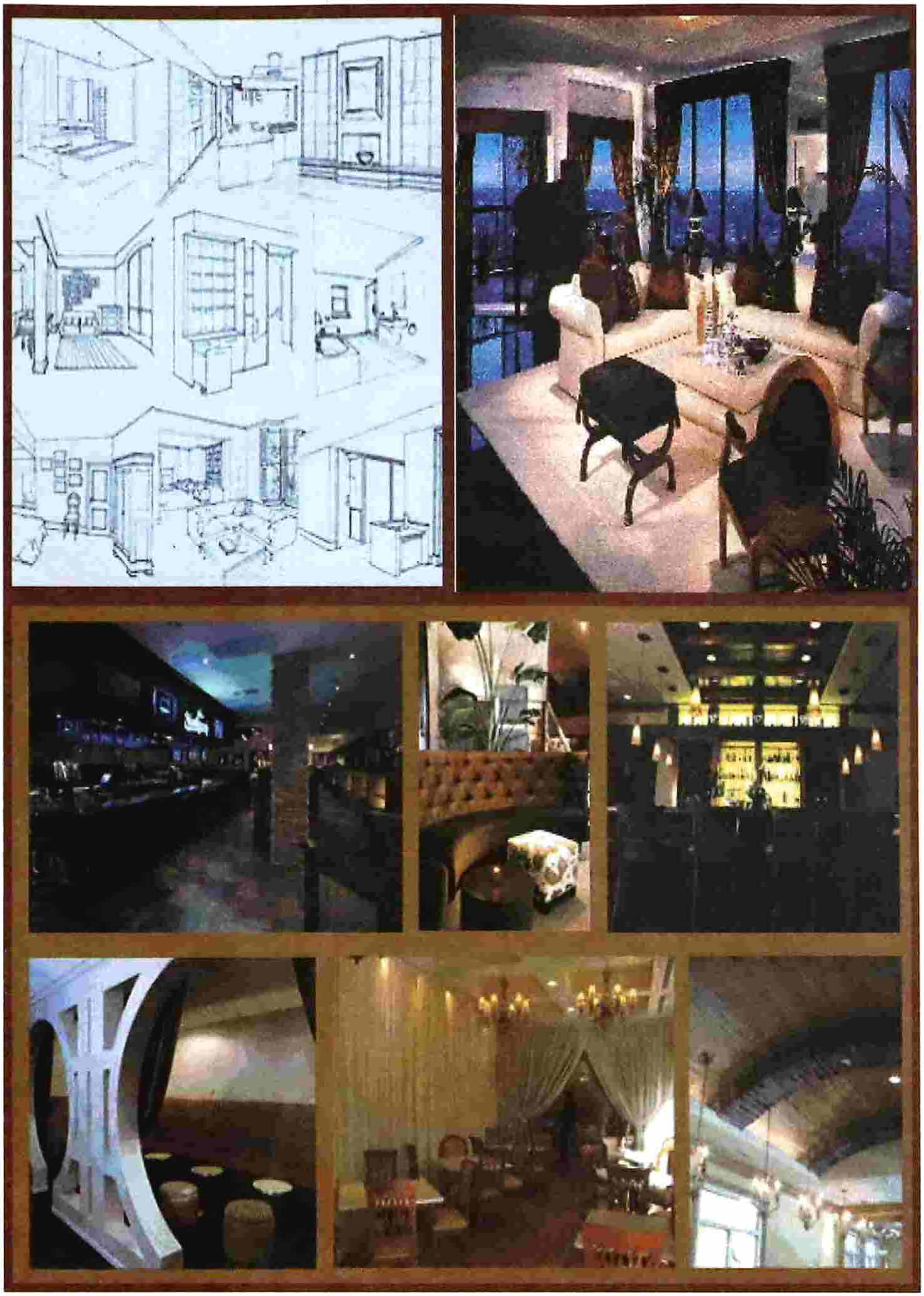


الشكل (١٠): آثار وصور تخيلية لمملكة سبأ وحضارتها العظيمة



الشكل (١١): أنواع مختلفة من البنايات والمعارض المائية (Aquarium Building) المنتشرة في عالمنا الحديث اليوم، وهي بنايات تعرض حياة البحار من خلال إطلالة عليها بواسطة نوافذ زجاجية شفافة...

الصور لبنايات في تينيسي ونيو إنكلاند بالولايات المتحدة ومدينتي أمستردام بهولندا وبالبو في إسبانيا



الشكل (١٢): هندسة التصميم الداخلي المهتمة بتنظيم وترتيب الأثاث والديكور داخل البنايات العامة والخاصة بشكل يتناسب مع الذوق العام والخاص وبحسب نوع المنشأ وخدماته

وإذن، كل هذا الذكر لتلك الأطوار المعمارية شمل عمارة حضارات شتى كحضارة فراعنة مصر القديمة، وسكنة وادي الرافدين كأهل بابل وأهل نينوى، والفينيقيين الذين أخذ الإغريق والرومان عنهم الكثير، وأقوام الشرق وحضاراته، وكذلك أقواماً في جزيرة العرب وأهل اليمن وبادية الشام، وأقواماً بين ذلك كثيراً، مما يبين أن القرآن الكريم قد شمل كل عمارة العالم القديم دون استثناء فضلاً عن تصنيفه لكل أنواع البناء والسكن سواء أكان في الكهف أم من النوع البدوي أو الحضري، بدءاً من بيوته العادية وانتهاءً بقصوره الفخمة المهيبة.

تاسعاً: هندسة التصميم الداخلي:

كما سبق أن بيَّنا في الفصل الأول أن من أهم أنواع الهندسة المعمارية ما يسمى بهندسة التصميم الداخلي (Interior Design Engineering]: وهي واحدة من أنواع علوم الهندسة المعمارية التي برز الاهتمام بها منذ زمن ليس ببعيد، وهي تعنى بتصميم الدور والبنايات باختلاف أنواعها من الداخل، أي: كل ما يتعلق بالأثاث والديكور وترتيبها وتنسيقها بكل ما يبعث على الراحة والطمأنينة في نفس ساكنها، وتعتمد في هذا كله على كل ما حولنا من نعم الله من نبات وجماد وحيوان وغيرها. (انظر: الشكل ١٢).

يمكن اعتبار التصميم الداخلي جزءاً من التصميم المعماري للمبنى من الناحية الوظيفية، فهما يكونان وحدة وظيفية مترابطة ملائمة لمعيشة الإنسان حيث يعنى التصميم المعماري بالبيئة الخارجية للمبنى، بينما يهتم التصميم الداخلي بتوفير بيئة داخلية ملائمة للإنسان واحتياجاته، وبذلك يتكامل مع التصميم المعماري، وحيث إن العمارة هي تطويع الإنسان للبيئة ضمن حيز محدود باستخدام تقنية البناء، على أن يفي هذا الحيز بحاجات المستعملين الاجتماعية والنفسية، فإن التصميم الداخلي والعمارة يعزز كل منهما الآخر بحيث لا يمكن القول متى تتوقف العمارة ويبدأ التصميم الداخلي... كما يعتمد نجاح أي مشروع على مدى التعاون والتكامل بين مجموعة الاختصاصات الهندسية، وخصوصاً المصمم

المعماري والمصمم الداخلي مع الإنشائي والخدمي لتكوين صرحٍ رائعٍ بدءاً من الفكرة وحتى استخدامه فعلياً.

إن الترابط الجوهري بين الداخل والخارج هو حالة قائمة لا محالة، فليس بإمكان أي مصمم ناجح إلا أن يفكر بتكامل هذين العاملين، وعليه، فإن المدارس المعمارية الحديثة أخذت تركز على هذا الجانب، وظهرت فلسفات معمارية عديدة كالهندسة المعمارية الفطرية وغيرها، أغلبها إذا لم نقل كلها تشترك في ضرورة العودة إلى التناغم بين البيئة والاستخدام. فالفكر هو المحور الذي وفق محتواه تتراكب جميع العناصر الأخرى من أجل الوحدة والتكامل ضمن إطار الفكرة.

إذن، فالتصميم الداخلي يخطط ويصمم المخطط العام للفضاءات الداخلية ضمن الأبنية بتراكيبها الفيزيولوجية لترضي حاجاتنا الأساسية السكنية والجمالية وترتيب الوضع العام، وتؤثر بشكل كبير على نشاطاتنا وتهذب إلهامنا وتعبر عن الأفكار التي ترافق أعمالنا وتؤثر بتطلعنا ومزاجنا وذاتيتنا... وغرض التصميم الداخلي هو تحسين الأداء الوظيفي والإغناء الجمالي للفضاء الداخلي وموجوداته، وان هدف أي تصميم هو ترتيب وتنظيم أجزائه في وحدة متماسكة من أجل أهداف معينة... من هذا كله يمكن تعريف التصميم الداخلي بأنه التعبير فنياً وهندسياً وبصورة تطبيقية لفكرة محددة الهدف للبيئة الداخلية للوحدة السكنية، وتصميم وترتيب ومعالجة الفضاءات الداخلية التي من صنع الإنسان بهدف ملائمتها لكل ما تحتويه من مفردات وعناصر لتشكل البيئة الداخلية وما يرتبط معها من ملحقات ومفردات ومكملات وفقاً لأسلوب يستند إلى البيئة الثقافية والاجتماعية والطبيعية[١].

---

(١) متن محاضرة للدكتور مناف جعفر مهدي بعنوان: (جدلية العلاقة بين التصميم الداخلي للمبنى والعمارة)، قسم الهندسة المعمارية جامعة بغداد، ٢٠٠١م، ص١ - ٤، بتصرف.

وبعد أن عرفنا التعريف العلمي لهذا النوع من الهندسة لنستمع إلى قول الله تعالى، ونحكم من سبق في تشخيص هذا العلم.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٠ ـ ٨٣]، يتبين لنا من هذه الآيات المباركة تفاصيل عديدة من نعم الله على الإنسان بتوفيره سبحانه للإنسان كل هذه الأصناف من الأثاث والمتاع وأدوات الديكور للاستفادة منها والتنعم بها، فقد أحصى الله تعالى بكلمات معدودات ما تؤلف عنه الآن الكتب والبحوث وتطبق عليه فنون ونظريات كثيرة في هذا الحقل الهندسي، وقد شملت الآية أيضاً تراكيب اجتماعية عديدة من البدو الرحل إلى الإنسان الحضري المستقر في سكناه والمترف في معيشته.

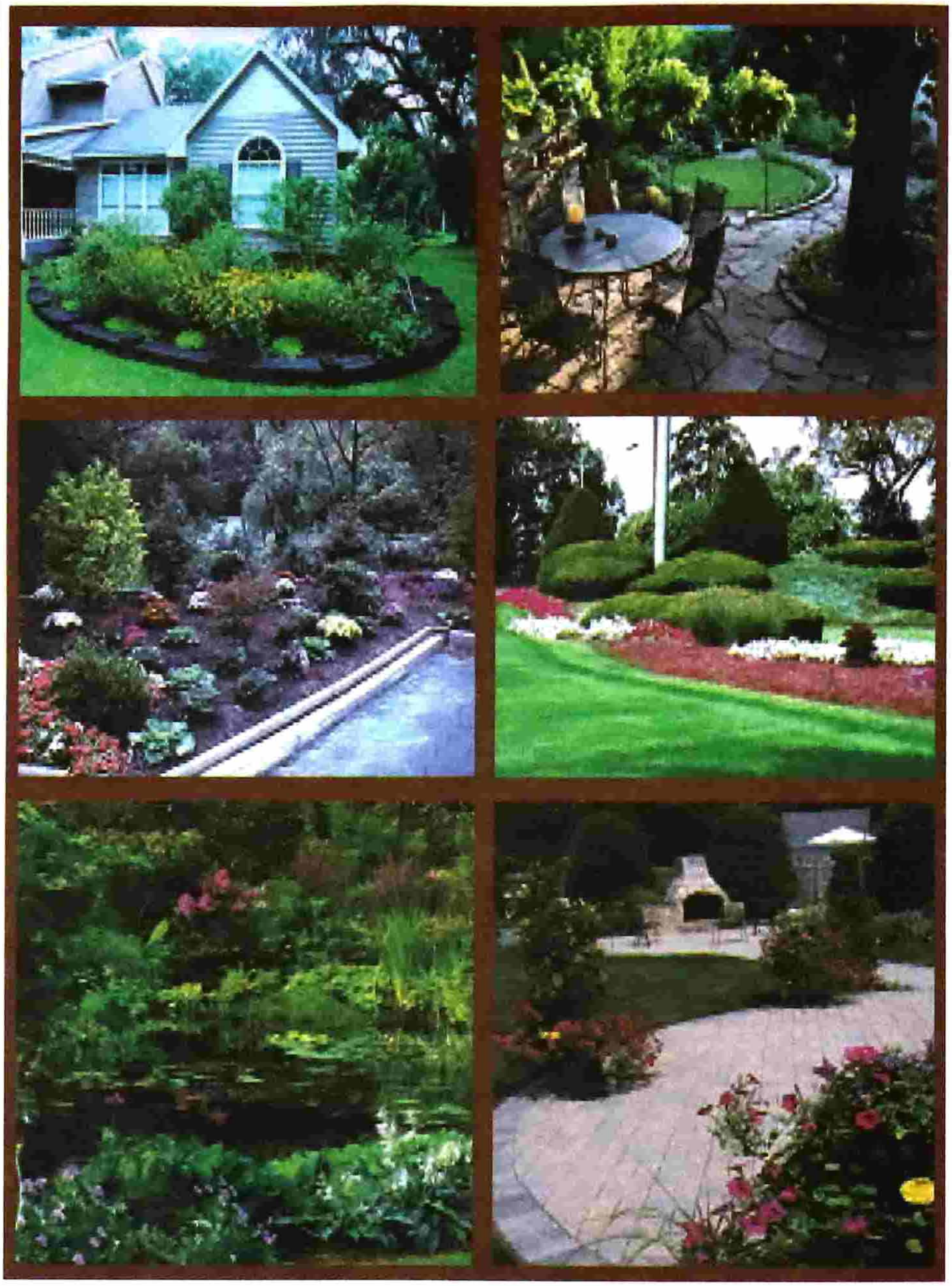
نستدل هنا على شيء من نظرة الإسلام إلى البيت بمناسبة هذا التعبير الموحي: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكينة والاطمئنان الشعوري وهكذا يريده مريحاً تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكن والراحة وباطمئنان من فيه بعضهم لبعض، ثم يستطرد رحمه الله مفسراً آية الأنعام وتأثيرها: وهو هنا يستعرض نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق... ويرق التعبير في جو السكن والطمأنينة وهو يشير إلى الظلال والأكنان في الجبال والسرابيل تقي من الحر وتقي في البرد[1]... وعلى هذا الأساس غيَّر القرآن الكريم من النظرة السائدة لدى العرب في الجاهلية

---

(١) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ج/٤، ص٢١٨٧.

وحولهم، بعد فتح عقولهم وأبصارهم وأرواحهم ثم فتح البلدان العديدة، إلى قوم غاية في الدقة والتعبير والنظرة الفاحصة والشمولية لميول النفس البشرية ومتطلبات سعادتها والنظرة الوسط التي أمر بها الإسلام للأمور، فكانت إنجازاتهم الرائعة في التصميم الداخلي للمساجد والقصور والمدن من أثاث وفرش وهندسة مياه لأغراض الوضوء والزينة والسقي، وكذلك في صناعة الأخشاب والزخارف، وبدا هذا واضحاً في قصور الحيز الشرقي والغربي بجوار تدمر، وقصر المشتى في الأردن، والمنية على بحيرة طبرية، وقصر عمرا في البادية، إضافة إلى قصور بغداد والأندلس وإسطنبول وغيرها الكثير، فكانت الحمامات والأرائك والصناديق الخشبية المزخرفة بأوراق الأكانتس وتفرعات العنب والسلال المتدلية منها أفرع النباتات واستخدامات السيراميك والزخارف المختلفة كلها شيدت مدرسة عالمية لهذا النوع من الهندسة.

أرأيت كيف ينقلك القرآن العظيم إلى واحات جميلة وحدائق غنّاء وجمال وراحة وظلال ونعيم وطمأنينة شاملة عامة غير مجتزأة النظرات والأفكار، فهو مدرسة معمارية متكاملة، ألست معي أخي القارئ الكريم أن القرآن الكريم والإسلام يمدك بكل اللغات ويطلعك على العلوم لعل الإنسان يعود إلى نفسه ويحاسبها قبل أن تحاسب.



الشكل (١٣): مناظر مختلفة تبين أهمية هندسة التنظيم والتصميم الخارجي (Landscaping) بنوعيها (Softscaping) و(Hardscaping) المستخدمة لتنظيم الحدائق العامة والخاصة والمتنزهات والمشاريع الهندسية البيئية كالمحميات والمنتجعات والمستشفيات الخاصة

عاشراً: هندسة التصميم الخارجي:

هندسة التصميم الخارجي (Landscape Architecture) هي التخصص المعني بالمعمار الهندسي لكل ما يتعلق بمحيط المنازل والتجمعات السكنية التي يقطنها البشر من حدائق وبساتين وبراري وأمور أخرى، وتقسم لنوعين رئيسين هما (Softscaping) و (Hardscaping)، ويسعيان بمجموعهما لتنظيم الحدائق العامة والخاصة والمتنزهات والمشاريع الهندسية البيئية كالمحميات والمنتجعات والمستشفيات الخاصة، (انظر: الشكل **١٣**).

وفي هذا تأثر المسلمون كثيراً بالقرآن الكريم وأسلوب وصفه وعرضه للجنان والحدائق واتضح ذلك جلياً فيما أنشأوه من حدائق وبساتين بعد تثبيت دعائم الدولة الإسلامية بدءاً من إنشاء المدن الإسلامية الأولى في البصرة والكوفة وبعدها في بغداد والقاهرة ومدن المشرق والمغرب ومدن الأندلس وقصورها ثم القسطنطينية فيما بعد، ومن كل هذه المدن انتقلت هذه الهندسة وأفكار مهندسيها وخصوصاً مهندسي المائيات إلى مدن أوروبا في العصور الوسطى والمتقدمة وأضافوا إليها أفكارهم، ونذكر في هذا المجال حدائق فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا ولعل أشهرها حدائق فرساي.

والآيات المباركات والأحاديث الشريفة في هذا المجال كثيرة وسنتناول بعضها خلال مسيرتنا في هذه السلسلة. ومن بعض الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة نستوحي ما يلي:

- يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]، ويقول تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ

أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ [النمل: ٦٠]، ويقول تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٥ ـ ٣٢][1].

- أما عن أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ فهي كثيرة وسنذكر بعضها في الباب الأخير من الكتاب وتحديداً في موضوع العطور، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «**إذا أعطى أحدكم الريحان فلا يردّه، فإنه خرج من الجنة**»[2]، أما سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: (مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى أيام الربيع، فينظروا آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها)، وقال سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ: (شموا النرجس ولو في العام مرة).

ولعل من القصص التي رواها لنا القرآن الكريم في موضوع الجنان والحدائق الغنّاء وطريقة وصفه الرائعة لنا ما جاء في قصة صاحب الجنة في سورة الكهف، الآيات: **٣٢ ـ ٤٣**، التي ذكرناها آنفاً ونفصلها هنا.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ

---

(١) يراجع كتابنا (النبات والإنبات) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) أخرجه الترمذي باب ما جاء في ردّ الطيب رقم (**١٧٣٢**)، الحديث رقم (**٢٨٦٧**)، وقال عنه غريب حسن، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ
رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ
بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾. جاء في تفسير هذه الآيات الكريمات ما يلي:

١) يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين وافتخروا عليهم بأموالهم وإحسانهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما: جنتين ـ أي: بستانين ـ من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا، ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، قيل: المراد به المال، وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى: ﴿وكان له ثُمرْ﴾ بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون: ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم فقال ـ أي: صاحب هاتين الجنتين لصاحبه ـ: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر. وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي: بفكره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغتراراً

منه لما رأى فيهما من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾، أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧]، أي: في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل وكان سبب نزولها في العاص بن وائل(١).

٢) قال ابن عطية وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد: إن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيَّره الآخر وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى في ليلة وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة وجعله زجراً وإنذاراً ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا والله أعلم(٢).

٣) أي: واضرب لهم مثلاً للكافر والمؤمن رجلين حال رجلين مقدرين أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيل كافر اسمه قطروس،

---

(١) تفسير ابن كثير (ج: ٣ ص: ٨٤).. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

(٢) تفسير القرطبي (ج: ١٠ ص: ٤٠١ ـ ٤٠٣). تفسير الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥م.

ومؤمن اسمه يهوذا، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً، وصرفها المؤمن في وجوه الخير وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل: الممثل بهما أخوان من بني مخزوم كافر وهو الأسود بن عبد الاشد ومؤمن وهو أبو سلمة عبدالله زوج أم سلمة قبل رسول الله ـ ﷺ ـ. ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ جنتين بستانين، من أعناب من كروم، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطة بهما مؤزراً بها كرومهما، يقال: حفه القوم إذا اطافوا به، وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك غشيته به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها، وإفراد الضمير لإفراد كلتا، وقرئ: **﴿كل الجنتين آتى أكله﴾**. ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولم تنقص من أكلها شيئاً يعهد في سائر البساتين فإن اثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤهما. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ضار لها بعجبه وكفره، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ﴾، أي: أن تفنى هذه الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة، ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمت، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ من جنته. وقرأ الحجازيان والشامي: **﴿منهما﴾**، أي: من الجنتين، ﴿مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبةً لأنها فانية وتلك باقية، وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه. ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة، ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ ثم عدلك وكملك إنساناً

ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر أن يعيده منه. ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة أو دون فتلاقت النونان فكان الإدغام. وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية: بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف. وقد قرئ: ﴿لكن أنا﴾ على الأصل وهو ضمير الشأن وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبر أنا أو ضمير الله والله بدله وربي خبره والجملة خبر أنا والاستدراك من ﴿أكفرت﴾، كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به، وقد قرئ: ﴿لكن هو الله ربي ولكن أنا لا إله إلا هو ربي﴾ ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ وهلا قلت عند دخولها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن على أن ما موصولة أو أي شيء شاء الله كان على إنها شرطية، والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها، ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وقلت: لا قوة إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله وإن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها بمعونته واقداره وعن النبيّ - ﷺ -: «**من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره**». ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ يحتمل أن يكون فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأول، وقرئ: ﴿أقل﴾ بالرفع على أنه خبر أنا والجملة مفعول ثاني لـ﴿تَرَنِ﴾. وفي قوله: ﴿وَوَلَدٗا﴾ دليل لمن فسر النفر بالأولاد .﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني وهو جواب الشرط، ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ على جنتك لكفرك ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مرامي، جمع حسبانة وهي الصواعد، وقيل: هو مصدر بمعنى الحساب المراد به التقدير بتخريبها أو عذاب حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها، ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾، أي: غائراً في الأرض مصدر وصف به كالزرق، ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ للماء الغائر تردداً في رده. ﴿وَأُحِيطَ

بِثَمَرِهِۦ. . . ﴾ وأهلك أمواله حسبما توقعه صاحبه وأنذره منه، وهو مأخوذ من أحاط به العدو فإنه إذا أحاط به غلبه وإذا غلبه أهلكه، ونظيره أتى عليه إذا أهلكه(١).

نستنتج من معاني التفسيرات أعلاه أن هذه النعم في أصلها محببة للنفس البشرية على مرور الأزمان وهي مهمة في تزيين أماكن سكن الناس وتجميل أوقاتهم، لكنها ترتبط بشروط دوام مادية ومعنوية. يربط لنا ذلك القرآن الكريم والسُّنة المطهرة بعلاقة هندسية اجتماعية مهمة، وهي أن دوام النعم مرتبطة بعدة عوامل منها:

عدم البطر.

عدم التكبر والتطاول.

أداء حق الله بالشكر والعرفان.

أداء حقوق الناس من الأقربين والأبعدين بإعطاء زكاة الثمار والتصدق بها على الفقراء.

هذه المعاني السامية تتلمسها أيضاً في قصة قرآنية عظيمة أخرى ضربت لكفار وجاحدي ومتكبري كل زمان، ألا وهي قصة أصحاب الجنة الذين كانت لهم حدائق غنّاء لها ثمار عظيمة لكنهم منعوا حقها على الناس، فأقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فيمنعون حقوق الفقراء، وناموا على هذا العهد إلا أوسطهم الذي نصحهم بأن عاقبة ذلك وخيمة وأن عليهم تذكر حقوق الناس، ولكنهم اغتروا بما عندهم فكانت النتيجة حرق وتدمير بطائف، ذكرنا أمره في كتاب القوى. وهذا هو مختصر قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ

(١) تفسير البيضاوي (ج: ٣ ص: ٤٩٦ ـ ٤٩٨). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾
فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾
[القلم: ١٧ ـ ٣٣].

تأمل الآيات التي تلت هذه الآيات وكيف أن الله تعالى ذكر أن نتيجة التقوى جنات في الآخرة أجمل وأعظم من كل جنات وجمال الدنيا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٤ ـ ٣٦].

وبهذا نكون قد وضعنا أطراً لفلسفة معمارية قرآنية في موضوع هندسة التصميم الخارجي (Landscape Architecture) تتمحور حول إدامة جمالية الحدائق الغنّاء بإدامة الأسباب المادية من نظم سقي بالأنهار وغيرها، وتنظيم زرع وغير ذلك، ولكن الأهم هي الإدامة المعنوية بأداء الأمور الأربعة الآنفة الذكر. فهلا اتعظنا بهذا وأسسنا لها قوانين كي نديم على الأغنياء تمتعهم وعلى الفقراء حصتهم!!

وقد بيَّنا في كتاب هندسة التربة والهندسة الزراعية، وكذلك في كتاب هندسة المياه والري تفاصيل أخرى من هذه الآيات الكريمات تتعلق بمعاني هندسية مهمة في تلك المواضيع، إذ من المعلوم أن هندسة الحدائق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهندسة الري والبزل، وهو الموضوع الذي بحثناه بالتفصيل في كتاب مستقل.

الحادي عشر: الصورة القرآنية لعمارة الجنة:

قدم القرآن الكريم في آياته الكريمة والحديث الشريف في تفصيلاته صوراً عديدة لحال الجنة وأهلها، إذ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما أنبأنا الحبيب ـ ﷺ ـ، فإنك تجد أخي القارئ الكريم وأنت أخي المهندس المعماري تفاصيل عجيبة تأخذ بلبّك

وفؤادك وعقلك لهذه الصور الخلابة التي تقف أعظم المناظر الطبيعية والخيالية أمامها صاغرة كالقزم... إليك بعض تلك الصور القرآنية وأترك لخيالك التصور، ولعقلك الاختيار، ولبدنك ونفسك العمل لها إن كان لك بهذه العطايا العظيمة والهدايا الكريمة رغبة وأمل. يقول الله تعالى:

١) ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢) ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ [الرعد: ٣٥].

٣) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزمر: ٢٠].

٤) ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: ١٥].

٥) ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وفي السنن نجد أهل الحديث ينقلون لنا وصف المصطفى - ﷺ - للجنة بما ينقله عن ما يخبره رب العزة جل وعلا. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قَالَ: «**مِنَ الْمَاءِ**»، قُلْنَا: الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «**لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ**

الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»(١).

واسمع لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يبيِّن أن جائزة أقوام يقومون بأعمال معينة من الخير ستكون غرفاً في الجنان عجيب أمرها غريب طرازها فريد نوعها. فعن عبدالله بن عمرو عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها**»، فقال أبو مالك الأشعري لمن يا رسول الله، قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام**»(٢).

وجاء في شرح الحديث: قوله ـ ﷺ ـ: «**إن في الجنة غرفاً**» جمع غرفة، أي: علالي في غاية من اللطافة ونهاية من الصفاء والنظافة ترى ـ بالبناء للمفعول ـ ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها لكونها شفافة لا تحجب ما وراءها. وفي رواية أحمد وابن حبان والبيهقي: «**يري ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها**»(٣).

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي في سننه الكبرى حديثاً عن عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه: عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «**إن للمؤمن**

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة (**٢٤٤٩**). سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

(٢) المستدرك على الصحيحين (**١/١٥٣/٢٧٠**). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (ج: **٢** ص: **٢٦٢**)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا جميعاً بحيي وهو أبو عبدالرحمٰن المذحجي صاحب سليمان بن عبدالملك، ويقال: مولاه ولم يخرجاه. والحديث موجود في سنن الترمذي (ج **٤** ص **٣٥٤**، **١٩٨٤**) وقال عنه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمٰن بن إسحاق. وأخرجه أحمد والبيهقي برواية مختلفة. انظر: المصادر.

(٣) تحفة الأحوذي (ج٦/ ص**١٠١** ـ **١٠٢**، **١٩٨٤**).. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمٰن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً»[١]. وأخرج الترمذي بنفس الإسناد عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه: عن النبيّ - ﷺ - قال: «**إن في الجنة جنتين آنيتهما وما فيهما من فضة ،وجنتين آنيتهما وما فيهما من ذهب، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[٢].

فيا ترى كيف يمكنك أخي المعماري وأنت أخي القارئ أن تتصور كل تلك الجنان فيها غرف من فوقها غرف مبنية شفافة تجري من تحتها الأنهار المائية واللبنية والعسلية والخمرية. فكيف تكون تلك الغرف من فوقها غرف مبنية ومن تحتها أنهار بتلك المواصفات؟! وكيف يكون زرعها وبناؤها وغرفها وملاطها من اللؤلؤ المجوف والغرف البلورية والأحجار الماسية والذهبية والفضية والمسك والعنبر؟!... الله تعالى أعلم.

لكنها حقاً تستحق منا أن نبلغها بالعمل في دار العمل لأنها غالية كما قال المصطفى - ﷺ - في الحديث الذي جاءنا عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، مسنداً عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ**»[٣].

---

(١) صحيح مسلم (جزء ٤ ـ صفحة ٢١٨٢) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

(٢) سنن الترمذي (جزء ٤ ـ صفحة ٦٧٣). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وأبو عمران الجوني اسمه عبدالملك بن حبيب، وأبو بكر بن أبي موسى قال أحمد بن حنبل: لا يعرف اسمه، وأبو موسى الأشعري اسمه عبدالله بن قيس، وأبو مالك الأشعري اسمه سعد بن طارق بن أشيم. قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: المصادر.

(٣) انفرد به الترمذي في سننه في وصف القيامة، وقال عنه: حديث حسن غريب. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤م.

ثم تأملوا معنا روعة تلك الأوصاف القرآنية للجنة ونعيمها والتي جاءت في آيات عديدة، لكن هنالك سوراً ركزت على تلك الأوصاف المعمارية الخلابة كسورة الرحمٰن وسورة الواقعة والإنسان وغيرها، فدعونا نتأمل، يقول تعالى:

(١) ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ
أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ
دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧)
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)
وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ
(٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمٰن: ٤٦ ـ ٧٨].

(٢) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢)
ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥)
مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ
مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)

كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ
أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ
مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ
وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ٤٠].

(٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ
مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا
﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا
يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا
﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا
فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٢٢].

وهنا، يتبين لك فلسفة الإسلام المعمارية في ترغيب الناس بفعل الخير، وعلى رأس ذلك إنفاق المال على العيال والفقراء والمحتاجين، ودفع الدَّين عن المدينين ومساعدة العزاب على الزواج وغير ذلك من صنوف التكافل الاجتماعي الذي هو بحق الآصرة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي.

فتأمل أخي الكريم تلك الأوصاف لتلك النعم التي تقف أمامها كل خيالاتنا الهندسية المعمارية والجمالية عاجزة قاصرة، فبيَّن حور مقصورات في خيام أقمشتها من مواد لم نعهدها في الدنيا، وأراضٍ نباتها المسك والعنبر والزعفران، وقصور بناءها من ذهب وفضة وياقوتٍ وماس وزمرد، وملابس حريرية خضراء وحمراء وزرقاء وألوان لم نعهدها من قبل، وأرائك يتكأ عليها بطائنها من استبرق فلو كانت البطائن من استبرق فما بالك بملمسها الظاهر! وفواكه تتدلى لطالبيها بمجرد التفكير بها شكلها يشبه فاكهة الدنيا وطعمها لا تقارن لذته بأطايب وملذات الدنيا، وأنهار من خمر ولبن وعسل لذة للشاربين، وأنواع الشراب ممزوجة بالكافور، ثم شراب طهور لا يعلم كنهه وحقيقته لأنه خارج حدود التصور من حيث الطعم واللون والرائحة، وحوض للكوثر لو شرب منه لا يظمأ بعده أبداً، وكؤوس فضية المادة شفافة المنظر، وجنان غناء يتفجر منها ماء ليس كماءنا بل ماء حسب الطلب والرغبة من حيث الشكل واللون والهيئة والرائحة، وعمران وقصور وبناء عجيب فوق الماء بلا أسس ولا ركائز، وحور جمالهن يذهب بالأبصار وبياضهن يشع الأنوار، وغير ذلك مما يؤلف فيه الكتب والمجلدات، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].

كل ذلك أعد للمتقين الأبرار من نالهم عطف الرحمٰن ورحمته فأدخلهم جنته، والجائزة تعطى جراء عمل دنيوي قصير الفترة لكن ثوابه مقيم لا ينفذ زماناً ولا يفنى مكاناً ولا يعدم كماً ولا يبلى نوعاً. ودعوتي هنا للأخوة المعماريين أن يتأملوا كيف تربط الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة آنفة الذكر بين جائزة الجنة ونعيمها وبين مساعدة الناس وفعل الخير وإنفاق المال لوجه الله تعالى، والعدل والخلق الكريم في الدنيا بربطه حال دعوة الصائم وإمام العدل والمظلوم مع الإجابة الدنيوية العاجلة لله تعالى، وكأن الإسلام يقول لك بلافتة كبيرة واضحة المعالم وبصوت واضح جلي متناغم، (اَستثمر مالك وعملك في عمارة قصرك في الجنة).

أليس في ذلك فلسفة معمارية فريدة تدعو لوسطية في البناء واقتصاد

في التصميم والتنفيذ وادخار، مما يعني ادخار للمال في بناء أكثر فيكون المستفيد عدد أكبر من الناس، ثم بعد ذلك العمل التكافلي الاقتصادي الدنيوي المؤدي لتعمير اقتصاد الفرد والمجتمعات يكون الناتج قصوراً في غاية الروعة لا تحتاج لأعمال صيانة أو أياد عاملة أو إشراف هندسي، لا يفنى مكانها، ولا يزول بناؤها، ولا يبلى عزها، ولا ينتهي خيرها، ولا يحول دون أي رغبة وأمنية لصاحبها في انفتاح تام للخيال والتمتع وفي زمن مفتوح لا حد له وفي حدائق غناء لا نهاية لحدودها وفيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟!!

إنها دعوة للتامل والتبني لهذه الفلسفة المعمارية التكافلية الاجتماعية الاقتصادية غير الأنانية.

وبعد كل هذا التوصيف المعماري المذهل، هل يمكن أن تكون عمارتنا لدنيانا بديلاً عن عمارتنا لآخرتنا، وهل نشتري لذة أشهر وسنوات ونبيع نعيم مقيم بأوصاف خارج نطاق التصورات والمواصفات؟!! بئس البيع إذن.

وبعد هذه الرحلة في مواصفات العمارة القرآنية نقول: ليس هذا كل شيء، فالهندسة المعمارية ترتبط كما بيَّنا في التعاريف بعدة علوم وبغيرها من أنواع الهندسة الأخرى، مثل: الإنشاء والهندسة المدنية، علوم المواد وهندستها، البيئة وهندستها، علوم الصوت والاهتزازات وهندستها، علوم الضوء وهندسته، الكهرباء وهندسته، الميكانيك وهندسته، هندسة الري والهندسة الزراعية، وغير ذلك، وهذه كلها تكلمنا عنها بالتفصيل في الكتب المخصصة لها ضمن هذه السلسلة.

الفصل الثالث

أثر الفكر العمراني القرآني
على خصائص العمارة الإسلامية

أثر الفكر العمراني القرآني على خصائص العمارة الإسلامية

مقدمة:

بعد أن تعرفنا على الفكر العمراني القرآني والنبوي في الفصل الأول، نبيِّن هنا أثر ذلك على شخصية فن العمارة وهندستها بشكل عام، وكيف انطبع أثر ذلك على نمط تلك العمارة مما جعلها تأخذ كل هذا الإبداع والتميز في كل حضارة دخلتها وكل بلد مرت به. إذ لا يخفى على أحد تأثير العمارة الإسلامية على العمارة في كل أرجاء العالم حتى يومنا هذا والشواهد والمعالم على هذه العمارة لا زالت شاخصة حتى الآن في أرجاء المعمورة وهي أكثر من أن تعد.

بدأ المعماريون المسلمون انطلاقاً من كل ما بيَّناه من منطلقات معمارية قرآنية ونبوية يطلقون مصطلحات عمرانية وبنائية لم تكن في سابق عهد الحضارات التي سبقتهم، وخصوصاً بعد فتح البلدان واستقرار الأوطان وتمتع أهل الأمصار بالازدهار والأمان في وقت الدولة الأموية والعباسية ومن ثم العثمانية في وقت لاحق، فبدأت مصطلحات وفنون تتعلق ببناء المساجد ودور العلم وما فيها من تفاصيل نبيِّنها لاحقاً، كذلك كان تطور فنون الخط والزخرفة وعقد السقوف وتشكيل الجدران بها وبروز كل ذلك كأحد معالم الفن الراقي المتجدد له الأثر الكبير في تميز العمارة الإسلامية حتى يومنا هذا، فضلاً عن الاهتمام بسعة المكان والفضاء

الرحب والاهتمام بالزرع والثمر والورد وتشكيلاتها والاهتمام بالمياه والتفنن في تصاميم النافورات وأماكن الوضوء والجداول وغير ذلك مما يوفر الراحة النفسية للمستخدم.

وفي موضوع المدينة الإسلامية والعمارة الإسلامية كتب الكثير والكثير جداً، وأُلِّفت الكتب والمقالات والبحوث والدراسات والرسائل الجامعية المختلفة لطلبة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، وعقدت المؤتمرات وخصوصاً في العقدين الأخيرين من القرن العشرين الميلادي، وهناك بحوث جديدة بدأت تظهر وتختص بالعمارة والتخطيط الحضري تبيِّن فلسفة المسلمين في العمارة واهتمامها بالإنسان وقيمه وخلقه لا بالشكل المعماري فقط، وكذلك الأسس الحديثة لبناء عمارة إسلامية مستقلة وإرجاع الشخصية المعمارية الإسلامية قلباً وقالباً، روحاً وجسداً، تصميماً واعتقاداً.

ويطول الشرح والتفصيل في هذا الموضوع، ويقصر المجال لذكر المؤلفات والمطبوعات، إلا أن هذا كله يبعث في النفس أملاً كبيراً في ظهور أجيال قادمة تحمل على عاتقها إعادة الحياة للشخصية الهندسية والمعمارية الإسلامية التي حاول الأعداء جاهدين نزعها منا كما حاولوا نزع أمور أخرى كثيرة تحت أقنعة شتى، كان آخرها عولمتهم ونظامهم العالمي الجديد القديم الأرعن هذا[١].

لقد استحدثت العمارة الإسلامية أنماطاً وطرزاً وتفاصيل ومسميات معمارية وهندسية كثيرة نحاول أن نتناول بعضها بالتفصيل والبعض الآخر بالذكر في ثنايا هذا الكتاب، فتجد أن هناك مصطلحات معمارية إسلامية عديدة تتناولها بحوث المتخصصين في هذا الشأن، ومن ذلك مثلاً:

---

(١) أحيل القارئ الكريم إلى دراسات مهمة في هذا المضمار كدراسات المراكز الإسلامية المعمارية في العالم التي صدرت عنها بحوث ونتائج قيمة، وكذلك كتب تحدثت عن أصالة التراث المعماري الإسلامي ومنها كتاب (عالم الأرض).

محراب، منبر، مئذنة، قبة، إيوان، سبيل، بيمارستانات، بائكة، العقد الثلاثي، العقد المركب، طبق نجمي، مشربيات، شرفات، روشن، ديوان، قلعة، برج، حصن.

ولقد صهرت العبقرية الإسلامية الفنون الإسلامية لمختلف الأمم والشعوب في نشأتها وتاريخها في صهر الفنون وتطويرها والإضافة إليها مما أدى إلى وحدة الفن الإسلامي وتميزه، وكل ذلك أدى إلى تكون فلسفة للعمارة الإسلامية وتبلور فقهها. ولعل أهم التطبيقات المعمارية لتلك الفلسفة كانت تتمحور حول عدة أمور، مثل: تخطيط المدن التراثية (وقد أخذ بعض الباحثين **١٢٥** مدينة كنماذج تم حصرها في هذا المجال)، تصور علماء السياسة الشرعية للمدينة الإسلامية، تخطيط الأحياء وعمارتها. وقد تشكلت عدة أنواع للعمارة الإسلامية، من هذه الأنواع التي سنتناول بعضها تباعاً في مسيرتنا في هذا الكتاب:

١ ـ العمارة الدينية: وتشمل المساجد، وملحقاتها. ومن ذلك المسجد النبوي، المسجد الأقصى، المسجد الأموي بدمشق، الجامع الأزهر بالقاهرة.

٢ ـ عمارة المنشآت التعليمية: مثل المدارس، الكتاتيب.

٣ ـ عمارة المنشآت السكنية: مثل المنازل والدور وتصميمها بما يحقق التشريعات الإسلامية للأسرة المسلمة.

٤. عمارة المنشآت التجارية: الوكالات، الفنادق، القياس، الأسواق، المجمعة، الخانات.

٥. منشآت العمارة الخدمية: مثل البيمارستانات أو المشافي، النزل، الحمامات، الأسبلة.

٦. المنشآت المائية: مثل السواقي، الصهاريج، مجرى العيون، الفوارات أو النافورات وغيرها.

٧. العمارة الصناعية: وتشمل كثيراً من المفاصل اعتماداً على نوع الصناعة، مثل الغزل والنسيج، الأواني، الملابس وغير ذلك[١].

العمارة الإسلامية وأثرها العالمي:

الحضارة أسمى وأبقى ما للأمة من تراث، ولقد كان للعرب والذين دخلوا في الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور، ولكنه لم

---

(١) عن مقالات (العمارة الإسلامية)، المنشور على موقع الدكتور علي عمر أحمد بادحدح (http://islameiat.com/) بتاريخ ١٩ ـ ٦ ـ ٢٠٠٥. والمستند إلى العديد من بحوث ومقالات وكتب المتخصصين في العمارة الإسلامية، ومن ذلك: أسس التاريخ الحضاري والعمراني في العصور الإسلامية المختلفة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. مساجد الإسلام، طه الوالي، بيروت. العمارة الإسلامية عبر العصور، د. سعاد ماهر، جدة. العمارة الإسلامية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د. حسن نويصر.. فقه العمارة الإسلامية، خالد عزب (دار النشر للجماعات المصرية). أسس تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، خالد عزب (كتاب الأمة). العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية، جلال شوقي (الكويت ١٩٥٠م). موسوعة حسن الباشا للعمارة والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا (القاهرة ١٩٩٧م). التراث المعماري الإسلامي في مصر، صالح لمعي. العمارة الإسلامية وخصائصها، د. عبدالقادر الريحاوي.. العمارة في صدر الإسلام، د. كمال الدين سامح.. أقطان أصلان آباء فنون الترك وعمائرهم، إستانبول ProductID ١٩٨٧م. موسوعة الآثار الإسلامية الليبية. العمارة في المغرب الإسلامي، مصطفى زيبس. بخارى الشريفة، تاريخها وتراثها الحضاري، خالد عزب. مدخل إلى العمارة الإسلامية، أمجد بوهميل بورفازكا (سويسرا، مركز هلاب). المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، منظمة العواصم والمدن الإسلامية.. المساجد، د. حسين مؤنس (الكويت ـ عالم المعرفة). تاريخ المساجد الأثرية، حسن عبدالوهاب (القاهرة ١٩٥٠م). البيوت في القاهرة في القرنين ١٧ ـ ١٨، قللي خنا. فنون الإسلام، زكي محمد حسن. مسجد القرويين، عبدالهادي التازي. المساجد والقصور، السيد عبدالعزيز سالم. صيدا، السيد عبدالعزيز سالم. العمارة الإسلامية في طرابلس والشام، عمر عبدالسلام. الفن الإسلامي، عفيف بهنسي. موسوعة العمارة الإسلامية، عبدالرحيم غالب. المصطلحات المعمارية من خلال وثائق المماليك، ليلى إبراهيم، محمد أمين (القاهرة ١٩٨٨م).

يصبح عميقاً شاملاً وهاجاً إلا بالإسلام، الذي امتدت فتوحه من الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، مستقراً في بعض بلدانها، ماراً أو مجاوراً بعضها الأخر. وكان لهؤلاء وهؤلاء علوم وفنون فأدخلوها فيه ومزجوا بين علومه وعلومهم، وهنا سطع نور الإسلام بما أقام من دولة، وللفنون من طلاوة، وللصناعات من نهضة، ولأسباب الحياة من أمن وتقدم وسعادة.

والحضارة المادية ونعني بها الآثار الباقية، هي أقوى دليلاً من الحضارة المروية أو المكتوبة أو المأخوذة بالفهم والاستنتاج، وإذا كان علماء تاريخ الحضارة يعتمدون في دراساتهم على مخلفات الأمم من التحف المنقولة من المتعة والأدوات وما إليها، ليتعرفوا بها أحوالها وعاداتها، وما كانت عليه في حياتها ومعيشتها اليومية، ويقيسوا بها درجاتها من التقدم والتخلف، أو من الأصالة والتقليد، ومبلغ اتصال هذا كله بالقدرة على تجويد الصناعة، وتنويع حاجات المعيشة وحسن الفطنة والذوق السليم والمهارة الفنية.

وإذا كانت التحف المنقولة لها هذا القدر عند علماء تاريخ الحضارة وهو قدر كبير، فليس من شك في أن التحف الثابتة، ونعني بها العمائر والمباني، لها قدر أكبر وأكبر في استنباط الحقائق الثابتة التي لا تهاب ولا تحابى، ومن ثم فقد أضحت العمارة وما يماثلها من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات على استنطاقها والاستماع إليها، وعلى الوقوف على ما تخفي وما تعلن عند تدوينهم تراث الأقدمين. وإذا كانت العمارة هي السجل الذي يستقي منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار، أو تدهور وتخلف، فإن العمارة الإسلامية، وخاصة الدينية منها قد سجلت لنا تاريخ الدول المتعاقبة وأعطتنا صورة صادقة عن منشئها.

ذلك أن العقيدة الإسلامية، التي تغلغلت في نفوس معتنقيها لسماحتها ولملاءمتها لطبيعة النفس البشرية ولحرصها على الإسعاد في

الدارين، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعمارة المساجد التي يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فكان المسجد مركز التلاقي ونقطة الانطلاق بالنسبة إلى الإسلام وإلى المسلمين الذين حرصوا على بنائه طلباً للأجر وطمعاً بالتوبة. ثم إن أصحاب الكفاءات الهندسية وممن توفرت لديهم المواهب الفنية وجدوا في عمارة المساجد المناخ الذي تتنفس في جوه طموحاتهم الإبداعية فراحوا يضعون أنفسهم بتصرف الراغبين في بناء هذه المعابد، ولا يدخرون جهداً في أن يأتي المسجد بين أيديهم آية للناظرين من حيث روعة التصميم وجمال الزخرفة.

والمساجد التي بنيت في أقطار العالم حفظت لنا التطور الذي عاشته العمارة الدينية في الإسلام، كما أعطتنا فكرة عن المدارس الهندسية التي تجسدها هذه العمارة. ثم إن العناية بجمال البناء المسجدي اعتمد حتماً على التركيز على العناصر الفنية ولا سيما الزخرفية. وإذا كانت تصاوير ذوات الأرواح لم تستطع التعبير عن مهارة الفنانين المسلمين في المساجد فإن هؤلاء الفنانين وجدوا طريقهم في مجال الزخرفة النباتية وما يتصل بها مما اصطلح على تسميته بفن الأرابسك في اللغات الأوروبية، ويقابله في العربية الرقش أو التوريق. وهذا التعبير الأخير أخذه الإسبان عن عرب الأندلس فدخل لغتهم، وبفضل إقبال المسلمين على الاهتمام بالمساجد أصبحت العمارة الدينية جزءاً من الثروة الأثرية. ومن خلال المفهوم التراثي للمسجد، فإننا نجد أهل كل بلد يتباهون بما عندهم من عمائر دينية.

إنّ بروز مصطلحات بنائية ومعمارية جديدة كالقبة والمنارة والميضأة (مكان الوضوء) وغيرها سواء في جزيرة العرب أو في أي مكان جديد دخله الإسلام، دليل ساطع على الفعل المؤثر للمدرسة الإسلامية المعمارية على الفن المعماري العالمي. ومن خلال دراسة المباني الدينية بصفة عامة والمساجد بصفة خاصة وخلال بعض التفاصيل والجزئيات يمكن التعرف إلى تاريخ تطور الفن الإسلامي.

الفلسفة الإسلامية للعمارة:

لقيمنا المعمارية أسس خلاقة وعظيمة تختلف كل الاختلاف عن غيرها فهي خليط متجانس مع فطرة البشر وتناغم البيئة وترنيمة الطبيعة ومراعاة شركاء الكوكب من حيوان ونبات بل حتى جماد، فلا تفريط ولا إفراط، لا بذخ ولا تبذير لنفر أو أمة يثير حساسية نفر آخر وأمة أخرى، ولا طغيان وتكبر بسبب تراكم اموال كي لا تكون دولة بين الأغنياء منكم. ولقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من الركائز المتينة التي يجب الالتزام بها عند تصميم الأبنية والقصور وغير ذلك مما يحتاجه البشر في حياتهم. ولعلنا نشير هنا لبعض سمات الفلسفة المعمارية الإسلامية التي بيَّنها الكتاب والسُّنة:

١ - **الخلق المعماري في القرآن والسُّنة**: لقد تضمّنت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.الكثير من الضوابط والركائز المتينة التي يجب أن يستلهم منها المعماري المسلم جميع الأصول عند وضعه للتصميمات الهندسية لإقامة المباني في البلدان الإسلامية.. من ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧]، فهذه الآية الكريمة تُرشد المعماري المسلم إلى ضرورة مراعاة الخصوصية والاستقلالية وضمان حرمة البيوت، ومراعاة حرية العائلة المسلمة وتحقيق شعورها بالأمان. إن المعماري المسلم مطالب بالالتزام بآداب وتوجيهات القرآن الكريم في هذا المجال، إذ يجب أن تخلو الأبنية من وسائل الإطلاع على شؤون الجار ومعرفة ما يدور في داره من أسرار ومعاملات، يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩]، فعند تصميم المبنى يجب أن ندرس العلاقة بين الأبنية وما يحيط بها من مبان أخرى حتى نحافظ على خصوصيات الجار.

٢ - **تكنولوجيا العمارة الإسلامية**: لقد وضع لنا رسول الله - ﷺ - منهجية العمارة الإسلامية التي تركز على عدم التبذير والابتعاد عن الإسراف والبذخ في إنشاء أبنية المسلمين تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧]، فالآية الكريمة تطالبنا بالتزام البساطة.

٣ - **استعمال ما تيسر من مواد وفق البيئة والإمكانات المتاحة**: يجب أن نتأسى بالمنهج المعماري البسيط الذي أرساه الرسول - ﷺ - في إقامة أول مسجد في الإسلام بالمدينة المنورة بعد الهجرة مباشرة، واستعمال المواد المتيسّرة والمتوافرة بالبيئة المحلية عند إنشاء العمارة واستخدام التكنولوجيا التي تتضمن المواد الخام اللازمة الموجودة في هذه البيئة، حتى يتضح للجميع مدى التزامنا بما جاء في الكتاب والسنَّة في المجال المعماري مما سنذكر في خلال مباحثنا في هذا الفصل.

٤ - **الشخصية المعمارية للأمم**: لكل أمة عمارة ولكل بيئة إسلامية ظروفها التي تتحكم في ملامحها المعمارية، ولا شك أن العمارة الإسلامية كغيرها من فنون العمارة تؤثر وتتأثر بالكثير من المؤثرات الحضارية. ونحن ندرك أن العمارة الإسلامية قد اكتسبت هويّتها من المجتمعات والبيئة التي وُجدت فيها.. وأستطيع القول: إن العمارة الإسلامية هي فن إنشاء الأبنية التي تعكس حضارة الإنسان وثقافته. ولقد تأثرت العمارة الإسلامية بعوامل تاريخية وجغرافية ونفسية وعقائدية، فنجد أن الدول التي فتحت صدرها للإسلام قد تأثرت بالروح الإسلامية في المجال المعماري. بالإضافة إلى تأثرها بالمستوى الاقتصادي والمستوى التعليمي، ونجد ذلك واضحاً في مدن القاهرة وفاس والقدس والقيروان وإسطنبول وحتى مدن بخارى وطشقند وسمرقند

وغيرها، والذي أود أن أؤكد عليه أن الغزو المعماري الغربي يهدد العمارة الإسلامية بأخطار التشويه[١].

بيَّنت الدكتورة المهندسة حفصة رمزي العمري الأستاذة في كلية الهندسة بجامعة بغداد في بحث متميز خاص بالفلسفة الإسلامية للعمارة أموراً كثيرة تتعلق بهذا الموضوع. فقد قسمت فصله الثالث إلى مبحثين، الأول: يركز على استكشافات المبادئ والقيم الضمنية من خلال مناقشة خصائص التصور الإسلامي ونظام العبادات، والمبادئ الكلية من نظام الفقه والأحكام الشرعية الثابتة التي أثرت وتؤثر على تشكيل أنماط العمارة الإسلامية... والمبحث الثاني: يناقش مفهوم البناء في القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة لاستكشاف القيم والمبادئ الكلية التي تحدد الأطراف والضوابط العامة للبناء في المجتمعات الإسلامية، ثم استكشاف المبادئ والقيم والأحكام الشرعية والفقهية التي تؤثر على تشكيل أنماط أبنية العمران الإسلامي. في المبحث الأول: أعطت تعريفاً لمعنى الدين في اللغة، وكذلك معنى الإسلام في اللغة، ثم قسمت المبحث إلى أبواب هي: التوحيد، الثبات، الشمول، التوازن، الاستقامة، الوحدة والتعددية، الإيجابية والواقعية، الارتباط بالسنن الكونية والانتظام ضمن الجماعة. أما العبادات فقسمتها إلى أبواب هي: الطهور، الصلاة، الزكاة، الصوم والحج. ثم انتقلت إلى الفقه أو الشريعة الإسلامية فقسمته إلى مقاصد الشريعة. أما المبحث الثاني: فشمل تفاصيل عظيمة للبناء في القرآن الكريم والسُّنة المطهرة، ثم انتقلت إلى المساجد وخصائصها، ثم المنظور الإسلامي للجمال فأحكام البناء الشرعية والفقهية فقسمته بدوره إلى أحكام الضرر والحقوق.

لقد قامت الباحثة بجهد رائع لتوضيح صورة الفلسفة الإسلامية

---

(١) لقاء مع وزير الأوقاف الأردني السابق، في مجلة الوعي الإسلامي، مجلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، العدد رقم: ٤٨٤، التاريخ ٢٢ - ٢-٢٠٠٦، بقلم الكاتب: سهير محمد حسنين.

للعمارة، وهذا التوجه الجديد هو الذي أشرنا إليه في معرض إشارتنا إلى أهمية الهوية والتخصص الفلسفي للعمارة التي ننتمي إليها، والتي إذا ما فقدناها فكأننا فقدنا لغتنا وانتماءنا وديننا لأنها من أهم ركائز وجودنا وحياتنا. فنراها تقول في موضوع البناء في القرآن والسُّنة مشيرة إلى ما أشرنا إليه من أن القرآن الكريم حث على الوسطية وعدم المغالاة في البناء، ونظراً لأهمية البناء في الحضارة والمجتمعات فقد رسم الدين الإسلامي الحدود والأُطر التي يتم العمل بداخلها، فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**النفقة كلها في سبيل الله، إلا البناء فلا خير فيه**»[(١)]، قال شارحو الحديث: لا خير في الإنفاق في البناء ولا أجر فيه ويقصد المغالاة والترف الزائد في البناء الذي ليس فيه قصد التقرب إلى الله تعالى، أو فيه أذية للعباد، إضافة إلى ما يجلبه من التحاسد والتباغض وزوال النعم[(٢)]. كما جاء عنه ـ ﷺ ـ قوله: «**من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً من غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجر جارٍ ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى**»[(٣)]، وقوله ـ ﷺ ـ: «**أما أنّ كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة، إلا بناءَ كفافاً**»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ج/٤، ص٦٥١، وقال حديث غريب، قال الشيخ الألباني: ضعيف. وذكر في الترغيب والترهيب للمنذري، ج/٣، ص١٤. وكذلك تحفة الأحوذي للمباركفوري، ج/٧، ص٥٥، انظر: المصادر.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمٰن المباركفوري، شرح الحديث (٢٤٨٢)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

(٣) مسند أحمد بن حنبل (١٥٦٥٤/٤٣٨/٣)، عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من بني بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجر جار ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى**». وعلق عليه شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف. وجاء في مسند الشافعي والمعجم الكبير وشعب الإيمان، كما ورد في معتصر المختصر لأبي المحاسن، ج/٢، ص٢٧٧ في الغرف والقباب. انظر: المصادر.

(٤) جاء في سنن أبي داود (٥٢٣٧/٧٨١/٢) عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة (أي: عاليه) فقال: «**ما هذه؟**»، قال له أصحابه: هذه لفلان، رجل من الأنصار، قال: فسكت وحملها في نفسه، حتى إذا جاء صاحبها=

وتوصلت الباحثة إلى أن الإسلام يعطي الصورة الواضحة لكل من يريد البناء بأن يجعل الآخرة أمامه قبل الدنيا فلا يبالغ في البناء، ومن جهة أخرى لا ينسى الاحتياجات الأساسية للسكن. وبهذا ترى أن الرجوع إلى هذا التراث الرائع يعطينا تطبيقاً معمارياً لمفهوم ديننا الحنيف ويبعدنا عن التقليد الأعمى لكل فكر دخيل بحجة التطور والانفتاح والحرية الشخصية(١).

ونبيِّن هنا بإيجاز بعضاً من السمات الرئيسية للعمارة الإسلامية كما جاءت أوامرها من الشارع الحكيم في القرآن والسُّنة:

١ ـ المسجد مركز للمدينة وحوله تقوم الحضارة، وهو ما اتُّبِع في مدن إسلامية عديدة بعد انتشار الإسلام في الأمصار امتثالاً لأمر الله تعالى، وكما بيَّنت السُّنة المطهرة، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ـ البيت المسلم له حرمته المصونة فلا يطلع عليه غريب إلا بإذن أهله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا

= رسول الله ﷺ يسلم عليه في الناس أعرض عنه صنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه فشكا ذلك إلى أصحابه فقال: والله إني لأنكر رسول الله ﷺ، قالوا: خرج فرأى قبتك، قال: فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض. فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرها قال: «**ما فعلت بالقبة؟**»، قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها، فقال: «**أما إن كل بناء وبال على صاحبه، إلا ما لا إلا ما لا**» يعني: ما لا بد منه. قال الشيخ الألباني: ضعيف. وأخرجه أهل السنن: سنن ابن ماجه، مسند أحمد بن حنبل في مسند الشاميين، المعجم الكبير والأوسط، شعب الإيمان، مسند أبي يعلى، والحديث المذكور في المتن أشار له أبي المحاسن في معتصر المختصر، ج/**٢**، ص**٢٧٧** في الغرف والقباب، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب، ج/**٣**، ص**١٢**. انظر: المصادر.

(١) أطروحة دكتوراه للأستاذة حفصة رمزي العمري، الفصل الثالث، بتصرف، جامعة بغداد، كلية الهندسة، قسم الهندسة المعمارية، **٢٠٠٠**م.

طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ
فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا
فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا
كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ
بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]،
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟
وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ
تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟
فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ
وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل
لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ
أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى
ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٢٧ - ٣١].
وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ
مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ...﴾: هي الخانات[١].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (ج: ٢ ص: ٣٣٢ - ٣٣٨)، الشيخ العلامة أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمٰن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية رحمه الله تعالى، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت - لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

وفي السُّنة المطهرة ما يبيِّن أن للبيوت حرمات كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيّ - ﷺ - قال: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه**»[١]، «**من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه، فلا دية له**»[٢]. وكذا ما جاء في الحديث الشريف الآخر: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»[٣]. وفي شرح هذا الحديث يقول صاحب فتح الباري ما نصه: (أي: شرع من أجله، لأن المستأذن لو دخل بغير إذن لرأى بعض ما يكره من يدخل إليه أن يطلع عليه، وقد ورد التصريح بذلك فيما أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي وحسنه من حديث ثوبان رفعه: «**لا يحل لامرىء مسلم أن ينظر إلى جوف بيت حتى يستأذن**»، فان فعل فقد دخل، أي: صار في حكم الداخل، وللأولين من حديث أبي هريرة بسند حسن رفعه: «**إذا دخل البصر، فلا إذن**»، وأخرج البخاري أيضاً عن عمر من قوله: «**من ملأ عينه من قاع بيت قبل أن يؤذن له فقد فسق**». وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن بسر صاحب النبيّ - ﷺ - يقول كان رسول الله - ﷺ - إذا جاء الباب يستأذن لم يستقبله، يقول يمشي مع الحائط حتى يستأذن فيؤذن له أو ينصرف[٤]. وقد قيل: (من كشف ستراً فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرأى عورة أهل البيت، فقد أتى حداً لا يحل له أن يأتيه)، وقيل في المقابل: (وإن مرّ رجل على باب لا ستر له فنظر بغير قصد فلا خطيئة عليه، إنما الخطيئة على أهل البيت)، وعلى هذا الأساس يجب أن تصمم البيوت والمحلات

(١) صحيح مسلم (٣/١٦٩٩/٢١٥٨)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م..

(٢) صحيح البخاري (/٢٥٣٠/٢٢)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م.

(٣) صحيح البخاري (٥/٢٣٠٤/٥٨٨٧)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/١٨٩/١٧٧٣٠)، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.

والحارات والمدن لا على طراز التحلل الغربي الذي ابتلينا به[١]. وفي الفقه: أنك تأتي الباب تطرقه ثلاثاً، فإن أذن لك في أي منها دخلت، وإلا ترجع بعد الثالثة.

٣ - التوسع والتفسح في المواضع: وهو أمر إلٰهي جاء ليبيِّن للمسلمين أهمية إعطاء الحقوق للناس ليتشاركوا بالعدل في مجلس سواء أكان ذلك في المسجد أو أي مكان وظيفي آخر. يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]، وهذا ما تبيِّنه سنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عمر عن النبيّ ـ ﷺ ـ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه[٢]. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «**لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا**»[٣]. ومعنى الحديث في شرح النووي: (لا يقمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه)، وفي رواية: «**ولكن تفسحوا وتوسعوا**»، وفي رواية: وكان ابن عمر إذا قام له رجل عن مجلسه لم يجلس فيه، هذا النهى للتحريم فمن سبق إلى موضع مباح في المسجد وغيره يوم الجمعة أو غيره لصلاة أو غيرها فهو أحق به ويحرم

---

(١) العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص ١١٨ ـ ١١٩، بتصرف وإيجاز.

(٢) صحيح البخاري (٥/٢٣١٣/٥٩١٥)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٧١٤/٢١٧٧)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

على غيره إقامته لهذا الحديث، إلا أن أصحابنا استثنوا منه ما إذا ألف من المسجد موضعاً يفتي فيه أو يقرأ قرآناً أو غيره من العلوم الشرعية فهو أحق به، وإذا حضر لم يكن لغيره أن يقعد فيه، وفي معناه: من سبق إلى موضع من الشوارع ومقاعد الأسواق لمعاملة).

٤ ـ دراسة تنظيم الحي السكني أو الحارة أو الحومة: وهو ما عكف على دراسته أساطين العمارة الإسلامية وتوصلوا إلى أن المدينة الإسلامية يجب أن تقسم إلى ثلاثة فضاءات: العام، شبه العام، الخاص، وقد تتداخل فيما بينها فراغياً ومعمارياً واستخدامياً حسب عوامل عدة. والحارة في المدينة الإسلامية عبارة عن مجموعة من البيوت والمنازل المتراصة تشكل عبر واجهاتها الخارجية المصمتة ـ عدا بعض الفتحات ـ جداراً عازلاً وحائطاً مسدوداً يحدد الشارع ويحده في آن واحد. ويمكن تحليل شبكة المرور إلى ثلاثة مكونات تتدرج في الأهمية وظيفياً وفراغياً[(١)].

٥ ـ أهمية الجيرة والترابط الاجتماعي في منطقة السكن: اهتم الإسلام الحنيف بالجار، وجاء الكثير في ذلك في القرآن والسُّنة. يقول تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، وفي السُّنة الكثير من الأحاديث التي تحض على الإحسان للجار وإكرامه، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان، واللفظ للبخاري، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «**ما زال يوصيني**

(١) العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة **١٤٢٦**هـ ـ **٢٠٠٥**م، ص **١٢٢** ـ **١٢٣**، بتصرف وإيجاز. وانظر: كتاب (ثقافة البناء وبناء الثقافة) للدكتور ناصر الرباط.

جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[١]. ومن الإكرام أيضاً: التكافل في المأكل والملبس والمشرب والسؤال عنه وعن حاله وتفقده وزيارته وغير ذلك. وفي مجال الحس الهندسي المرهف في الإسلام وآدابه الجمة تجاه الجار أن لا يسمح للمرء بالبناء إذا ارتفع فمنع عن جاره الريح والضوء إلا بإذنه، ومن ذلك وعن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره**». قال: ثم يقول أبو هريرة أنه قال: «**ما لي أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين أكتافكم**»[٢]. والمعنى: لا يجوز لرجل أن يمنع جاره لو أراد مصلحة ما تخص ما بينهما من جدار أن يفعل ذلك إذا لم تضر به وبأهله، والله أعلم.

٦ ـ النهي عن البناء في أرض الغير دون إذنهم: كما نهى الإسلام الحنيف عن التعدي على أراضي الغير كما جاء في الحديث الذي أخرجه البيهقي في سننه الكبرى عن جابر عن القاسم بن عبدالرحمٰن عن أبيه عن عبدالله قال: «**من بنى في أرض قوم بغير إذنهم فله نقضه وإن بنى بإذنهم فله قيمته**»[٣]. ومعنى ذلك أنه إذا بنى بغير إذن أصحاب العقار وأرادوا إخراجه فعليه نقض وإزالة الجزء المبني وإعادة الوضع كما كان عليه، وأما إذا بنى بإذنهم وأرادوا إخراجه فعليهم أن يعطوه قيمة البناء ويعوضوه عنه[٤].

٧ ـ إفراد غرف للضيافة: اهتم الإسلام بالضيف وجعل أمره من عزائم

---

(١) صحيح البخاري (ج ٥ ص ٢٢٣٩، برقم ٥٦٦٨)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م..

(٢) صحيح مسلم (٣/١٢٣٠/١٦٠٩)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

(٣) سنن البيهقي الكبرى (٦/٩١/١١٢٦٨)، أبو بكر أحمد البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤م.

(٤) العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص ١٥٨.

الأمور ومكارم الأخلاق، كيف لا وهو من خلق الأنبياء والمرسلين، حتى لتجد الصحابة يتسابقون في ذلك. وقد جاء في الكتاب العزيز ما كان من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع الملائكة الذين جاؤوا يبشرونه بغلام عليم فجاءهم بعجل سمين: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩]. وفي السُّنة حض النبيّ ـ ﷺ ـ أمته على إكرام الضيف بقوله في الحديث الذي أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**». وفي مجال تحويل هذه التوصيات لواقع معماري عملي ورد عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (إن زكاة الرجل في داره أن يجعل فيها بيتاً للضيافة)[١]. والمعنى: أن من تمام إكرام الضيف تخصيص مكاناً لراحته ونومه ما دام في ضيافة المرء. وهذا بمثابة الزكاة التي تطهر الدار وأهلها من أي تقصير باتجاه الضيوف كما تطهر الزكاة أموال الناس، والله أعلم[٢].

٨ ـ النهي عن وضع اتجاه بيت الماء (أو المراحيض) باتجاه القبلة استقبالاً أو استدباراً: وهو أمر شرعي مندوب مستحب لا من باب الوجوب بل من باب التأدب مع منزلة بيت الله تعالى، فلا يجوز أن يوضع اتجاه بيت الماء أو المرافق الصحية (المراحيض) باتجاه القبلة استقبالاً أو استدباراً، بل يوضع باتجاهات تقاطعية أو تعامدية. ودعونا نفصل في هذا الأمر لأهميته.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى بصاقاً

---

(١) جاء في شعب الإيمان (جزء ٧ ـ صفحة ١٠٠) عن عبدالحميد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: إن زكاة الرجل في داره أن يجعل فيها بيتاً للضيافة، وورد كذلك في كنز العمال للمتقي الهندي. انظر: المصادر. ولا يعلم أهو من كلام أنس رضي الله عنه أم رفعه.

(٢) العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص ١٦١.

في حائط في قبلة المسجد فحكه ثم أقبل على الناس فقال: «**إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه، فإن الله تعالى قبل وجهه إذا صلى**»(١). وعن قتادة قال سمعت أنساً قال: قال النبيّ ـ ﷺ ـ: «**لا يتفلن أحدكم بين يديه ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت رجله**»، ومعنى: (يتفلن) يبزقن. (بين يديه) قدامه وباتجاه القبلة(٢). وعن زر بن حبيش عن حذيفة أظنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة تفله بين عينيه، ومن أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا**» ثلاثاً(٣). وعن زر بن حبيش عن حذيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**من**

---

(١) جاء الحديث مع شرحه في الموطأ ـ رواية محمد بن الحسن (جزء ٢ ـ صفحة ٤٤). قال محمد: ينبغي له أن لا يبصق تلقاء وجهه ولا عن يمينه وليبصق تحت رجله اليسرى. وقوله: النخامة، يقال: تنخم وتنخع رمى بالنخامة، والنخاعة بضم أولها ما يخرج من الخيشوم والحلقوم. البصاق من الفم والمخاط من الأنف والنخامة من الأنف، وقوله: بصاقاً بصاد مهملة، وفي لغة: بالزاء المعجمة وأخرى بالسين. وضعفت، والباء مضمومة في الثلاث: هو ما يسيل من الفم كذا ذكره الزرقاني. وقوله: في حائط من جهة قبلة المسجد، وقوله: فحكه في رواية أيوب عن نافع ثم نزل فحكه بيده وفيه إشعار بأنه رآه حال الخطبة وبه صرح في رواية الإسماعيلي: زاد: (وأحسبه دعا بزعفران فلطخه به) زاد عبدالرزاق عن معمر عن أيوب: (فلذلك صنع الزعفران في المساجد) كذا ذكره الزرقاني، أي: أزاله بيده. وأما قوله: إذا كان. . . إلى آخره قال الباجي: خص بذلك حال الصلاة لفضيلة تلك الحال ولأنه حينئذ يكون مستقبل القبلة، أي: مطلقاً لا في جدار المسجد ولا في غيره. وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن حذيفة مرفوعاً: «**من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه**»، ولابن خزيمة عن ابن عمر مرفوعا: «**يبعث صاحب النخامة في القبلة يوم القيامة وهي في وجهه**»، كذا ذكره الزرقاني. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، عادل خضر، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، **٢٠٠٤**م.

(٢) صحيح البخاري، (جزء ١ ـ صفحة ١٦٠). أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠١**م.

(٣) سنن أبي داود (جزء ٢ ـ صفحة ٣٨٨). قال الشيخ الألباني: صحيح، الجامع الصغير وزيادته (جزء ١ ـ صفحة ١١١١)، راجع الحديث رقم: **٦١٦٠** في صحيح الجامع. انظر: المصادر.

تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه»[١]. وعن ابن عمر عن النبيّ - ﷺ - قال: «**إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه القبلة فإن تجاهه الرحمٰن، ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى»**[٢].

وقد ورد النهي مطلقاً عن أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - رأى نخامة في جدار المسجد فتناول حصاة فحتَّها وقال: «**إذا تنخم أحدكم فلا يتنخمن قِبل وجهه ولا عن يمينه وليبصقن عن يساره أو تحت قدمه اليسرى**»، متفق عليه. وقد جزم النووي بالمنع في كل حالة، داخل الصلاة وخارجها، سواء كان في المسجد أو غيره، وقد أفاده حديث أنس في حق المصلي، إلا أن غيره من الأحاديث قد أفادت تحريم البصاق إلى القبلة مطلقاً في المسجد وفي غيره وعلى المصلي وغيره[٣].

قال صاحب الترغيب: (وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفلته بين عينيه**»، رواه أبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما. ورواه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة ولفظه قال: «**من بصق في قبلة ولم يوارها جاءت يوم القيامة أحمى ما تكون حتى تقع بين عينيه**»، ومعنى تفل بالتاء المثناة فوق أي: بصق بوزنه ومعناه... وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**يبعث صاحب النخامة في القبلة يوم القيامة وهي في وجهه**»، رواه البزار وابن خزيمة في صحيحه وهذا لفظه وابن حبان في صحيحه... وعن أنس - رضي الله عنه - عن

---

(١) صحيح ابن خزيمة (جزء ٢ - صفحة ٢٧٨). قال الأعظمي: إسناده صحيح. صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٩٢م.

(٢) مسند أحمد بن حنبل (جزء ٢ - صفحة ٩٩)، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

(٣) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الاحكام (جزء ١ - صفحة ٣٣)، الصنعاني، محمد إسماعيل، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م.

النبيّ - ﷺ - قال: «**البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها**»، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي... وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**التفل في المسجد سيئة ودفنه حسنة**»، رواه أحمد بإسناد لا بأس به... وعن أبي سهلة السائب بن خلاد من أصحاب النبيّ - ﷺ - أن رجلاً أمَّ قوماً فبصق في القبلة ورسول الله - ﷺ - ينظر فقال رسول الله - ﷺ - حين فرغ: «**لا يصلي لكم هذا**»، فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم فمنعوه وأخبروه بقول رسول الله - ﷺ - فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: «**نعم**» وحسبت أنه قال: إنك آذيت الله ورسوله، رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه)[١].

قال ابن عبدالبر: هو كلام على التعظيم لشأن القبلة، وهذا التعليل يدل على حرمة البزاق في القبلة سواء كان في المسجد أم لا ولا سيما من المصلي[٢].

أما عن التبول والتغوط باتجاه القبلة فنبين هنا تفصيل مهم أورده الصنعاني رحمه الله تعالى في كتابه القيم (سبل السلام)، قال بالنص: (عن

---

(١) الترغيب والترهيب (جزء ١ - صفحة ١٢٥)، وقال عنها الشيخ الألباني بأنها صحيحة، كما في (صحيح الترغيب والترهيب)، (جزء ١ - صفحة ٦٩)، وكذلك السلسلة الصحيحة (جزء ١ - صفحة ٤٣٧). انظر: المصادر. الترغيب والترهيب، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ط/ ٥، السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.

(٢) بيَّن أهل العلم في أمهات كتبهم تفاصيل الأدب في هذا الأمر فيما يخص البصاق والنخامة وغيرها. انظر: الموطأ رواية محمد بن الحسن (جزء ٢ - صفحة ٤٤)، سبل السلام (جزء ١ - صفحة ٣٣)، ونيل الأوطار (جزء ٢ - صفحة ٣٨٨)، وغيرها. كذلك لا بد من التنويه لما بينه صاحب (إحياء علوم الدين) في هذا الباب فضلاً عن اللطائف التي ذكرها في باب الذوق في الضيافة والنظافة والترتيب وأدب الطعام والشراب أو ما يعرف في أيامنا هذه بال (الإيتيكيت) كما جاء في (جزء ٢ - صفحات ١٥ - ٢٠). انظر: المصادر.

سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد نهانا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نستقْبِلَ القِبْلَةَ بغائط أو بَوْل)، المراد أن نستقبل بفروجنا عند خروج الغائط أو البول (أو أن نسْتَنْجي باليَمين)، وهذا غير النهي عن مس الذكر باليمين عند البول (أو أنْ نسْتَنْجِيَ بأقَلَّ من ثلاثةَ أحْجار). الاستنجاء: إزالة النجس بالماء أو الحجارة (أو أن نستنجي برجيع) وهو الروث (أو عظم)، رواه مسلم. والحديث فيه النهي عن استقبال القبلة وهي الكعبة كما فسرها حديث أبي أيوب في قوله: «فوجدنا مراحيض قد بنيت نحو الكعبة فننحرف ونستغفر الله»، وسيأتي. ثم قد ورد النهي عن استدبارها أيضاً كما في حديث أبي هريرة عند مسلم مرفوعاً: «**إذا جلس أحدكم لحاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها**» وغيره من الأحاديث... وقد اختلف العلماء هل هذا النهي للتحريم أو لا؟ على خمسة أقوال:

- **الأول**: أنه للتنزيه بلا فرق بين الفضاء والعمران فيكون مكروهاً وأحاديث النهي محمولة على ذلك بقرينة حديث جابر: «رأيته قبل موته بعام مستقبل القبلة». أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما. وحديث ابن عمر: «أنه رأى النبيّ ـ ﷺ ـ يقضي حاجته مستقبلاً لبيت المقدس مستدبراً للكعبة» متفق عليه. وحديث عائشة: «**فحولوا مقعدتي إلى القبلة**» المراد بمقعدته ما كان يقعد عليه حال قضاء حاجته إلى القبلة: رواه أحمد وابن ماجه وإسناده حسن. وأول الحديث: أنه ذكر عند رسول الله ـ ﷺ ـ قوم يكرهون أن يستقبلوا بفروجهم القبلة قال: «**أراهم قد فعلوا استقبلوا بمقعدتي القبلة**»، هذا لفظ ابن ماجه: وقال الذهبي في الميزان: في ترجمة خالد بن أبي الصلت: هذا الحديث منكر.

- **الثاني**: أنه محرّم فيهما لظاهر أحاديث النهي والأحاديث التي جعلت قرينة على أنها للتنزيه محمولة على أنها كانت لعذر ولأنها حكاية فعل لا عموم لها.

- **الثالث**: أنه مباح فيهما، قالوا: وأحاديث النهي منسوخة بأحاديث الإباحة لأن فيها التقييد بقبل عام ونحوه واستقوه في الشرح.

- **الرابع**: يحرم في الصحارى دون العمران لأن أحاديث الإباحة وردت في العمران فحملت عليه، وأحاديث النهي عامة وبعد تخصيص العمران بأحاديث فعله التي سلفت بقيت الصحارى على التحريم. وقد قال ابن عمر: «إنما نهى عن ذلك في الفضاء فإذا كان بينك وبين القبلة شيء يسترك فلا بأس به»، رواه أبو داود وغيره. وهذا القول ليس بالبعيد لبقاء أحاديث النهي على بابها وأحاديث الإباحة كذلك.

- **الخامس**: الفرق بين الاستقبال فيحرم فيهما ويجوز الاستدبار فيهما وهو مردود بورود النهي فيهما على سواء.

فهذه خمسة أقوال، أقربها الرابع. وقد ذكر عن الشعبي: أنّ سبب النهي في الصحراء: أنها لا تخلو عن مصلٍّ من مَلَك أو آدمي أو جني، فربما وقع بصره على عورته، رواه البيهقي. وقد سئل ـ أي: الشعبي ـ عن اختلاف الحديثين: حديث ابن عمر أنه رآه يستدبر القبلة وحديث أبي هريرة في النهي، فقال: صدقا جميعاً. أما قول أبي هريرة: فهو في الصحراء، فإن لله عباداً ملائكة وجنًّا يصلون فلا يستقبلهم أحد ببول ولا غائط ولا يستدبرهم. وأما كنفكم فإنما هي بيوت بنيت لا قبلة فيها وهذا خاص بالكعبة. وقد ألحق بها بيت المقدس لحديث أبي داود: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن استقبال القبلتين بغائط أو بول، وهو حديث ضعيف لا يقوى على رفع الأصل، وأضعف منه القول بكراهة استقبال القمرين... انتهى نص الصنعاني رحمه الله[(١)].

يقول صاحب نيل الأوطار: (وقول ابن عمر يدل على أن النهي عن الاستقبال والاستدبار إنما هو في الصحراء مع عدم الساتر وهو يصلح دليلاً لمن فرق بين الصحراء والبنيان، ولكنه لا يدل على المنع في الفضاء

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الاحكام، (جزء ١ ـ صفحة ١٦)، الصنعاني، محمد إسماعيل، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

على كل حال كما ذهب إليه البعض بل مع عدم الساتر، وإنما قلنا بصلاحيته للاستدلال لأن قوله: إنما نهى عن هذا في الفضاء يدل على أنه قد علم ذلك من رسول الله - ﷺ - ويحتمل أنه قال هذا إسناداً إلى الفعل الذي شاهده ورواه فكأنه لما رأى النبيّ - ﷺ - في بيت حفصة مستدبراً القبلة فهم اختصاص النهي بالبنيان فلا يكون هذا الفهم حجة ولا يصلح هذا القول للاستدلال به)... انتهى ما أورده الشوكاني رحمه الله تعالى في نيل الأوطار(١).

وبعد هذا التفصيل الشرعي المهم نقول وبالله التوفيق برأي هندسي محض لا رأي فقهي فالمؤلف أبعد من أن يكون فقيهاً: (إذا كان الأمر يخص البصاق والنخامة فمن باب أولى أن التأدب في توجيه بيت الماء أو المرافق الصحية في المنازل والمنشآت المختلفة باتجاه غير اتجاه القبلة استقبالاً أو استدباراً. أما ما جاء من تفاصيل النهي والتحريم للاستقبال والاستدبار التي بيناها آنفاً فالأحوط تأدباً وورعاً أن نتجنب وضع بيوت الماء أو المرافق الصحية باتجاه القبلة استقبالاً أو استدباراً كما قال أغلب علمائنا الأجلاء. والحمد لله فإن العديد من الدول الإسلامية وضعت مواصفات بناء الشقق والمنازل والفنادق بهذا الاتجاه بأن منعت وضع المرافق الصحية باتجاه القبلة، والله تعالى أعلم).

٩ - النهي عن المجسمات والتصاوير التي لها أرواح: أخرج الترمذي في سننه قال: (حدثنا مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أن رافع بن إسحاق أخبره قال: دخلت أنا وعبدالله بن أبي طلحة على أبي سعيد الخدري نعوده فقال أبو سعيد أخبرنا رسول الله - ﷺ -: «**أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل أو صورة**»، شك إسحاق لا يدري أيهما قال، قال أبو عيسى: هذا

---

(١) نيل الأوطار من أسرار ومنتقى الأخبار، (جزء ١ - صفحة ١٠١)، محمد بن علي الشوكاني، ترجمة وتحقيق أحمد إبراهيم زهوة، ط/ ١، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣م.

حديث حسن صحيح)(١). والحديث يخص المجسمات أو التماثيل لما له روح مهما كان تمثيلها، وبالنسبة للصور فيقصد بها ما كان له روح ورسم باليد كما قال أغلب مفسري الحديث، وأما الصور الفوتوغرافية فقال بها بعض أهل العلم: إنها في الفقه كحال المرآة وليس كحال التصوير باليد، والله أعلم. وقد بينا آنفاً أن من أطوار العمارة في القرآن الكريم ما كان يفعله سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ من بناء للتماثيل والجفان، ولكن هذا نسخ في شرعنا لأنه أدعى لعدم الانبهار بالتماثيل مخافة ألا تؤدي بالناس لترك الوحدانية الحقة والرجوع للأصنام كما حصل لعمرو بن لحي الخزاعي الذي راقته أصنام الروم إبان رحلته للشام وقد كان العرب على توحيدهم منذ عهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، فكان أن جلب معه بعضاً منها للزينة ثم ما لبث أن تحول الأمر إلى تقليد ذلك فنصبت على أنها آلهة وانتشر الأمر بعد ذلك لتتعدد الآلهة وينسى التوحيد. ولكن مبعث النبيّ الخاتم ـ ﷺ ـ أرجع الحق لنصابه، فإن حدث هذا مرة أخرى فإنه يعني الرجوع لآتون وظلام الجاهلية الأولى ولا نبي مرسل بعده ـ ﷺ ـ(٢).

---

(١) سنن الترمذي (٥/١١٥/٢٨٠٥). وأخرجه في صحيح ابن حبان ومسند الإمام أحمد ومسند أبو يعلى. انظر: المصادر.

(٢) انظر: كتب السير والتاريخ، سيرة ابن هشام والروض الأنف وغيرها. جاء في صحيح البخاري (جزء ١ ـ صفحة ٤٠٦) عن عروة قال: قالت عائشة: خسفت الشمس فقام النبيّ ﷺ فقرأ سورة طويلة، ثم ركع فأطال، ثم رفع رأسه، ثم استفتح بسورة أخرى، ثم ركع حين قضاها وسجد، ثم فعل ذلك في الثانية ثم قال: «**إنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتم ذلك فصلوا حتى يفرج عنكم. لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدته حتى لقد رأيت أريد أن آخذ قطفاً من الجنة، حين رأيتموني جعلت أتقدم، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيب السوائب**». (سيب السوائب) سيب النوق وسن لهم هذه العادة، والسوائب جمع سائبة، وهي الناقة التي تترك فلا تركب ولا تصد عن ماء أو مرعى يفعلون ذلك نذراً وتقرباً لآلهتهم.. وأخرج البخاري أحاديث تؤكد أن ابن لحي كان أول من سن ترك التوحيد بعد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ في جزيرة العرب.

١٠ ـ النهي عن زخرفة البيوت كما تزخرف الأثواب: وقد جاء ذلك على شكل تنبؤ لما سيكون من أمر الناس آخر الزمان، فلم يكن يخطر ببال أحد أن تزخرف البيوت وتكسى الجدران والسقوف بالورق الفاخر والجبس والأسقف الصناعية... إلخ. وقال ـ ﷺ ـ: «**لا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحيل**»، رواه البخاري، والمراحيل: هي الثياب المخططة.

وعموماً، يراعى حسن اختيار موقع البيت وتصميمه، إذ لا شك أن المسلم الحق يراعي في اختيار بيته وتصميمه أموراً لا يراعيها غيره.

فمن جهة الموقع مثلاً:

(١) أن يكون البيت قريباً من مسجد وفي هذا فوائد عظيمة لا تخفى، فالنداء يذكر ويوقظ للصلاة، والقرب يمكِّن الرجل من إدراك الجماعة، والنساء من سماع التلاوة والذكر من مكبر المسجد، والصغار من إتيان حلقة تحفيظ القرآن وهكذا.

(٢) أن لا يكون في عمارة فيها فساق، أو مجمعات سكنية فيها كفار يتوسطها مسبح مختلط، ونحو ذلك.

(٣) أن لا يكشف ولا يُكشف، ولو حصل يستعان بالسواتر وتعلية الجدر.

وأما من جهة التصميم فيراعى:

(١) فصل الرجال عن النساء من الزوار الأجانب من ناحية المدخل، وصالات الجلوس، وإن لم يحصل فيستعين بالستائر والحواجز.

(٢) ستر الشبابيك: بحيث لا يظهر من في الغرف للجار، أو لرجل الشارع، وخصوصاً في الليل عندما تضاء الأنوار.

(٣) تخصيص دورات مياه للضيوف (المراحيض والمغاسل) كي لا يدخلوا إلى داخل المنزل.

(٤) أن لا تكون دورات المياه (المراحيض) باتجاه القبلة عند استخدامها.

(٥) أن يختار المسكن الواسع والدار كثيرة المرافق، وذلك لأمور منها: قوله ـ ﷺ ـ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»، رواه الترمذي. وقوله: «**ثلاثة من السعادة وثلاثة من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، ومن الشقاء: المرأة تراها فتسوءك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفاً، فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار قليلة المرافق**»، رواه الحاكم، صحيح الجامع حديث رقم **٣٠٥٦**.

(٦) أن يخصص مكان معين في البيت لأداء العبادات كالصلاة وتلاوة القرآن، ويراعى أن يكون المكان فيه من مستلزمات السكينة والهدوء والبعد عن الضوضاء ولعب الأطفال ما يجعله مناسباً لتأدية متطلبات تلك العبادات. فيمكن مثلاً أن تكون هناك غرفة خاصة بذلك أو أن تدمج مع غرفة المطالعة والمكتبة فتكون في الطابق الأول أو في الطابق الأرضي ولكنها بعيدة عن المطبخ وغرف نوم الأطفال والكاراج.

(٧) الحرص على الأمور الصحية كالتهوية ودخول الشمس، وهذه قد تكون مقيدة بالقدرة المادية والإمكانات المتاحة، وهنا يمكن الاستفادة من الأنماط المعمارية التراثية الشرقية كما بيَّنا في هذا الكتاب.

(٨) أن لا يكون ارتفاع الدار بحيث يمنع الشمس والتهوية عن الجيران ويؤثر على راحتهم ومعيشتهم كما بيَّنا في هذا الكتاب.

(٩) الابتعاد عن التزويق والبذخ المفرط في البناء وأن يكون بناءً كفافاً كما بيَّنا خلال مباحث هذا الفصل، وفي ذلك تطبيق للشرع وحفاظاً على الاقتصاد الفردي والقومي فضلاً عن الفوائد الاجتماعية والنفسية

المهمة الناجمة عن الإحساس بالآخرين ومشاركتهم معاناتهم وعدم تعريضهم للحسرة والحنق على الأغنياء والأهم منع التحاسد والتباغض.

(١٠) اختيار الجار قبل الدار: وهذه مسألة تحتاج إلى إفراد لأهميتها، فالجار في عصرنا له مزيد من التأثير على جاره، بفعل تقارب المساكن، وتجمع الناس في البنايات والشقق، والمجمعات السكنية. وقد أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ عن أربع من السعادة وذكر منها: «**الجار الصالح**» وأخبر عن أربع من الشقاء وذكر منها: «**الجار السوء**» رواه أبو نعيم وهو في صحيح الجامع حديث رقم **٨٨٧**. ولخطر هذا الأخير كان ـ ﷺ ـ يتعوذ منه في دعائه فيقول: «**اللّهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة** ـ أي: الذي يجاورك في مكان ثابت ـ **فإن جار البادية يتحول**»، رواه الحاكم وهو في صحيح الجامع حديث رقم **١٢٩٠**. وأمر المسلمين أن يتعوذوا من ذلك فقال: «**تعوّذوا بالله من جار السوء في دار المقام، فإن الجار البادي يتحول عنك**»، رواه البخاري في الأدب المفرد واللفظ في صحيح الجامع حديث رقم **٢٩٦٧**. ويضيق المجال للحديث عن أثر جار السوء على الزوجين والأولاد، وأنواع الإيذاء التي تصدر عنه، ومنغصات العيش بجانبه، ولكن في تطبيق الأحاديث السابقة على الواقع كفاية للمعتبر، ولعل من الحلول العلمية ما ينفذه بعض الطيبين من استئجار السكن المتجاور لعائلاتهم، لحل مشكلة الجيرة ولو على حساب بعض الماديات، فإن الجيرة الصالحة لا تقدر بمال.

(١١) الاهتمام بالنظافة والترتيب كما أمر الله تعالى ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكذلك الاهتمام بالإصلاحات اللازمة وتوفير وسائل الراحة. فمن نعم الله علينا في هذا الزمان ما وهبنا من وسائل الراحة التي تسهل أمور المعيشة في هذه الدنيا، وتوفر الأوقات كالمكيف والثلاجة والغسالة... إلخ، فيكون من الحكمة توفيرها في البيت بالجودة التي يستطيعها صاحب البيت من غير إسراف ولا مشقة، ولا بد من التفريق بين الأمور التحسينية المفيدة والكماليات الزائفة التي لا قيمة لها. ومن الاهتمام بالبيت إصلاح ما فسد من مرافقه وأجهزته، وبعض الناس يهملون،

وتشتكي زوجاتهم من بيوت تعج فيها الحشرات، وتفيض فيها البلاعات، وتفوح القمامة بالروائح الكريهة، وتتناثر فيه قطع الأثاث المكسور والتالف. ولا شك أن هذا مما يمنع حصول السعادة في البيت، ويسبب مشكلات زوجية وصحية، فالعاقل من عالج ذلك.

(١٢) الاعتناء بصحة أهل البيت وإجراءات السلامة: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، رواه مسلم. وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِذَا أَخَذَ أَهْلَهُ الْوَعَكُ أَمَرَ بِالْحِسَاءِ ـ المرقة المعروفة ـ فَصُنِعَ ثُمَّ أَمَرَهُمْ فَحَسَوْا مِنْهُ وَكَانَ يَقُولُ: «**إِنَّهُ لَيَرْتُقُ فُؤَادَ الْحَزِينِ وَيَسْرُو عَنْ فُؤَادِ السَّقِيمِ كَمَا تَسْرُو إِحْدَاكُنَّ الْوَسَخَ بِالْمَاءِ عَنْ وَجْهِهَا**»، رواه الترمذي وهو في صحيح الجامع حديث رقم **٤٦٤٦**.

(١٣) وعن بعض إجراءات الوقاية والسلامة: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ اللَّيْلِ فَحُلُّوهُمْ فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَفْتَحُ باباً مُغْلَقاً وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا**»، رواه البخاري ومسلم. وقَالَ ـ ﷺ ـ: «**لاَ تَتْرُكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ**»، رواه البخاري ومسلم، والله أعلم.

(١٤) هنالك بعض الإرشادات الأخرى الخاصة بأدب وحرمة البيوت والأسر مثل منع بعض المنكرات في البيت، ومن ذلك مثلاً يراعى الحذر من دخول الأقارب غير المحارم على المرأة في البيت عند غياب زوجها، فصل النساء عن الرجال في الزيارات العائلية، إطابة المطعم من المال الحلال، اتباع شروط النظافة والترتيب، الانتباه لخطورة السائقين والخادمات في البيوت، الحذر من أثر اختلاط الأولاد برفقاء السوء ومن ذلك المخنثين، الحذر من أخطار الشاشة وشرور الهواتف بمختلف أشكالها، إزالة كل ما فيه رمز لأديان الكفار الباطلة أو معبوداتهم وآلهتهم،

إزالة صور ذوات الأرواح أو التماثيل، محاولة منع الخبائث مثل التدخين والشيشة وما شاكلها[١]، منع اقتناء الكلاب في البيوت كما أمر الشرع، وكما أثبتت البحوث الحديثة من مخاطر صحية كبيرة ناجمة عن اختلاط الحيوانات الداجنة كالقطط والكلاب في داخل المنزل، وغير ذلك من آداب الضيافة والزيارة والطعام والشراب والنوم والتربية التي تبيِّنها شريعتنا السمحاء وامتلأت بها كتب علماء هذه الأمة الأجلاء.

العمارة الإسلامية والبيئة:

رغم أننا خصصنا كتاباً للبيئة وهندستها ضمن كتب هذه السلسلة، لكننا لا بد أن نشير هنا لهذا الموضوع الحيوي لما له من ترابط مهم مع موضوع الهندسة المعمارية.

معلوم أن العمارة وفنونها وعلومها وهندستها، بل الهندسة بشكل عام تتركز حول محاور رئيسية، منها تاريخ وثقافة الشعوب والأمم، الإمكانات، البيئة وما تحويه من مواد وظواهر يمكن محاكاتها أو تقليدها أو استنباطها، وعوامل أخرى مساعدة، منها العلمية ومنها غير ذلك مما سبق أن أشرنا له في الكتاب الأول. بل يمكن الجزم بأن كل الفلسفات المعمارية قديمها وحديثها لا تخرج عن هذه الأطر والمحاور سوى ما استجد في عصرنا الرقمي التقني المتطور هذا.

وعلى هذا تجد أن القرآن الكريم كان قد سبق في توصيف التنبه للبيئة وأهميتها، وشخَّص العوامل التي تؤثر في شخصية هذه الأمة كثقافة وحضارة كالنظافة والنظام والأمن وغير ذلك مما ذكرناه في الفقرة السابقة، أو خلال هذا الكتاب عموماً أو تركناه لكتاب البيئة وهندستها.

يتناول الأستاذ المهندس يحيى وزيري في كتابه (العمارة الإسلامية

---

(١) لمعرفة تفاصيل الأضرار الناجمة عن التدخين والشيشة وما شاكلها في أماكن مغلقة كالدور والمؤسسات والفنادق يراجع كتابنا (قصة التدخين الكاملة)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

والبيئة «الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي»)، موضوع العمارة الإسلامية والبيئة والروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، يبيّن فيه مفهوم عمارة البيئة في الإسلام، وبعض التفاعلات الحضارية التي شكلت العمارة الإسلامية، وبعض المعالجات المناخية التي تؤثر في تخطيط وتصميم مباني المدينة الإسلامية، وبعض الرؤى البيئية في عمارة المساجد، وكيفية المسكن الإسلامي في البيئات الحضرية وغير الحضرية، ووضع الحدائق وتنسيق المواقع في الحضارة الإسلامية. فتلكم عن عمارة البيئة في الإسلام، التفاعلات الحضارية التي شكّلت العمارة الإسلامية، المعالجات المناخية في تخطيط وتصميم مباني المدينة الإسلامية، عمارة المساجد رؤى بيئية، المسكن الإسلامي في البيئات الحضرية وغير الحضرية، وأخيراً الحدائق وتنسيق المواقع[١].

وقد رد عليه الأستاذ آزاد أحمد علي ببحث عنوانه: (العمارة الإسلامية بين إشكالية الهوية ومنهجية التصنيف) أوضح فيه بعض أوجه الإشكالية التي تناولها الدكتور وزيري في كتابه ـ من وجهة نظره طبعاً ـ فتراه يقول: (إن هذا الكتاب استجابة لهذه المرحلة التي تتصاعد فيها الموجة الإسلاموية فكراً وسياسة. فالقارئ الموضوعي يصدم بهذا المحتوى المؤدلج والمستنفر والمشحون بالأدلة والشواهد والنصوص، سواء من القرآن الكريم أم من الحديث الشريف وخاصة في الفصل الأول، حيث يحمل النص القرآني ما لا يستحب تحميله من تفاسير علمية وهندسية وبيئية! فعلى سبيل المثال لا الحصر: يفترض الباحث تأثر المعماري المسلم وبالتالي العمارة الإسلامية مباشرة بالقرآن الكريم. إذ يقول في الصفحة (٤٠): (فالآيات الكريمة توضح أحد الجوانب الأخلاقية في الفكر المعماري الإسلامي عند عمارته للأرض والبيئة، فعمارة الأرض عمل تعبدي وإيماني في المقام الأول من أجل تنفيذ مشيئة الله سبحانه وتعالى في عمارة الأرض وعدم الإفساد فيها بعد إصلاحها. لقد فجرت الآيات

(١) إصدار عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ٢٠٠٤م.

القرآنية في الإنسان المسلم قدرات خلاقة وأيقظت أحاسيسه للتعرف على القيم الجمالية والارتباط مع عناصر البيئة المحيطة، لذلك فقد تعدى المعماري المسلم مرحلة التفكير والتأمل في هذه الآيات إلى مرحلة التأثر بها في العديد من أعماله الفنية والمعمارية). فبهذه المنهجية يعتبر الدكتور وزيري أن أول وأهم المؤثرات التي ساهمت في تكوين العمارة والفنون الإسلامية هي: (البواعث الدينية والنظم السياسية والتشريعية والتعاليم الدينية)، في حين تأتي تأثير الحضارات السابقة للإسلام بكل تراثها المعماري المتجسد على الأرض في المرتبة الثانية، أما المؤثرات المناخية ومواد البناء المتوافرة محلياً فتأثيرها يأتي في المرتبة الثالثة. وهذا الترتيب يشكل جوهر منهج الباحث ولب هذا الكتاب. وهو ما جعل موضوع ومضمون هذا الكتاب إشكالياً، على اعتبار أن أغلب المتخصصين يرجحون أن الصحيح في منهجية التناول العلمي لتطور الحياة العمرانية هو عكس هذا الترتيب، وهي تبرز درجة وقوة وفاعلية المؤثرات البيئية التي تصوغ شكل ومحتوى أي عمارة بالترابط مع الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية للمبنى موضوع الدراسة. وإضافة لذلك، يقع الباحث في بعض التناقضات عندما يستعرض في الفصل الثاني التفاعلات الحضارية التي شكلت العمارة الإسلامية، حيث يعتبر أن المنزل الرافدي مطابق للمنزل الإسلامي وليس العكس! ونظراً للحماس المبالغ فيه لمنهجه الديني في كتابة تاريخ العمارة يعتبر تراث حضارات المنطقة الذي سبق الإسلام امتداداً له؟! وبذلك يعتبر أن الهوية الإسلامية لعمارة المنطقة هي منجزة وثابته).

ثم يردف قائلاً: (ثم عند تصنيفه الفرعي للأنماط المحلية للعمارة الإسلامية يقع في شر التصنيف الاستشراقي فيكون إقليمياً (مدرسة مصر وسورية) وقومياً (الفارسية) حيناً آخر وإمبراطورياً (العثمانية) في نهاية المطاف. ويسعى الكاتب مجتهداً ليوحدها جميعاً في إطار «العمارة الإسلامية» ويجسدها بل يختزلها في المنشآت الدينية). ويضيف في مكان آخر: (إن تحميل هذه المنشآت والنماذج المعمارية أكثر مما تتحمل يترتب

عليه أولاً الإعلان عن نهاية التطور المعماري وإبداعات المعمار والمهندس المعاصر، وتزيد الشكوك في مصداقية التاريخ الموضوعي للعمارة والتمدن في المنطقة ثانياً. وأخيراً، يفتقر هذا الكتاب الهندسي إلى أي صورة أو مخطط أو شكل توضيحي، وكذلك إلى خاتمة كان من المفترض على المؤلف الدكتور المهندس يحيى وزيري أن يضعها ليعلن بوضوح أكثر عن وحدة العمارة الإسلامية من جنوب شرق آسيا وحتى أمريكا، وذلك توافق مع الشعارات السياسية ـ الدينية الصاعدة اليوم).

ثم يستدرك بعد ذلك موضحاً بعض الجوانب الإيجابية في تحليل الدكتور وزيري بقوله: (وعلى الرغم من كل هذا الحماس الأيديولوجي الذي سيطر على منهجية الكتاب، لا يخلو النص من جوانب تخصصية هامة، فقد تم في الكتاب إعادة تجميع وترتيب وصياغة الكثير من المعلومات التي تهم القارئ العام والمختص على السواء، من حيث سرد المعطيات التاريخية أو تحليل المفردات المعمارية لعمارة المنطقة. إلا أن هذه النظرة العلمية الموضوعية متأثرة بالنموذج «المصري» المصمم على معرفة مبكرة بالعديد من العلوم وعلى «أساس معرفة دقيقة بعلم الصوتيات»، حيث يقوم الباحث بقياس درجة الضجيج في الشارع ومن ثم في داخل المنزل، ومن المنطقي أن الضجيج سيكون أقل في الداخل نظراً لسماكة الجدران الحجرية الحاملة، التي تقوم بداهة بوظيفة التخامد لشدة الضجيج. وبهذا المنطق يعتبر العمارة الإسلامية كانت تشاد على أساس معرفة مسبقة بعلوم الفيزياء المعاصرة. وهنا لا بد من التأكيد أنه ليس من الحكمة استحضار الماضي واستنطاقه بواسطة العلوم المعاصرة «الفيزياء» وبمساعدة أجهزة قياس الضجيج الإلكترونية).

وسواء اختلفنا مع الأخ الأستاذ آزاد أم لم نختلف، فنحن نقر أن عقلية القدح في تركيبة شخصيتنا موجودة حتى عند مثقفينا ونقادنا، فالبعض لا يستطيعون تحمل حقائق دامغة تضع أمامهم لغلبة هذا الدين وشموليته، بل لا يستسيغون حتى فكرة أن الدين جاء لينظم كل شيء في هذا الوجود ولا يلغي الإبداع بل يوجهه متأثرين بالنمط الغربي القديم

الحديث بنظرته للكنيسة والفعل الديني في مجتمعاتهم. فترى هؤلاء لا يستطيعون الاعتراف بالحقائق فيتشبثون بزلة هنا أو هناك جاءت من هذا المؤلف أو ذاك الباحث ليبيِّنوا أن من يتحدث بالسبق القرآني إنما يغالط نفسه ويحاول أن ينسب ما وصلنا له اليوم من تطور تقني للقرآن، فلو صح هذا لمَ لم نسبق به الآخرين؟!... فقوله مثلاً: (فالقارئ الموضوعي يصدم بهذا المحتوى المؤدلج والمستنفر والمشحون بالأدلة والشواهد والنصوص)، يبين لك أخي القارئ الكريم عقدة النقص التي يحملها هؤلاء القوم وكأن من كان فكره غربي متعولم هو الشخص الموضوعي والمنصف، بينما من كان فكره إسلامي فهو متحمس عاطفي غير منطقي ولا موضوعي. والحقيقة أن العكس هو الصحيح، فهؤلاء يضعون في تحليلهم للبحوث حقيقة مسبقة هي أن كل شيء جاء به الإسلام فهو رجعي متخلف، وكل شيء جاء به العم سام فهو تطور ورقي، وعليه فالويل والثبور لكل من ينطق بسبق وعلمية القرآن والسُّنة.

والجواب على هؤلاء بسيط لمن يريد أن يعلم وليس ليجادل، وهو أنك أيها الأخ الكريم تنسب لنفسك ولأمثالك كمال عقولهم وتنفي ذلك عن الله تعالى، وتتحجج بأننا أناس عاطفيون تحكمنا الشحنات العاطفية بالحكم على الأمور، والحقيقة هي النقيض تماماً، أي: أن من ينتقد هذه الحقائق الدامغة التي لا يمكن لعالم موضوعي منصف أن ينكرها مدفوع حتماً بشحنات عاطفية مضادة يحاول تنفيسها وذلك بتضخيم أمور وتصغير أخرى.

مشكلتنا أننا لو سبقنا المستر جوني والمستر كوك وغيرهما من المساتر، قلنا: هذا علم واختراع وأن بني الأصفر قوم يحق لهم أن يُتبعوا لأنهم سبقونا، ولكن لو قلنا: إن الله تعالى ورسوله ـ ﷺ ـ قد سبق بهذا القول وأن القصور فينا نحن إذ لم نستغل هذا السبق انبرى لنا أمثال هؤلاء اللامنتمين فوصفونا بشتى الأوصاف، فأي عقدة للنقص كامنة في هؤلاء القوم؟!. فالله تعالى بين أن هذا الكتاب وهذا الدين يشمل أموراً شتى منها ما بينه النبيّ الأكرم ـ ﷺ ـ بقوله في الحديث الشريف الذي يرويه الإمام

علي كرم الله وجهه: «**أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ونوره المبين، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ولا تَتَشَعَّبُ مِنهُ الآراء وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يَمَلُّهُ الأتقياء وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا:** ﴿... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ...﴾، **مَن عُلِّم عِلمُهُ سَبَق وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[(١)].

فلو ركزت على هذا الحديث الذي تعضده آيات كريمات عديدات لرأيت أنه يبين لك أن هذا الكتاب لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، ولا تَتَشَعَّبُ مِنهُ الآراء، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يَمَلُّهُ الأتقياء، وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، **وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ مَن علم عِلمه سَبَق.** أي: لو علمنا كل علوم القرآن الكريم لسبقنا الأمم في الدنيا قبل الآخرة، فالتقصير

---

(١) جاء الحديث بألفاظ مختلفة، منها ما جاء في تفسير القرطبي والوجيز والبحر المحيط، ومنها ما أورده بعض أهل السنن. فقد أخرجه الترمذي في سننه بلفظ مقارب (جزء **٥** ـ صفحة **١٧٢**)، وقال: حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م. ومنها ما أخرجه الدارمي في سننه (ج **٢** ـ ص **٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٧**) بأسانيد أخرى، فقد أخرج حديثاً قريباً لمعنى هذا الحديث. سنن الدارمي، أبو محمد عبدالله الدارمي، تحقيق محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٦**م. وقال حسين سليم أسد: في إسناده مجهولان، أبو المختار سعد الطائي وابن أخي الحارث، ويقول العلماء: إن في الحارث مقال. وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني. إذن فالحديث ضعيف السند لكن معناه صحيح كما هو مقرر عند العلماء والله تعالى أعلم.

فينا إذ لم نبحث وليس فيه. وهذا هو مصداق لقوله تعالى في كتابه الكريم ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: من الآية ٨٩]، فهذه الكلية كلمة لا تشمل فقط أمور التشريع والعقيدة والعبادة والمعاملة وأمور علمية عدة مما سيكون حتى قيام الساعة، وإن كنت في شك من هذا فتعال لأناقشك بلغة الأرقام التي لا يمكن أن تخطئ لترى كيف سبق القرآن العظيم بأرقامه ما توصلنا له لاحقاً بمختبراتنا.

أما عن نقدك لقول الأستاذ وزيري حول أن المسلمين تأثروا بالقرآن ولم يتأثروا ببيئتهم وحضارة من سبقهم، فقولك هذا يدحضه القرآن نفسه، إذ يحث الناس على السير في الأرض، واكتشاف من سبق، واكتشاف الظواهر والتدبر بها، واكتشاف البيئة والتمعن بها، ويعضد ذلك ما جاء في السنن والسير، فهذا تقسيم قرآني سبق تقسيمك العلمي الحديث كما تدَّعي وتتشدق.

هذه السلسلة ستكون عوناً لك ولغيرك لفهم هذا السبق والإعجاز إن أردتم أن تفهموا، وإن لم تريدوا ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وعلى كل حال يجد بعض الباحثين أنه يمكن التوفيق بين رأي الأستاذين الفاضلين للوصول لفهم مشترك مقبول لوضع لمسات عمارتنا العربية والإسلامية موضعاً يليق بمكانتها العظيمة.

الوقف وعمارته في الإسلام:

لقد جاء الإسلام بنظرية اقتصادية شاملة متكاملة فريدة سابقة غير مسبوقة تربط الإنسان بربه من جهة وبيئته ومجتمعه من جهة أخرى، فله حقوق وعليه واجبات، وهذه الفلسفة الاقتصادية تبنى على أسس إيمانية تدفع الإنسان طوعاً وبشكل ذاتي لا إكراه فيه لتطبيق مبادئ تكافلية اجتماعية غاية في الروعة والإنسانية والإيثار، ويحث على مقاومة أمراض

النفس كالبخل والشح والبطر والأنانية وكل ما يدفع الأفراد والمجتمعات نحو عواقب وخيمة وفقاً لما قصه علينا القرآن الكريم وبينته السُّنة الشريفة.

ولعل أهم مبدأ من المبادئ المميِّزة للفلسفة الاقتصادية والمالية الإسلامية هي موضوع الاستخلاف، وهو أن الإنسان مالك بالنيابة لثروته وليس مالك مطلق، فالمال والثروة والأملاك هي وديعة الله عند عبده آتاها إياه ليختبره به أيؤدي حق نفسه وعائلته وأقربائه والفقراء والمحتاجين وغيرهم ممن لهم حق عليه أم يضيع ذلك.

ولقد فهمت الأجيال الأولى هذا المفهوم وسارعت لتطبيقه على أرض الواقع مما دفع المجتمعات الإسلامية في بدايات الدولة الإسلامية للابتعاد عن الفوارق الطبقية والاقتصادية والاجتماعية المميِّزة، فكانت قصصاً رائعة انتشرت بين تلك الأجيال العظيمة من نكران الذات والمسابقة والمسارعة والمنافسة نحو مغفرة من الله ومرضاته سبحانه وجنة عرضها السماوات والأرض، وذلك بتطبيق أوامره تعالى تجاه عياله من عباده الفقراء والمحتاجين وصولاً لتحقيق هدفين ساميين، أولاً: نيل مرتبة السابقين بالخيرات، لأن أولئك هم الفائزون المفلحون في الآخرة، وثانياً: لتطبيق وتحقيق العدالة والتوزيع المنصف والتكافل الذي يضمن سعادة الجميع في المجتمع دون تمييز، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

لنتدبر بعض تلك الآيات العطرة في هذا الموضوع، يقول تعالى:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

- ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]

- ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٣١].

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

- ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١٠، ١١].

- ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

وكان الصحابة والتابعين يعلمون أن المال إنما هو أمانة وعارية في أيديهم، وأنه مؤقت لا يدوم ففهموا تلك الحقيقة أي حقيقة أنهم مؤتمنون ومستخلفون على مالهم وأملاكهم فاشتروا به الدار الباقية وربحوا البيع كما تبين لنا السيرة العطرة لهم ولمعلمهم ورسولهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبالتالي قدموا لأنفسهم خدمة كبيرة تتمثل ببناء آخرتهم مع ترك ما يكفي لوارثيهم من جهة، وخدموا مجتمعهم من جهة أخرى... دعونا نتأمل في الأحاديث الشريفة التالية:

(١) عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال عند قول الناس فيه

حين بنى مسجد الرسول - ﷺ -: إنكم أكثرتم وإني سمعت النبيّ - ﷺ - يقول: «**من بنى مسجداً** - قال بكير: حسبت أنه قال -: يبتغي به وجه الله - **بنى الله له مثله في الجنة**»[١]. ومعنى قوله: «**أكثرتم**»، أي: أكثرتم الكلام في الإنكار على ما فعله سيدنا عثمان - رضي الله عنه - في عمارة المسجد... وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر، بنى الله له بيتاً في الجنة**»[٢]. والمعنى في قوله: «**كمفحص قطاة**» كما قال العلماء: هو موضعها الذي تجثم فيه وتبيض لأنها تفحص عنه التراب، وهذا مذكور لإفادة المبالغة، وإلا فأقل المسجد أن يكون موضعاً لصلاة واحد.

(٢) عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»[٣]. وفي لفظ آخر بنفس السند أخرج البخاري عنه - ﷺ - قال: «**ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة، إلا كان له صدقة**»[٤]. والغرس للشجر والزرع لغيره. والبهيمة كل ذات قوائم أربع من دواب البحر والبر، وكل حيوان لا يميز فهو بهيمة.

(٣) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان أبو طلحة

---

(١) صحيح البخاري (جزء ١ - صفحة ١٧٢). وأخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب فضل بناء المساجد والحث عليها. وفي الزهد والرقائق باب فضل بناء المساجد رقم **٥٣٣**. انظر: المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٧٣٨/٢٤٤/١). قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، **٢٠٠٢**م. قال الشيخ الألباني: صحيح.. انظر صحيح ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، **١٩٩٠**م.

(٣) صحيح البخاري (**٢١٩٥/٨١٧/٢**). وأخرجه مسلم في المساقاة باب فضل الغرس والزرع رقم **١٥٥٣**. انظر: المصادر.

(٤) صحيح البخاري (**٥٦٦٦/٢٢٣٩/٥**)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، **٢٠٠١**م.

أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله - ﷺ - يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ [آل عمران: من الآية ٩٢]. قام أبو طلحة إلى رسول الله - ﷺ - فقال يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ الآية، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال فقال رسول الله - ﷺ -: **«بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رايح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»**. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[(١)].

(٤) عن أنس بن مالك قال: أتى رجل النبيّ - ﷺ - فقال: يا رسول الله إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها فمره يعطيني أقيم بها حائطي، فقال رسول الله - ﷺ -: **«أعطه إياها بنخلة في الجنة»**، فأبى فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي ففعل فأتى أبو الدحداح - النبي ﷺ - فقال ك يا رسول الله - ﷺ - إني قد ابتعت النخلة بحائطي وقد أعطيتكها فاجعلها له فقال رسول الله - ﷺ -: **«كم من عذق دواخ لأبي الدحداح في الجنة»** مراراً، فأتى أبو الدحداح امرأته فقال: يا أم

---

(١) صحيح البخاري (جزء ٢ - صفحة ٥٣٠، ١٣٩٢)، (٢١٩٣، ٢٦٠١، ٢٦٠٧، ٢٦١٧، ٤٢٧٩، ٥٢٨٨). وأخرجه مسلم في الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد، رقم ٩٩٨. قال الشراح: (بيرحاء) اسم بستان يملكه أبو طلحة، (طيب) عذب.. (البر) اسم جامع لكل خير. (مما تحبون) من أموالكم التي ترغبون بها طيبة بذلك نفوسكم. (أرجو برها وذخرها) أطمع وآمل من الله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها لأجده يوم القيامة. (بخ) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء. (مال رابح) ذو ربح كثير يجنيه صاحبه في الآخرة. (رايح) من الرواح وهو الرجوع، أي: يرجع نفعه إلى صاحبه. راجع شرح الحديث برقمه في فتح الباري.

الدحداح اخرجي من الحائط فقد بعته بنخلة في الجنة فقالت: ربح السعر[(١)] . . . والحائط هو البستان.

(٥) هنالك قصص كثيرة أخرى تبين كيف تنافس الصحابة والتابعون على التصدق والتبرع والإهداء لدينهم وقضيتهم وهمهم الأول وهو إرضاء الله تعالى، كتبرع سيدنا أبو بكر في مناسبات كثيرة، كفك رق سيدنا بلال من أيدي معذبيه، وتبرع سيدنا عثمان لجيش العسرة، وتبرع سيدنا أبو عبيدة وبقية الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين -.

ومن تلك الآيات والأحاديث وتفاسيرها نبعت فكرة مهمة تعتبر من أهم ركائز الاقتصاد الإسلامي ألا وهي الوقف، وهو ببساطة التبرع بأي ملك عقاري أو زراعي أو صناعي أو تجاري لوجه الله تعالى فلا يباع ولا يورث ولا يؤجر فيستثنى من دائرة التعاملات التجارية ويبقى ريعه لله تعالى، فهذا يتبرع ببيته وذاك ببناء مسجد وذاك ببناء دار علم أو مكتبة وآخر ببناء مشفى أو دار علاج وآخر بدار تعليم أو إيواء للأيتام، وهكذا.

وقد توارثت أجيال الأمة هذا الأمر فكان أن أصبح الوقف أحد أهم سمات الحضارة الإسلامية عبر التاريخ لما له من مفاهيم وقيم سامية كانت تضيق الهوة بين الطبقات الاجتماعية وتزيد آصرة التسامح والمحبة بين الناس وتبعدهم عن التباغض والتحاسد والأحقاد. وقد كانت الدولة الإسلامية في جميع مراحلها تولي الأوقاف اهتماماً كبيراً فسمي منصبها بولاية الأوقاف كان يقوم عليه من يتوسم به الأمانة والعفة من العلماء عدا بعض الاستثناءات في بعض الأوقات.

فمثلاً كان يمنع البخيل والمرائي من تولي مناصب مهمة تتعلق بالمال العام، فإن للمرائي مقصوداً لا محالة وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، كأن يكون مقصوده التمكن من

---

(١) صحيح ابن حبان (جزء ١٦ - صفحة ١١٣). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن بلبان الفارسي، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع.

معصية كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي[١].

يقول الغزالي ـ رحمه الله ـ في فوائد المال وفق المفهوم الشرعي والخلقي الإسلامي: (أما الفوائد فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية، أما الدنيوية، فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها. وأما الدينية: فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع:

١ ـ **النوع الأول**: أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة. أما في العبادة، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما، وأما فيما يقويه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة. فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

٢ ـ **النوع الثاني**: ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام: الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام. أما الصدقة، فلا يخفى

---

(١) إحياء علوم الدين (جزء ٣ ـ صفحة ٣٠٤)، بتصرف. إحياء علوم الدين، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار، أبو حامد الغزالي، ط/٢، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.

ثوابها وإنها لتطفئ غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم. وأما المروءة، فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج، إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها. وأما وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم وهو أيضاً مع تنجز فائدته بالعاجلة من الحظوظ الدينية، وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافئة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة. وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران.

٣ ـ **النوع الثالث**: ما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية وناهيك بها خيراً فهذه جملة فوائد

المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية)[١] . . . انتهى قول الغزالي ـ رحمه الله ـ.

يقول صاحب العهود المحمدية: (أخذ علينا العهد العام من رسول الله ـ ﷺ ـ أن نساعد الناس في بناء المساجد في الأمكنة المحتاج إلى صلاة الجمعة والجماعة فيها بأنفسنا وأموالنا بشرط الإخلاص والحِل في المال وعدم زخرفتها بالرخام الملون الرقيق وطلي سقفها بالذهب والألوان المعروفة، ولا نتخلف عن المساعدة فيها إلا لعذر شرعي فإنها من جملة شعائر الله تعالى ولتكون كنًّا للناس من الحر والبرد إذا صلوا وانتظروا للصلاة الأخرى. ومن جملة ذلك عمارة المنبر وكرسي المصحف وبناء المطهرة والمنارة فنساعد في بنائها كذلك، وكذلك من الملحق ببنائها وقفنا الأوقاف عليها مساعدة لخدامها ومن يقوم بوظائفها ويتلو القرآن فيها ويذكر اسم الله تعالى فيها فإن المساجد لا تكمل إلا بذلك. وإنما شرطنا الإخلاص في البناء والحل في المال وعدم الزخرفة لأن معاملة الله تعالى لا تكون إلا على الأوضاع الشرعية وذلك ليقبلها من صاحبها أي: ليقبلها الله من العبد فيراجع جميع ما ورد من فضائل الأعمال إلى من كان مخلصاً في عمله منفقاً من طيب كسبه. وأما من بنى مسجداً من حرام أو شبهات أو من غير إخلاص نية فربما أثم ولم يقبل منه وإذا كان يوم القيامة انهار به في نار جهنم. وأما عدم الزخرفة فإنما هو حتى لا يفتن المصلون بإطماحهم أبصارهم إلى تلك الألوان والصنائع فلا يفي أجره بوزره لأن روح الصلاة الذي هو الإقبال بالجسم والقلب على الله تعالى

---

(١) إحياء علوم الدين (جزء ٣ ـ صفحة ٢٣٦). إحياء علوم الدين وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار، أبو حامد الغزالي، ط/٢، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.

لم يحصل لمن يصلي هناك فكأنهم لم يصلوا هناك، فلا تعمر يا أخي شيئاً من المساجد إلا إن علمت من نفسك الإخلاص، فإن علمت من نفسك أنك إنما تعمر ليقال: فأعط الناس الذين يكتمون عليك الأمر ما سمحت به من المال ليصرفوه في عماراته من غير أن ينسب إليك ذلك، والله تعالى أعلم)(١)... انتهى قوله ـ رحمه الله ـ.

ولأن العمارة والمدنية هي صنو الحضارة، ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الهندسة عموماً والاقتصاد خصوصاً في موضوع البناء والعمارة وهندستها وفنونها، فإن هنالك علاقة مهمة بين مميزات الحضارة الإسلامية وعمارتها وبنائها ومنشآتها وبين موضوع الوقف والاهتمام فيه من جانبي الحاكم والمحكوم على مدى قرون ودول المسلمين في كل قارات العالم وعبر العصور ورغم اختلاف التوجهات والأفكار وصولاً للتنازع والقتال في أحيان كثيرة بين تلك الدول عبر التاريخ.

وحيث أن الوقف هو ـ في أغلب الأحيان ـ مبنى منشأ على أرض فهو يدخل ضمن مفهوم العمارة الإسلامية وفنونها. ومن بين ذلك أهمية الإخلاص في النية والتوجه بقلب سليم لأداء هذا المشروع التعبدي الإيماني الاقتصادي الاجتماعي التكافلي الرائع. وكذلك أن يكون ماله من حلال، وأن يكون في مكان من يحتاجون له من الناس فيسد ثغرةً إنسانيةً اجتماعيةً أو اقتصاديةً أو تعليميةً أو شفائيةً أو بيئيةً... الخ، وأن لا يتقصد منه التكلف والتعالي والمراءاة وغير ذلك مما تقدم.

ولقد ترك لنا الإرث الإسلامي العظيم في العمارة نماذج لا حصر لها من المنشآت الوقفية الإسلامية كالمساجد والمدارس والمشافي والمكتبات ودور الرعاية وغيرها الكثير في كل أصقاع الدول الإسلامية من الصين وحتى الأندلس وأواسط أوروبا نزولاً لأواسط إفريقيا مما يطول

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (صفحة ٢٣)، عبدالوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي المصري، تحقيق: محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٩٩٨م.

شرحه وتفصيله لتبقى شاهدة على روعة هذا الدين وكماله وشموليته ورحمته وإنسانيته من جهة، وعلى عظمة هذا الأمة وعمق تراثها وحيوية حضارتها وشمول ووسطية فلسفة عمارتها وهندستها من جهة أخرى... لعلنا سنبيِّن بعضاً من تلك المنشآت في فصل لاحق ضمن هذا الكتاب.

تطور العمارة الإسلامية:

من الثابت أن الفن الإسلامي التشكيلي قام على أسس من فنون البلاد التي فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبة الجزيرة العربية الصحراوي، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سعياً وراء الكلأ والمرعى لم يكن ليساعد على قيام فنون تشكيلية، اللَّهم إلا في أطراف شبة الجزيرة كالمناذرة المتاخمين للدولة الساسانية والغساسنة المجاورين للدولة البيزنطية، واليمن في الركن الجنوبي لشبة الجزيرة حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان

على أن الفاتح العربي لم يقبل كل ما وجده من تلك الفنون على ما هو عليه بل استبعد منها ما كرهه الدين أو ما لا يوافق مزاجه الخاص، ثم جمع ما اختاره منها وصهره في بوتقة بعد أن طبعه بطابعه الخاص، ألا وهو الكتابة العربية، وهكذا نستطيع القول: إن الفن الإسلامي أخذ قوامه الروحي من وسط شبة الجزيرة العربية، أما قوامه المادي فقد تم صوغه في أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامي التي تأثرت بالجانب الروحي، هي العمارة، التي عني المسلمون الأوائل أن تكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت العمائر الدينية تطوراً سريعاً ساير ركب الحضارة الفتية، فتعددت أشكالها وأساليبها تبعاً لتعدد وتغير وظائفها. وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة فالمدارس والمصليات والخوانق والأسبلة والتكايا، وإذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجدنا المسجد حجر الزاوية فيها.

ولقد كان أول عمل قام به الرسول ـ ﷺ ـ عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين في مــربد التمر الذي بركت فيه ناقته وكان بنــاؤه بدائياً بسيطاً، وكانت مساحته (٧٠ × ٦٠) ذراعاً وجدرانه من اللبن، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفاً وجعلت عمد المسجد من جذوع النخل. وقد نهج المسلمون هذا المنهج في بناء مسجد البصرة سنة **١٤**هـ، ومسجد الكوفة سنة **١٧**هـ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السُّنة في بناء مسجده في مدينة الفسطاط سنة **٢١**هـ وكانت مساحته وقت إنشاءه (**٥٠×٣٠**) ذراعاً، جداره من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة وكانت مساجد البصرة والكوفة ومصر خالية من المحاريب المجوفة ومن المنابر والمآذن على غرار مسجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وكان المسلمون في العصر الإسلامي الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأماكن العبادة.

والمسجد في اللغة: هو الموضع الذي يسجد فيه، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل في الإسلام من أهل البلاد التي فتحها المسلمون تعددت المساجد في البلد الواحد، كما تعددت الألفاظ التي تطلق على أماكن العبادة ف أصبح هناك مسجد وجامع والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير. ومن ثم فقد أصبح للفظ الجامع مدلول سياسي في عهد الدولة الأموية، فقد عرف بالجامع، المسجد الذي يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين في صلاة الجمعة، أي: أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرئيسي الذي كان يعرف باسم المسجد الجامع.

والعمارة الإسلامية تشغل حيزاً واسعاً في الزمان والمكان فهي تمتد من القرن السابع الميلادي وحتى يومنا هذا (زمنياً)، وتمتد من الشرق الأقصى في آسيا حتى الأندلس غرباً (مكانياً)، ومن أجل دراسة تاريخ العمارة الإسلامية فقد اصطُلحَ على تقسيمات جغرافية وتاريخية (زمنية

ومكانية). وتضم العمارة الإسلامية العديد من المدارس المختلفة على امتداد العالم. ولعل من أهم هذه المدارس (المدرسة الغربية الأندلسية)، (المدرسة البصرية الشامية)، (المدرسة الإيرانية)، (المدرسة التركية) و(المدرسة الهندية)، ثم الشرق الأقصى، ولكل من هذه المدارس سماتها الخاصة النابعة من ظروف البيئة والمجتمع ولكنها تدخل في إطار عام يشملها جميعاً.

من ناحية التقسيم الزماني هناك تواريخ هامة:

- ـ مولد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: سنة (٥٧٠ م) المعروف بعام الفيل.
- ـ الهجرة إلى المدينة المنورة: سنة (٦٢٢م) وفيما بعد سيتخذ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذا التاريخ كبداية للتقويم الهجري.
- ـ الفترة منذ وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحتى تأسيس الدولة الأموية كانت معروفة باسم عصر الخلفاء الراشدين، وينتهي هذا العصر بتأسيس الدولة الأموية سنة (٦٦١م) وينتهي حكم الأمويين سنة (٧٥٠ م). يلي ذلك حكم العباسيين في الدولة العباسية من (٧٥٠ ـ ١٢٥٨م) وهو تاريخ دخول المغول إلى بغداد.
- ومن هنا سنبدأ معاً بالحديث عن العصور الأولى لتطور العمارة الإسلامية المبكرة في الدولة الأموية ثم الدولة العباسية، بعد ذلك سننتقل للحديث عن عمارة مصر الإسلامية، حيث دخلها جيوش العرب سنة (٦٤٠ ـ ٦٤١م)[(١)].

وكما نعلم أن الإسلام قد ظهر في شبه جزيرة العرب، في بيئة

---

(١) معلومة: للتحويل من التاريخ الميلادي إلى التاريخ الهجري: م = (هـ + ٦٢٢) ـ (هـ/ ٣٣).

صحراوية يغلب عليها طابع البداوة، الأمر الذي دعا بعض رجال الدين إلى القول: إن الجزيرة العربية في هذا الوقت كانت تعاني من فراغ معماري يذكر في ذلك الحين، وذلك رغم وجود آثار هامة لحضارات قديمة في شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية.

لكن في واقع الأمر لم يبدأ التطور الحقيقي للحضارة الإسلامية إلا بعد أن قامت شعوب أخرى ذات حضارات قديمة مثل المصريين والفرس وغيرهم باعتناق الدين الإسلامي ليصبح ديناً لهم، ولا شك أن العمارة الإسلامية قد ورثت الكثير من خبرات الحضارات القديمة السابقة لها، مثلها في ذلك مثل غيرها من مراحل التطور السابقة لتبدأ مرحلة جديدة لها أساليبها الخاصة وأنواع مبانيها الجديدة والمميزة، وكذلك لها أساليبها الإنشائية التي تميزها، بالإضافة إلى العناصر الزخرفية والجمالية.

ويمكن القول: إن النشاط المعماري في الدول الإسلامية بدأ مع هجرة الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة المنورة لتأسيس دولة لها، وذلك حين بنى ـ عليه السلام ـ مسجده ومنزله، ورغم بساطة البناء إلا أن تصميم المسجد الأول في المدينة كان على أرجح الأقوال هو الأساس الذي أثر على ما هو معروف باسم (التصميم التقليدي للمسجد).

بالنسبة لتصميم مسجد الرسول ـ ﷺ ـ، فهو بناء متسع طول ضلعه ١٠٠ ذراع، وفي الجانب الشرقي ٩ غرف أو ٩ بيوت لزوجات الرسول ـ عليه السلام ـ، وفي الجزء الشمالي حينما كانت القبلة نحو بيت المقدس كان هناك صَدفة يقف تحتها المصلون للحماية من الشمس، ومع تحويل القبلة أصبحت الصَّدفة في الجهة الجنوبية في اتجاه مكة المكرمة، وبذلك يتكون التصميم التقليدي للمسجد من (الفناء المكشوف والأروقة)، وذلك من أقوال المؤرخين.

التاريخ الحقيقي لتطور العمارة الإسلامية من عصر الدولة الأموية وقد اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لهم، ومنطقة الشام ذات تراث معماري عريق، وبالتالي يبدأ ظهور نشاط معماري مميز في منطقة الشام، وأقدم

الآثار الإسلامية التي نعرفها هي المبنى المعروف باسم «قبة الصخرة» في بيت المقدس والمبنية في عصر الخليفة الأموي «عبدالملك بن مروان» حوالى سنة (٦٨٤ ـ ٦٩٠ م) أي في سنة (٧٢ هـ) وبها أقدم التسجيلات التاريخية عن العمائر الإسلامية.

قبة الصخرة (الشكل ١٤ ـ أ) عبارة عن فناء مثمن منتظم وله أربعة مداخل في الاتجاهات الأصلية الأربعة، ويتوسط الفناء قبة قطرها حوالى (٢٠ متر) تعلو الصخرة، والقبة الخشبية مزدوجة وبها (١٦ نافذة) محمولة على عقود مدببة، وترتكز على (٤ أكتاف) بين كل كتفين ثلاثة أعمدة تشكل الدائرة التي ترتكز عليها القبة وتحيط بالصخرة والتي تبلغ أبعادها حوالى (١٣ × ١٨ م) ومتوسط ارتفاعها عن سطح الأرض حوالى (١.٥ م)، وبين الحائط الخارجي والدائرة الخارجية يوجد مثمن يتكون من ثمان أكتاف بين كل كتفين عمودين، فيتكون بذلك ممران يحيطان بالدائرة الداخلية والممران مغطيان بسقف خشبي مائل إلى الخارج، كما يزدان مبنى قبة الصخرة من الداخل بزخارف الفسيفساء، وهنا نرى أن التأثير البيزنطي واضح في التكوين العام للمبنى وأيضاً في تفاصيل الزخرفة بالفسيفساء، لكن التكوين يغلب عليه الطابع الإسلامي، ونجد أن القبة الخشبية مغطاة بصفائح من النحاس اللامع.

في حوالى سنة (٧٠٧ م) بنى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك الجامع الأموي الكبير في دمشق، المبنى في مسقطه الأفقي مستطيل يتوسطه فناء داخلي مكشوف يحيط به أربعة أروقة أعمقها رواق القبلة، (الشكل ١٤ ـ ب).

رواق القبلة في المسجد الأموي مقسم إلى ثلاثة أجزاء على محور القبلة يوجد مجاز قاطع ومدخل رواق القبلة من الصحن مكون من ثلاثة عقود (مدخل ثلاثي)، وقد كانت الأسطح الداخلية للمسجد مكسوة بألواح من الرخام وكذلك بالفسيفساء الملونة، ومن أشهر الأجزاء التي بقيت من

زخارف الفسيفساء الموجودة في المسجد الأموي، الزخارف المعروفة باسم (مصورة نهر بردى).

المسجد الأموي له ثلاث مآذن كما في الشكل (١٤ ـ ب)، مأذنتان في ركني حائط القبلة (المأذنة الغربية ومأذنة عيسى)، وفي منتصف الحائط الشمالي مأذنة العروس، هذه المأذنة مجددة وليست من عصر الدولة الأموية. وقد كان لعمارة المسجد الأموي في دمشق تأثيراً كبيراً في عمارة المساجد على امتداد الحضارة الإسلامية.

من الآثار الهامة التي ترجع أيضاً إلى عصر الدولة الأموية مبنى صغير موجود على بعد حوالى (٥٠ ميل) شرق مدينة عمان (الأردن) ـ بادية الشام ـ، المبنى الصغير معروف باسم (قصير عمر)، وكان من المرجح أنه يستخدم كاستراحة عند الخروج للصيد في الصحراء، المبنى عبارة عن صالة أبعادها (٧.٥ × ٨.٥ م) مقسومة إلى ثلاثة أقسام بواسطة عقدين مدببين، والسقف عبارة عن ثلاثة أقبية ترتكز على الحوائط وعلى العقود، المدخل في الجهة الشمالية، وفي الجهة الجانبية من الصالة توجد غرفة على جانبيها غرفتان. وفي الجزء الشرقي للصالة يوجد مدخل يؤدي إلى حمام مكون من ثلاثة أجزاء، غرفة باردة مغطاة بقبو مستمر، وغرفة دافئة مغطاة بقبو متقاطع، والغرفة الساخنة مغطاة بقبة محمولة على مثلثات كروية.

حوائط (قصير عمر) من الداخل تزدان بزخارف الفرسكو (وهو الرسم على البياض قبل أن يجف)، والرسوم الموجودة في قصير عمر لها أهمية خاصة في تاريخ الفن الإسلامي، فهي ترجع إلى القرن الأول الهجري وتزدان بصور الأشخاص والحيوانات والطيور، وقبة الغرفة الساخنة مزينة برسم لدائرة الفلك.

يوجد في بادية الشام مبنى يشابه تماماً مبنى قصير عمر، وهو المبنى المعروف باسم (حمام الصرح)، وهو أيضاً يتكون من ٣ غرف مغطاة بأقبية مستمرة.

لكن الاختلاف أن: في قصير عمر الحوائط الجانبية على هيئة نصف دائرة، بينما في حمام الصرح الزوايا قائمة.

السمات العامة للعمارة الإسلامية المبكرة في عصر الدولة الأموية:

١ ـ نلحظ أن معظم آثار هذه الفترة تتركز في منطقة الشام، بحكم أن العاصمة في دمشق وبالتالي الاهتمام بمنطقة الشام.

٢ ـ كذلك سيادة استخدام الحجر المنحوت كمادة بناء أساسية وذلك لوفرة الحجارة الجيدة الصالحة لأعمال البناء في منطقة الشام والخبرات المتوارثة في البناء بالحجر.

٣ ـ استخدام العقود المحمولة على أعمدة رخامية، واستخدام الأسقف الخشبية المائلة.

٤ ـ استخدام الأقبية والقباب في الأسقف والتي كانت تبنى من الحجر أو الطوب، وتحمل القباب على مناطق انتقالية عبارة عن مثلثات كروية، واستخدام أشكال مختلفة من العقود (عقود نصف دائرية ـ عقود مدببة ـ عقود مستقيمة).

٥ ـ استخدام الشدادات لحمل العقود أو العتبات (Beams).

٦ ـ ومن الملامح الهامة أيضاً، وضوح التقسيم الهندسي في المسقط الأفقي.

٧ ـ الزخارف المستخدمة من مواد مختلفة ابتداءً من رسوم الفرسكو وزخارف الفسيفساء وكسوة الحوائط ببلاطات الرخام، والزخارف مزيج من تأثيرات البيزنطية والفارسية والمصرية... لكن التأثير القوي والسائد هو البيزنطي.

٨ ـ كما تميزت هذه الفترة ببناء بعض القصور الصغيرة في الصحاري، وكانت مآذن الجوامع والمساجد عبارة عن أبراج مربعة طويلة.

المرحلة التالية في تطور العمارة الإسلامية المبكرة في عمارة الدولة العباسية:

في منتصف القرن الثامن الميلادي ينتهي الصراع بين الأمويين والعباسيين بانتصار العباسيين والقضاء على الدولة الأموية وقتل آخر الخلفاء الأمويين (مروان بن محمد)، وتم قتله في مصر أثناء محاولة هربه، ولم ينجح من الأمويين سوى عبدالرحمٰن الذي فرَّ إلى الأندلس ليقيم هناك دولة أموية جديدة.

بعد انتصار العباسيين قرر أبو العباس أول الخلفاء العباسيين نقل العاصمة إلى الكوفة، فلم يكن من الممكن أن تكون دمشق معقل الأمويين مقراً لحكم العباسيين.

وبعد وفاة أبي العباس وتولي الخليفة المنصور الحكم، قرر المنصور بناء عاصمة جديدة وهي (بغداد)، وجمع لها العمال من جميع أنحاء البلاد، وحسب وصف المؤرخين إن مدينة بغداد التي بناها المنصور كانت مدينة دائرية، أي: مسقطها الأفقي دائري، يتوسطها قصر الخلافة ويحيط بها خندق وسور مزدوج ولها أربعة أبواب أطلق على كلٍّ منها اسم المكان الذي يؤدي إليه، (باب الكوفة ـ باب البصرة ـ باب الشام ـ باب خرسان). ويقال: إن محيط أسوار المدينة كان حوالى (١٦ ألف) ذراع، والطرق كلها إشعاعية تتجه إلى مركز المدينة (القصر)، وكانت المداخل للمدينة منكسرة (Bent Entrances)، (انظر: الشكل ١٤ ـ ج).

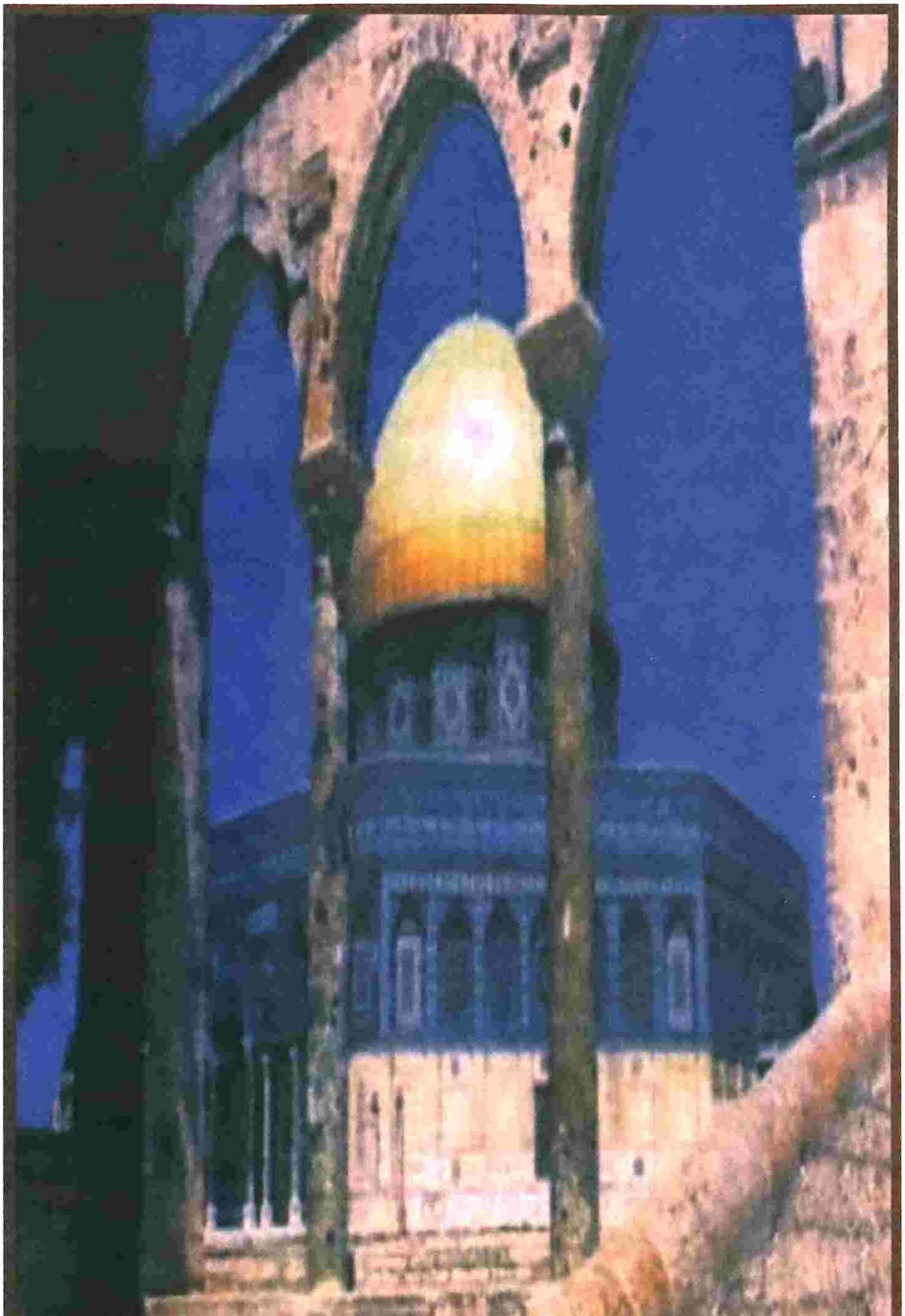
كان لانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد تأثير قوي على تطور العمارة والفنون في هذه الفترة، يقارنه البعض بتأثير انتقال عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى بيزنطة، الأمر الذي يعني مزيداً من التأثيرات الشرقية، خاصة أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس فهم أصحاب الإسهام الأكبر في قيام الدولة العباسية.

ومن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الدولة العباسية مدينة

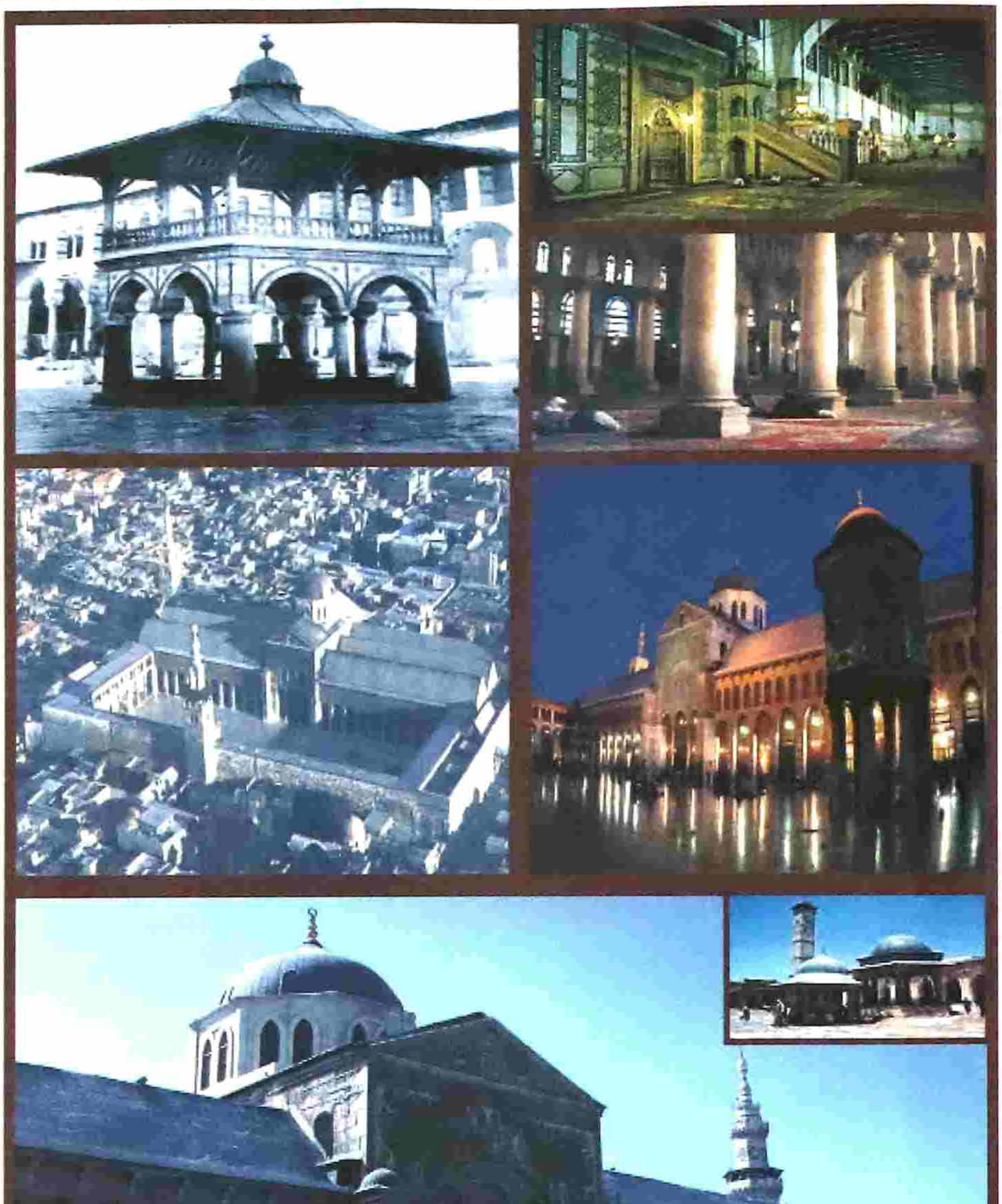
(سامراء) حيث أصل الاسم (سُر من رأى) والتي بناها الخليفة المعتصم بالقرب من بغداد حوالى سنة (٨٣٦ م).

سامراء لم تدم أكثر من (١٥٠ عام) وحكم بها ثمانية خلفاء من العباسيين وهم: (المعتصم بالله - المنتصر بالله - الواثق بالله - المتوكل على الله - المستعين بالله - والمعتز بالله والمهتدي بالله والمعتمد). وهجرها المعتمد على الله حوالى سنة (٨٨٩ م)، فهي مدينة نمت بسرعة هائلة وانتهت بسرعة هائلة أيضاً.

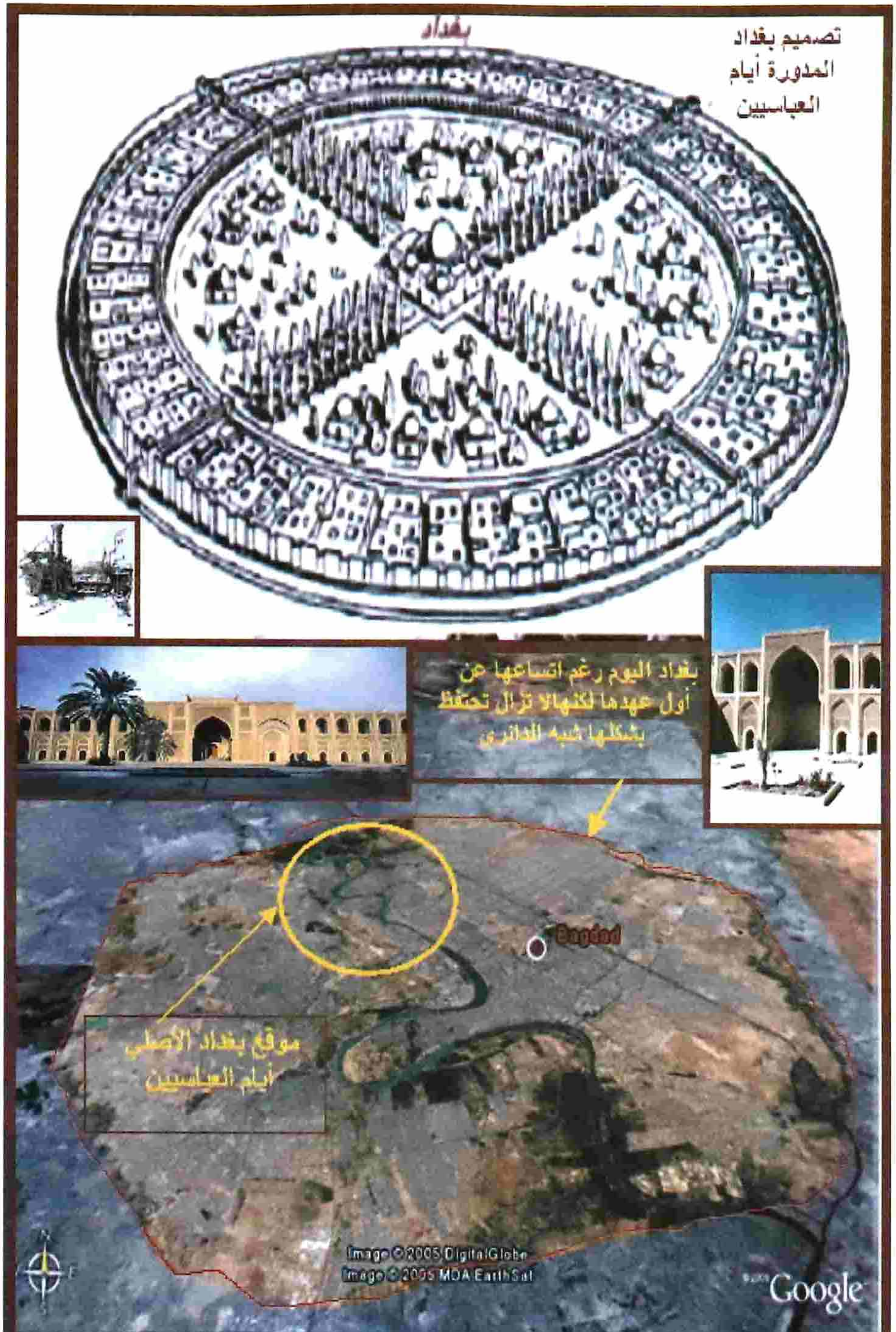
ومن أهم ما وصلنا من سامراء (جامع سامراء الكبير) وقد بناه الخليفة المتوكل حوالى سنة (٨٤٩ م)، جامع سامراء من أكبر المساجد مساحة حيث تبلغ مساحته حوالى (١٥٦ × ٢٠٠م) وهذا بدون الزيادة المحيطة، (انظر: الشكل ١٤ - د).



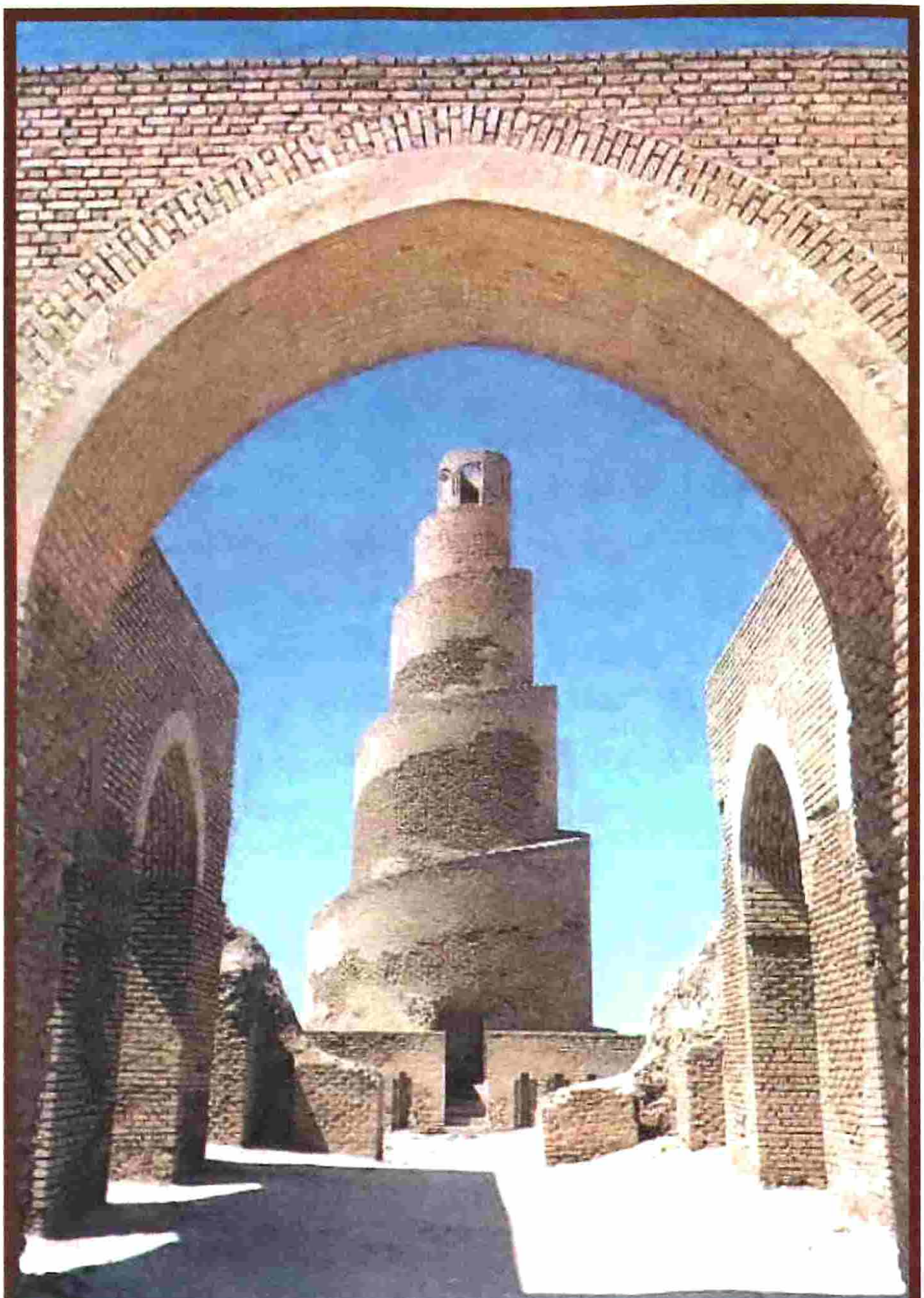
الشكل (١٤ ـ أ): أقواس وقبة الصخرة المشرفة بالقدس الشريف ـ فك الله أسرها ـ
ـ عن موقع الفن المعماري www.m3mary.com ـ



الشكل (١٤ ـ ب): المسجد الأموي في دمشق عاصمة الأمويين



الشكل (١٤ ـ جـ): بغداد المدورة عاصمة العباسيين بنيت بطراز دائري له أربعة أبواب



الشكل (١٤ ـ د): مسجد سامراء بمئذنته الملوية الشهيرة، طراز معماري فريد يستوحى منه اليوم الكثير من فنون المعمار. . .

ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

المسجد مبني من الطوب، والسقف خشبي مستوٍ يرتكز على أكتاف من الطوب في أركانها أعمدة ملتصقة، والزخارف جصية (من الجبس) وله مسقط أفقي تقليدي، وللمسجد فناء مكشوف تحيط به ثلاث أروقة أعمقها رواق القبلة.

أشهر ما في هذا المسجد هي المئذنة الملوية، وهي مئذنة مقامة على قاعدة مربعة ضلعها (**٣٣**م) وارتفاعها (**٣** م) يعلوها جزء أسطواني يحيط به من الخارج درج حلزوني يلتف حول بدن المئذنة من الخارج وارتفاع الجزء الدائري حوالى (**٥٠** متر)، (انظر: الشكل **١٤**).

أيضاً في سامراء مسجد آخر مشابه لجامع سامراء الكبير وهو معروف باسم (مسجد أبي دلف) أبعاده حوالى (**١٣٥ × ٢١٥**م)، أيضاً الفناء الداخلي مكشوف تحيط به الأروقة وأعمقها رواق القبلة، وأيضاً المئذنة في الجهة الشمالية خارج بناء المسجد وهي أيضاً مشابهة لمئذنة جامع سامراء الكبير، وإن كانت أصغر منها، فطول ضلع القاعدة المقامة عليها حوالى (**١١**م) وارتفاعها حوالى (**٢.٥**م) بينما ارتفاع الجزء الدائري حوالى (**١٦**م).

مدينة سامراء نمت بسرعة هائلة كما انتهت بعد ذلك بسرعة أيضاً، ومن أجل الإسراع في عمليات البناء استخدم أسلوب جديد لعمل الزخارف التي تكسو حوائط المباني وهي زخارف جصية يتم عملها بواسطة قوالب خشبية يتم الضغط بها على البياض قبل أن يجف للحصول على الزخارف المطلوبة.

ويقسم مؤرخو الفنون زخارف سامراء إلى ثلاثة طرز:

١ - **الطراز الأول**: زخارف ذات أشكال قريبة من الطبيعة.

٢ - **الطراز الثاني**: زخارف محورة.

الطراز الثالث: زخارف محورة ذات طابع تجريدي.

أيضاً من آثار هذه الفترة بقايا قبة من المرجح أنها بنيت ليدفن فيها

الخليفة المنتصر بالله، وبنيت سنة (٨٦٢م) ويقال: إنه مدفون بها ثلاثة من الخلفاء العباسيين (المنتصر ـ المعتز ـ المهتدي). المبنى مكون من مثمن خارجي منتظم بداخله مثمن آخر داخله مربع يحمل القبة ومناطق الانتقال عبارة عن ما يسمى (بالطاقات الركنية)، القبة قطرها حوالى (١٨ قدم)، ومادة البناء خليط من الطين وكسر (الكوارتز) مصنوعة على شكل قوالب أبعادها حوالى (٣٣ × ٣٣ × ١٠سم) وهذا أقدم ما وصلنا من الأضرحة ذات القباب في العمارة الإسلامية.

أيضاً من الآثار التي ترجع إلى هذه الفترة خزان للمياه أو صهريج للمياه في منطقة الرملة في فلسطين، معروف باسم خزان الرملة مبني حوالى سنة (٧٨٩ م)، وظيفته تخزين المياه تحت الأرض، مبني من الحجر، والمسقط الأفقي شبه منحرف مقسم إلى أجزاء بواسطة أكتاف تحمل عقوداً في الاتجاهين، هذه العقود المدببة تحمل أقبية مستمرة وهذه الأكتاف تقسم المساحة إلى (٢٤ قسماً) بمنتصف كل قسم توجد فتحة في الصهريج يمكن منها الحصول على المياه.

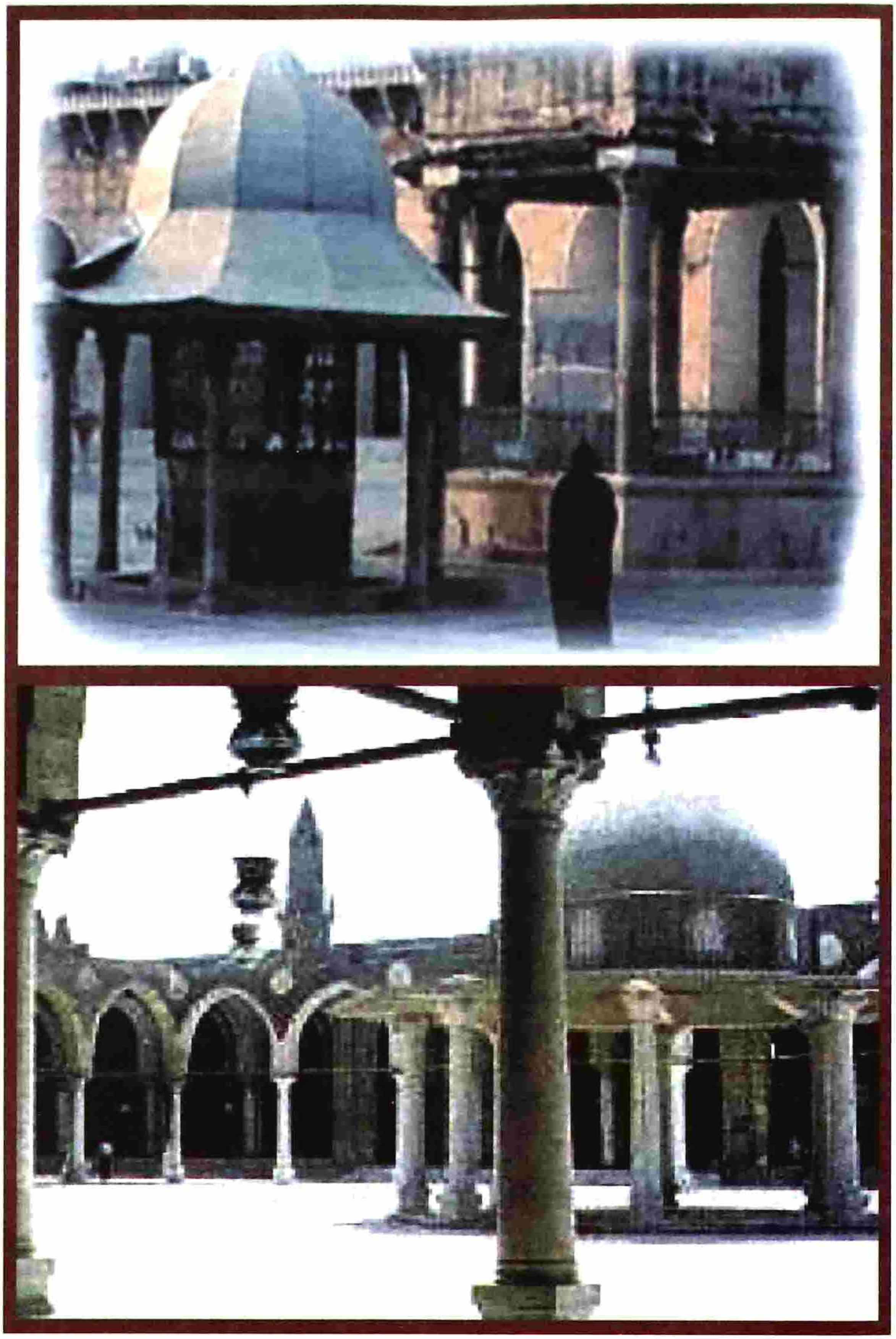
في حوالى سنة ٧٨٠م، قام الخليفة المهدي بتجديد المسجد الأقصى في القدس فقام بعمل المبنى على شكل مستطيل مقسم بواسطة صفوف من العقود عمودية على جدار القبلة وأمام المحراب قبة صغيرة، وعلى محور القبلة المسافة بين العقود أكبر وأمام العقود قبة صغيرة، ولا يوجد بداخله فناء مكشوف وذلك لوجود الساحة الخارجية للحرم عوضاً عنه(١).

تتميز الفنون الإسلامية بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي، ولعل هذا سر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفنية على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة. على أن هذه الوحدة لم تمنع من وجود طرز إسلامية تتميز بها الأقطار

(١) عن بحث (تطور العمارة الإسلامية)، المهندسة: ياسمين زكي.

الإسلامية المختلفة في عصور تطورها الفني، ويمكننا أن نقول بوجه عام: إن الطراز الأموي ساد العالم الإسلامي أولاً متأثراً بالفنون المحلية، ثم ساد الطراز العباسي منذ قيام الدولة العباسية في عام **٧٥٠**م.

وعندما ضعفت الخلافة العباسية منذ القرن السابع الميلادي سادت طرز أخرى إقليمية، فكان هناك الطراز الإسلامي المغربي في شمال أفريقيا والأندلس، وطراز مصري سوري في مصر وسوريا، وطراز عثماني في تركيا والبلاد التي كانت تتبعها، ثم طراز هندي في الهند. ومن واجبنا أن نكون على معرفة بهذه الطرز الفنية وكيف تميزت بميزات خاصة في إطار الوحدة الفنية الإسلامية الكبرى. (انظر: الشكل **١٥**).



الشكل (١٥): الطرز المعمارية الإسلامية في المساجد والمدارس العلمية وملحقاتها

أما عن العوامل المؤثرة على العمارة الإسلامية فيكاد يكون من المتعذر القول بأن هناك في العمارة الإسلامية والفن الإسلامي اتجاهاً عربياً أو فارسياً أو تركياً أو هندياً موحداً؛ لأن إرادة الحاكم في تلك العصور الإسلامية كانت تلعب دوراً أساسيًّا. كما كان لوحدة العقيدة الدينية تأثير كبير على وحدة التطور، ويمكن تلخيص الظروف والمؤثرات التي أثرت على العمارة والفنون الإسلامية بما يأتي:

١) فتوحات الإسلام في بلاد متحضرة شرقاً وغرباً واتساع نطاق الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى الأندلس.

٢) البواعث الدينية والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التي أوجدها الإسلام، ومفهوم كل شعب منها.

٣) فنون الأمم العربية التي استوطنت أطراف الجزيرة ومجاورتها للأمم المتمدينة، وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العمارة.

٤) ظهور الطراز المعماري الأول في سوريا، حيث أقام الأمويون دولتهم، فتأثرت عمارته بعمارة الفن البيزنطي.

٥) ما نقله أحمد بن طولون من أساليب العمارة إلى مصر عند تأسيس الدولة الطولونية.

٦) الاقتباس من فنون الأمم التي أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الإسلامية وبقاء صبغها محليًّا، واستخدام الصناع من مختلف البلاد وتأثير مهارتهم على الفنون الإسلامية.

٧) انتشار الوعي الثقافي العربي عبر العالم بأسره بسرعة مذهلة أثارت الدهشة.

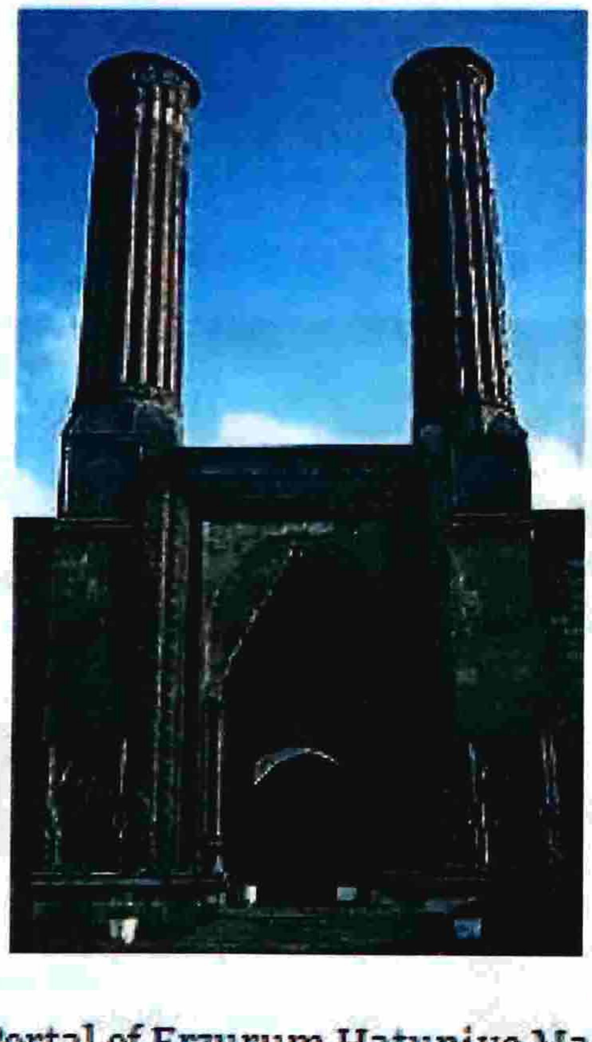
٨) تعدد مواد البناء وأنواعها في مختلف الأقاليم.

٩) اختلاف الطقس والمناخ، بحيث يكون معتدلاً على سواحل

البحر الأبيض، غزير الأمطار في الشتاء، شديد الحرارة ومشمساً، ويكون هناك أمطار نادرة في معظم أنحاء البلدان العربية، أمطار غزيرة وثلج في الأندلس، وبعض المناطق الجبلية.

١٠) الامتزاج بين الثقافة الإسلامية والعقائد المحلية في بلاد فارس.

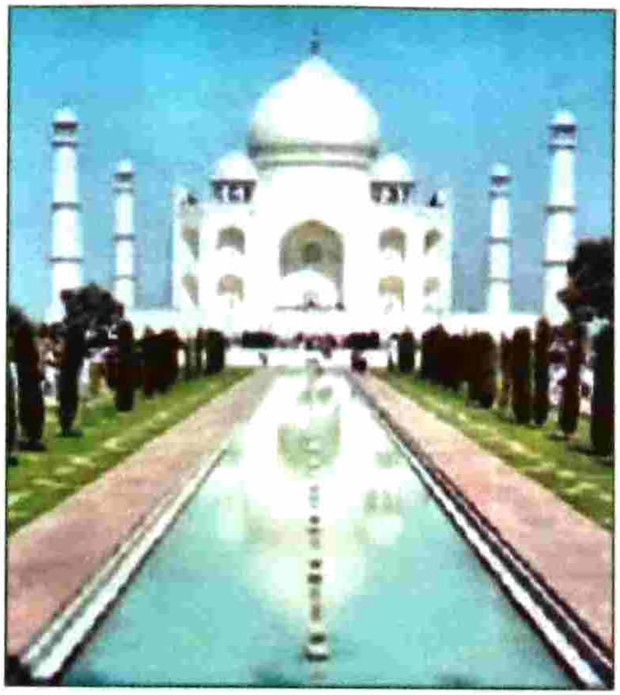
الأشكال من (١٦) ولغاية (١٨) تبين بعض نماذج المساجد في أمصار مختلفة ولحقب زمنية متفاوتة.



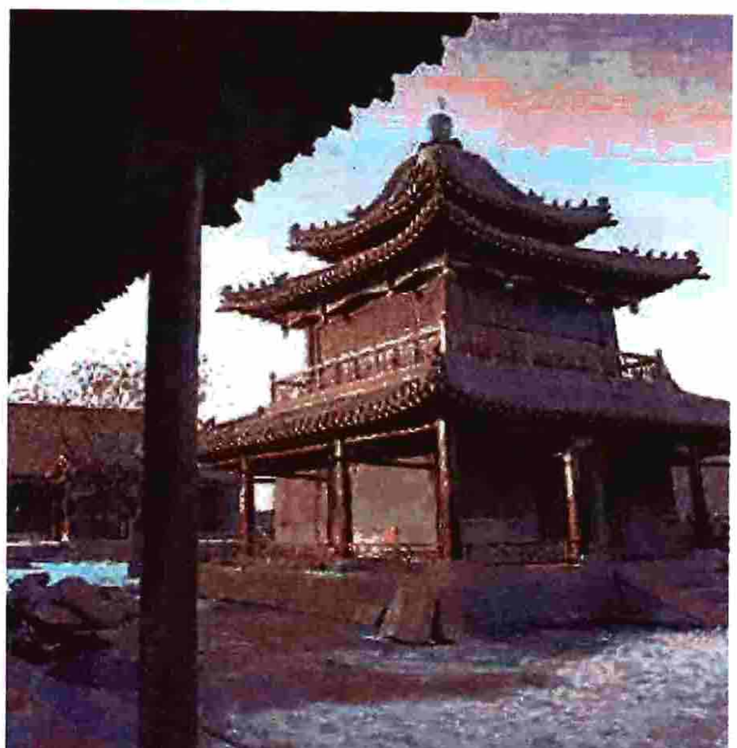
The Portal of Erzurum Hatuniye Madrasa

الشكل (١٦ ـ أ): مآذن مدرسة أرضروم

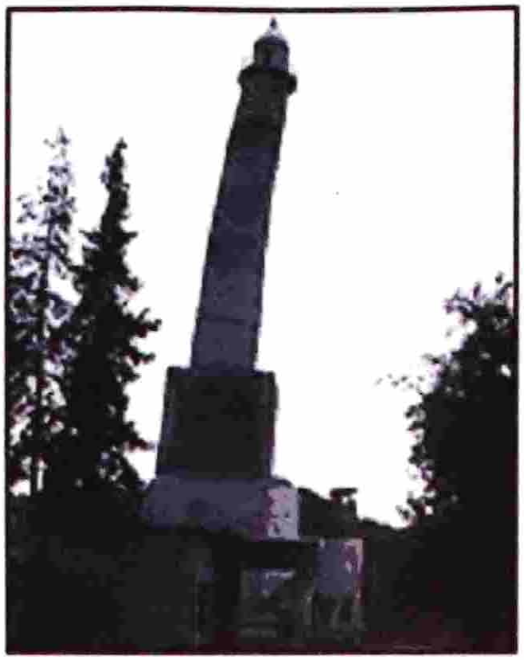
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



والشكل (١٦ ـ ب): النمط المغولي للمساجد والمآذن والقباب وتحفة تاج محل
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٦ ـ جـ): مِئذنة أو مَأذنة مسجد بوزهين بالصين
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٦ ـ د): المئذنة الحدباء الشهيرة بمسجد نينوى
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٧ ـ أ): مِئذنة أو مَأذنة بمسجد حديث بروسيا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٧ ـ ب): منارة مسجد الحكيم بالقاهرة
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (١٧ ـ جـ): منارات مسجد دجيني الكبير بمالي
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٧ ـ د): منارات القرن الحادي عشر الهجري
وعلى اليسار منارات المسجد السليماني بتركيا
ـ موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (١٨ ـ أ): منارة ومسجد بصربيا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



Figure : The madrasa minaret and entrance

الشكل (١٨ ـ ب): منارة ومدخل المدرسة ببلخ

عن موقع الإرث الإسلامي



الشكل (١٨ ـ جـ): مآذن ومنارات الأزهر بمصر

ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (١٨ ـ د): منارات وقباب الجوادين بكاظمية العراق
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ

ولقد برزت عبر العصور الإسلامية المختلفة مدارس معمارية في فنون البناء للمدن والمساجد والمدارس العلمية والأسواق والمستشفيات والحمامات والقصور وغير ذلك. فعندما تتأمل نمط بناء المآذن تجد أن المآذن السلجوقية والعثمانية تختلف عن تلك التي برزت في الدول الإسلامية الأولى كالأموية والعباسية. كما أن ما بني من عمران في دول المشرق يختلف عن ذلك الذي بني في المغرب، وأفريقية يختلف عن صينية وعن أوروبية وهكذا، والأشكال من (١٦) لغاية (١٨) تبين ذلك بوضوح[١].

---

(١) صفحات مختلفة من كتب: أسس التاريخ الحضاري والعمراني في العصور الإسلامية المختلفة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. مساجد الإسلام، طه الوالي، بيروت. العمارة الإسلامية عبر العصور، د. سعاد ماهر، جدة.. العمارة الإسلامية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د. حسن نويصر.. فقه=

الهوية الإسلامية للعمارة المعاصرة:

إن عملية النمو العمراني في ديار المسلمين تتطلب سياسة معمارية تستلهم روح الإسلام وتعمل على تطويع التكنولوجيا المعمارية وإجادة توظيفها للحفاظ على هوية العمارة الإسلامية. وأوضح أن الغزو المعماري الغربي قد أحدث متغيرات سلبية في المدن والعواصم الإسلامية وأن مستقبل العمارة الإسلامية في خطر ما لم تتنبّه الأمة إلى ضرورة درء هذا الخطر بالحفاظ على هوية العمارة الإسلامية إلى جانب الحفاظ على التراث المعماري في ديار المسلمين. فالمجتمعات المسلمة تشهد نموًّا واضحاً، وتقام المباني وفقاً للنمط الغربي في أغلبها. وهنا مكمن الخطر، إذ إننا لم نراع الأصول المعمارية الإسلامية التي يجب مراعاتها عند إنشاء المدن الحديثة. إذ لا بد أن ندرك أن المدينة الإسلامية هي النموذج الطيب

= العمارة الإسلامية، خالد عزب (دار النشر للجماعات المصرية). أسس تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، خالد عزب (كتاب الأمة). العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية، جلال شوقي (الكويت ١٩٥٠م). موسوعة حسن الباشا للعمارة والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا (القاهرة ١٩٩٧م). التراث المعماري الإسلامي في مصر، صالح لمعي.. العمارة الإسلامية وخصائصها، د. عبدالقادر الريحاوي.. العمارة في صدر الإسلام، د. كمال الدين سامح.. أوقطاي أصلان آب، فنون الترك وعمائرهم، إستانبول ProductID ١٩٨٧م. موسوعة الآثار الإسلامية الليبية. العمارة في المغرب الإسلامي، مصطفى زيبس.. بخارى الشريفة، تاريخها وتراثها الحضاري، خالد عزب.. مدخل إلى العمارة الإسلامية، أمجد بوهميل بورفازكا (سويسرا، مركز هلاب). المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. المساجد، د. حسين مؤنس (الكويت ـ عالم المعرفة). تاريخ المساجد الأثرية، حسن عبدالوهاب (القاهرة ١٩٥٠م). البيوت في القاهرة في القرنين ١٧ ـ ١٨، قللي خنا. فنون الإسلام، زكي محمد حسن. مسجد القرويين، عبدالهادي التازي. المساجد والقصور، السيد عبدالعزيز سالم. صيدا، السيد عبدالعزيز سالم. العمارة الإسلامية في طرابلس والشام، عمر عبدالسلام. الفن الإسلامي، عفيف بهنسي. موسوعة العمارة الإسلامية، عبدالرحيم غالب. المصطلحات المعمارية من خلال وثائق المماليك، ليلى إبراهيم، محمد أمين (القاهرة ١٩٨٨م).

للعمارة الإنسانية بصفة عامة، ويجب أن يتميز أسلوب التخطيط العمراني في المدن الحديثة التي تقام في ديار المسلمين بمراعاة التكتّل السكاني ومساحات الفراغ، وذلك في نسيج معماري إسلامي متجانس.

ومن التطبيقات لفعل ذلك مثلاً أثر الصلاة في حركة وانتشار الناس، فنحن نعرف أن المسلمين يجتمعون كل يوم لأداء الصلوات الخمس في المساجد، كما يجتمعون كل يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة ومن هنا لا بد من مراعاة انتشار الناس في أنحاء المدينة أو الحي بعد انتهاء الصلاة عن طريق تخطيط مساحات الفراغ والشوارع الرئيسية والفرعية المؤدية إلى المساجد بحيث تستوعب حركة الانتشار في سهولة ويسر. لذلك نحن نرى براعة التخطيط العمراني للمدن الإسلامية مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ونعتبر تلك هي النماذج المثالية للمدن الإسلامية.

فمكة المكرمة والمدينة المنورة يفد إليها آلاف بل ملايين من المسلمين لأداء الفريضة وزيارة بيت الله الحرام، كما أن تخطيط مدينة القدس القديمة داخل الأسوار نموذج حيٍ للمدينة الإسلامية. ولقد رُوعي في التصاميم المعمارية لهذه المدن المقدَّسة القدرة على استيعاب الأعداد الضخمة من البشر وسعيهم في المقدسات لأداء المناسك والتوجه إلى الأسواق لشراء ما يلزمهم من متطلبات وذلك في سهولة ويسر.

العمارة الغربية لها فلسفتها ولها ركائزها التي لا تتفق مع مبادئنا وقيمنا الإسلامية، فالعمارة الغربية قضت على مفهوم الجوار والنواحي الاجتماعية المرتبطة به الذي يحرص عليها الإسلام، فنحن مثلاً نجدهم لا يهتمون بأمر حرمة المنزل فلا يضعن سياجاً حول منازلهم وإن وضعوه كان قليل الارتفاع يرى ما في داخله من الخارج، بينما هذا الأمر لا يمكن أن يقبل في الواقع الإسلامي الذي يعطي للبيوت حرمتها. كما أننا نجد أن سكان الشقق في المبنى الواحد لا يتزاورون ويحرص كل منهم على العيش في عزلة عن الآخرين من جيرانه، فضلاً عن عدم وجود العزل

الصوتي بين الشقق مما ينسف فكرة كتمان مشاكل الأسرة وعدم شيوعها، فهذه بعض السلبيات من سلبيات أخرى أفرزتها العمارة الغربية التي نتج منها عدم تجانس بين سكان المبنى الواحد، وأحياناً ظهور صراعات فكرية بين الجيران. كما أن العمارة الغربية تهتم بالشكل والمظهر دون المضمون والجوهر وانتشار عمارة الغرب في المدن الإسلامية ظاهرة سلبية خطيرة يجب أن نعمل على التصدي لها بالالتزام بالمنهج المعماري الإسلامي الأصيل، ويجب أن نصون هويّتنا المعمارية من أخطار التغريب المعماري الذي لا يقل خطراً عن التغريب الفكري والعقائدي[(١)].

تذكر الدكتورة قبيلة فارس المالكي في بحثها الموسوم: (العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي هويتها وأثر تكنولوجيا العصر فيها)[(٢)]، ما نصه:

تسببت كثير من العوامل في إسباغ طابع متنوع على عمارتنا المعاصرة، طابعاً هو في تغير مستمر، غير واضح المعالم ومتأثر بعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وتقنية. . . إلخ، فكان لتعرض الدول النامية لتأثير التوسع الاقتصادي والتطور التكنولوجي وتطور وسائل الإعلام والاتصال أثرٌ في وجود طراز معماري سريع التغير، تسبب أولاً في سيطرة شكل معماري نابع من فكر متكرر وناتج عن إيلاء أقل تقدير للاعتبارات الملائمة لبيئتنا. (وذلك من خلال التيار الدولي للعمارة الحديثة)، وبذلك تزايد نفوذ الحضارة الغربية الذي كاد أن يكتسح ثقافة الدول النامية، وكان من الطبيعي أن يتدخل في ميدان العمارة إلى الحد الذي طغى فيه على الخصوصية والتقاليد. . . وأخذت التيارات والحركات المعمارية الغربية

---

(١) لقاء مع وزير الأوقاف والمقدسات الإسلامية الأردني الأسبق، في مجلة الوعي الإسلامي، مجلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، العدد رقم: **٤٨٤**، التاريخ **٢٢ ـ ٢-٢٠٠٦**، بقلم الكاتب: سهير محمد حسنين.

(٢) بحث (العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي، هويتها وأثر تكنولوجيا العصر فيها)، د. قبيلة فارس المالكي، بحث عن محاضرة ألقيت في قسم الهندسة المعمارية بجامعة بغداد، آذار ـ مارس ـ عام **١٩٩٩**م.

الأخرى فرص مشابهة في النفوذ والاختراق... ومع كل هذا نجد في الأفق من توجه إلى تبني العودة إلى الماضي بما يرفد خصوصية العمارة وهويتها، وقد نجح عدد من المعماريين الذين مارسوا العمارة في العالم الإسلامي في محاولتهم هذه...إلا أن بعضهم بالغ في توجهه هذا حتى كاد يدعو إلى العودة إلى البناء باللبن... والمواد التقليدية في عصر قدم الكثير من التطورات في هذا الجانب، وهذا التوجه وتوجهات أخرى مشابهة جانبت التوفيق في الغالب... ليخلق نتاجاً معمارياً إسلامياً معاصراً يعكس تفهماً عالياً واستيعاباً لما يتضمنه الموروث العمراني من معاني أعطته هوية متميزة، فالنظرية المعمارية المحلية لعمارتنا لا بد أن تستمد جذورها من القيم الحضارية والتراثية المحلية ـ مع كونه ليس بالأمر اليسير ـ على أن تتفاعل أطرافها مع المنجزات الحضارية المعاصرة.

لا يخفى أن الإسلام حقيقة توجد في القرن العشرين، وهي ذات الحقيقة التي كانت في قرون مضت، وكان هو أساس الحضارة الإسلامية في كل جوانبها، فلسفتها، عمارتها وحركتها العلمية والفكرية، والإسلام وقيمه هما اللذان أسبغا على العمارة الإسلامية والحضارة الإسلامية ككل هويتها، حيث تتأتى الهويات الخاصة بالمجتمعات من ثلاث علاقات، علاقة الإنسان بالله (العقيدة)، وعلاقة الإنسان بالبشر (المجتمع)، وعلاقة الإنسان بالطبيعة (البيئة)، ومن خلال النمط العام لحياة الناس فيما يخص هذه العلاقات الثلاث تتولد قوانين تشكل بمجموعها فلسفة أساسية لكل مجتمع من المجتمعات، وبالتالي يمتلك هويته. والهوية ليست شيئاً جامداً ثابتاً، بل هي تتحول مع الزمن فهي ديناميكية، كما أنها ليست شيئاً موجوداً ملموساً، هي ترتبط بالأثر الذي تركته الحضارة عبر التاريخ، ونجدها من خلال فهم أنفسنا وبيئتنا، وأية محاولة لاختصار هذه الأسلوبية في التعامل إنما يعني فبركة هوية وفي ذلك خطر كبير علينا، فلا بد من فهم المبادئ والمضامين ومن ثم تطبيقها في محيطها ضمن مجموعة متكاملة من العادات والتقاليد والمواد المتوفرة، والتواؤم المناخي حيث إن المناخ أحد العوامل المهمة في ولادة الهوية... هناك من يبحث الهوية

من خلال العلاقات الشكلية ويبحثها آخرون من خلال المضمون، حيث إن كوامن الأشكال التاريخية في فكر المعماري لا بد أن تكون مصدراً لتصاميمه. ونرى من الضروري الوقوف على معنى الهوية كما وردت في المعجم الفلسفي، حيث يتطرق إلى أن للهوية عند القدماء عدة معاني، وهي التشخص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي، قالوا: (ما به الشيء هو، هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهيته)، وقالوا: (الأمر المتعلق من حيث إنه معقول، في جواب ما هو يسمى ماهية، ومن حيث تبعته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه على الأغيار يسمى هوية) (كليات أبي البقاء). وللهوية عند المحدثين أربعة معان:

١ ـ تطلق الهوية على الشيء من جهة ما هو واحد، كقولنا: إن الشيخ الرئيس هو أبو علي ابن سينا، وتسمى هذه الهوية بالهوية العددية.

٢ ـ تطلق الهوية على الشخص (أو على الموجود المشبه بالشخص) إذا ظل هذا الشخص ذاتاً واحدةً رغم التغيرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده، ومنه قولنا: هوية الأنا، وهوية الفاعل، وتسمى هذه الهوية بالهوية الشخصية.

٣ ـ والهوية صفة موضوعين من موضوعات الفكر إذا كانا رغم اختلافهما في الزمان والمكان متشابهين في كيفية واحدة، وتسمى هذه الهوية بالهوية الكيفية أو النوعية.

٤ ـ والهوية علاقة منطقية بين شيئين متحدين كالهوية الرياضية، أو المساواة الجبرية التي تظل صادقة رغم اختلاف قيم الحروف التي تتقوم عنها.

وباختصار ومما تقدم يتضح أن الهوية هي التشخص والامتياز عن الغير، وتبحث دراستنا في هوية العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي النابعة من الماضي الثري المتناغم مع تقدم العصر من خلال توجهات معمارية متنوعة سعت كلها للتعبير عن العمارة المعاصرة. واعتمدت

الدراسة منهجاً استكشافياً من خلال جمع المعلومات وتحليلها، متضمناً التعريف بالهوية والعمارة الإسلامية والتكنولوجيا ومن ثم التعريف بالأفكار والنظرات التي تناولت الموضوع بتصنيف اعتمده البحث ـ لأول مرة ـ لتلك الأفكار مع تحليل ودراسة عدد من أمثلة تطبيقية لإغناء البحث، وصولاً إلى مناقشة واستنتاجات وتوصيات تسهم برفد عمارتنا الإسلامية بمحاولات بحثية تسعى إلى تمييز الكثير من المفاهيم الشائعة غير الصحيحة عنها، أو ربما المتعجبة أحياناً، وربما المتطرفة في تفسيراتها أحياناً أخرى.

أولاً: التعريف بالتكنولوجيا وتطورها:

يتحدد المفهوم الارسطوطاليسي في التكنيك في أنه مهارة الخلق الذي ينشأ نتيجة له النتاج المتوقع، فباني البيت أو السفينة يملك مهارة دائمية إذا نشأ نتيجة لعمله البيت أو السفينة. ويرى البعض في التكنولوجيا الحديثة تتويجاً باهراً لنجاح العقل البشري في السيطرة على الطبيعة وتدجينها لمصلحة الإنسان والبشرية، والبعض الآخر يرى فيها مثلاً مخفياً يهدد البيئة بالتلوث والخراب والإنسانية بالدمار والحياة الخاصة بالاختفاء... بدأت التكنولوجيا منذ الأزل كحاجة منذ اكتشف الإنسان النار، وشهد العصر الحجري اكتشاف الزراعة وتدجين وتربية الحيوانات، كما أن تطور حاجات الحضارات الكبرى المتعاظمة في أوقات السلم والحرب خلقت الحوافز الكافية لتطوير الأدوات التكنولوجية التي تتلائم مع مستويات التقدم التي حققتها هذه الحضارات... واستمر التطور التكنولوجي حتى النهضة الأوروبية التي لم تخرج من لا شيء، فالأزمات السياسية والدينية والغزوات وتفشي الأمراض استطاعت أن تلحق بسكان أوروبا في نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر أضراراً كبيرة، لكن يبدو أنه كانت صدفة عجيبة حيث ساهم هبوط السكان في أوروبا وانخفاض الأيدي العاملة المتاحة بتسريع بروز عصر الآلة، وتطورت الآلة ومنذ البداية اكتشف الرأسماليون أن الآلة هي حليفهم الطبيعي في تعظيم أرباحهم، وفي الوقت الذي كان فيه تطور التكنولوجيا حتى منتصف القرن

الثامن عشر راجعاً إلى اكتشاف الحرفيين والفنيين والعمال المهرة (أي: ارتبطت بالإنسان)، فقد أخذ الوضع ينقلب بعد ظهور الثورة الصناعية (ارتبطت بالآلة). ثم أتت بعد ذلك ثورة العلم والتكنولوجيا عند نهاية الحرب العالمية الثانية، وذلك في مجال الطاقة والثورة الخضراء والثورة البايولوجية وثورة المعلومات التي جسدها اختراع الحاسوب الإلكتروني. ويعتبر القصر البلوري القفزة التي حدثت في التكنولوجيا ورافقها الإبداع في الشكل الإبداعي (تصميم جوزيف باكستون)، ويرى الأستاذ رفعت الجادرجي أن تنفيذ القصر البلوري لم يكن أعظم إنجاز للتكنولوجيا الحديثة من الناحية الاقتصادية ومدة البناء ومدى النفع واستهلاك المواد ـ مما أدى بالنتيجة إلى تطوير تكنولوجيا البناء بصورة عامة ـ فحسب. بل أكثر من هذا، فإن القصر البلوري قد حقق خلق أشكال هندسية ومفاهيم جديدة تعتمد أساساً على الخصائص الطبيعية لمادة الحديد الصلب.

إن ازدهار صناعة الحديد واستعماله كمادة أساسية في البناء نتج عنه تطورات غاية في الأهمية في العمارة الأوروبية ونتج عنه الاتجاه الرأسي في البناء، والذي كان من بعض نتائجه ابتكار ناطحات السحاب، وكما كان لاستعمال الحديد وتأثيره في أساليب البناء والتصميمات كان له تأثيره في تصميم المدن... وتزايدت عجلة تأثيرات تلك الثورات الصناعية والتكنولوجية منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مما أنبت مذاهب معمارية في العالم الغربي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية ومن ثم حتى وقتنا هذا تدفقت إلى العالم العربي وغزته مما نتج عنه بالمقابل ارتفاع الأصوات الداعية إلى ضرورة العودة إلى الماضي والبحث عن الذات المحلية في العمارة، مؤكدة أن التكنولوجيا والعلم وسيلة تساعدنا في تلبية متطلباتنا الحياتية بما يتواءم وفلسفتنا وفكر مجتمعنا.

ثانياً: العمارة الإسلامية وخصائصها:

منذ بداية القرن السابع الميلادي نشأ الطابع الإسلامي على الرغبة في الاستجابة والتكييف مع المواد المحلية والصورة المحلية وعلى التناغم مع

المناخ المحلي مع الاحتفاظ بالمبادئ الجوهرية في الإسلام، وقد ارتبطت سمات العمارة الإسلامية لدى البعض بالجوانب الفيزياوية الشكلية الملموسة، في حين تناوله البعض الآخر من الجوانب التي ترتبط بالمعاني والمضامين التي بالإمكان تلخيصها بالجوانب الآتية: (وبما يخدم دراستنا هذه):

١ ـ **المقياس الإنساني**: وهو أحد أهم السمات المميزة للعمارة الإسلامية نشعره في كل نماذجها مهما امتلكت من معاني الهيبة والفخامة، فإن ذلك لا يتناقض مع إنسانية الفضاء المعماري الإنساني، حتى حين كان يضطر المعماري المسلم إلى إسباغ الفخامة على عمارة المدخل مثلاً بتشييده شاهق الارتفاع مثل مدخل جامع السلطان حسن، فإنه لم يضح قط بالجانب الإنساني، بل كان يتحرز من زيادة مقاييس العناصر المعمارية، ومع احتفاظه لمثل هذه العناصر بمقاييسها، كان يلجأ إلى تجزئة العناصر وتعددها من دون المساس بوحدة التصميم، وما المقرنصات والزخارف وتعدد الأعمدة وتقسيم السطوح والتدرج في الواجبات والفضاءات إلا وسائل لتحقيق هذا الغرض.

٢ ـ **التركيز على الداخل**: وتنعكس هذه الخاصية في جانبين يتمثل الأول منها بانفتاح الأبنية على الفناء الوسطي والنظر إلى الداخل، ويتمثل الثاني في كون الخارج (الواجهات الخارجية) يلي الفضاء الداخلي أهمية من حيث غنى المعالجات المعمارية الزخرفية... ويعتبر أرنست كروب (Ernst Giube) ممن يرون أن العمارة الإسلامية ليست لها واجهات خارجية حيث إن المباني تكون متداخلة ومترابطة مع مبان أخرى ضمن نسيج حضري مكتظ يجعل من الواجهات الخارجية أقل أهمية ولا تعبر عما في الداخل من تنظيم للمبنى وفضاءاته. ومع أننا لا نتفق مع هذا الرأي في مجمله، إلا أننا نؤكد أن الواجهات الخارجية أقل ثراءً من الواجهات الداخلية حيث كانت تعامل كجزء من النسيج الحضري ككل الذي يشكل المبنى جزءاً منه، كما أن غالبية المباني مجردة من التفاصيل الدقيقة في واجهاتها الخارجية الصلدة قياساً بواجهاتها الداخلية المطلة على الفناء

الوسطي أو ضمن الفضاءات الداخلية. ويؤكد (Grabar) أن الميل للفضاء الداخلي ومعالجته هو من الخصائص المميزة للعمارة الإسلامية ويرى في قصر الحمراء مثالاً متميزاً للتعبير عن ذلك، فهو صرح يمتاز برقة خارجية تهيئ الزائر ليرى في الداخل تناسبات دقيقة مع تأثيرات مدروسة للضوء والظل والفراغ، و(Grabar) في رأيه هذا يضع إلى جانب الاهتمام بالفضاء الداخلي، الاهتمام بالخارج ويرى في المأذنة مثالاً واضحاً على ذلك حيث تعكس روح التعامل مع الخارج، وتنعكس خاصية النظر إلى الداخل (inward looking) في وجود الفناء، الفضاء الوسطي المهيمن والذي يعبر في جانب من جوانبه عن طبيعة الحياة الاجتماعية والظروف المناخية، التي جعلت من المباني الإسلامية متلاصقة بفضاءات متميزة مع تكامل بصري وحسي وفعلي بين الكتلة والفضاء، فهنالك انسجام واضح وبارع بين خطوط المباني ونهاياتها السطحية الخارجية مع الفضاءات المحيطة بحيث يتكون من مجموعها تشكيلة فنية محبوكة متوازنة تتناغم أجزاؤها مع بعضها، ويبدو هذا التداخل أكثر جلاءً على مستوى تكوين النسيج الحضري عموماً بحيث تبدو المدينة قطعة نحتية يتوازن فيها الفضاء والكتلة وتترابط في علاقة عضوية متقنة محبوكة.

٣ ـ **المرونة وقابلية التكيف والامتداد الأفقي**: لعل العمارة الإسلامية وحدها المتفردة في تلك السمة حيث تضاف وحدات متنوعة الأشكال والأحجام إلى المبنى دون إضرار في شكل المبنى النهائي، وهذه الصفة تعكس عضوية العمارة الإسلامية وانسجامها، ونجدها أكثر وضوحاً في المساجد منها في أنماط الأبنية الأخرى حيث تمر المساجد بمراحل تجديد وتوسيع في الفترات المختلفة من العصر الإسلامي. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك مسجد قرطبة الذي امتاز بلا مركزية التكوين النابعة من عدم وجود محور وسطي أساسي، وكذلك امتاز المسجد بواجهات اعتمدت في أسلوب معالجتها الصياغات المتشابهة المتكررة، ومن هاتين الميزتين اكتسب المسجد قابلية الانتشار والتوسع المكاني زمنياً دون إخلال بأصول التكوين المعماري وقيمه.

إن مرونة التكوين هذه في العمارة الإسلامية لم يكن لها تأثير سلبي في التكوين المعماري وتوازنه، مما يجعل من العمارة الإسلامية منظومة تستوعب التغيير والإضافة والتعديل من خلال علاقة الجزء بالكل، ومن خلال اعتماد التكرار على ضوابط إيقاعية تناسبية مدروسة الشكل، وهذا ما يقودنا إلى السمة الأخرى وهي:

٤ ـ **الإيقاعية الهندسية**: إن اعتماد الأنماط الهندسية واضحاً في عموم العمارة الإسلامية على صعيد النسيج الحضري والبناية المتفردة والتفاصيل الزخرفية مع وجود محورية عالية وتماثلية واضحة على محور أو محورين أو أكثر لخلق أشكال هندسية منتظمة كالمربع والمستطيل بنسب مدروسة، ونجد في مدينة سامراء مثالاً واضحاً لهندسية عالية مع وضوح التناظر في كل أبنيتها. وفي التناظر ترجمة لتفكير عقلاني رياضياتي بإيقاعية واضحة فيكون اللجوء إلى التناظر لإيجاد محور ما، أو التأكيد على فضاء معين أو عنصر دون غيره أو لإظهار أهمية فضاء وتميزه دون بقية الفضاءات... وقد ظهر اتجاه في العالم لتقليد هذا التوجه فتجد من يقلد ملوية سامراء وغيرها من الإبداعات الإسلامية.

٥ ـ **الشكل والوظيفة**: امتلكت العمارة الإسلامية خاصية ثبات الشكل مع تنوع الوظيفة على مستوى النمط (Type) (حيث نلاحظ تكرار نمط المبنى ذي الإيوانات الأربعة مع تنوع الوظيفة مثلاً)، إلا أننا نجد للتنوع الشكلي وجوده مع تنوع الوظيفة، فالقصور في العمارة الإسلامية هي وحدات متجمعة مع بعضها بفناءات متعددة، في حين امتازت الأبنية الأخرى كالمساجد مثلاً بفناء وسطي متميز وكتلة نقية واضحة، ويزداد هذا التنوع مع زيادة التخصص الوظيفي ومع تقدمنا في مستوى التفاصيل التي نتحدث عنها، وهذا مما يؤكد خاصية الوحدة والتنوع في العمارة الإسلامية.

٦ ـ **التجريد والرمز**: التجريد هو أحد الهيئات التصميمية التي تجعل من التصميم أمراً حيوياً، غامضاً كما تولد الأشكال التجريدية الرمزية اهتماماً مستمراً وتساهم في إثراء التصميم... وكان التجريد ميزة واضحة

للفن الإسلامي حيث يمثل نوعاً من التحرر من تقليد الطبيعة، كما إن للرمزية وجودها في العمارة الإسلامية. وهذا لا يعني أن الأشياء خافية غير ظاهرة. إنها موجودة ولكنها متميزة عن كونها وجوداً مادياً في كونها تمتلك بعداً رمزياً... كان التجريد والرمز سمتين متلازمين للفن الإسلامي، فالعمارة في الفن الإسلامي تعني بإيقاع محكوم برياضيات صارمة وبعلاقات هندسية وعددية مجردة من أي تصوير شكلي قد يتعارض مع روحية الدين الإسلامي، والتجريد في الفن الإسلامي هو مطلق لا نهائي غير محدد بأبعاد الرؤيا البصرية وخال من التكلف تحكمه قوانين الإيقاع الرياضية، ونجد هذا في العمارة، في فن الزخرفة، وفي الخط العربي.

٧ ـ **الوحدة والتنوع**: الوحدة ميزة مهيمنة وواضحة في العمارة الإسلامية، تتأتى فيها من وحدة الإله، وبهذا المعنى يقول أبو حيان التوحيدي: (وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد ولا تدل على الواحد ولا تدعو إلى عبادته والاعتراف بوحدانيته والقيام بحقوقه والصبر على قضائه والتسليم بأمره). فالنظرة التوحيدية تشمل كل الصنائع بضمنها العمارة، ولا تشمل العمارة بكليتها فقط، بل حتى الأجزاء التي تكونها، والتنوع مع الوحدة في العمارة الإسلامية يماثل التعامل البارع مع الأصوات لإنتاج التناغم (Harmony)، ونرى هذه الظاهرة في النتاجات التي أبدعت في أماكن تبعد عن بعضها آلاف الكيلومترات وبينها فترة بضعة قرون وبينها ملامح أسرة واحدة فجاءت منجزات العمارة الإسلامية يشبه بعضها بعضاً دون أن تتطابق مع بعضها إلى جانب شيء من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة وتمليه مواهب أهلها الموروثة، ولكن دون أن تخل هذه المفارقات بوحدة الفن الإسلامي، فلو انتقلنا من بخارى وسمرقند إلى الأندلس لوجدنا أن فكرة ما في أحدها هي في الأخرى، تجد طريقها إليها مع مواءمة فكرة المكان حيث وجود النمط الأساسي المرن الذي يظهر بتجليات مختلفة.

ما تقدم من خصائص، هي أهم السمات المميزة للعمارة الإسلامية ـ

في رأينا ـ على مستوى الخصائص الشكلية والخصائص الرمزية المعنوية المتضمنة في النتاجات المعمارية، التي أسهمت في العطاء هوية متميزة للعمارة الإسلامية في بقاعها الممتدة وعلى مر القرون.

وقد قدمت الباحثة دراستها مستشهدة بثلاث شواخص لثلاث مبانٍ، هي معهد العالم العربي في باريس (تصميم جان نوفل وجلبرت أنرين)، ومسجد الدولة الكبير في الكويت (تصميم الدكتور محمد مكية)، وجامع الغدير في طهران (تصميم المعماري جاهانكار)، وتوصلت في بحثها إلى استنتاجات مهمة مفادها وخلاصتها هي:

١) إن الحفاظ على الخصوصية والهوية أمر بالغ الأهمية لتكون عمارة اليوم امتداداً لعمارة الأمس والطريق إلى عمارة المستقبل، فلا بد من فهم المبادئ الأساسية التي ساهمت في خلق العمارة وديمومتها ليكون الاستلهام من الماضي بما يحقق خصوصية العمارة التي تشغل مكاناً بارزاً في الممارسة المعمارية المعاصرة، والهوية بحد ذاتها مشكلة معقدة وهي ليست شيئاً ثابتاً أو ساكناً وليس من السهل تحديدها لنصل إلى عمارة متوائمة مع العصر، كما أن تحقيق الهوية لا يعني العودة إلى الطريقة التقليدية في المنطق والإبداع، بل علينا إيجاد تقليدنا المعاصر في الخلق حيث ترتبط الهوية بعالم متغير، علينا التعامل معه ونحن نؤكد على الخصائص الأكثر ثباتاً وديمومة، وانطلاقاً من طبيعة المبنى الذي نتعامل معه.

٢) ونحن نحافظ على خصائص عمارتنا الموروثة، علينا الأخذ بنظر الاعتبار التطور التكنولوجي للمحافظة على الهوية المعمارية لمجتمعاتنا وذلك من خلال:

أ ـ فهم التقنيات الموجودة والأخذ بها بما يتواءم مع فلسفتنا التصميمية... فلا بد من فهم العمارة بجزأيها الفكري النظري والعملي لخلق عمارة أصلية فيها نفحات الماضي مع توظيف تكنولوجيا العصر فيها بالقدر المناسب من التكنولوجيا التي تخدمها.

ب - فهم النظريات المعمارية الغربية وفهم إمكانية تطبيقها في بيئتنا الإسلامية لتكون عمارتنا مستجيبة ومتناغمة مع واقعنا وبيئتنا وليس نقل تلك النظريات فحسب.

ج - فهم عمارتنا الموروثة وخصائصها ومضامينها ومفرداتها التي لا تتمثل برموز شكلية جامدة فحسب، ليتبلور فهم مشترك لمعنى الهوية ولا يبقى إلا التعبير المعماري عنها بما يقدمه العصر من إمكانيات.

قيم العمارة في الماضي، العمارة المعاصرة، قيم العصر بتقنياته المتطورة.

٣) لا بد من نشر الوعي الصحيح بموروثنا العمراني وذلك على كافة الأصعدة وبالشكل التالي...

أ - نشر الوعي بين المعماريين الممارسين للمهنة بضرورة الالتزام بالانتماء إلى موروثنا العمراني، مع التأكيد على دور المؤسسات المهنية والمنظمات المهتمة لإرساء قواعد مدروسة وصحيحة لمبادئ العمارة الموروثة، ومع تصاعد الدعوة إلى الاهتمام بالموروث في العقود الأخيرة. إلا أن ضعف اللقاء الفكري بين المعماريين المهتمين باعد بين المفاهيم المشتركة لما يجب أن تكون عليه العمارة المعاصرة حيث الربط بين التراث العمراني وتقدم العصر مما يتطلب الدعم لهذه اللقاءات على المستوى المهني، مع توعية الرأي العام في الدول الإسلامية عن طريق التأليف والنشر لضمان الاستمرار الحضاري للعمارة الإسلامية المعاصرة.

ب - خلق وعي بمضامين الموروث العمراني الإسلامي لدى طلاب العلم في الجامعات، تنمية الاهتمام بالحفاظ على المآثر العمرانية ووضع الخطوط الرئيسية لسبل الاستفادة منها في زمان ابتعدت فيه عن زمان ازدهارها وخلقها، مع التأكيد على إعداد البحوث والدراسات لتقييم العمارة المعاصرة وفهمها بعمق مع فهم عمق العمارة الإسلامية ودراستها وبحثها من كل الجوانب، ليس لتقديسها والوقوف منبهرين أمامها بحجة

أنها قديمة، ولكن فهمها مع ملاحظة أن العمارة تاريخ وتواصل، فلا بد من الاستفادة من إسهامات الآخرين فيها ومعرفتها لفهم الظروف التي ولدت فيها تلك الأفكار، ولا يحق لنا بأي حال من الأحوال أن نهمل تلك المواضيع أو نتركها بحجة أنها قديمة.

خلاصة القول، علينا أن نعي أهمية أن تكون لنا هويتنا التي تميزنا وتميز عمارتنا فلا ننقاد وراء الحركات المعمارية المختلفة دون إدراك وفهم واستيعاب، بل نقود عمارتنا في بيئتنا دون أن ننقطع عن العالم والركب، فلا نقف ننظر إلى أطلال الماضي ونعجز أن نصنع حاضراً يتواءم معه، كما لا نقف ننظر إلى عمارة الغرب وتقدمه ونعجز أن نلحق بهم، فلا بد أن نسير مع الركب بمبادئنا وقيمنا الجوهرية بما يتواءم مع عصرنا بكل ما يحمله من تقدم ورقي ومع حاجتنا إلى المزيد من الدراسات والممارسات المعمارية لتأكيد السبل الأفضل في تحقيق ذلك، إلا أن ما تحقق والذي تطرقنا لبعض منه يزرع فينا الأمل بسرعة للوصول إلى ما نريد ونسعى لتحقيقه لعمارتنا في مجتمعاتنا الإسلامية[١].

تحذيرات الإسلام من البناء الشاقولي:

ذكرنا أن القرآن الكريم أشار للمكان المرتفع والبناء العالي اللذين كانا رمزاً للكبرياء والعجرفة والتعالي، نجد ذلك في قوله تعالى في سورة الشعراء، الآيات: ١٢٣ ـ ١٣١: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾. التي جاء في تفسير

---

(١) بإيجاز عن بحث (العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي، هويتها وأثر تكنولوجيا العصر فيها)، د. قبيلة فارس المالكي، بحث عن محاضرة ألقيت في قسم الهندسة المعمارية بجامعة بغداد، آذار ـ مارس ـ عام ١٩٩٩م.

ابن كثير عنها: الريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ الآية، أي: معلماً بناءً مشهوراً، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم ـ عليه السلام ـ، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ الآية، قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد. فهذه الآية تشير بوضوح إلى ظاهرة الأبنية العالية التي كانت عند بعض الشعوب تبنيها على سبيل اللهو وإظهار القوة، تماماً كما هو الحال اليوم في بلدان كثيرة من العالم.

وجاء في سورة المرسلات في وصف جهنم أنها ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المرسلات: ٣٢] الآية، قال القرطبي في تفسيره: الشرر واحدته شررة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، والقصر: البناء العالي[1]. فهذا التشبيه يشعر بذم البناء العالي حيث شبه شرر جهنم به.

---

(١) جاء في تفسير القرطبي (جزء ١٩ ـ صفحة ١٤٤) عن قوله تعالى: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ الآية، ما نصه: الشرر واحدته شررة، والشرار واحدته شرارة وهو ما تطاير من النار في كل جهة. وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجف والقصر البناء العالي وقراءة العامة ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾، بإسكان الصاد: أي: الحصون والمدائن في العظم وهو واحد القصور قاله ابن عباس وابن مسعود وهو في معنى الجمع على طريق الجنس. وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل جمرة وجمر وتمرة وتمر. والقصرة: الواحدة من جزل الحطب الغليظ. وفي البخاري عن ابن عباس أيضاً: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ الآية، قال: كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر. وقال سعيد بن جبير والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقطع. وقيل: أعناقه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمي ﴿كَٱلْقَصَرِ﴾ بفتح الصاد أراد أعناق النخل، والقصرة العنق جمعها قصر وقصرات. تفسير الجامع، أبو عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥م.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...﴾ [النساء: من الآية ٧٨] ... قال القرطبي: واحد البروج برج، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم[١]. وقال الطبري: البروج: هي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة[٢]، وجاء في لسان العرب: البروجُ ههنا: الحصونُ، واحدها برج. وتَشْيِيدُ البناء: إِحكامُه ورَفْعُه[٣]. وهذه الآية فيها إشارة إلى ما تمثله الأبنية العالية من وهم الأمان المزيف في مخيلة البشر.

ولقد ورد في بعض الأحاديث ذكر الأبنية العالية على أنها من علامات الساعة، فلقد جاء ذلك في حديث عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس يعني آمنوا أجمعون فذلك حين** ﴿... يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ...﴾، **ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن**

---

(١) جاء في تفسير القرطبي (جزء ١٩ ـ صفحة ١٤٤). تفسير الجامع، أبو عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥م.

(٢) تفسير الطبري (جزء ١٢ ـ صفحة ٥١٨). جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

(٣) لسان العرب (جزء ٢ ـ صفحة ٢١١)، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر ـ عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن عند رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبيّ ـ ﷺ ـ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «**الإسلام أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: فأخبرني عن إمارتها، قال: «**أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». قال: ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي: «**يا عمر أتدري من السائل؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»(٢).

والعالة بتخفيف اللام جمع عائل وهو الفقير، وفي الحديث كراهة ما لا تدعو الحاجة إليه من تطويل البناء وتشييده، وقد روي عن النبيّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «**يؤجر ابن آدم في كل شيء، إلا ما وضعه في هذا التراب**»، وفي لفظ آخر: «**يؤجر الرجل في نفقته كلها، إلا التراب** ـ أو قال: ـ **في**

---

(١) صحيح البخاري (٦/٢٦٠٥/٦٧٠٤)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.

(٢) صحيح مسلم (١/٣٧/٨)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

البناء»[(١)]. ومات رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة، أي: لم يشيد بناءً ولا طوله ولا تأنق فيه، والمقصود هنا: البناء الشخصي وليس بناء المساجد ودور العلم ومنفعة الناس، والله أعلم[(٢)].

وقد أشار الإمام البخاري بهذه القطعة من حديث جبريل في كِتَاب الاسْتِئْذَان باب مَا جَاءَ فِي الْبِنَاءِ. أشار إلى ذم التطاول في البنيان، كما قال الحافظ ابن حجر في شرحه. وقد ورد في ذم تطويل البناء صريحاً ما أخرج ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: «**إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نودي يا فاسق إلى أين؟**»، وفي سنده ضعف.

وذكر ابن حجر في فتح الباري: (أي: من منع وإباحة، والبناء أعم من أن يكون بطين أو مدر أو بخشب أو من قصب أو من شعر، قوله: قال أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ: «**من أشراط الساعة إذا تطاول رعاة البهم في البنيان**»، كذا للأكثر بضم الراء وبهاء تأنيث في آخره. وفي رواية الكشميهني: رعاء بكسر الراء وبالهمز مع المد. وقد تقدم هذا الحديث موصولاً مطولاً مع شرحه في كتاب الإيمان، وأشار بإيراد هذه القطعة إلى ذم التطاول في البنيان، وفي الاستدلال بذلك نظر. وقد ورد في ذم تطويل البناء صريحاً ما أخرج ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: «**إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نودي يا فاسق إلى أين؟**»، وفي سنده ضعف مع كونه موقوفاً. وفي ذم البناء مطلقاً حديث خباب رفعه قال: «**يؤجر الرجل في نفقته كلها الا التراب** ـ أو قال: «**البناء**»، أخرجه

---

(١) رواه الترمذي في (الجامع الصحيح)، صفة القيامة، باب **٤٠**، حديث رقم **٢٤٣٨**، عن حارثة بن مضرب، وقال: حديث حسن صحيح. أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

(٢) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، شرح الإمام ابن دقيق العيد، دار ابن حزم، ط/**١**، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٢**هـ ـ **٢٠٠١**م، ص**٥٩**، بتصرف.

الترمذي وصححه وأخرج له شاهداً عن أنس بلفظ: «**إلا البناء فلا خير فيه**»، وللطبراني من حديث جابر رفعه[(١)].

والتطاول يختلف عن مجرد التطويل والتعلية لأنه يزيد عليه معنى المنافسة والمباهاة، كما قال ابن حجر في تفسير معنى التطاول: ومعنى التطاول في البنيان أن كلاًّ ممن كان يبني بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر، ويحتمل أن يكون المراد المباهاة به في الزينة والزخرفة أو أعم من ذلك، وقد وجد الكثير من ذلك وهو في ازدياد.

وفي حديث آخر عن أشراط الساعة الكبرى: «**لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً، ويكون الإسلام غريباً، حتى تبدو الشحناء بين الناس، وحتى يقبض العلم، ويهرم الزمان، وينقص عمر البشر، وتنقص السنون والثمرات، ويؤتمن التهماء ويتهم الأمناء، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق، ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى تبنى الغرف فتطاول، وحتى تحزن ذوات الأولاد وتفرح العواقر، ويظهر البغي والحسد والشح، ويهلك الناس ويتبع الهوى ويقضى بالظن، ويكثر المطر ويقل الثمر، ويغيض العلم غيضاً، ويفيض الجهل فيضاً، ويكون الولد غيظاً والشتاء قيظاً، وحتى يجهر بالفحشاء، وتزوى الأرض زياً، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي، فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يرح رائحة الجنة**»[(٢)]. وهذا السياق في الحديث يؤكد ما ذهب إليه البخاري من ذم التطاول في البناء.

بناءً على كل ما تقدم، فإن الإسلام العظيم اختط لنفسه خطاً معمارياً متميزاً متجنباً التقليد الأعمى ومحرضاً على الإبداع، ولكن وفق معايير بيئية

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (ج ١١ ص ٩٢)، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

(٢) ابن أبي الدنيا، الطبراني وأبو نصر السجزي في الإبانة. وابن عساكر ـ عن أبي موسى، ولا بأس بسنده. انظر: (تاريخ مدينة دمشق ج٢١/ص٢٧٤). تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

واجتماعية واقتصادية ونفسية غاية في الروعة والدقة. فلم يمنع هذا النظام المعماري من التمازج بين الحداثة الفنية المبنية على تطور أنماط التفكير البشري عبر العصور من جهة، وبين تلك المعايير التي رسمها ليحافظ من خلالها على ترابط عضوي لا ينفصم بين مكوناته تلك.

ومن بين تلك المعايير ما حض عليه الإسلام الكريم من بساطة وعدم مبالغة، استغلال للموارد دون تكلف، مراعاة للإمكانات، التركيز على المحتوى مع عدم ترك الجمال الخارجي ولكن دون مبالغة، البعد الإنساني ومحاولة توزيع السكن والعقار لكل أفراد الأمة مع مراعاة التمايز الطبقي بشقيه الاجتماعي والاقتصادي دون نهر وتهميش وتقليل لشأن الآخرين، المحافظة على شركائنا في الكوكب من حيوان ونبات وجماد، وغير ذلك مما ذكرنا.

ولعل من أهم النقاط التي اهتم الإسلام بذكرها في القرآن والسُّنة موضوع الانتباه إلى عدم الإفراط في الصعود شاقولياً في البنيان. فلقد حذر الإسلام في القرآن والسُّنة من التمادي في البناء العالي تفاخراً وتكبراً كما سبق أن بيَّنا في فقرة التاريخ العمراني في القرآن الكريم. كما جعل النبيّ - ﷺ - ذلك العمران من علامات الساعة، وجعل التطاول في البنيان، أي: التسابق في الصعود بالارتفاعات العالية الشاهقة من الأمور التي تؤكد دنو الساعة بسبب ما تحمله هذه الظاهرة من تفرقة بين الناس غنيهم وفقيرهم سواء على مستوى الدول أم المؤسسات أم الأفراد.

ولا أدري لماذا يصر بعض المعماريين في عالمنا الإسلامي على فكرة أن الارتفاع العمودي صنو التطور مستشهدين على ذلك بالتجربة الأمريكية واليابانية وبعض الدول الأوروبية متناسين أن لتلك الدول بعض الأعذار في كون نسبة سكانها مرتفع مع قلة الأراضي المنبسطة فيها، وكذلك تحمل التربة الصخرية التي تمتلكها هذه الأمصار للبناء المرتفع المتميز بوزنه العالي وكلفته الباهضة. بينما في دول العالم الإسلامي تكاد هذه النقاط أن تفقد إلا من بعض الأمصار التي تمتاز بارتفاع عدد السكان وقلة الأراضي المنبسطة بسبب وجودها في جزر وأرخبيل كما هو الحال

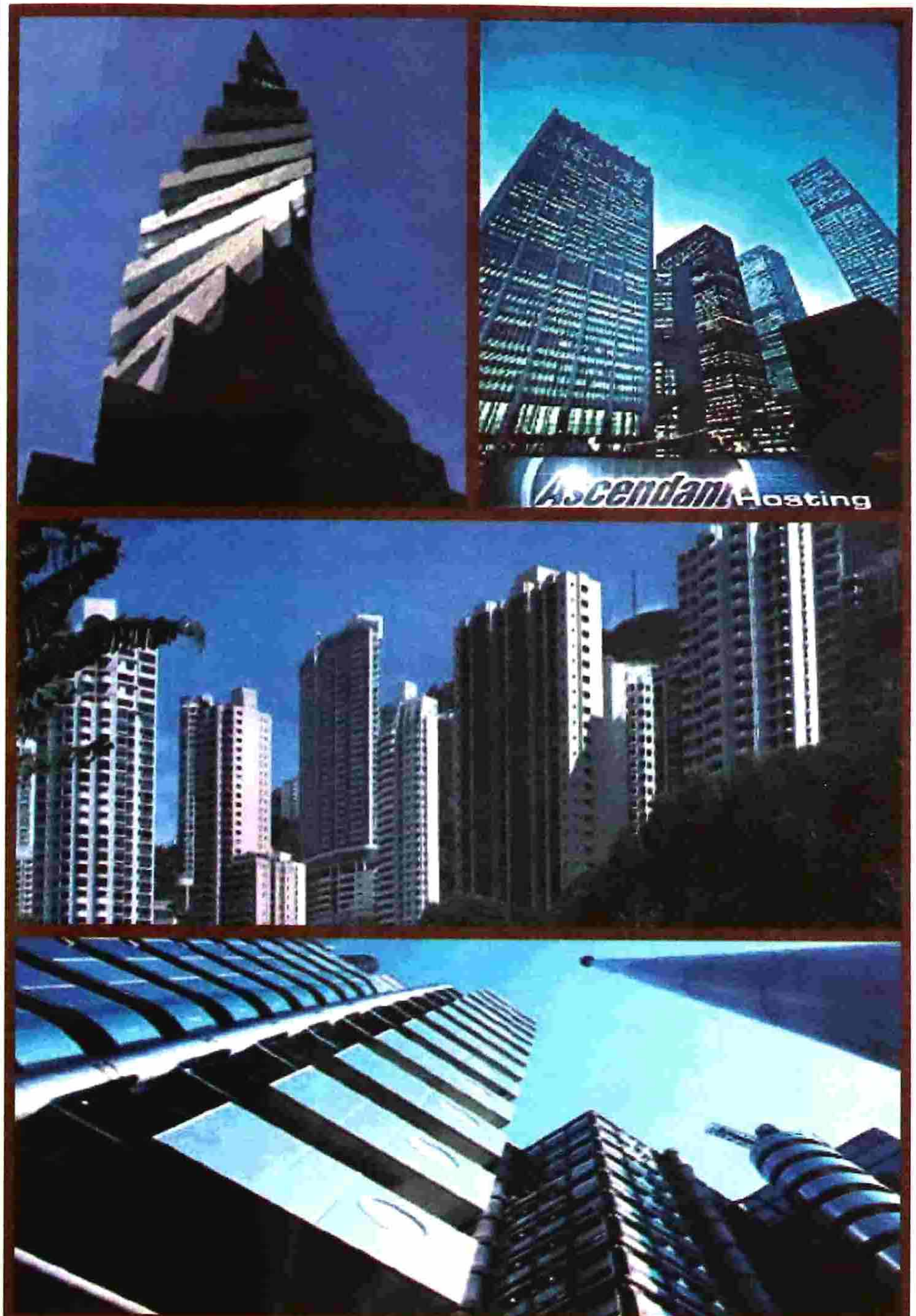
في ماليزيا وأندونيسيا. أما بقية الدول فليس هناك أي داع لها البناء الشاهق، فالأراضي المنبسطة متوفرة وأعداد السكان ليست بالعالية رغم التطور الذي حصل عليها في العقود الأخيرة. كما أن البناء الأفقي يعين على القضاء على ظاهرة التصحر التي تمتاز بها أغلب دولنا الإسلامية التي بدأ زحفها يقلق نظراً لما تفعله في الأراضي الصالحة للزراعة في الكثير من دول العالم.

كما أن البحوث الحديثة أثبتت أن الخرسانة أو البيتون المسلح وهو من أسوأ العوازل للحرارة يؤثر بشكل كبير على ازدياد درجات الحرارة بشكل ملحوظ في هذا النمط من المدن الحديثة. ويحضرني هنا ما ذكره لي شخصياً أحد كبار المعماريين الأمريكيين والذي زار العراق ضمن وفد عام **١٩٨٩**م كواحد من عدة وفود أرسلت لدول المنطقة لدراسة الأنماط المعمارية في الدول الحارة كي يستفيدوا منها في بناء مدن جديدة في صحراء أريزونا نظراً لاقتراب جوها الحار من جو منطقتنا. إذ قال بالحرف وبعد **٣** أشهر من المعاينة والمعايشة لإرث العراق المعماري: (إنكم تركتم إرثاً معمارياً عظيماً سواء في أسلوبه أو مواده أو فلسفته ولبستم ثوباً ليس لكم متمثلاً بالعمارة الخرسانية التي لا تلائمكم، فكنتم كمن يبني الفرن أو التنور - وهو فرن عراقي شعبي تشعل فيه النيران فتعمل المرأة الريفية فيه على تحضير الخبز وشوي اللحوم - ثم يريد أن يبرده)، فكانت هذه الكلمات دائماً ما تحضرني فأرددها لأنها فعلاً ما يحصل لنا اليوم.

فضلاً عن كل ما تقدم، بيَّنت بعض الدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة أن المدن التي تبنى وفق الطراز الحديث بصيغته العولمية وبنسخته الأمريكية تؤدي إلى حجب الأفق عن الرائي بسبب التركيز على البناء العمودي وارتفاعاته التي ناطحت السحاب، بحجة توفير المساحات المبنية. وهذه العملية تؤثر نفسياً بشكل سلبي على الناس ليتركز نظرهم على المساحة الضيقة التي تحيط بهم تماماً، كما يركز السجين على الحجرة التي يقبع فيها ولا يرى منها سوى الجدران والسقف.

هذه المشاعر التي يجبر أناس هذا العصر المتمدنين عليها بسبب هذا النمط المعماري تركز فيهم طابع الأنانية وضيق الأفق النفسي، فيكون كل همه ما يتعلق بنفسه وعائلته دون الآخرين، فينحصر تفكيره بطعامه وشرابه وشهوته فيعمل كالآلة لتحقيقها، مما يؤدي بالتراكم الأفقي والعمودي إلى تكالب أكثر نحو الماديات فتتردى الأخلاق ويقل الشعور بالآخر لنتحول بالنهاية إلى عكس ما أراده الله ورسوله الكريم - ﷺ - لنا من أناس يتراحمون ويتكافلون فيما بينهم ويحس بعضهم ببعض فينتفض غنيهم لمساعدة فقيرهم ويهرع قويهم لنصرة ضعيفهم.

أما الاحتجاج بالتطور تارة وبأن هذا النمط يزيد الظل ويقلل الشمس فيبرد الجو تارة وبالاحتياج له لأنه الأرخص من نظيره الأفقي تارة أو لأنه يستوعب التزايد السكاني تارة أخرى، فقد أثبتت كل البحوث العلمية الرصينة بأن ذلك محض تدليس وافتراء، وأن السبب في ذلك هو فقط للاستثمار والربح المادي ليس إلا دون النظر لعواقب ذلك على مجتمعاتنا من جميع النواحي. والشكل (١٩) يبين بعضاً من الطرز المعمارية في البناء الشاقولي المكلف.



الشكل (١٩): البنايات الشاهقة وانسداد الأفق

وإن كنا قد تكلمنا في كتاب مستقل عن البيئة والتلوث بجميع أشكاله وسبق القرآن الكريم في التحذير من العواقب الكارثية لهذه المسألة، لكننا هنا سنقدم بعض الآثار السيئة لموضوع التطاول في البنيان من النواحي المعمارية والجيولوجية والبيئية، وكما يفصلها لنا المهندس رامي لطفي كلاوي في بحث مميز بعنوان: (ذم التطاول في البنيان ـ وأثره على البيئة والإنسان) قدمه للمؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي أقيم بدبي عام **١٤٢٥**هـ ـ **٢٠٠٤**م. يقول الباحث في تفاصيل رأينا أن ننقلها لأهميتها:

«أخذت حركة العمران في مراكز العواصم والمدن الغربية الكبيرة منذ بدايات القرن العشرين الماضي تعتمد على الاستفادة من أقل مساحة من الأرض لتقيم عليها طوابق عديدة من الأبنية، وساعد التقدم التكنولوجي بهذا المجال واختراع المصاعد الكهربائية لتيسير الوصول إلى كل طوابق البناء والنزول منها، وبذلك أصبح بناء الدرج في كل بناية للاستعمال الاستثنائي.

وقد أدى إهمال الأرياف وسوء التخطيط إلى هجرة الناس إلى المدن وارتفاع الكثافة السكانية فيها، فارتفعت بالتالي أسعار العقارات، وهذا هو السبب الحقيقي لظهور الأبنية العالية (tall buildings). وفي البدء وقبل أن يطلق اسم (ناطحات السحاب) على العمارات الشاهقة في أكبر العواصم والمدن الغربية الكبيرة، كان الناس يعتبرون إنجاز بناء (فلاتيرون) في مدينة نيويورك الذي شيد سنة **١٩٠٢**م بارتفاع (**٨٧** متراً) إنجازاً مهولاً، لكن ما أن جاءت سنة **١٩١٣**م حتى شهدت نيويورك ذاتها بناءً آخراً من ارتفاع (**٢٤١** متراً) هو بناء (وولووث) ويبدو أن المهندسين المدنيين المختصين أرادوا ضمن عملية التنافس فيما بينهم على إنجاز الأعظم حيث تم الانتهاء من بناء (كرايسلر) سنة **١٩٣٠**م الذي امتاز بـ(**٣١٩** متراً).

وحين أخذت فكرة تشييد الأبراج الشاهقة بالتصاعد تم إنجاز بناء (أبراج سيرز) في مدينة شيكاغو على ارتفاع (**٤٤٣** متراً) وكان ذلك سنة

١٩٧٤م. وأعقبه بناء أبراج بتروناس في مدينة كوالالمبور سنة **١٩٩٦** ذات الارتفاع البالغ (**٤٥٢** متراً).

وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام **٢٠٠١** والهجوم على برجي مركز التجارة العالمي فأحدثت صدمة في أمريكا والعالم، وبدأت الأبحاث والدراسات تصدر من هنا وهناك كلها تتحدث عن مساوئ الأبنية العالية ليس من جهة الأمان ضد الهجمات المتعمدة فحسب، بل من كل الجهات: من حيث ضررها على البيئة والإنسان من الناحية الصحية والاجتماعية والنفسية. . . إلخ.

جاء في تقرير نشره موقع (بي بي سي) على الإنترنت بعد تفجير برجي مركز التجارة العالمي في لندن شرع بنكا باركليز وأيتش أ س بي سي في مراجعة التصميمات وإجراءات السلامة في مقريهما المركزيين، وقال وليام مكي المدير التنفيذي للفدرالية البريطانية للأملاك: ربما سيعمد الناس إلى التفكير ملياً حول المباني الشاهقة العلو. ويُعتقد أن يؤدي ذلك إلى زيادة الإقبال على الطوابق السفلية في المباني الشاهقة، فضلاً عن ارتفاع أسعار استئجارها. واعترافاً بهذه الحقيقة، بات صاحب عقد استئجار الأرض التي كان عليها مركز التجارة العالمي في نيويورك، يفكر في تعويض ما ضاع بتشييد أربعة مباني أصغر حجماً. وقال لاري سلفرشتاين: مما لا شك فيه أننا سننظر بجدية في موضوع بناء أربعة أبراج تتألف من **٥٥** أو **٦٠** طابقاً.

ترافق هذا كله مع ظهور اتجاه جديد في هندسة البناء هو «العمارة البيئية» أو «العمارة الخضراء» التي تركز على سلامة البيئة والإنسان أكثر مما تحسب حساب أسعار أراضي البناء. . . ومن أهم مبادئ هذه العمارة الخضراء عدم تأييدها لبناء الأبراج العالية وناطحات السحاب.

ومن قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت هناك أصوات تنادي بالتحذير من مساوئ الأبنية العالية فمثلاً يقول المهندس المعماريّ اليونانيّ المشهور، كونستانتين دوكسياديز «Constantine Doxiades»: إن أكبر جريمة

ارتكبتُها كانت إنشاء الأبنية العالية، إن أنجح المدن في الماضي كانت تلك التي تحقق التوازن بين الناس والأبنية من جهة وبين الطبيعة من الجهة الأخرى، ولكن الأبنية العالية تعمل ضد الطبيعة، وبالتعبير العصري: ضد البيئة، الأبنية العالية تعمل ضد الإنسان نفسه لأنها تعزله عن الآخرين، وهذا العزل هو عامل هام في تزايد معدل الجرائم، كما تزداد معاناة الأطفال بسبب فقدهم للاتصال المباشر مع الطبيعة ومع غيرهم من الأطفال. الأبنية العالية تعمل ضد المجتمع لأنها تمنع الوحدات الاجتماعية (الأسرة ـ الجيران. . . إلخ) من العمل بشكل طبيعي مثلما كان الحال في الماضي.

أما عن الآثار السيئة للأبنية العالية على البيئة، فهي من دون شك تؤثر من عدة أوجه:

- الأبنية العالية وخطر الزلازل: إذ تعتبر الأبنية العالية تغييراً لخلق الله، فهي بمثابة إنشاء جبال صناعية في أماكن يختارها الإنسان حسب حاجته ورغبته، وكما تعلمون فإن الجبال لها دور في حفظ توازن القشرة الأرضية، كما تشير الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥]، وكذلك الآية: ١٠ من سورة لقمان، أي: ألقى فيها جبالاً شامخةً لئلا تضطرب بكم، وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة، والميد: الاضطراب يميناً وشمالاً؛ ماد الشيء يميد ميداً إذا تحرك؛ ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبختر، وفي تفسير الطبري عن قتادة قال: أثبتها بالجبال ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً، وفي تفسير ابن كثير، يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء. وفي الحديث عَن أَنسِ بنِ مالِكٍ عَن النبيِّ ـ ﷺ ـ قالَ: «**لَمّا خَلَقَ الله الأرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الجِبَالَ فعادَ بِهَا عَلَيْهَا فاسْتَقَرّتْ فَعَجِبَتِ المَلاَئِكَةِ مِنْ شِدّةِ الْجِبَالِ فقالُوا: يا رَبّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدّ مِنَ الجِبَالِ؟ قالَ: نَعَمْ الحدِيدُ، فقالُوا: يا رَبّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدّ مِنَ الحدِيدِ؟**

قالَ: نَعَمْ النّارُ، فقالُوا: يا رَبّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدّ مِنَ النّارِ؟ قالَ: نَعَمْ المَاءُ، قالُوا يا رَبّ فَهَلْ في خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدّ مِنَ المَاءِ؟ قالَ: نَعَمْ الرّيحُ، قالُوا: يا رَبّ فَهَلْ في خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدّ منَ الرّيحِ؟ قالَ: نَعَمْ، ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه»، أخرجه الترمذي وقالَ: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[(١)]. وفي لسان العرب قال أَبو العباس في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، فقال: تَحَرَّكَ بكم وتَزَلْزَل[(٢)]. جاء في شرح الحديث قوله: (لما خلق الله الأرض ـ أي: أرض الكعبة ـ ودحيت وبسطت من جوانبها وبقيت كلوحة على وجه الماء جعلت تميد ـ بالدال المهملة ـ أي: شرعت تميل ـ وتتحرك وتضطرب شديدة ولا تستقر حتى قالت الملائكة: لا ينتفع الإنس بها فخلق الجبال، قيل: أولها أبو قبيس فقال بها عليها، أي: أمر وأشار بكونها واستقرارها عليها فاستقرت ـ أي: الجبال ـ عليها أو فثبتت الأرض في مكانها أو ما مادت ولا مالت عن حالها ومحلها. قال الطيبي قد مر مراراً أن القول يعبر به عن كل فعل وقرينة اختصاصه اقتضاء المقام. فالتقدير ألقى بالجبال على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . .﴾ الآية، فالباء زائدة على المفعول كما في قوله تعالى: ﴿. . . وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ . . .﴾ الآية، وإيثار القول على الإلقاء)[(٣)].

فعندما نقيم الأبنية العالية وناطحات السحاب على ارتفاعات تصل

---

(١) سنن الترمذي (٥/٤٥٤/٣٣٦٩). سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤م.

(٢) لسان العرب (ج ٣، ص ٤١١)، ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر ـ عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

(٣) شرح الحديث في تحفة الأحوذي، باب (٥)، رقم ٣٣٦٩). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمٰن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

إلى مئات الأمتار، وتكون في منطقة واحدة عدة بنايات من هذا الوزن، فإنها تشكل بلا ريب ضغطاً هائلاً على القشرة الأرضية يشبه إلى حد ما إقامة جبل صناعي في مكان غير طبيعي، وهذا يمكن أن يحرض على حدوث الهزات الأرضية، وهذا ليس مبالغة كما قد يتخيل البعض، فالزلازل يمكن أن تحدث نتيجة لأعمال بشرية منها: إقامة المنشآت الضخمة كالسدود التي تحجز كميات ضخمة من الماء خلفه، إجراء التجارب النووية في باطن الأرض (nuclear explosion)، أعمال الحفريات في المناجم العميقة (deep underground mining)، أو حقن السوائل في أماكن التنقيب أو سحب الماء واستخراج النفط (pumping of water & oil) فالنفط ليس موجوداً في برك تحت الأرض. بل هو يملأ مسام في الصخور وحين يضخ إلى السطح تفرغ المسام وتصبح ضعيفة ولا تعود تتحمل ضغطاً، ويختل توازن الصخور وقد تتضعضع الأرض أو تخسف إذا بني عليها أو تعرضت لضغط كبير، ويعرف في علم هندسة الزلازل مصطلح الزلازل الصناعية أو الزلازل التي تحرضها فعاليات بشرية (Earthquakes induced by human activity).

بل إن الأمر لا يحتاج إلى تفجيرات نووية لكي نحدث زلزالاً، ففي بريطانيا تمكن تلاميذ المدارس من إحداث هزة أرضية خفيفة بمجرد القفز في وقت واحد في مدارسهم... فقد طلبت السلطات من آلاف المدارس في شتى أنحاء بريطانيا إنزال التلامذة إلى الملاعب في الحادية عشرة صباحاً بالتوقيت المحلي للقفز مدة دقيقة كاملة على أمل إحداث هزة أرضية يمكن رصدها. وقال نيجل ابن المسؤول عن مبادرة أطلقتها الحكومة تحت اسم «سنة العلوم»: «نحن شبه متأكدين من أننا أنتجنا ما يمثل واحداً في المائة من زلزال خطر. هذه ليست كمية هائلة من الطاقة لكنها ملموسة». وفي مدينة شنغهاي الصينية تكاثرت الأبراج الشاهقة حتى بدأت المدينة كلها تغرق بمعدل **١.٥** سنتيمتر كل عام. وأهم سبب لهذه الظاهرة هو التوسع الرهيب في البناء العالي الذي ساد المدينة على مر السنوات العشر الماضية.

ووفقاً لما كتبته صحيفة «تشاينا دايلي» فإن المباني العالية تبدو جميلة، ولكنها من الممكن أيضاً أن تتسبب بالمشاكل، وهي حقيقة تكتشفها شنغهاي بسرعة كبيرة. وعلى مر السنوات العشر الماضية اكتسحت سماء شنغهاي موجة كبيرة من المباني المرتفعة فغيرت شكلها. ووفقاً للصحيفة، فقد تم بناء ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عمارة مرتفعة، وسوف يتوقف بناء ناطحات السحاب، ولكن العديد منها قد تم بناؤه بالفعل، أو يتم بناؤه حالياً، ولذلك لن يؤثر هذا التوقف في البناء عن الشعور بأن شنغهاي تغرق. فهل يشك أحد بعد هذا في أن الأبنية العالية ستكون في المستقبل سبباً لحدوث الزلازل عندما يبالغ الناس في التطاول في البنيان كما ورد في الحديث النبوي الذي ذكرناه منذ قليل، وفيه: أن من علامات الساعة أن يتطاول الناس في البنيان وتكثر الزلازل؟؟

ثابت علمياً أن إقامة السدود على مجاري الأنهار من أسباب اختلال الاتزان الأرضي، فمن آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الأرض المضطربة أن وزن العمود الصخري من مركز الأرض إلى أي نقطة على سطحها، سواء كانت قمة أعلى جبل، أو أخفض منخفض على سطح الأرض متساوٍ تماماً، لأن دوران الأرض حول محورها يطرد الأوزان الزائدة، لا بد أن تكون أنصاف الأقطار متساوية في كتلتها تماماً، وهذا من أعظم الآيات الدالة على حكمة الله في الخلق، وعلى إبداعه في الصنعة[١].

فإقامة السدود على مجاري الأنهار وسيلة لجمع كميات هائلة من المياه، وهذه الكميات الهائلة من المياه قد تؤدي إلى اختلال هذا الاتزان، فتؤدي إلى تحرك الحمم في داخل الأرض مما يسبب هزات أرضية كما قد يسبب بعض الثورانات البركانية.

الزلزال هو هزة أرضية نتيجة كسر وحركة فجائيتين في القشرة

(١) الدكتور زغلول النجار في لقاء مع قناة الجزيرة يوم الخميس ١٤٢٣/٩/١٦ هـ الموافق ٢٠٠٢/١١/٢١ م.

الأرضية. فمن أهم مسببات الزلازل زيادة وزن العمود الصخري على منطقة ما، وزيادة وزن العمود المائي نتيجة إنشاء بحيرات صناعية، مثل بحيرة السد العالي التي تسبب زلزال أسوان نتيجة تحرك صدع كلابشه... وهناك زلازل يصنعها الإنسان مثل إقامة المنشآت الضخمة والإسراف في استخدام المياه، أو سحب كميات ضخمة من المياه الجوفية يؤديان إلى خلل في القشرة الأرضية فتهتز المنشآت وأحياناً تتساقط.

إن الخطر على الأرض يكمن دوماً في التغييرات الكبيرة التي يحدثها الإنسان فيها، ثقب الأوزون، ظاهرة النينو... إلخ. وهنا قد يتهمنا البعض بالمبالغة فيما يخص العلاقة بين الأبنية العالية والزلازل، لذلك أوضح أننا نقصد هنا الأبنية العالية الشاهقة الارتفاع التي تكثر في آخر الزمان حتى تكون قريبة من بعضها فتشكل ضغطاً كبيراً على القشرة الأرضية يشبه الضغط الناجم عن المياه المتجمعة خلف السد.

ويقول الدكتور يحيى القزاز، الأستاذ بكلية علوم حلوان: الزلزال هو هزة أرضية نتيجة كسر وحركة فجائيتين في القشرة الأرضية. من أهم مسببات الزلازل زيادة وزن العمود الصخري على منطقة ما، وزيادة وزن العمود المائي نتيجة إنشاء بحيرات صناعية مثل بحيرة السد العالي التي تسبب زلزال أسوان نتيجة تحرك صدع كلابشه... وهناك زلازل يصنعها الإنسان مثل إقامة المنشآت الضخمة والإسراف في استخدام المياه، أو سحب كميات ضخمة من المياه الجوفية يؤديان إلى خلل في القشرة الأرضية.

وهكذا، فإن الزلازل سوف تكثر في آخر الزمان عندما يتطاول الناس في البنيان كما ورد في حديث النبيّ - ﷺ -، وبذلك يكون هذا الحديث قد أشار إلى أمر دقيق وهام لم تعرفه البشرية إلا في العصر الحديث.

- مضار أخرى على البيئة: إن ضرر الأبنية العالية على البيئة لا يقتصر على تحريض الزلازل، بل ثمة مضار أخرى، منها زيادة استهلاك الطاقة في الأبنية العالية، حيث يحتاج الناس فيها إلى استعمال

المصاعد التي تعمل على الكهرباء، كما يعتمد سكان الطوابق العليا على التكييف المركزي بشكل دائم لاستحالة فتح النوافذ على ارتفاعات شاهقة، كما إن فقدان الحرارة يكون أكبر في الطوابق العالية. في الأبنية العالية لا يمكن الاعتماد على المواد المحلية في البناء إذ لا بد من استعمال الفولاذ والبيتون حصراً، وهذا يتعارض مع فلسفة العمارة البيئية.

- الآثار السيئة للأبنية العالية على الإنسان: نشير هنا بإيجاز إلى المضار الصحية والنفسية التي تشكلها الأبنية العالية على الإنسان، سواء السكان القاطنون فيها أو من حولها، لندرك أكثر الحكمة في ذم التطاول في البناء.

أولاً: حجب الهواء والنور والشمس عن الجوار، وقد لاحظ الفقهاء المسلمون هذه النقطة في مسائل فقه البنيان والعمران فتكلموا عليها ضمن قاعدة (منع الضرر) ولا يوجد حل لهذه المشكلة إلا باشتراط مسافات مناسبة بين الأبنية العالية، وهذا الشرط إن تم تنفيذه تفقد الأبنية العالية مبرر وجودها الاقتصادي الذي يتعلق بأسعار أراضي البناء. ولا يجهل أحد نتائج حجب الشمس والهواء على صحة الناس. وربما يكون أبلغ دليل على هذا ما أعلنه ثلاثة أساتذة للعمارة من جامعة هونغ كونغ الصينية من أن أحد أهم الأسباب لانتشار مرض السارس كان الفجوة الضيقة بين البلوك رقم إيه والبلوك رقم إف، مما أعاق تدفق الهواء وسمح للفيروس بالانتشار إلى الشقق الأخرى. والمرض يمكن أن ينتقل بسهولة في مثل هذه البنايات العالية. في أبريل شهد انتشار سارس في بكين معدل إصابة عالياً في بعض المناطق الكثيفة السكان من البنايات العالية، مما نبه مشتري الشقق إلى أن يضعوا في الاعتبار الكثافة السكانية للمنطقة السكنية والتهوية عندما يبحثون عن بيت أحلامهم.

في مسح أجري عبر الهاتف والإنترنت في بكين شمل **٥٠٠** فرد من أبناء العاصمة وجد أن **٨٢,٨**٪ يولون أهمية أكبر للتهوية عند البحث عن شقة جديدة، مقارنة مع **٥٣,١**٪ في مسح سابق.

العمل في المدينة والإقامة في الضواحي ذات الهواء المنعش والشمس الساطعة يتوقع أن تكون الاختيار الرئيسي للطبقة المتوسطة في الصين في مرحلة ما بعد سارس. هذا سوف يؤدي إلى المسارعة بإنشاء مناطق سكنية في الضواحي، وفقاً لما يقول الخبراء. في الوقت الحالي يوجد ٧٠٪ من المناطق السكنية التي يجري بناؤها داخل المدينة. لي فو لين، من لجنة بكين للإنشاء توقع أن تتجاوز المناطق السكنية في الضواحي ما في داخل المدينة خلال السنوات العشر القادمة.

التحول إلى الضواحي سوف يؤثر على أسعار سوق العقارات السكنية في بكين، حيث يتوقع أن ترتفع المساكن التي في الضواحي. النسبة حالياً بين سعر المتر المربع في الضواحي وفي داخل المدينة **١ : ٤**. وقال (لي) إنه خلال عامين إلى ثلاثة أعوام النسبة يحتمل أن ترتفع إلى **١ : ٢** أو **١ : ٣**، وفي فترة ما بعد سارس من المتوقع أن تضع شركات التنمية العقارية والمصممون في الاعتبار تنمية تجمعات سكنية ذات مساحة كبيرة. وسوف تقسم التجمعات الكبيرة إلى مجموعات أصغر مستقلة نسبياً لتقليل الكثافة السكنية وتقليل حالات انتقال عدوى الأمراض. التجمعات السكنية الكبيرة قد لا تتم إقامتها مرة أخرى في بكين. فمثلاً شركة مدينة بكين للإنشاءات تقوم حالياً بتعديل تصميماتها وخططها بتقليل المباني العالية وعدد الشقق في نفس الدور وزيادة حصة المباني المنخفضة مع التركيز على التهوية الجيدة وتدفق الهواء.

ثانياً: تشكل الأبنية العالية خطراً على السكان مثل حوادث المصاعد وفي حالات الكوارث كالزلازل والحرائق، حيث يكون من العسير مغادرة السكان بالسرعة اللازمة، كما يكون خطر الزلازل على الأبنية العالية أعظم من غيرها، وذلك لأن قوة القص القاعدي التي تطبق على قاعدة المبنى المتعرض لهزة أرضية تحسب من العلاقة التالية: $V = (Z.I.K.C.S)\ W$.

حيث تمثل W وزن البناء من الحمولات الدائمة سي**٥**٪ من الحمولات الحية، وهذه القيمة تزداد تبعاً لزيادة ارتفاع المبنى، كما إن

نحالة المبنى شاقولياً تزيد من شدة قوى القص وعزوم الانعطاف الناتجة عن الزلزال في أعمدة المبنى. ويجب تجنب المنشآت المفرطة في ارتفاعها (استطالتها) عمودياً، ويفضل ألا يتجاوز ارتفاع المبنى ثلاثة إلى أربعة أمثال عرضه، ويجب ألا تقل نسبة عرض المبنى إلى طوله على المسطح عن نصف.

ثالثاً: تقول تعليمات السلامة عن حدوث الزلازل (Safety Recommendations After an Earthquake): عند حدوث الزلزال ينصح الناس بالابتعاد عن الأبنية العالية لأنها تشكل خطراً عظيماً على الناس، (Get away from tall buildings) أو ما يعرف بالـ (Emergency Egress).

رابعاً: ومن مضار الأبنية العالية على الصحة أنها تسبب ضعف البصر عند سكان المدينة بشكل عام، لأن الأبنية العالية تحجب الأفق وتمنع الإنسان من أن يمد نظره على مسافات بعيدة.

خامساً: من سلبيات الأبنية العالية أنها سبب رئيسي لازدحام السيارات في الشوارع، وينتج عن ذلك زيادة التلوث بعوادم السيارات والأمراض المرتبطة به.

سادساً: ومن مضار البنايات العالية على صحة السكان أن الأطفال وكبار السن يلاحظ أنهم يصبحون أقل واقعية وإيجابية (Multi-Purpose High-Rise Towers and Tall Buildings).

سابعاً: ومن مساوئ الأبنية العالية أنها لا تسمح بتوفير أماكن مناسبة للهو الأولاد، ولا نشر الغسيل!!

ثامناً: ومن مضار الأبنية العالية ما يسمى في الفقه الإسلامي (ضرر الكشف) الذي يمنع الناس من الإحساس بالخصوصية»[(١)].

(١) بحث (ذم التطاول في البنيان، وأثره على البيئة والإنسان)، المهندس. رامي لطفي كلاوي، بحث مقدم للمؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

ولقد وضع الشرع الحنيف معايير هندسية معمارية وبيئية ينبغي مراعاتها في ارتفاعات المباني يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

١ ـ تناسب ارتفاع الأبنية مع عرض الشوارع: وهذا التناسب مقرر في أنظمة البناء المعمول بها عالمياً، ويمكن أن نجد أصلاً له في الإسلام بالجمع بين حديثين نبويين، الأول: أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبادة قال: (إن من قضاء رسول الله ـ ﷺ ـ أن المعدن جبار والبئر جبار... قال: وقضى في الرحبة تكون بين الطريق ثم يريد أهلها البنيان فيها فيقضي أن يترك للطريق فيها سبع أذرع). والحديث الآخر الذي أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: «**إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نودي يا فاسق إلى أين؟**». فبالجمع بينهما نفهم أن النبيّ ـ ﷺ ـ كان عنده حرص على تناسب عرض الشارع مع ارتفاع البناء، وهذا التناسب يضمن الحد من تطاول الأبنية ويقلل من آثار ذلك التطاول على البيئة والإنسان.

٢ ـ يجب احترام المسجد ومراعاة موقعه وإبرازه كمركز للأحياء السكنية في المدينة الإسلامية، وأن يكون المسجد هو أساس دراسة تخطيط وتصميم التجمعات العمرانية المتدرجة باختلاف أحجامها ومستوياتها، وهذا لا يتحقق إلا بالحد من ارتفاعات الأبنية المحيطة بالمسجد ومراعاة المسافات فيما بينها بحيث يبقى المسجد مرئياً بالنسبة لأكبر عدد من سكان الحي.

٣ ـ يجب أن لا تكون تعلية الأبنية وتطويلها من قبيل (التطاول) الذي تدخل فيه المباهاة والمنافسة بين أصحابها، وهو ما يدل عليه لفظ (يتطاولون) الوارد في الحديث الشريف، بل يقتصر على الأبنية العالية في الأماكن التي تدعو إليها الحاجة والضرورة.

٤ ـ يستحسن أن تكون الأبنية العالية لأغراض غير السكن، فيقتصر على استعمالها مكاتب للشركات، وذلك للحد من آثارها السلبية على البيئة والإنسان.

٥ ـ يجب مراعاة قاعدة (منع الضرر) في مجال الأبنية العالية، ووضع القوانين والأنظمة التي تكفل عدم حصول أضرار لسكان المناطق التي تقام فيه الأبنية العالية. ومن هذه الأضرار المحتملة: ضرر حجب الهواء والشمس، وضرر الكشف (ويسمى الإشراف أو الاطلاع). ولقد تناول فقهاء الأمة الإسلامية هذه المسائل في كتب الفقه، نذكر على سبيل المثال ما جاء في كتاب (مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل) من كلام ابن فرحون، وفي القوانين الفقهية لابن جزي حيث يقسم الضرر إلى قسمين: متفق عليه ومختلف فيه، أما المختلف فيه: فمثل أن يعلي بنياناً يمنع جاره الضوء والشمس، فالمشهور أنه لا يمنع منه، وقيل: يمنع (ص ٢٢٤).

وفي عصرنا الحالي ينبغي إعادة النظر في هذه الفتاوى حيث أصبح البناء العالي أضعافاً مضاعفةً عما كان معهوداً في ذلك العصر الذي صدرت فيه تلك الآراء، مما يجعل الضرر الناتج أكبر من أن يسمح به.

ولقد حبب المسكن الواسع في الفلسفة المعمارية الإسلامية، بل جاء استحباب السكن الواسع صريحاً في السُّنة. إذ ورد في استحباب المسكن الواسع الحديث التالي: عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق**»[١].

فهذا حديث صحيح صريح في استحباب أن يكون المسكن واسعاً، وهذا ما يؤكد العلم الحديث أهميته بالنسبة لصحة الإنسان. كما أن أهمية المسكن الواسع وضرر المسكن الضيق على صحة الإنسان وخصوصاً الأطفال.

(١) صحيح ابن حبان (٩/٣٤٠/٤٠٣٢). صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن بلبان الفارسي، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع..

- أن ضيق المسكن وتكدس أفراد الأسرة في حجرة واحدة خصوصاً الأسرة ذات الأعداد الكبيرة أكثر من خمسة أشخاص تؤدي بالطفل إلى التوتر وعدم الاتزان الانفعالي والإحساس بعدم الاستقرار والخصوصية، حيث إنه لا يوجد مكان خاص له حجرة خاصة به مثلاً أو سرير أو مكتب، فعدم الشعور بالخصوصية يؤدي إلى الشعور بالاكتئاب والنفور من المكان.

- حيث تكون غرفة نوم الأبوين قريبة جداً من غرفة نوم الأطفال... حيث يكون كل صوت يصدر عنهما مآله أن يتناهى إلى آذان الأبناء، كما سيلاحظ هؤلاء كل حركة غير عادية من والديهما بارتياب، هذا إضافة لاستحالة التجرد من ثيابهما... وإذا ما تساهل الوالدان في بعض ذلك وشهده الأبناء، فإنه ستكون له آثار سلبية على أعصابهم ونفسياتهم يعسر علاجها، وقد تصاحبهم طوال حياتهم كعقد نفسانية مستعصية عن الحل... وقد وصف العديد من المرضى النفسانيين أنهم لما شاهدوا، وهم صغار، ممارسة والديهم للجنس رأوا فيها عدواناً من الأب على الأم صدم مشاعرهم وأحاسيسهم المرهفة وعقدهم منذ سنين مبكرة جداً.

- أن ضيق المنزل من أسباب قلة الشهية عند الأطفال، وهي من أكثر المشكلات السلوكية انتشاراً(١).

ولقد وضع الباحث كلاوي بعض التوصيات المهمة التي جاءت مطابقة لما ذكرنا في بداية الموضوع منها مثلاً:

١ ـ ضرورة اعتماد هندسة العمارة البيئية الخضراء والتأكيد على توافقه مع تعاليم وهدي الإسلام وتشريعاته.

---

(١) بحث (ذم التطاول في البنيان، وأثره على البيئة والإنسان)، المهندس. رامي لطفي كلاوي، بحث مقدم للمؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم، بتصرف.

٢ - تشجيع استلهام التراث الإسلامي في الهيكل العام للمباني وتخطيط المدن في البلدان الإسلامية.

٣ - تشجيع الاستثمار في الأرياف للحد من الازدحام في المدن وتقليل الاعتماد على الأبنية العالية.

٤ - الاستفادة من تجارب الدول الرائدة في مجال تخطيط المدن وما توصلت إليه من حلول عملية.

٥ - ضرورة الاستفادة من وسائل التقنية الحديثة وما توفره من فرص عمل لا تحتاج إلى تنقل من مكان العمل وإليه في أجواء المدن المزدحمة كالإنترنت وتطبيقاتها في الحكومات الإلكترونية، بحيث يمكن للناس أن يسكنوا في الضواحي والأرياف (وهو ما يطلق عليه تقنيات العمل عن بعد).

٦ - توصية بإصدار فتوى شرعية بضرورة التزام شركات البناء بمواصفات البناء المقاوم للزلازل حماية لأرواح السكان.

٧ - توصية بدعوة المجامع الفقهية الإسلامية إلى تبني وإصدار توصيات خاصة بأحكام البنيان في الفقه الإسلامي بمنظور حضاري معاصر يمكن اعتمادها كنظام هندسي كود (مدونة أو مواصفة) إسلامي عالمي.

٨ - توصية بعدم الإسراف في إقامة المباني العالية خصوصاً للأغراض السكنية، وننصح بالاستفادة من أحدث التوجهات المعمارية في العالم كالعمارة الخضراء أو البيئية (الصديقة للبيئة)، ونشير هنا إلى مدينة باريس الفرنسية كنموذج للمدينة التي تتوسع أفقياً ولا تشجع الأبنية العالية.

٩ - توجيه دعوة إلى مجمع الفقه الإسلامي لتبني إصدار توصيات خاصة بأحكام البنيان في الفقه الإسلامي بمنظور حضاري معاصر بحيث

تكون هذه التوصيات نواة لصياغة نظام هندسي (كود) إسلامي عالمي يعبر عن رؤية الإسلام الحضارية لقضايا السكن والعمران.

١٠ ـ التأكيد على ضرورة الأخذ بمعايير السلامة والوقاية من أخطار الزلازل عند إقامة المنشآت الضخمة والأبراج العالية في المناطق المصنفة علمياً كمناطق خطر زلزالي.

إن ناطحات السحاب هي نتاج حضارة مظاهر تتعامل مع الإنسان كما تتعامل مع الآلة، فتقدم مظهر البنيان وبعض المنافع المادية دون مراعاة إنسانية الإنسان، وإن الانتشار في الأرض وتعمير مساحات بلادنا الشاسعة أمر مطلوب وأرض الله واسعة. يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣][١].

ولعل الرجوع للنمط الإسلامي في العمارة واستنباط طرق منه لعلاج مشكلة ازدياد السكان يكون أحد أهم العلاجات لمشكلة الارتفاع المفرط في البنيان الذي يتسابق به أهل التشييد اليوم.

---

(١) المصدر السابق.

الفصل الرابع

نماذج في العمارة الإسلامية

نماذج في العمارة الإسلامية

أولاً: المساجد:

لعل ما ذكرناه في الفصول السابقة يوجب علينا الدخول في موضوع محوري في العمارة الإسلامية ألا وهو المساجد، ذِكرُها في الكتاب والسُّنة وبعض تفاصيل إنشاءها ونماذجها القديمة والحديثة.

تحدثنا سور وآيات الله البينات عن موضوع بناء المساجد وإعمارها، فقد ذكرت كلمة المسجد والمساجد في القرآن (**٢٨** مرة). يقول تعالى منوهاً لعظمة شأن إعمار المساجد بكل أنواع الإعمار: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]. والإعمار هنا كما هو معلوم إعماراً عاماً ولطرفي العلاقة الإنسان والمسجد. وهذه الآية تعني إعمار النفوس وتطهرها وتزكيتها بالذهاب إلى بيوت الله والصلاة والتعبد فيها، وتعني الراحة النفسية والطمأنينة والسكينة لأهلها وساكنيها وزائريها، كما تعني أيضاً إعمار بيوت الله وبناءها وخدمتها والقيام على أحوالها واحتياجاتها ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: **٣٢**]. لذلك فإن هذه الآية المباركة تهتم بالإعمار النفسي والروحي والمادي معاً للمساجد كي تبقى بيوت الله عامرة بالصلوات والجمعة والعيدين واجتماع المسلمين وتعاضدهم، هذا الاهتمام العام للنواحي الجمالية والنفسية والروحية هو بواقع الحال التعريف البسيط لعلم الهندسة المعمارية على وجه العموم.

ولقد تكلمنا في كتاب الهندسة الوصفية عن الشكل نصف الأسطواني للبيت الحرام الذي أمر سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام ـ ببنائه على قواعده الأصلية، بحيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦]، المقصود بالآية المباركة: إن أول بيت وضع لعبادة الله ولتوحيده سبحانه هو الكعبة المشرفة التي أنزل حجرها الاسود من الجنة إذ أنزلته الملائكة وبنته بأيديها كما يقول بعض أهل العلم، وظل كذلك حتى هدم بطوفان نوح ـ عليه السلام ـ، ثم أعاد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وا بنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ بناء الكعبة وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧]. وأما كيف استطاع سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ معرفة مكان الكعبة بعد هدمها فإن الله تعالى أرشده إلى مكان بناء الكعبة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: ٢٦]، (انظر: الشكل ٢٠).

لكن هنالك رأياً آخر يقول: إن البناء كان ليس من قبل الملائكة، بل وضعه الله تعالى بذاته العلية، فيقول الشعراوي رحمه الله تعالى عن معنى ما جاء في الآيات ٩٦، ٩٧ من سورة آل عمران، و١٢٧ من سورة البقرة، و٢٦ من سورة الحج، ما ملخصه:

١ ـ أنه وضع للناس، أي: لجنس البشر.

٢ ـ وُضِع بنيت للمجهول، وبالتالي ليس هناك من جَزْمٍ لمن بناه أو وضعه.

٣ ـ القول بأن الملائكة هي من بناه جائز، ولكن يعارضه قوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، أي: فيه هدى لجميع الأجناس العاقلة الإنس والجن والملائكة، أي: أنه بني قبل الملائكة.

٤ ـ القول بأن سيدنا إبراهيم هو من بناه مردود لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]، فبينت الآية أنه ـ عليه السلام ـ كان يرفع القواعد، أي: يرفع البعد الثالث وهو الارتفاع ـ كما عرفنا في كتاب الهندسة الوصفية ـ من خلال البناء على القواعد، أي: الأسس ـ كما بيَّنا في كتاب هندسة الأسس ـ، وبالتالي فالقواعد كانت معروفة قبل ذلك لكن طوفان نوح ومرور الزمن كان قد طمرها، أما كيف عرف سيدنا إبراهيم ذلك فيجيب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، أي: علمناه إياه، فدله عليه سيدنا جبريل ـ عليه السلام ـ فقام بتعميره من جديد كما قال أغلب أهل التفسير.

انتهى ملخص قول الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره للآية المباركة، وقد استشهد بقول لبعض السلف في أنه كان قبله بيوت. فقد قال بعض علماء التفسير نقلاً عن جمع من الصحابة: إن البيت هنا هو الكعبة وقد وضعت للناس للعبادة فيها هدى ورحمة ولكن هناك قبلها بيوت، هذا قول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والحسن وعطاء بن السائب وآخرين[(١)]. وقال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم، وتأويله: إن أول بيت وضع للناس يعبد الله فيه مباركاً وهدى للعالمين الذي ببكة، قالوا: وليس هو أول بيت وضع في الأرض لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة. فعن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى علي فقال: ألا تخبرني عن البيت؟ أهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. وسأل حفص الحسن عن قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

---

(١) زاد المسير (جزء ١ ـ صفحة ٤٢٥). زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾، قال: هو أول مسجد عبدالله فيه في الأرض. وقيل قد كانت قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للعبادة. وعن الحسن قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ. . .﴾ يعبد الله فيه، ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾. وقال آخرون: بل هو أول بيت وضع للناس(١). وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أول بيت حج بعد الطوفان(٢).

وهذا تأويل في معنى بيت، وإذا كان أول بيت عبادة حق كان أول معهد للهدى فكان كل هدى مقتبساً منه فلا محيص لكل قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله وذلك يوجب اتباع الملة المبنية على أسس ملة بانيه وهذا المفاد من تفريغ قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٥] في الآية التي قبلها. وتأول الآية علي بن أبي طالب فروي عنه أن رجلا سأله: أهو أول بيت؟ قال: (لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً وهدًى) فجعل مباركاً وهدًى حالين من الضمير في قوله تعالى: ﴿وُضِعَ﴾ لا من اسم الموصول وهذا تأويل في النظم لا ينساق إليه الذهن إلا على معنى انه أول بيت من بيوت الهدى كما قلنا وليس مراده أن قوله: ﴿وُضِعَ﴾ هو الخبر لتعين، أو الخبر هو قوله: ﴿. . . لَلَّذِى بِبَكَّةَ. . .﴾ بدليل دخول اللام عليه(٣).

---

(١) تفسير الطبري (جزء ٣ ـ صفحة ٣٥٤). جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

(٢) الكشاف (جزء ١ ـ صفحة ١٩٤)، أبو القاسم جار الله الزمخشري، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط/٣، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

(٣) التحرير والتنوير (جزء ١ ـ صفحة ٧٨٨)، ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، ط/١، ٢٠٠٠م.

ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل، فهي أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة وخصص لها، وقد أمر الله إبراهيم أن يرفع القواعد وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود. وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم. وفيه علامات بيِّنة على أنه مقام إبراهيم (ويقال: إن المقصود هو الحجر الأثري الذي كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقف عليه أثناء البناء وكان ملتصقاً بالكعبة) فأخَّره عنها الخليفة الراشد عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده، وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلى لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥]، فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة، وهو أول بيت أقيم في الأرض للعبادة، وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له[١].

وفي هذه الآيات المباركات المعنى العظيم الذي يبعث بالنفوس الهيبة والرهبة والسكون إلى خالقها وبارئها العظيم ويتجلى معنى أمر الله تعالى للناس بأن يحجوا البيت ويعتمروا به ويطوفوا ويقيموا الشعائر ليعلنوا أنهم أتوا لله مخلصين طائعين ملبين أمره ودعوة نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ أذن للناس بالحج بعد الانتهاء من بناء الكعبة، وسنَّة رسوله محمد ـ ﷺ ـ الذي علمهم مناسك الحج وآدابه وسننه، وفي هذه الآيات المباركات إشارات إلى أسلوب فني رائع في البناء ألا وهو التقنية التي لا زالت متبعة لحد الآن في البناء التقليدي الطابوقي أو الحجري وهو بناء الجدران ورفع الأعمدة والسقوف وجلوسها على البناء الذي يجلس بدوره على القواعد والأسس كما يخبرنا المفسرون الذين فسروا

(١) تفسير (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان.، ج/١، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

آيات الله حسب ما جاء في أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ أن الحجر الأسود الموجود في جدران الكعبة جاءت به الملائكة من الجنة، وقد كان أبيض ثم اسود من ذنوب الناس. فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم»**[(١)].

ولعل مراحل بناء الكعبة والمسجد الحرام مروراً بكل مراحل تطويره وتوسعته يبين أهمية هذا البيت العتيق الذي وضع للناس في مركز اليابسة مكة المكرمة كما أثبتنا في كتاب المساحة وعلوم الأرض ضمن هذه السلسلة. (انظر: الشكل **٢٠** ـ أ).

ولقد خصصنا ملحقاً خاصاً في نهاية الكتاب يبين مراحل العمارة التي مر بها الحرمين المكي والمدني عبر التاريخ والترميمات والتوسعات العمرانية التي حصلت فيهما، وكيف تحول الشكل نصف الاسطواني للبيت على قواعده الأصلية إلى الشكل المكعب الحالي.

أما الحجر الأسود، فهو الحجر الذي عند أحد أركان الكعبة بين الركنين الركن العراقي ومقابله الركن اليماني، ويطلق على الاثنين اليمانيان، والحجر الأسود آخر ما تبقى من أحجار بنائها الأصلي. فعن عبيد بن جريج أنه قال لعبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: يا أبا عبدالرحمٰن رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها، قال: ما هن يا ابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين، فقال عبدالله بن عمر: أما الأركان فإني لم أر رسول الله ـ ﷺ ـ يمس إلا اليمانيين. قال شراح الحديث: (والمراد بالركنين اليمانيين الركن اليماني والركن الذي فيه الحجر الأسود، ويقال له: العراقي لكونه إلى جهة

---

(١) سنن الترمذي (جزء **٣** ـ صفحة **٢٢٦**)، وقال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

العراق، وقيل للذي قبله اليماني: لأنه إلى جهة اليمن، ويقال لهما: اليمانيان تغليباً لأحد الاسمين)[(١)(٢)].

وهذا فعلاً ما حصل، فبالإضافة إلى الشكل المكعب الجميل (الشكل ٢٠ ـ ب) الذي له مغزاه الهندسي والمعماري كما يفهمه الأخوة المعماريون أكثر من غيرهم، الأمر الذي فصلناه في كتاب الهندسة الوصفية من هذه السلسلة، فإن المادة المكونة للحجر الأسود تختلف عن مواد الحجر الأرضية وتقترب من مواد ومعادن النيازك كالسيليكون والحديد والكوبلت والنيكل وغيرها. كما أثبتت الدراسات أن الحجر الأسود في الكعبة المشرفة هو الجزء الوحيد المتبقي من الأصل المبني في الكعبة وهو نازل من السماء كما بيَّنت لنا الأحاديث الصحيحة. ولقد فصلنا في أنواع النيازك، ومنها نوعية نيزك الحجر الأسود في كتاب هندسة المواد ضمن هذه السلسلة.

ولقد بيَّنا في كتاب الهندسة الوصفية أنه قام أحد المعماريين وهو الأستاذ الدكتور يحيى وزيري بتحليل لمسألة التصميم المكعب للكعبة المشرفة وكيف أنها محاطة بجبال في واد غير ذي زرع لا ترى من بعيد كما هي بقية المعالم العمرانية للحضارات العالمية القديمة ـ كما هو الحال مع عجائب الدنيا السبع في العالم القديم ـ التي عادة ما تكون شاخصة واضحة ترى من بعيد إما في أعلى مرتفع أو أرض منبسطة، فتوصل إلى أن تصميم شكلها واتخاذ زواياها أو أركانها المعروفة اليوم كالركن اليماني والركن العراقي إنما جاءت باختيار معجز هندسياً في وقت لا علم للمساحة فيه ولا تقنيات هندسية، وفي أرض صحراوية مقفرة لا أثر

---

(١) صحيح مسلم (جزء ٢ ـ صفحة ٨٤٤)، وانظر: شرح الحديث في المنهاج. انظر: المصادر.

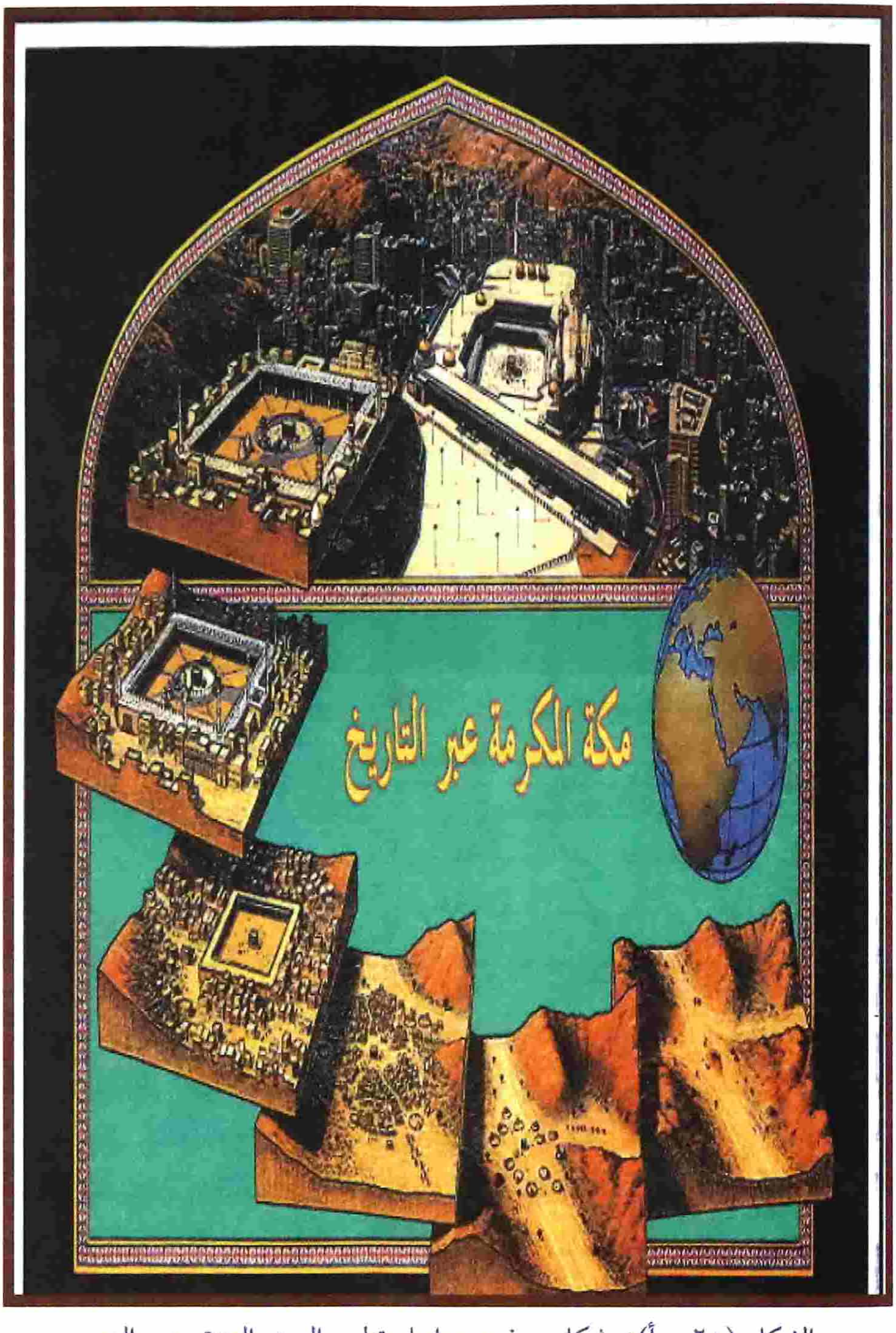
(٢) الحقيقة أن ركن الحجر الأسود غير الركن العراقي كما تبين الأشكال في الملحق (١)، وما ذكره شراح الحديث فيه خلط واضح فالصحيح كما بينا هو أن ركن الحجر الأسود يقع بين الركن اليماني والركن العراقي.

لحضارة بشرية فيها، وهذا الإعجاز يتمثل باختيار المكان كوسط ليابسة العالم وهو ما فصلناه في كتاب المساحة وعلوم الأرض ضمن هذه السلسلة، أو من حيث الشكل المكعب وأبعاده المخفية عن الأبصار بسبب الجبال المحيطة به وفق نمط لا يوازيه نمط آخر في الحضارات العالمية أو بحساب الزوايا، إذ تبين له أن الركن العراقي الأصلي الذي بني على قواعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وليس الركن المشيد اليوم[(١)]. (راجع الأشكال في الملحق (١) في نهاية الكتاب) يتجه مباشرة نحو الشمال الجغرافي للكرة الأرضية بحساب غاية في الدقة لا يتأتى من الحسابات البشرية وقتذاك[(٢)].

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير (جزء ١ ـ صفحة ٥٠٨)، ﴿مَقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، يعني: الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها هاهنا ولله الحمد والمنة، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: فمنهن مقام إبراهيم والمشعر. وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روي عن عمر بن عبدالعزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل وغيرهم. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

(٢) بحث الدكتور المهندس المعماري يحيى وزيري عضو الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة.



الشكل (٢٠ ـ أ): شكل يوضح مراحل تطور البيت العتيق عبر الزمن



الشكل (٢٠ ـ ب): الكعبة المشرفة وشكلها المكعب الذي فصلناه في كتاب الهندسة الوصفية

كما بيَّنا في كتاب الهندسة الوصفية بعضاً من تفاصيل الثوابت القرآنية الشاملة في تسلسل السورة والآية والكلمة ونسبها وتكراراتها التي تعطي دلائل هندسية مهمة تنطبق أصناف ارتباطاتها مع منهجية البحث التي اتخذناها في هذه السلسلة.

لنعط إلى موضوع المساجد مساحة واسعة من التفصيل لما له من الأهمية والمكانة التي أرادها الله تعالى للأمة. إن المسجد في الإسلام له أهمية عظيمة، وكما أوردنا بعض آيات المساجد وبنائها وأهميتها، لنستعرض الآن بعض ما جاء من رسول الله ـ ﷺ ـ حول المساجد، حيث ذكر البخاري رحمه الله تعالى في باب بنيان المساجد، وقال أبو سعيد: كان سقف المسجد من جريد النخل وأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببناء المسجد، وقال: (أكِنّ الناس من المطر وإياك أن تحمر وتصفر فتفتن

الناس)، وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ: (يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً)، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)، جاء هذا الشرح ليبين أهمية الاهتمام بالإعمار الروحي والقلبي والتعبُدي قبل الاهتمام بالزخرفة المادية البحتة. وكان رسول الله يهتم بنفسه ببناء المسجد الحقيقي الذي أسس على تقوى الله ومخافته وحبه لا على الرياء والنفاق والسمعة والخيلاء.

كان المسجد في عهد الرسول ـ ﷺ ـ ابتداءً من العام الأول للهجرة، أول تصميم هندسي أبدعه الإسلام، وتميز عن أماكن العبادة للديانات الأخرى ودوره، وكانت ميزته الرئيسية أنه يشكل النواة الأولى لبناء المدينة الإسلامية، فكان أول عمل يقوم به المسلمون هو إنشاء المسجد الجامع. . . لذلك فإن المساجد لم تعمر لإقامة فريضة الصلاة فحسب، وإنما لتؤدي أيضاً وظائف أخرى لها علاقة بالدين من ثقافية واجتماعية وسياسية، وتعد المساجد من أبرز المعالم الحضارية الإسلامية، فالمسجد فضلاً عن كونه مكاناً للصلاة هو أول مؤسسة تعليمية لتدريس العلوم الدينية، وهو المكان المناسب لاجتماع المسلمين وتأديتهم لواجباتهم الدينية ومناقشتهم للشؤون السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية.

كان الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه وأهل بيته من بعده، يجتمعون بالمسلمين بالمسجد، وبذلك أصبح بمثابة دار للحكومة وبيت المال، وخطط الرسول ـ ﷺ ـ وانشأ أول مسجد بعد وصوله مهاجراً من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة (يثرب). وإذ وضع الرسول ـ ﷺ ـ مخطط المسجد الأول في المدينة المنورة وبني تحت إشرافه، فتم بذلك للمرة الأولى إرساء الأسس والقواعد التي ينبغي أن تبنى عليها المساجد، إذ أعطى صورة واضحة لتخطيطها وبنائها. وهكذا خطط بعد ذلك جميع المساجد على هذا المنوال. . . أما المسجد الأول الذي وضع مخططه الرسول ـ ﷺ ـ فهو مسجد قباء، وجعل له قبلة يتوجه المصلون نحوها وهي جهة الكعبة المشرفة وذلك بعد أن كان بيت المقدس القبلة الأولى. بني المسجد في

منطقة قباء القريبة من المدينة المنورة وذلك في السُّنة الأولى للهجرة (٦٢٢م). والمخطط الأصلي لهذا المسجد عبارة عن قطعة أرض مربعة الشكل محاطة بسور من الحجر البازلتي الذي يكثر وجوده في المنطقة.

وأخرج البخاري عن سيدنا رسول الله - ﷺ - قال: عن يحيى عن أبي سلمة قال انطلقت إلى أبي سعيد الخدري فقلت ألا تخرج بنا إلى النخل نتحدث فخرج، فقلت: حدثني ما سمعت من النبيّ - ﷺ - في ليلة القدر، قال: اعتكف رسول الله - ﷺ - عشر الأول من رمضان... وكان سقف المسجد جريد النخل وما نرى في السماء شيئاً فجاءت قزعة فأمطرنا فصلى بنا النبيّ - ﷺ - حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله - ﷺ - وأرنبته تصديق رؤياه[(١)].

وقد عرف الجص باسم «القصة». كما روى مجاهد في صحيح البخاري عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله - ﷺ - مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله - ﷺ - باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة حجارة منقوشة وسقفه بالساج[(٢)]. وهذا الحديث يدلنا على أهمية البناء المادي بالإضافة إلى البناء الروحي والقلبي والتعبدي الذي هو الأساس. وذكر البخاري في صحيحه عن سلمة قال: كان جدار المسجد عند المنبر ما عادت الشاة تجوزها[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان الحديث رقم (٨١٣)، وأخرجه مسلم (كتاب الصيام ١١٦٧)، وأبو داود (كتاب الصلاة ٨٩٤)، ومسند احمد (باقي مسند المكثرين ١٠٦٥٠)، انظر: المصادر.

(٢) صحيح البخاري (كتاب الصلاة حديث برقم ٤٤٦)، وأخرجه أبو داود (كتاب الصلاة ٤٥٠)، مسند أحمد (مسند المكثرين من الصحابة ٦١٠٤)، انظر: المصادر. والساج هو الخشب جيد النوعية.

(٣) أخرجه البخاري (كتاب الصلاة ٤٩٧)، مسلم (كتاب الصلاة ٥٠٩)، وأبو داود (كتاب الصلاة ١٠٨٢)، انظر: المصادر.

على أن المساجد لا تبنى فقط مادياً، بل أساسها البناء المعنوي والروحي وتقوى الله في كل الأمور من عبادة ومعاملات وحدود وكل ما شرعه الله لخلقه، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يقبل المسجد الذي لا يبنى على أسس التقوى والصلاح والإصلاح، فنراه تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠].

هذا البعد الأخلاقي العظيم الذي لا أظن أن أحداً من أهل العمارة قد انتبه إليه أو على الأقل قد تبناه مع قوته وشدة تأثيره، إذ أنه الأساس الاعتباري الأقوى من الأسس المادية المعتمدة على المتطلبات والمواصفات الهندسية من حفريات ومواد تستخدم لهذا الغرض، ومن ذلك ضرورة أن يكون الصرف المالي من مال حلال لا تشوبه شائبة حتى يكون المسجد خالصاً لله تعالى كما أراد الله تعالى له، وأن لا يكون على حساب فقر الناس وحاجتهم لأمور أخرى غير موجودة مع وجود مساجد أخرى تفي بالغرض. فهذا ما ينبئنا به عالم السر وأخفى العليم العلام وتنبئنا به السُّنة المطهرة، فهل يا ترى تتبنى هذه المدرسة المعمارية العظيمة؟ هذا ما نرجوه ونتمناه ونسأل الله أن يوفق الجميع لأجله.

وقد جدد المسجد النبوي ووسع مرات عدة في مراحل تاريخية مختلفة خصوصاً إبان ولاية عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ على المدينة في عهد الوليد بن عبدالملك الأموي. وتم تجديده أيضاً في

عهود مختلفة منها العباسي والمملوكي والعثماني، أما آخر ترميم له فقد تم سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٧م) كما فصلنا في الملحق (١) في نهاية الكتاب.

أما مخطط المسجد الحالي فهو عبارة عن الصحن (الدار المكشوف) وهو مستطيل الشكل تحيط به من جميع الاتجاهات أروقة أكبرها حجماً جناح القبلة، ويتألف من ثلاث أروقة يقابلها بالجهة الشمالية رواقان، بينما يوجد في كل من الجهتين الشرقية والغربية رواق واحد. أما أرضية كل من الصحن والأروقة فهي مغطاة بالرخام الأبيض... صمم سقف الأروقة على شكل قباب نصف كروية منخفضة ومحمولة على عقود مدببة ترتكز بدورها على أعمدة ليس لها تيجان أو قواعد، وكسي الجزء السفلي منها بالرخام الأبيض، بينما غطي باقي جسم الأعمدة بالورق والدهان. أما محراب المسجد فيقع على جدار القبلة، ومن المعروف أن جدار القبلة كما هي العادة يكون محور الجناح الجنوبي لكن في هذا المسجد اختلف الأمر، إذ نجد بجانبي المحراب عمودين من الرخام فيما غطيت طاقية المحراب بزخارف جصية وبأشكال هندسية ونباتية، وهو معقود بقوس يشبه حدوة الفرس.

وتفتح الجدران الداخلية على الصحن عن طريق عقود مدببة ستة منها في الواجهتين الشمالية والجنوبية، وثلاثة في الواجهتين الشرقية والغربية. أما الدخول إلى المسجد فيتم عن طريق باب في الجدار الغربي يعلوه عقد ثلاثي الأقواس ومزخرف بتشكيلات عبارة عن خطوط منحنية متداخلة. وترتفع أرضية المسجد عن مستوى الشارع بخمس درجات من حجر البازلت... وتقع مئذنة المسجد في واجهته الغربية وتتألف من أربعة أجزاء:

- الجزء الأول: وهو الجزء السفلي من جسم المئذنة عبارة عن مربع ارتفاعه ارتفاع جدار المسجد.
- الجزء الثاني: فهو مثمن وفيه توجد فتحات صغيرة لإنارة سلم

المئذنة وينتهي بثلاثة درجات من المقرنصات تحمل الشرفة الأولى التي يحيط بها سياج من الخشب.

- الجزء الثالث: فدائري وأقل ارتفاعاً من الجزء الثاني وينتهي أيضاً بمدرجات من المقرنصات تحمل أعلاها شرفة مشابهة للشرفة الأولى.
- يلي ذلك جسم أسطواني قليل الارتفاع ينتهي بمخروط، وهو ما يشكل الجزء الرابع والأخير من جسم المئذنة[١]. لاحظ الشكل (٢١).

كل هذه التفاصيل للحرم المدني بصورته الحالية، ولكن الأصل كله يعود للمسجد الأول والفناء الأصلي الذي بني على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ، فيا ترى من أين جيء بهذه المدرسة المعمارية العظيمة؟ وكيف استطاع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يعطي كل هذه الأبعاد والفلسفة المعمارية الرائعة عند تأسيسه لأول مسجد؟ ولقد بيَّنا في الملحق (١) في نهاية الكتاب تفاصيل عديدة حول عمارة المسجد النبوي الشريف عبر مراحل تاريخية عديدة.

(١) التفاصيل المعمارية موجزة عن بحوث ومقالات وكتب شتى.



الشكل (٢١ ـ أ)



الشكل (٢١ ـ ب)



الشكل (٢١ ـ جـ)



الشكل (٢١ ـ د)



الشكل (٢١ ـ هـ)



الشكل (٢١ ـ و)

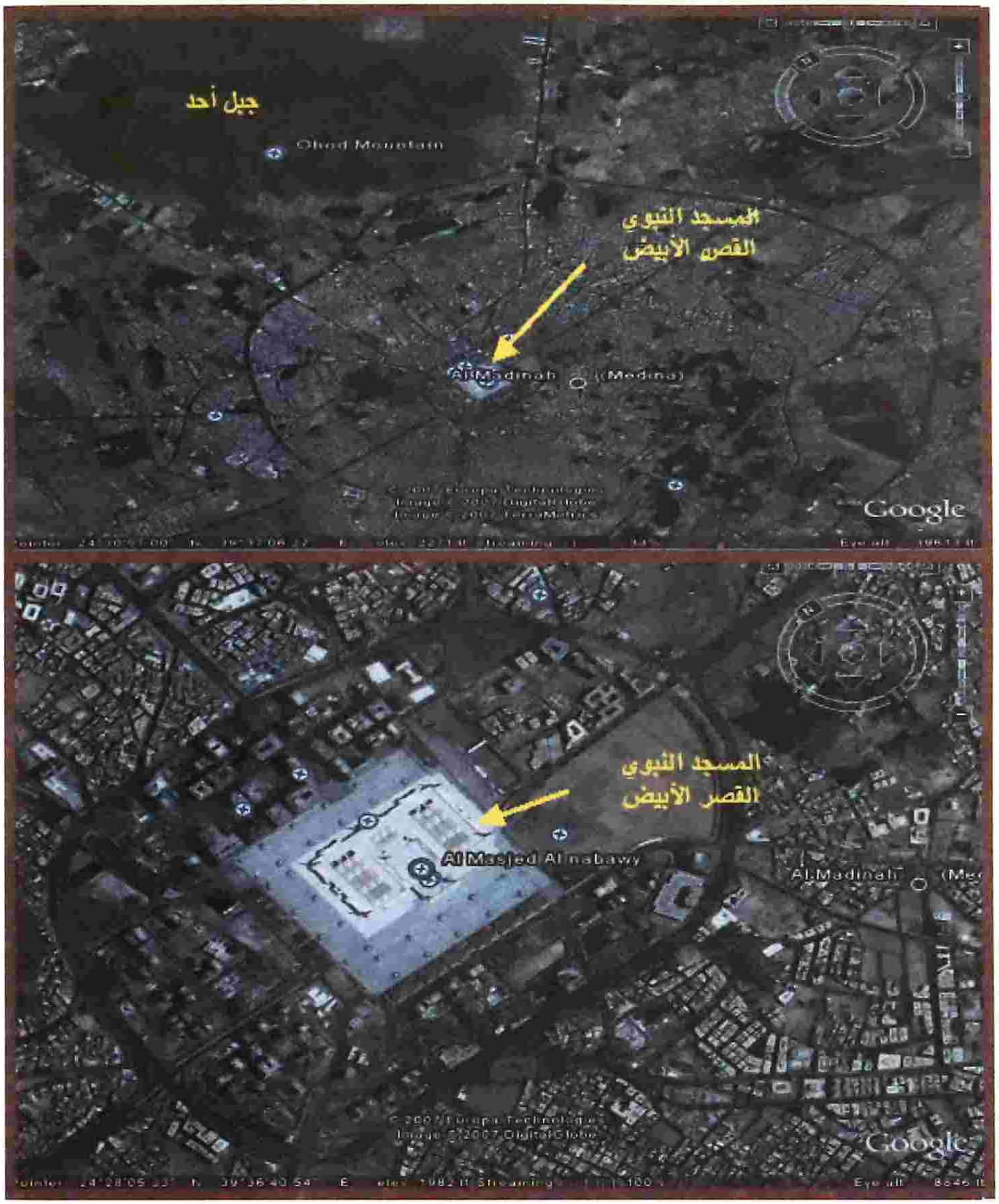
الشكل (٢١): مناظر متنوعة للمسجد النبوي الشريف بصورته الحالية وقبته الخضراء الجميلة ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ

ومما يؤثر فيما جاء في السنن ذلك الحديث الذي يبين السبق القرآني العجيب لما سيكون من أمر المسجد النبوي وشكله الأبيض وهو غير ما كان عليه في وقت الحديث الشريف. فعن عبدالله بن شقيق عن محجن بن الأدرع أن رسول الله ـ ﷺ ـ خطب فقال: «**يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص** ـ ثلاثاً ـ فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: **يجيء الدجال فيصعد أحداً فينظر المدينة فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكاً مصلتاً، فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص**»[(١)].

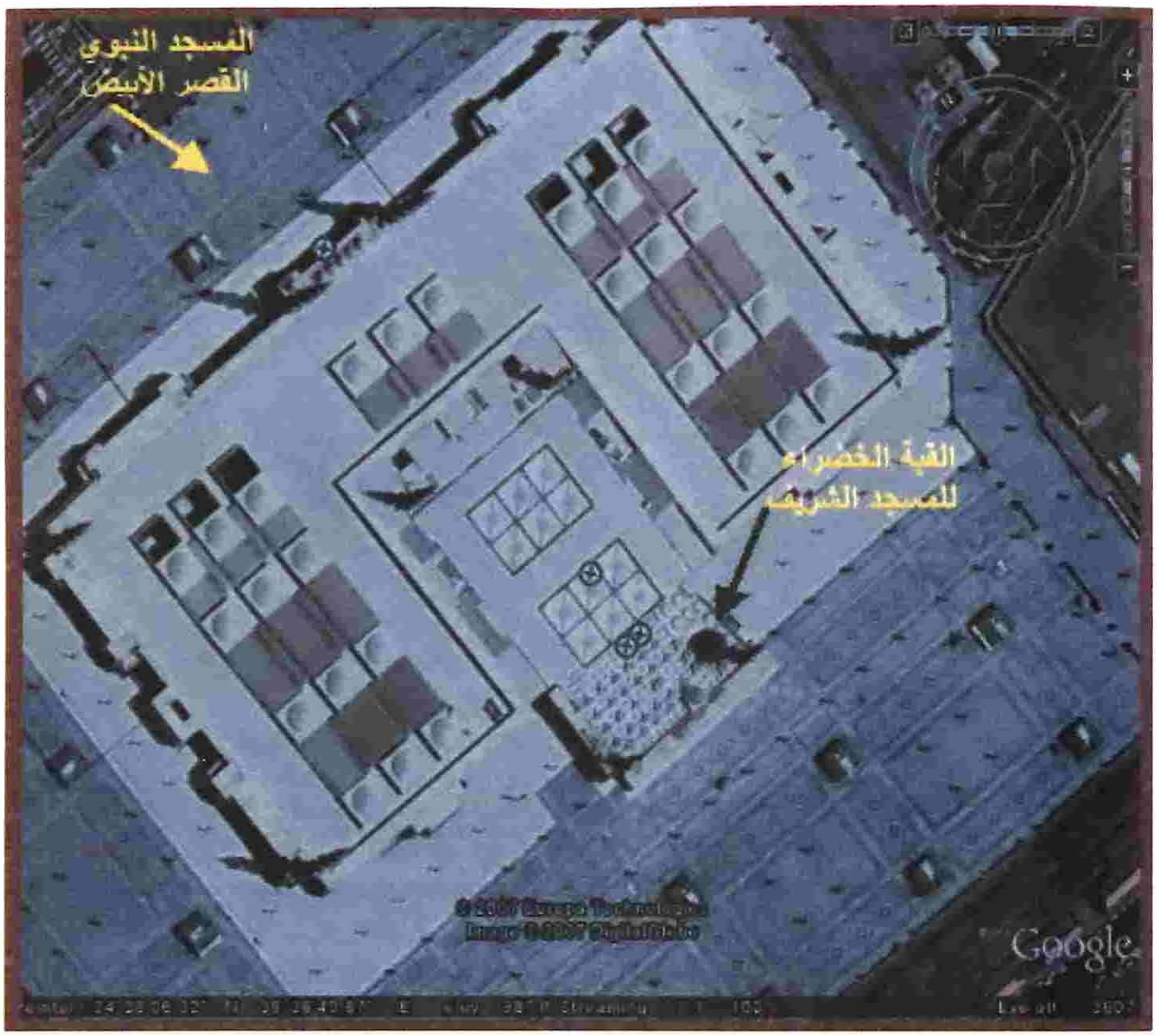
تأمل قول الدجال عليه لعنة الله: (هذا القصر الأبيض، هذا مسجد أحمد)، وكذلك قوله: «**فيصعد أحداً**»، أي: جبل أحد، ثم تأمل صورة المدينة المنورة من علو وفيها المسجد النبوي وقد التقطت له صورة عبر الأقمار الصناعية وكيف أنه يبدو كأنه قصرٌ أبيض وقد صدق عليه وصف البياض، وكذلك وصف القصر لهيبته وعظمته بلا شك، وكيف يبدو جبل أحد على مسافة منه فالصاعد عليه يرى ذلك القصر (الشكل **٢٢** ـ أ). ثم تأمل الشكل (**٢٢** ـ ب) الذي تبدو فيه تفاصيل المسجد النبوي بشكل أكثر وضوحاً لأنه التقط من علو أقل وفيه القبة الخضراء للمسجد النبوي، صلى الله على صاحبه وأكرمنا بزيارته في الدارين. فكل تلك الأوصاف لم

(١) أخرجه صاحب المستدرك (جزء **٤** ـ صفحة **٥٨٦**)، وقال عنه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وكان تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط مسلم. وجاء الحديث في سنن ابن ماجه (جزء **٢** ـ صفحة **١٣٥٩**). وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف. وجاء كذلك في مسند أحمد بن حنبل (جزء **٤** ـ صفحة **٣٣٨**)، وكان تعليق شعيب الأرناؤوط عليه بأن إسناده ضعيف لانقطاعه، عبدالله بن شقيق لم يسمع محجن بن الأدرع. كما ذكر في المعجم الأوسط (جزء **٢** ـ صفحة **٣٤٠**)، وكذلك (جزء **٤** ـ صفحة **٢٤**). وأخرج الحديث عن بقية أهل السنن في مسند الإمام أحمد. قال الشيخ مصطفى العدوي في (الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة): الحديث صحيح لغيره. انظر: المصادر.

تكن موجودة وقت تدوين ذلك الحديث الشريف، فكيف تنبأ بها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟! أليس هذا دليلاً مضافاً على حقيقة وعظمة ما جاء به من عند ربه جل وعلا؟

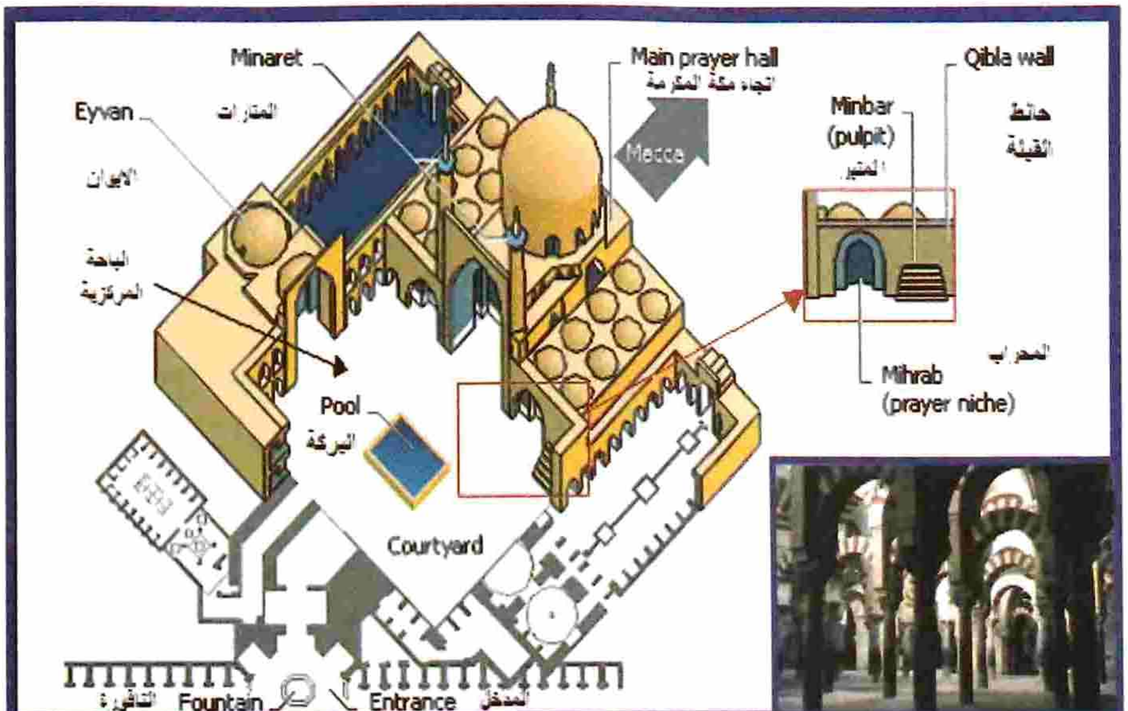


الشكل (٢٢ ـ أ): منظر من الأقمار الصناعية للمسجد النبوي الشريف بصورته الحالية وشكله الأبيض الجميل، وتأمل جبل أحد في الصورة العلوية كما ذكرت في الحديث
ـ الصورة عن البرنامج العالمي جوجل إيرث (Google Earth) مأخوذة بتاريخ يناير ٢٠٠٧م ـ

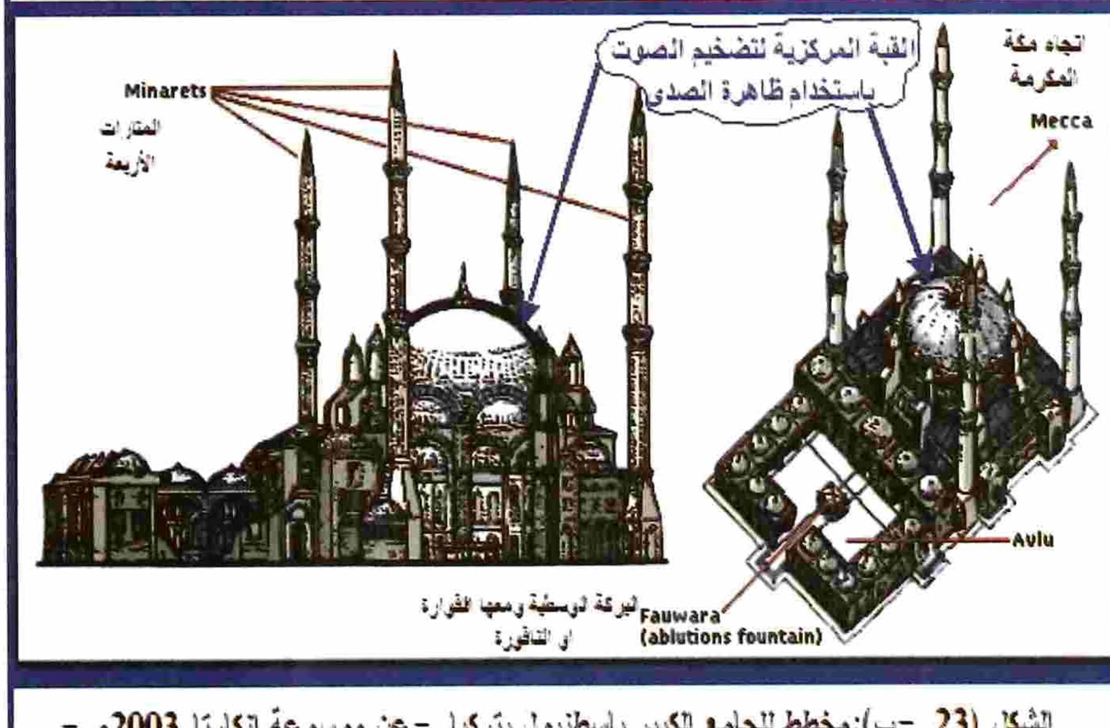


الشكل (٢٢ ـ ب): صورة بالأقمار الصناعية مقربة أكثر للمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ـ الصورة عن البرنامج العالمي جوجل إيرث (Google Earth) مأخوذة بتاريخ يناير ٢٠٠٧م ـ

وقد تطورت أساليب وفنون بناء المساجد كما ذكرنا في الفصل السابق والمسجد عموماً يحوي الحرم الذي تقام فيه الصلاة ومنارة أو مِئذنة (أو مَأذنة) رفع الصلاة التي يستخدمها المؤذن في رفع الأذان وهي عالية كي يصل الصوت لكل أطراف المدينة أو الحي الذي يخدمه المسجد، وقد استعيض عن ذلك بمكبرات الصوت اليوم، لكن ظلت المآذن على شكلها الجميل كما كانت. كذلك هناك القباب التي تتوسط المسجد وقد كان نظامها البنائي ضرورياً فيما مضى بسبب نوعية مواد التسقيف، وأما اليوم فيمكن الاستغناء عنها إنشائياً إلا في حالات المساجد ذات المساحات الحالية الواسعة، ولكن نمط القباب ظل محافظ عليه لما له من إرث وأثر معماريين.



الشكل (23 -أ): نظام القبة في المساجد تقنية معمارية إسلامية استخدمت كثيراً لتضخيم الصوت.. الشكل يبين منظر عام للمسجد الإسلامي.. والرسم في الزاوية السفلى يبين منظر داخلي لمسجد قرطبة بإسبانيا -عن موسوعة إنكارتا 2003م -



الشكل (23 -ب): مخطط للجامع الكبير بإسطنبول بتركيا -عن موسوعة إنكارتا 2003م -

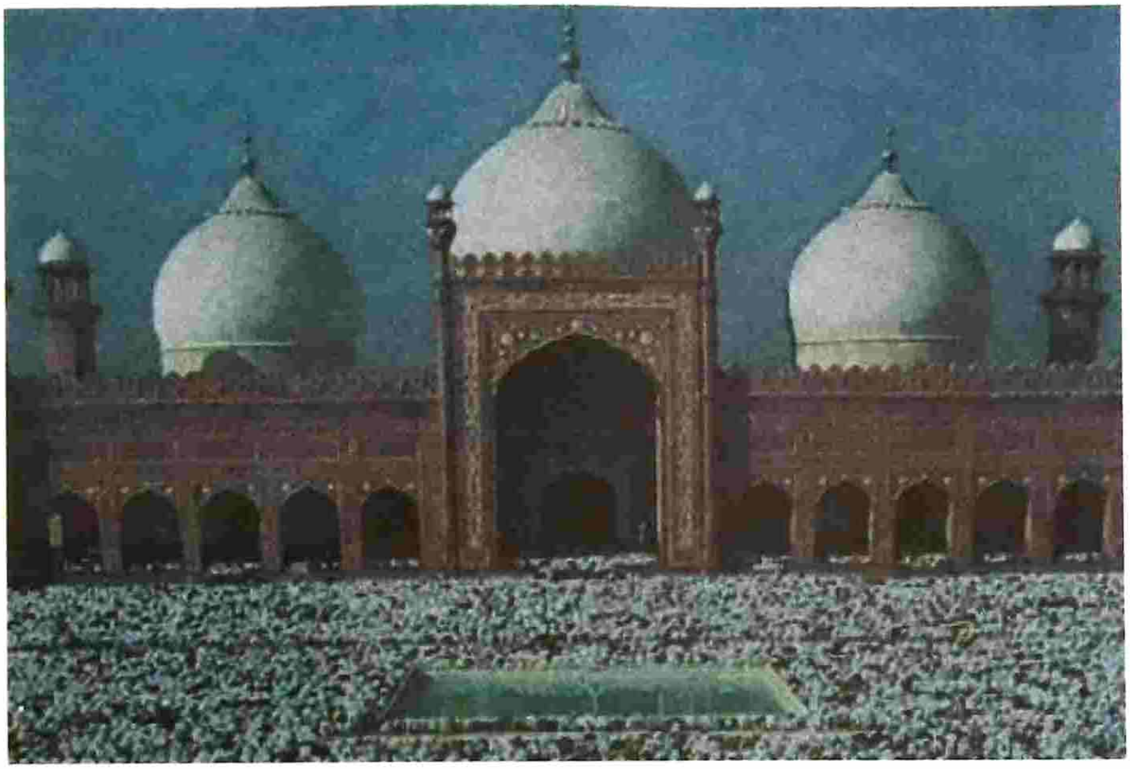
الشكل (٢٣ ـ أ، ب): يبين نظام القبة في المساجد تقنية معمارية إسلامية استخدمت كثيراً، والشكل (أ) يبين منظر عام للمسجد في الإسلام، والشكل (ب) يبين مخطط للجامع الكبير في إسطنبول بتركيا



الشكل (٢٣ ـ جـ): مسجد حديث بماليزيا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ د): مسجد آباك خوجا بالصين
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ هـ): مسجد بادشاهي بباكستان ـ لاحظ ضخامة القباب وصغر المنائر مع وجود القباب الصغيرة فوقها

ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com)

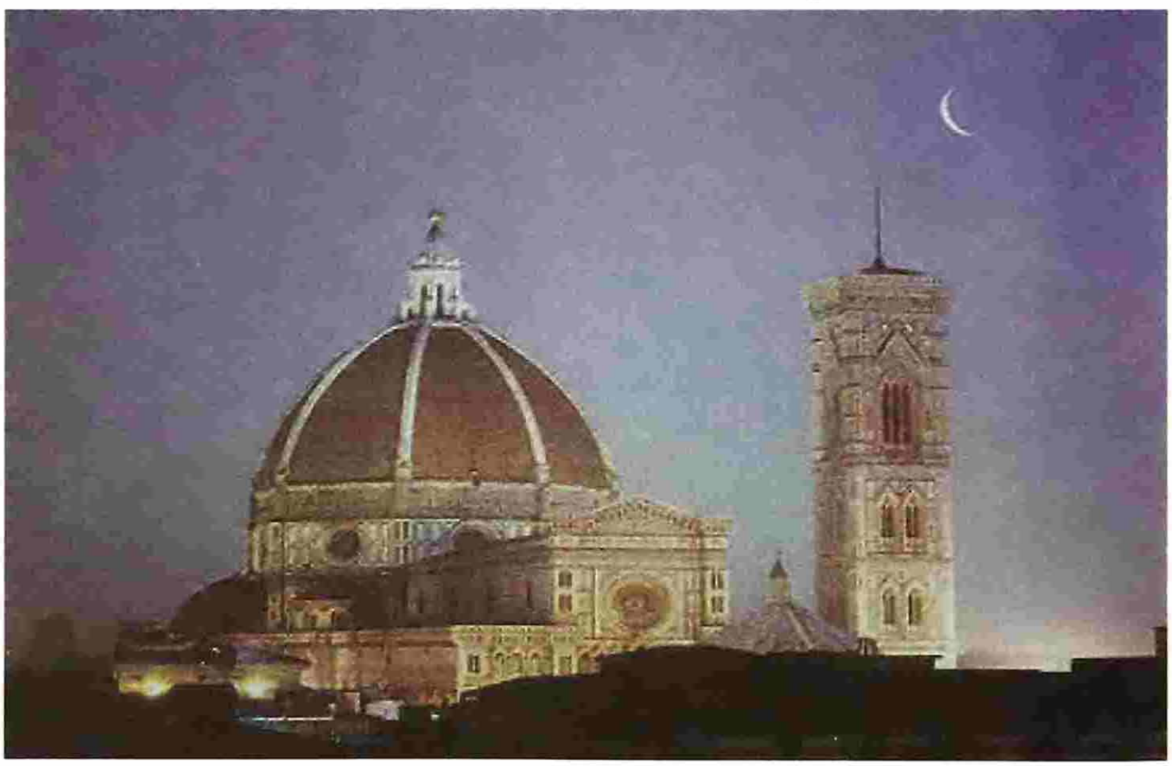


الشكل (٢٣ ـ و): مسجد بهونك بالبنجاب بباكستان ـ لاحظ القباب والأقواس ـ

ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



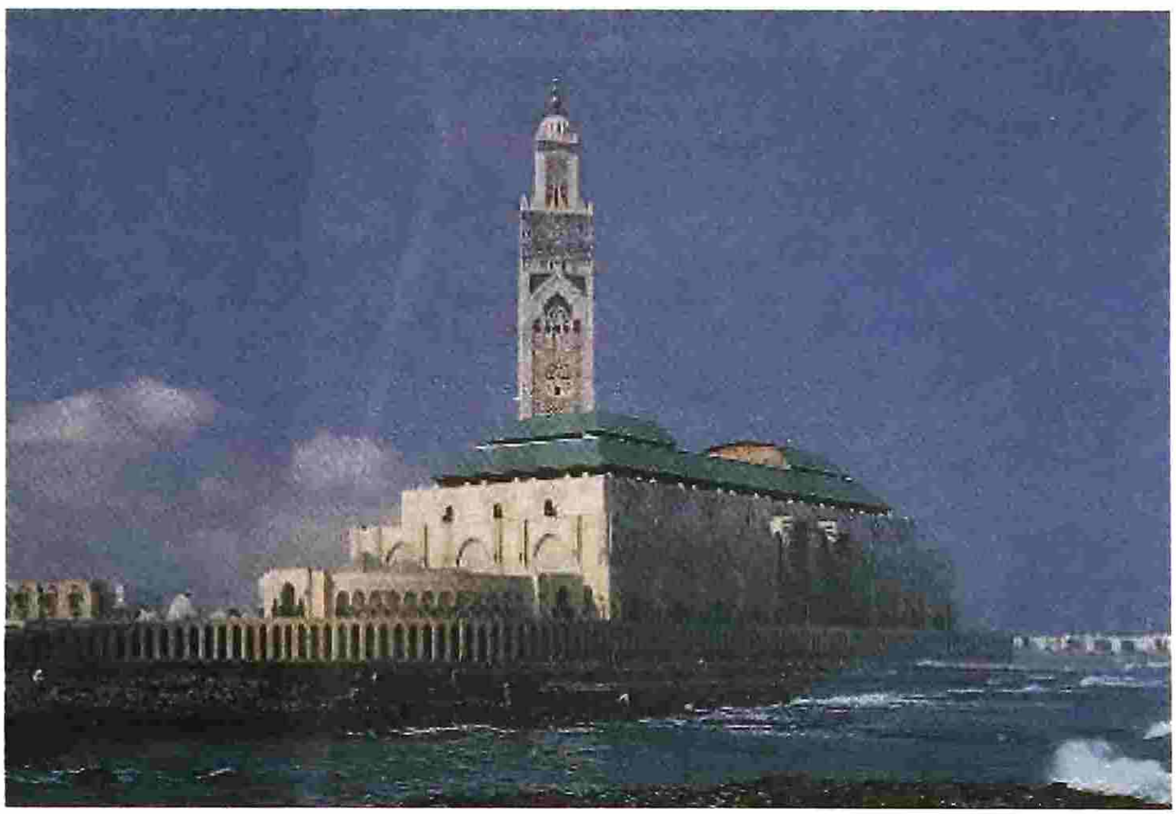
الشكل (٢٣ ـ ز): المسجد الأزرق بإسطنبول ـ لاحظ تعدد القباب ونحافة المنائر ـ
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ ح): مسجد بإيطاليا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



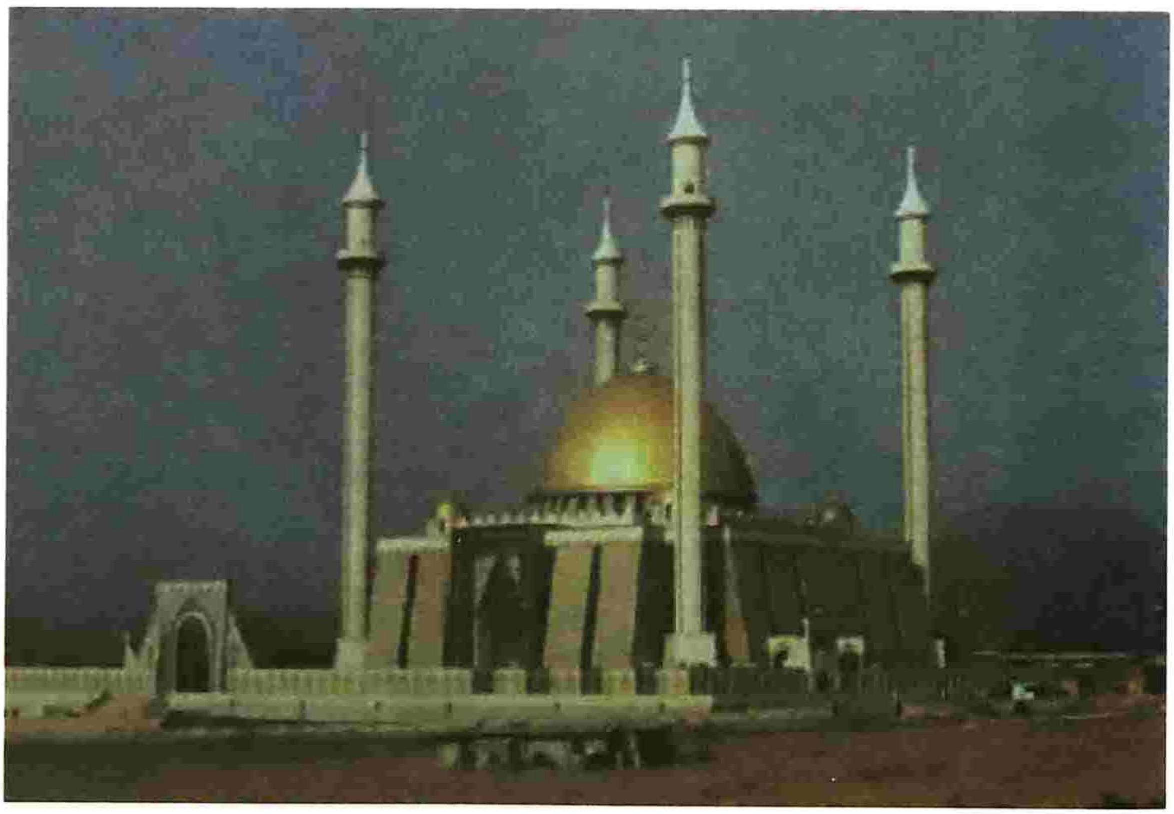
الشكل (٢٣ ـ ط): المسجد العائم بجدة
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ ي): مسجد بالرباط بالمغرب
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ ك): مسجد عمر علي صفي الدين
ـ لاحظ استخدام القباب الصغيرة حتى في المنائر
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ ل): المسجد الوطني بنيجيريا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



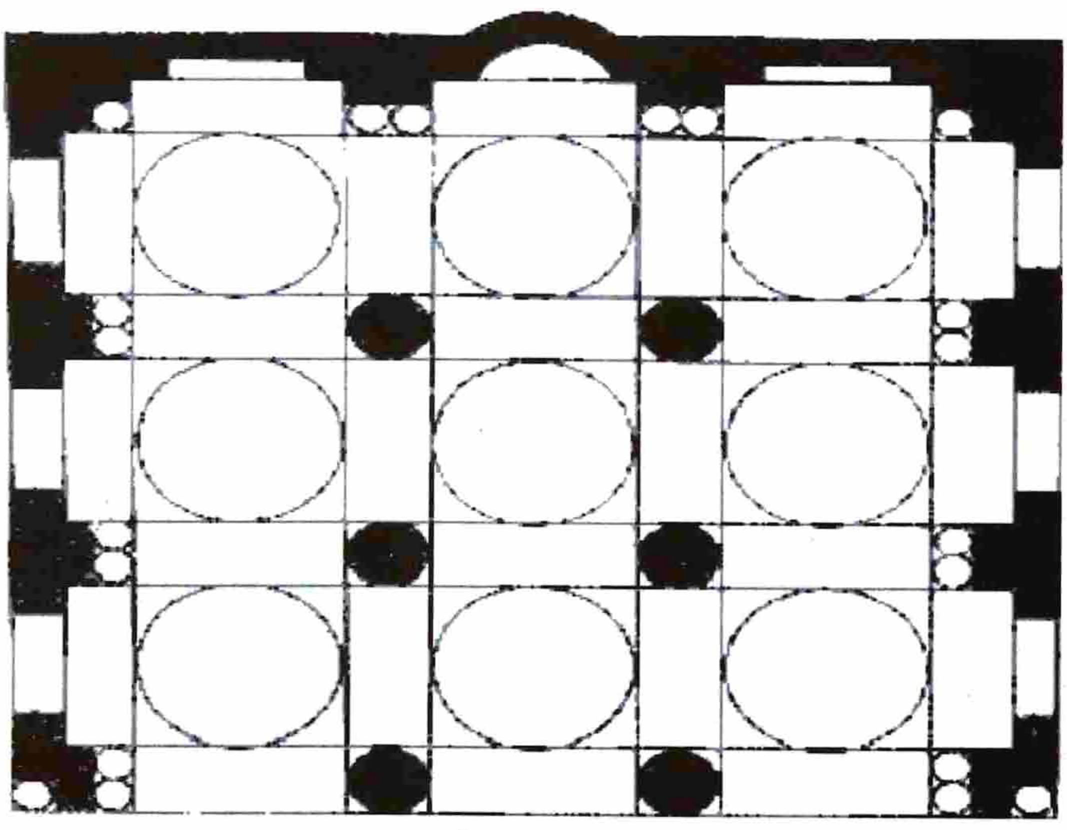
الشكل (٢٣ ـ م): مسجد شنغهاي بالصين
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ ن): مسجد بإسبانيا ـ لاحظ القباب والأقواس وأشكالها الجميلة ـ
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ



الشكل (٢٣ ـ س): منظر عام لمسجد ابن طولون بالقاهرة ويظهر فيه الإيوان والباحة ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (٢٣ ـ ع): مخطط لمسقط أفقي في مسجد التاريخ ببلخ ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (٢٣ ـ ف): مسجد مالي الكبير
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ

كذلك هناك مكان الوضوء وإقامة الإمام والخادم ومرافق أخرى كالحدائق والمكتبات وغير ذلك، خصوصاً لو كان المسجد ملحقاً بمدرسة أو جامعة كما هو نظام المدارس عبر الحقب الإسلامية المتناوبة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن المعماريين المسلمين كانوا متقدمين من حيث الدراية بحركات الشمس فاستخدموا تلك المعرفة في توجيه المساجد نحو القبلة عند تعامد الشمس مع الكعبة المشرفة[١].

(١) باختصار عن صفحات مختلفة من كتب: أسس التاريخ الحضاري والعمراني في العصور الإسلامية المختلفة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. مساجد الإسلام، طه الوالي، بيروت. العمارة الإسلامية عبر العصور، د. سعاد ماهر، جدة. العمارة الإسلامية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د. حسن نويصر. فقه العمارة الإسلامية، خالد عزب (دار النشر للجماعات المصرية). أسس تخطيط وعمارة=

الشكل (٢٣) يبين بعض أنماط المساجد المختلفة.

ثانياً: الهندسة المعمارية النبوية في إنشاء مسجد صنعاء الكبير:

عندما هاجر النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة للمدينة كان وصحابته يصلون باتجاه بيت المقدس، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتمنى أن تكون صلاته باتجاه محبوبته مكة المكرمة، فجاء أمر الله تعالى بتحويل قبلة الصلاة نحو بيت الله العتيق، وهذا ما هو مذكور عند أهل الكتاب من علامات نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حقيقة تحول قبلته نحو البيت العتيق ومكة المكرمة التي يسمونها عندهم بالمدينة العاقر ـ كناية عن أن مكة المكرمة لم يكن فيها أنبياء، بينما يسمون بيت المقدس المدينة الولود كناية عن كثرة ما كان فيها من أنبياء عليهم السلام جميعاً ـ،

= المدن الإسلامية، خالد عزب (كتاب الأمة). العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية، جلال شوقي (الكويت ١٩٥٠م). موسوعة حسن الباشا للعمارة والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا (القاهرة ١٩٩٧م). التراث المعماري الإسلامي في مصر، صالح لمعي. العمارة الإسلامية وخصائصها، د. عبدالقادر الريحاوي.. العمارة في صدر الإسلام، د. كمال الدين سامح. أوقطاي أصلان آب، فنون الترك وعمائرهم، إسطنبول ProductID ١٩٨٧م. موسوعة الآثار الإسلامية الليبية. العمارة في المغرب الإسلامي، مصطفى زيبس. بخارى الشريفة، تاريخها وتراثها الحضاري، خالد عزب. مدخل إلى العمارة الإسلامية، أمجد بوهميل بورفازكا (سويسرا، مركز هلاب). المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. المساجد، د. حسين مؤنس (الكويت ـ عالم المعرفة). تاريخ المساجد الأثرية، حسن عبدالوهاب (القاهرة ١٩٥٠م). البيوت في القاهرة في القرنين ١٧ ـ ١٨، قللي خنا. فنون الإسلام، زكي محمد حسن. مسجد القرويين، عبدالهادي التازي. المساجد والقصور، السيد عبدالعزيز سالم. صيدا، السيد عبدالعزيز سالم. العمارة الإسلامية في طرابلس والشام، عمر عبدالسلام. الفن الإسلامي، عفيف بهنسي.. موسوعة العمارة الإسلامية، عبدالرحيم غالب.. المصطلحات المعمارية من خلال وثائق المماليك، ليلى إبراهيم، محمد أمين (القاهرة ١٩٨٨م).

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في آيات محكمات كريمات في سورة البقرة
من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا
تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ
قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ
(١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ
(١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنْتَ
بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ
مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ
وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾ [البقرة: ١٣٩ ـ ١٥٠].

تدبر قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي

كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٤]، ستجد حقيقة إقرار القرآن بعدة أمور، منها:

١ ـ أن القبلة كانت لجهة فتحولت لجهة أخرى وهي بيت الله الحرام في مكة المكرمة وهو المسجد الحرام، أي: الكعبة المشرفة.

٢ ـ أن أهل الكتاب يعلمون بهذا التحول وهو مكتوب عندهم في كتبهم وهو من علامات نبوة الحبيب ـ ﷺ ـ، لذلك عقب في نهاية الآيات بقوله جل وعلا: ﴿... وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤ ـ ١٤٧].

٣ ـ أن هذه الأمة أمة وسطاً: فهي متوسطة الموقع الجغرافي في وسط العالم، وأن البيت العتيق هو وسط العالم قديمه وحديثه، الأمر الذي أثبتناه في كتاب المساحة وعلوم الأرض بواسطة بحوث ومراقبات عن بعد قام بها العديد من الباحثين المتخصصين. وكذلك فهي وسط في الفكر والتشريع والفرائض والتكليف والعقيدة والمعاملة والخلق والسلوك وكل شيء، فلا ضرر ولا ضرار وخير الأمور الوسط كما بيَّن الحبيب ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ.

٤ ـ أن هناك من سيعترض على هذا التحويل لأغراض دنيوية وأمراض نفسية شتى، ولكنه الحق كما أثبتت الأيام والقرون، وخصوصاً بعد تطور العلوم والتقنيات والمراقبات الحديثة.

اختلف أهل السنن وأهل السير حول وقت وتاريخ وكيفية تحويل القبلة، لكن المقرر هو نزولها في المدينة بعد الهجرة، واختلف في تحديد التاريخ ووقت الصلاة التي نزلت الآيات فيها، فقسم قال: وقت صلاة العصر، وقال آخرون: الظهر، وقال آخرون: الفجر، فأمر الناس بتحويل قبلتهم فحولوها وهم في الصلاة لذلك سمي ذلك المسجد بمسجد القبلتين وهو موجود إلى يوم الناس هذا.

- أخرج البخاري عن البراء قال: لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤]. فوجه نحو الكعبة وصلى معه رجل العصر، ثم خرج فمر على قوم من الأنصار فقال هو يشهد أنه صلى مع النبيّ ـ ﷺ ـ وأنه قد وجه إلى الكعبة فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر[(١)].

- أخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

---

(١) صحيح البخاري (٦/٢٦٤٨/٢٨٢٥)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م. قال الشراح: قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ تردده وتصرف نظرك. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من جهة السماء. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ لنوجهنك. ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ جهة تتجه إليها في صلاتك وتحبها ويميل إليها قلبك (البقرة: من الآية ١٤٤)، (فانحرفوا) مالوا إلى جهة الكعبة. (ركوع) راكعون. انظر: فتح الباري في شرح الحديث.. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧م.

﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤] فمر رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حولت، فمالوا كما هم نحو القبلة(١).

- لما هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة، فقال: «**يا جبريل وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود.** فقال جبريل: **إنما أنا عبد فادع ربك وسله**، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء فنزلت عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ فوجه إلى الكعبة إلى الميزاب». ويقال: صلى رسول الله - ﷺ - ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون. ويقال: بل زار رسول الله - ﷺ - أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله - ﷺ - بأصحابه ركعتين، ثم أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب، فسمي المسجد مسجد القبلتين، وذلك يوم الإثنين للنصف من رجب على رأس ثمانية عشر شهراً: (راجع طبقات ابن سعد)(٢).

- أقام رسول الله - ﷺ - بعد البعثة في مكة ثلاثة عشر سنة على الأصح، وقيل: خمسة عشر وقيل: عشراً، ثم هاجر إلى المدينة ودخلها ضحوة يوم الاثنين اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وأقام بها بالاجماع عشر سنين، ففي السنة الأولى من المحرم: بنى

---

(١) صحيح مسلم (جزء ١ - صفحة ٣٧٥، ٥٢٧)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م. وانظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط/٢، ١٣٩٢هـ.

(٢) محمد رسول الله ﷺ (جزء ١ - صفحة ١٨١)، محمد رضا، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م.

مسجده وسكنه وآخى بين المهاجرين والأنصار، وشرع الأذان. وفي السنة الثانية منها: في صلاة العصر من نصف شعبان، حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فدار - ﷺ - في ركوع الركعة الثانية ودارت الصفوف خلفه إلى الكعبة في مسجد بني سلمة فسمي مسجد القبلتين. وفي شعبان منها فرض صوم رمضان، وفيها فرضت صدقة الفطر، وفي رمضان هذا كانت غزوة بدر، وفي شوال منها بنى بعائشة رضي الله عنها، وفيها تزويج فاطمة رضي الله عنها(١).

⊙ عن البراء بن عازب قال: لقد صلينا بعد قدوم النبيّ - ﷺ - نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان الله يعلم أنه يحب أن يوجه نحو الكعبة، فلما وجه النبيّ - ﷺ - إليها صلى رجل معه ثم أتى قوماً من الأنصار وهم ركوع نحو بيت المقدس فقال لهم وهم ركوع: أشهد أن رسول الله - ﷺ - قد ولَّى وجهه نحو الكعبة فاستداروا وهم ركوع فاستقبلوها، رواه البخاري وغيره من حديث أبي إسحاق عن البراء. وعن البراء الحديث وفيه: وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلاها معه قوم فخرج رجل ممن صلاها معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله - ﷺ - قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان يعجبه أن يحول قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولَّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك. وفيه: أنه مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت، رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى: ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٣]. وقد اتفق العلماء على أن صلاة النبيّ - ﷺ - بالمدينة كانت إلى بيت المقدس، وأن تحويل

---

(١) انظر: كتب السير، مثل سيرة ابن هشام، والروض الأنف، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها، وانظر: النور السافر (جزء ١ - صفحة ٣)، دار المنار للطباعة والنشر، ط/١، ١٩٩٨م.

القبلة إلى الكعبة كان بها واختلفوا كم أقام النبيّ - ﷺ - يصلي إلى بيت المقدس بعد مقدمه المدينة؟ وفي أي صلاة كان التحويل؟ وفي صلاته - عليه الصلاة والسلام - قبل ذلك بمكة كيف كانت؟ فأما مدة صلاة النبيّ - ﷺ - إلى بيت المقدس بالمدينة فقد روي أنه كان ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً وروي بضعة عشر شهراً... قال الحربي: ثم قدم النبيّ - ﷺ - المدينة في ربيع الأول فصلى إلى بيت المقدس تمام السنة وصلى من سنة اثنتين ستة أشهر ثم حولت القبلة في رجب. وكذلك روي عن ابن إسحاق قال: ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله - ﷺ - المدينة. وقال موسى بن عقبة وإبراهيم بن سعد: عن ابن شهاب عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن كعب بن مالك: إن القبلة صرفت في جمادى، وقال الواقدي: إنما صرفت في صلاة الظهر يوم الثلاثاء في النصف من شعبان كذا عن أبي عمر بن عبدالبر والذي روي عن الواقدي من طريق ابن سعد. عن عكرمة عن ابن عباس قال ابن سعد: (وأخبرنا عبدالله بن جعفر الزهري عن عثمان بن محمد الأخنسي وعن غيرهما أن رسول الله - ﷺ - لما هاجر إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة فقال: «**يا جبريل! وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود**، فقال جبريل: **إنما أنا عبد فادع ربك وسله**، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤] فوجه إلى الكعبة إلى الميزاب»، ويقال: صلى رسول الله - ﷺ - ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون. ويقال: بل زار رسول الله - ﷺ - أم بشر بنت

البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ بأصحابه ركعتين، ثم أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستقبل الميزاب فسمي المسجد مسجد القبلتين، وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وفرض صوم شهر رمضان في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً، قال محمد بن عمر: وهذا الثبت عندنا)... قال القرطبي: الصحيح سبعة شهراً وهو قول مالك وابن المسيب وابن إسحاق، وقد روي ثمانية عشر، وروي بعد سنتين، وروي بعد تسعة أشهر، أو عشرة أشهر[١].

⊙ وأما الصلاة التي وقع فيها تحويل القبلة ففي خبر الواقدي هذا أنها الظهر وقد ذكرنا في حديث البراء قبل هذا أنها العصر، وقد روي عن ابن سعد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يصلي نحو بيت المقدس، فنزل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ [البقرة: ١٤٤]، فمر رجل بقوم من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة، فمالوا إلى الكعبة.

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير، ابن سيد الناس، ط/١، دار إحياء التراث العربي، (جزء ١ ـ صفحة **٣٦٣**). قال: وكل هذا عن السدي من كتابه في الناسخ والمنسوخ وهو مروي لنا بالإسناد المذكور وهو مروي عن أبي مالك عن ابن عباس، ثم يتخلل سياق خبره فوائد عن بعض رواة الكتاب، ثم يقول جامعه عند انقضائها وعودة إلى الأول: رجع إلى السدي ثم يقول عنه: قال ابن عباس كذا في أخبار متعددة متغايرة فيحتمل أن يكون ذلك عنده عن أبي مالك عن ابن عباس ويحتمل الانقطاع، ولو كان ذلك في خبر واحد لكان أقرب إلى الاتصال. والسدي هذا هو الكبير: إسماعيل بن عبدالرحمٰن يروي عن أنس وعبد خير، روى عنه الثوري وشعبة وزائدة، وكان يجلس بالمدينة في مكان يقال له: السد فنسب إليه. احتج به مسلم ووثقه بعضهم وتكلم فيه آخرون. والسدي الصغير: هو محمد بن مروان المذكور في الإسناد إليه مضعف عندهم.

وروي عن ابن سعد بسنده عن عمارة بن أوس الأنصاري قال: صلينا إحدى صلاتي العشي فقام رجل على الباب ونحن في الصلاة فنادى: إن الصلاة قد وجهت نحو الكعبة، فتحول أو تحرف إمامنا نحو الكعبة والنساء والصبيان، وليس في هذين الخبرين ما يعارض ما قبلهما لأن بلوغ التحويل غير التحويل(١).

⊙ وأما كيف كانت صلاته - ﷺ - قبل تحويل القبلة، فمن الناس من قال: كانت صلاته - ﷺ - إلى بيت المقدس من حين فرضت الصلاة بمكة إلى أن قدم المدينة، ثم بالمدينة إلى وقت التحويل. فلما صرف الله القبلة اختلف الناس في ذلك فقال المنافقون: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ وقال بعض المؤمنين: فكيف بصلاتنا التي صلينا نحو بيت المقدس؟ فكيف بمن مات من إخواننا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ تقول: قبل الله عز وجل منا ومنهم أم لا؟ وقال ناس من المؤمنين: كان ذلك طاعة وهذا طاعة نفعل ما أمرنا النبيّ - ﷺ -، وقالت اليهود: اشتاق إلى بلد أبيه وهو يريد أن يرضي قومه، ولو ثبت على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبيّ الذي كنا ننتظر أن يأتي، وقال المشركون من قريش: تحير على محمد دينه فاستقبل قبلتكم وعلم أنكم أهدى منه ويوشك أن يدخل في دينكم فأنزل الله في جميع الفرق - كلها -. فأنزل في المنافقين: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾، أي: إلى دين الإسلام، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ . . .﴾ إلى آخر الآية. وأنزل في المؤمنين: ﴿. . . وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ . . .﴾، يقول: إلا لنبتلي بها وإنما كانت قبلتك

(١) نفس المصادر السابقة.

التي تبعث بها إلى الكعبة ثم تلا: ﴿... وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ...﴾، قال: من المتقين؟ قال المؤمنون كانت القبلة الأولى طاعة وهذه طاعة فقال الله عز وجل: ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٣]، قال: صلاتكم لأنكم كنتم مطيعين في ذلك. ثم قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ...﴾ يقول: تنتظر جبريل حتى ينزل عليك: ﴿... فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا...﴾ يقول: تحبها، ﴿... فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ [البقرة: ١٤٤]، نحو الكعبة. ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩]، أي: أنك تبعث بالصلاة إلى الكعبة. وأنزل الله في اليهود: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]، قال: لئن جئتهم بكل آية أنزلها في التوراة في شأن القبلة أنها إلى الكعبة ما تبعوا قبلتك قال: وأنزل الله في أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦] قال: يعرفون أن قبلة النبيّ الذي يبعث من ولد إسماعيل ـ عليهما السلام ـ قبل الكعبة كذلك هو مكتوب عندهم في التوراة وهم يعرفون بذلك كما يعرفون أبناءهم وهم يكتمون ذلك وهم يعلمون أن ذلك هو الحق، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٧] يقول من الشاكين. قال: ثم أنزل في قريش وما قالوا، فقال: ﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ...﴾ قال: لكيلا يكون لأحد من الناس حجة ﴿... إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ...﴾، يعني: قريشاً، وذلك قول قريش: قد عرف محمد أنكم أهدى منه فاستقبل قبلتكم، ثم قال: ﴿... فَلَا

تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى...﴾ قال: فحين قالوا: يوشك أن يرجع إلى دينكم، يقول: لا تخشوا أن أردكم في دينهم، قال: ﴿... وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: أظهر دينكم على الأديان كلها[١].

وبعد استقرار القبلة نحو بيت الله العتيق وتوسع دخول الناس في دين الله من القبائل والأمصار ابتعث النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أصحابه لتثبيت دعائم الدين في الأمصار، ومنها اليمن، فبعث لهم من أصحابه علياً ومعاذ بن جبل وأبا موسى وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وكان منهم وبر بن يحنس الخزاعي فأمره ببناء مسجد وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يعرف اليمن ولا جغرافيتها ولا طوبوغرافية أرضها وجبالها فأمره أن يقيم مسجد بصنعاء ويبنيه على دعامات ويجعل قبلته نحو قمة جبل ضين ـ وهو جبل يبعد **٣٠** كيلومتراً عن صنعاء ـ كما يبين الشكل **(٢٥)**. فعن النعمان بن برزخ قال: حدثني ابن رمانة قال: قال وبر بن يحنس الخزاعي: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إذا بنيت مسجد صنعاء، فاجعله عن يمين جبل يقال له: ضين**»[٢].

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير، ابن سيد الناس، ط/١، دار إحياء التراث العربي، (جزء ١ ـ صفحة **٣٦٣**). قال: وكل هذا عن السدي من كتابه في الناسخ والمنسوخ، وهو مروي لنا بالإسناد المذكور وهو مروي عن أبي مالك عن ابن عباس، ثم يتخلل سياق خبره فوائد عن بعض رواة الكتاب، ثم يقول جامعه عند انقضائها وعودة إلى الأول: رجع إلى السدي ثم يقول عنه: قال ابن عباس كذا في أخبار متعددة متغايرة فيحتمل أن يكون ذلك عنده عن أبي مالك عن ابن عباس ويحتمل الانقطاع، ولو كان ذلك في خبر واحد لكان أقرب إلى الاتصال. والسدي هذا هو الكبير: إسماعيل بن عبدالرحمٰن يروي عن أنس وعبد خير، روى عنه الثوري وشعبة وزائدة، وكان يجلس بالمدينة في مكان يقال له: السد فنسب إليه. احتج به مسلم ووثقه بعضهم وتكلم فيه آخرون. والسدي الصغير: هو محمد بن مروان المذكور في الإسناد إليه مضعف عندهم.

(٢) المعجم الأوسط (**٨٣١/٢٥٣/١**)، قال: لا يروى هذا الحديث عن وبر بن يحنس إلا بهذا الإسناد، تفرد به عبدالملك الذماري. الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٩**م.

وفي وبر بن يحنس الكلبي قال ابن حبان: يقال: له صحبة، وقال الواقدي: وفي سنة عشر قدم وبر بن يحنس على الأبناء عند النبيّ ـ ﷺ ـ فنزل على بنات النعمان بن بزرج فأسلمن، وبعث الى فيروز الديلمي فأسلم والى مركبود فأسلم، وكان ابنه عطاء أول من جمع القرآن، يعني: باليمن. وقال ابن فتحون: ذكره الواقدي فيمن أسلم من أهل سبأ، وأخرج ابن السكن وابن منده من طريق عبدالملك بن عبدالرحمٰن الذماري عن سليمان بن وهب عن النعمان بن بزرج أن وبر بن يحنس قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إذا قدمت صنعاء فأت مسجدها الذي بحيال الضبيل** ـ جبل بصنعاء ـ **فصل فيه**»، زاد ابن السكن في روايته: فلما قتل الأسود الكذاب قال وبر: هذا الموضع الذي أمرني به رسول الله ـ ﷺ ـ أن أصنع فيه المسجد[1].

وقد قام الصحابي الجليل بتطبيق أوامر النبيّ المهندس ـ عليه الصلاة والسلام ـ دون أن يبحث في الأسباب كما يبين الشكل (**٢٤**)، فقام بنصب العمدان والدعامات فكانت الدعامة المسمورة والمنقورة ووضع فيها الصخرة الململمة وجعل جبل ضين على يمينه ووجه القبلة باتجاه قمة الجبل، ولكن ماذا كانت النتيجة؟!

كانت النتيجة، أننا اليوم وباستخدام الأقمار الصناعية وبمساعدة برنامج جوجل العالمي نرسم خطاً مستقيماً من قبلة المسجد الكبير بصنعاء نحو قمة جبل ضين، ومن ثم نحو مركز الكعبة المشرفة كما يبين الشكل (**٢٦**). فكيف تسنى له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو النبيّ الذي لا يقرأ ولا يكتب ولا يعلم شيئاً عن الجغرافية والطوبوغرافية أن يعلم أن اتجاه الكعبة المشرفة سيكون من مكان بناء المسجد باتجاه قمة جبل لا يعلم عنه

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج **٦** ص **٥٩٩**)، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ط/١، **١٤١٢**هـ، قال ابن منده تفرد به الذماري. وانظر: الطبقات الكبرى (ج **٥** ص **٥٣٣**)، محمد بن سعد، ط/١، دار الفكر العربي، **١٩٩٨**م.

شيئاً ولم يره ولم يزره؟! وهل يمكن ذلك لأكبر مهندسي العالم أن يؤكدوا تلك التعليمات في إنشاء أي مُنشأ إلا بعد زيارات ميدانية واطلاع عن كثب ودراسات وحسابات؟!!

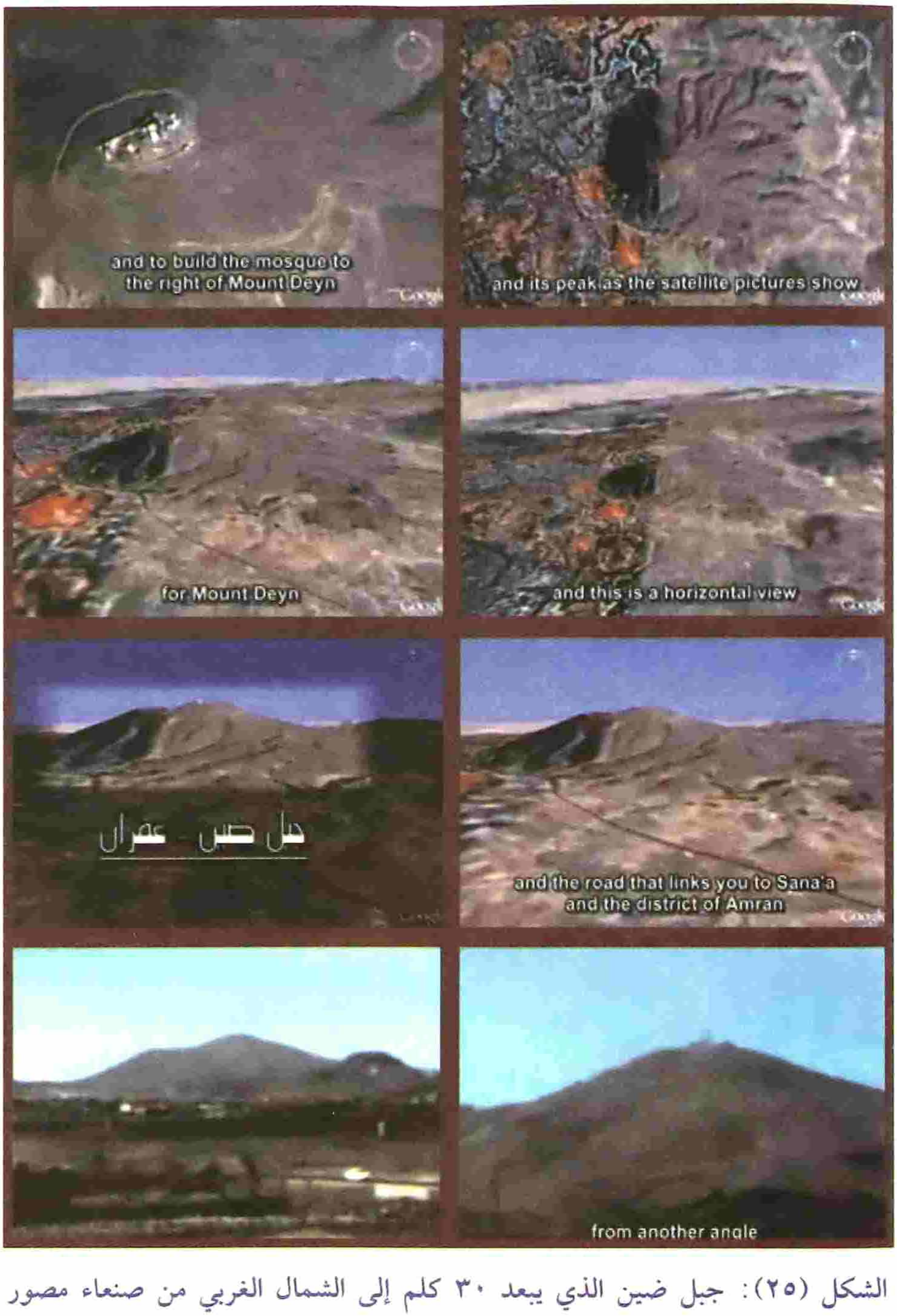
فالحق والحق نقول: إنه لا يمكن لأي مكابر إلا أن يعترف أنه الحق من رب العزة أنزله على صدره الشريف ليبين للناس حجته البالغة إلى يوم القيامة، فسبحان الله والحمد لله ونشهد أنه لا إله إلا هو، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين والقوانين كلها ولو كره المشركون(١).

---

(١) عن بحث (جوجل يشهد أن محمداً رسول الله (Google believes Muhammad) الاستاذ الدكتور عبدالمجيد الزنداني، بتصرف.



الشكل (٢٤): الدعامتان المسمورة والمنقورة والصخرة الململمة،
وكيف تم جعل جبل ضين على يمين المسجد وتوجيه القبلة باتجاه قمة الجبل



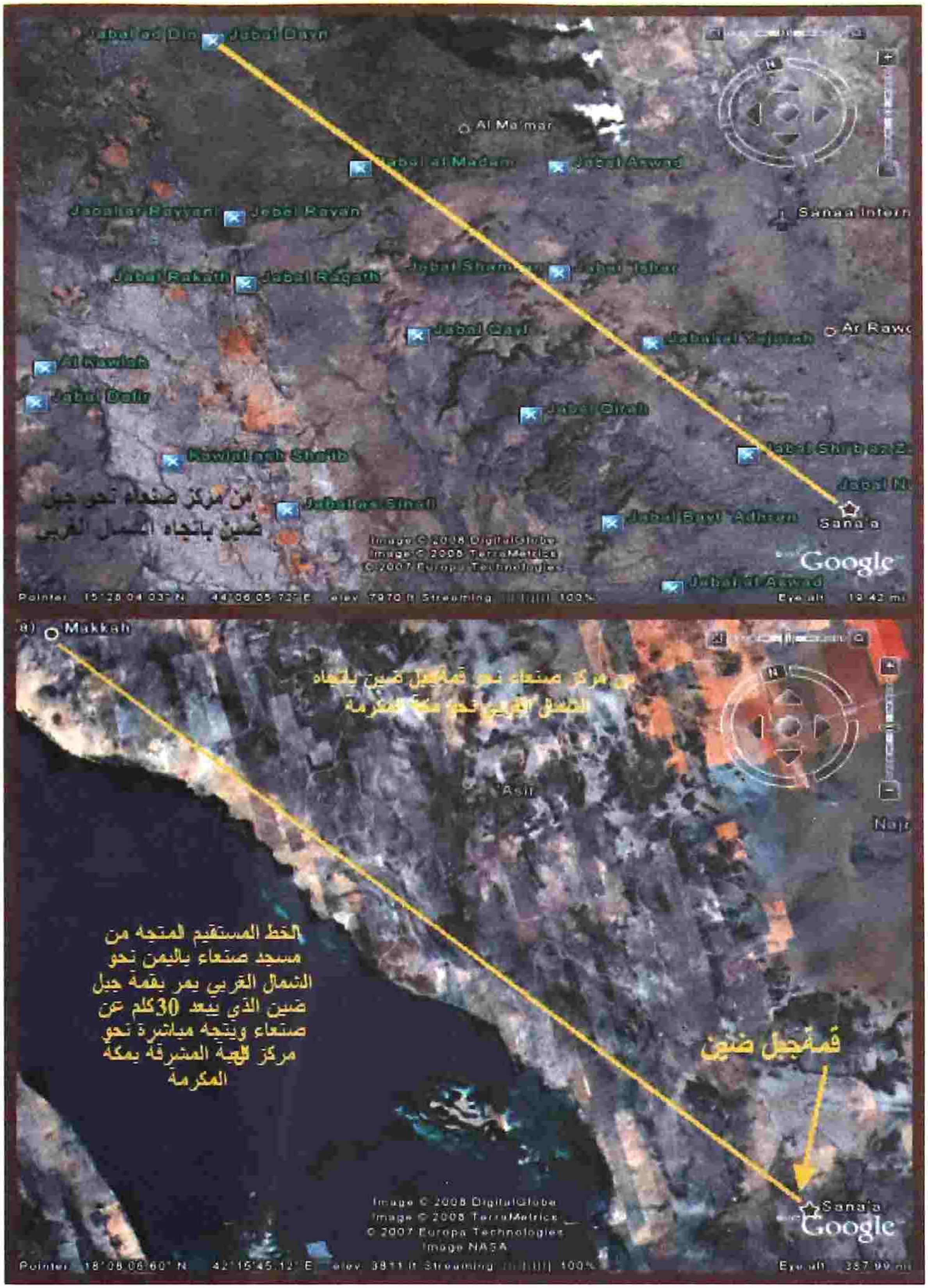
الشكل (٢٥): جبل ضين الذي يبعد ٣٠ كلم إلى الشمال الغربي من صنعاء مصور بالأقمار الصناعية وبالتصوير المرئي القريب كذلك، ويتضح عليه معسكر للجيش ومحطة تقوية بث تلفازي



الشكل (٢٦ ـ أ): الخط المستقيم المار من قبلة مسجد صنعاء الكبير الذي بناه الصحابي وبر بن يحنس يتجه نحو قمة جبل ضين، ومن ثم استمرار الخط المستقيم لينتهي في مركز الكعبة المشرفة



الشكل (٢٦ ـ ب): الخط المستقيم المتجه من مسجد صنعاء باليمن نحو الشمال الغربي يمر بقمة جبل ضين الذي يبعد ٣٠ كلم عن صنعاء ويتجه مباشرة نحو مركز الكعبة المشرفة بمكة المكرمة



الشكل (٢٦ ـ جـ): الخط المستقيم يمر من مركز صنعاء وحتى قمة جبل ضين باتجاه مركز مكة المكرمة



الشكل (٢٦ ـ د): الخط المستقيم المار من قبلة مسجد صنعاء الكبير الذي بناه الصحابي وبر بن يحنس يتجه نحو مركز الكعبة المشرفة

ثالثاً: هندسة الخط والزخرفة:

أما الخط وهندسته وفنونه وتأثيره على الهندسة المعمارية، فهي من أيام ابن البواب وابن مقلة، مروراً بياقوت المستعصمي، وانتهاءً بتلامذة هاشم في بغداد عبدالغني وصلاح شيرزاد ونزار الدوري وغيرهم، وتلامذة تحسين المحظوظ بالقاهرة، وعصبة نشأت في إسطنبول، فهو بحق أروع الفنون الإسلامية.

وهناك علي الندوي في معهده بالشارقة، والدكتور القانوني الفنان عبدالغني عبدالعزيز العاني، تلميذ هاشم الأول، وهو اليوم بباريس سفير للحضارة الإسلامية تلقاء الغرب، ومترجم لأذواق الإيمان وخلجات قلوب الموحدين، وكذلك كان ياقوت الأماسي خطاطاً لدى المستعصم آخر خلفاء بني العباس.

ولدينا في القرن الخامس عشر الشيخ حمد الله ثم أحمد القرة حصاري، وفي القرن السابع عشر الحافظ عثمان الذي نقلت المصاحف التي طبعت بخطه إلى كل أرجاء العالم الإسلامي وحتى بلاد الهند وإندونيسيا. ثم هناك مصطفى راقم، ثم محمود جلال الدين المتوفى عام **١٨٢٩**م. وبعده في القرن الثامن عشر محمد أسعد يساري وابنه وتلميذه يساري زادة عزت مصطفى. ومن شهيرات الخطاطات المبدعات ببغداد أواخر القرن التاسع عشر الخطاطة صالحة النقشلي رحمها الله. ولا ننسى الخطاطين الإيرانيين أمثال ابن الفضل الساوجي ومير عماد ونور الدين محمد اللاهيجي، ثم مشكينز. ومن الجيل العملاق للقرن العشرين الميلادي الخطاط هاشم محمد ببغداد. وبدوي بالشام، وحامد الآمدي بإسطنبول، وسيد إبراهيم بالقاهرة[1].

---

(١) صناعة الحياة، د. محمد أحمد الراشد، دار المنطلق لنشر وتوزيع الكتب والقرطاسية، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط/٢، **١٤١٢**هـ - **١٩٩٢**م، ص**٧٥** - **٨٠**.

تقول مارت برنوس تايلور رئيسة قسم الفن العربي الإسلامي في متحف اللوفر في باريس عن الفن الإسلامي: إنه يتميز بالوضوح والشمول. وقد ألفت كتاباً من ستة فصول، وهو جزء من مشروع كبير لدراسة الفن الإسلامي، وهو يتناول في ستة فصول العصور الإسلامية الأموية، العباسية، الأموية في الأندلس والفاطمية وصقلية المسلمة وشمال أفريقيا وإسبانيا في منتصف القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر الميلادي. افتتحت كل فصل بعرض تاريخي موجز ثم درست أبرز الإنجازات الفنية في ذلك العصر (المساجد، القصور، السيراميك، النسيج. . .).

إن الفن الإسلامي يعبِّر عن روح الحضارة العربية الإسلامية وكمثل فن الخط وفن العمارة لأنهما يتصلان اتصالاً مباشراً بالدين، أما المنمنمات فهي أيضاً من الفنون الأصيلة[١].

ومع الأسف، فإن الزخارف والريازات الإسلامية طرأ عليها تداخلات لأفكار ومعتقدات ورموز غير إسلامية المنبع والأصل مما حرفها عن فكرتها المعمارية، وأصبحت هي المميزة الآن بعد تعود الناس على رؤيتها دون تمحيص. بل لم تسلم حتى طبعات القرآن الكريم من ذلك التي هي بين أيدينا نقرأها يومياً ولا ننتبه إلى تفاصيل الزخارف المحيطة بكلام الله تعالى. والشكل (**٢٧**) يوضح بعض أشكال الزخارف الدخيلة على الإسلام.

لكن هذا لا يمنع من القول بأن الزخارف وفنها المعماري بشكل عام هي إحدى أهم الميزات المعمارية الإسلامية، وقد أخذت بها مدارس ومشارب شتى كما يتبين من الأشكال (**٢٧**)، (**٢٨**) و(**٢٩**).

(١) نص مقتبس عن مقابلة أجريت مع مارت برنوس تايلور رئيسة قسم الفن العربي الإسلامي في متحف اللوفر في باريس، مجلة كل العرب، العدد **٣٣٥**، يناير **١٩٨٩**، ص٥٤.

رابعاً: تخطيط المدن والمباني الخدمية:

برع المسلمون في عمارة المدن الجديدة فأسست مدن كثيرة منذ تأسيس الكوفة والبصرة والفسطاط مروراً بمدن الشرق ومدن الإمبراطورية العثمانية وحتى يومنا هذا. وذلك يقتضي بالضرورة بناء المدارس والمستشفيات والأسواق والحمامات والمكتبات وغير ذلك.

أدناه نبين بعض تلك التفاصيل:



الشكل (٢٧): بعض الزخارف الإسلامية التي طرأت عليه تداخلات لأفكار وديانات سماوية وطقوس وضعية قبل الإسلام



شكل يوضح زخارف من مدارس شتى: الشكل العلوي الأيمن -النمط المغربي ـ.. العلوي الأيسر السلجوقي والعثماني.. الوسطي الأيمن زخارف قلعة بصرى.. الوسطي الأيسر زخارف وأقواس مدارس بلخ.. السفلي الأيمن زخارف سامراء.. السفلي الأيسر قصر المشتى بالأردن. -عن موقع الإرث الإسلامي -

الشكل (٢٨): زخارف من مدارس شتى



الشكل (٢٩ ـ أ): بعض الأصناف من الزخرفة الخطية الإسلامية الخلابة

ـ عن الموقع /http://myweb.saudi.net.sa/alawi ـ



الشكل (٢٩ ـ ب): تشكيلة من الزخارف الإسلامية الأخاذة

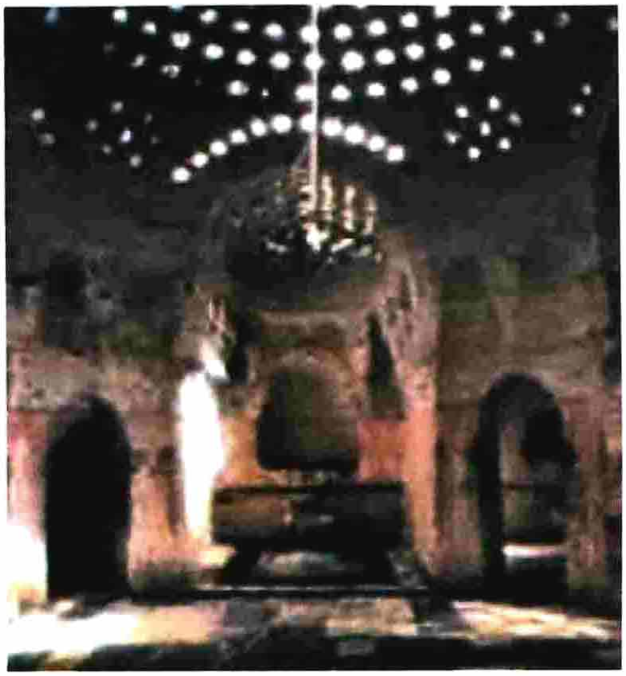
ـ عن الموقع /http://myweb.saudi.net.sa/alawi ـ

١ ـ **المستشفيات**: بيمارستان كلمة فارسية تتكون من مقطعين: بيمار بمعنى مريض، ستان بمعنى مكان، أي: أن معناها مكان معالجة المرضى (المستشفى)، وقد أقيمت أول مستشفى في العصر الإسلامي في عهد الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م)، ولكنه يرجح أنه كان مبنياً لعزل مرضى الجذام. ومن ثم، فإن أول مستشفى بمعناها الكامل أنشئت في عهد هارون الرشيد ١٩٣ هـ في بغداد وجلب لها الأطباء من المستشفى الساساني في جوند ياشبور في خوزيستان وقد أقام ابن طولون أول مارستان في مصر عام ٢٦١هـ.

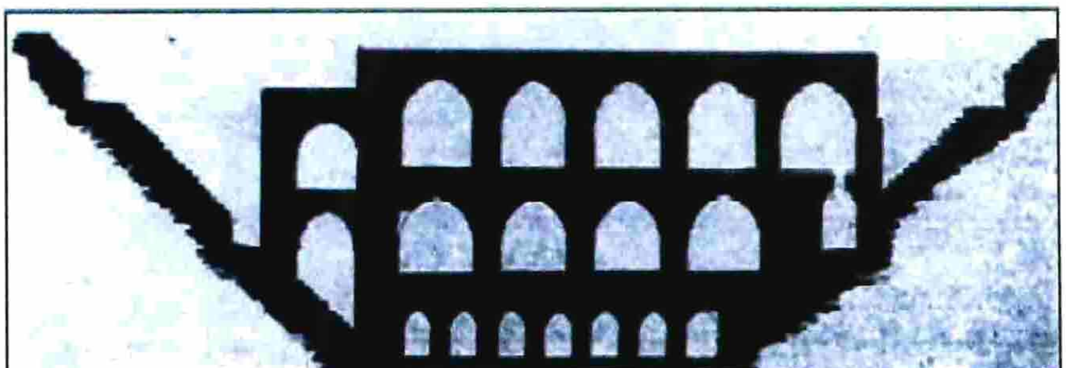
كذلك أقام صلاح الدين الأيوبي البيمارستان الناصري عام ١١٨٢م، إلا أنه لم يبق من هذه المنشآت آية أثار، ويعطينا البيمارستان الذي أنشأه قلاوون، الذي كان ملحقاً بمدرسته ومدفنه صورة واضحة عن تلك المنشآت. وقد خصص لكل مرض قاعة فقد كانت به أقسام للرمد والجراحة والأمراض الباطنية، كذلك كانت به قاعة للأمراض العقلية ملحق بها حجرات صغيرة لعزل الحالات الخطيرة هذا بالإضافة لجناح خاص للسيدات وعيادة خارجية، وكان بها مدرسة للطب بها صالة لتلقى بها المحاضرات، وزودت بمكتبة علمية. وتطل هذه الصالة ذات الأعمدة على الصحن ويتقابل بها الأطباء للتداول في الحالات المختلفة. أما في العيادة الخارجية فيتم صرف الأدوية والأغذية للمرضى الذين يعالجون بها ولم يبق من هذه المستشفى سوى بقايا إيوانين: قسم من الإيوان الشرقي به ماء سبيل (وهو الماء المتاح لابن السبيل والمسافر)، وكذلك جزء من الإيوان الغربي، وبه أيضاً سلسبيل كانت تنساب عليه المياه إلى حوض ومجراه. ولا يزال استعمال هذه المستشفى (مباني حديثة) قائماً حتى الآن لعلاج أمراض العيون.

٢ ـ **الحمامات**: كما أن الحمامات الإسلامية التي تعجب منها الفرنجة عند زيارتهم لبغداد هارون الرشيد، كان لها الدور المعماري الرائع في إضفاء سمة الخصوصية والتخصص للبناء شأنها شأن المستشفيات والمدارس والمكتبات وغير ذلك. وقد ذاع صيت الحمامات الشامية

والمغربية وغيرها منذ أمد الدولة العباسية صعوداً. كذلك صممت خزانات المياه لتستوعب حاجة المياه المتصاعدة كما هو الحال في قلعة بصرى بالشام وغيرها. (انظر: الشكل ٣٠).



الشكل (٣٠ ـ أ): أحد حمامات دمشق
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

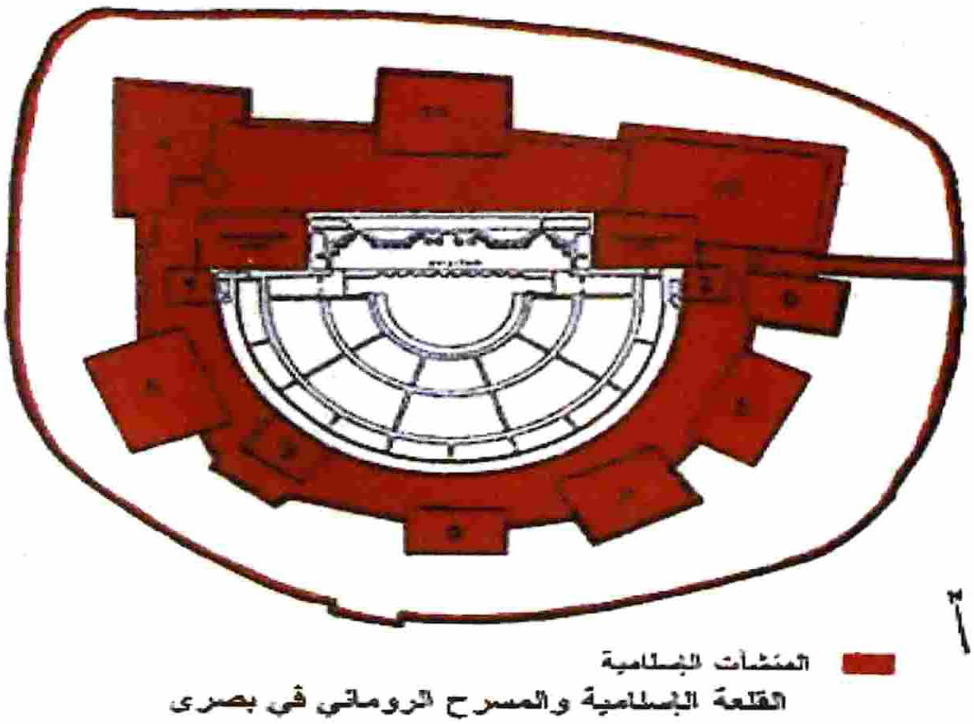


مقطع في خزان المياه والمستودعات والثكنة داخل قلعة بصرى

Figure : Section of the water reservoir and the barracks and the supplies store inside the citadel.

الشكل (٣٠ ـ ب): خزان المياه في قلعة بصرى ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

٣ ـ القلاع: كما برز بناء القلاع وهي كثيرة جداً كقلاع الشام والعراق والمغرب والأندلس وغيرها. ومن ذلك وكمثل يضرب في هذا المجال قلعة بصرى المبينة في الشكل (٣١).



الشكل (٣١ ـ أ): القلعة الإسلامية في بصرى وهي تحيط بالمسرح الروماني
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (٣١ ـ ب): القلعة الإسلامية في بصرى وهي تحيط بالمسرح الروماني
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



Figure: The bastions and the ditch of the citadel surround the theatre

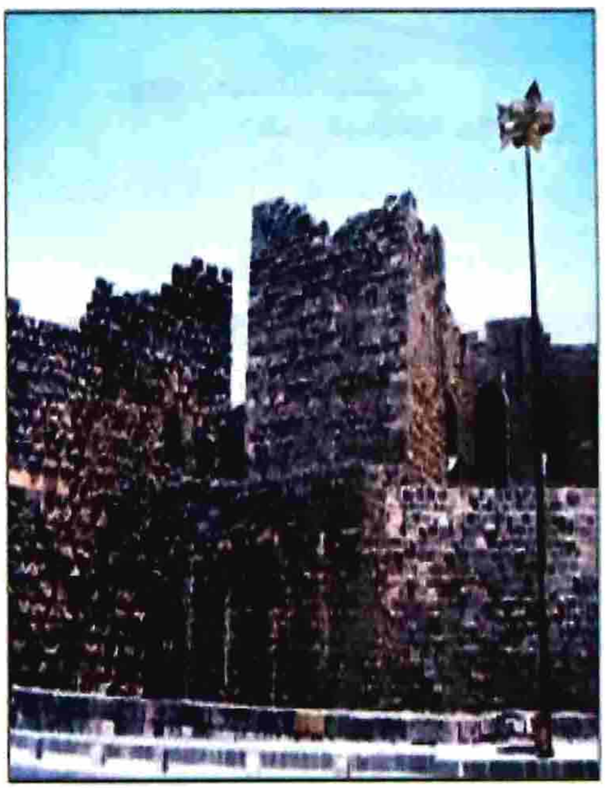


Figure: The bastion 3 touches the outside walls of the theatre



الشكل (٣١ ـ جـ): القلعة الإسلامية المحيطة بالمسرح الروماني ببصرى
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

٤ ـ **القصور**: وما أكثرها فمن قصور الشام إلى قصور بغداد ومصر والمغرب والأندلس وإيران ودولة بني عثمان والسلاجقة والمماليك وحدث ولا حرج. وكل فترة زمنية ورقعة جغرافية تميزت عن غيرها بمميزات يطول شرحها وتفصيلها ولكننا هنا في معرض سرد بعض من تفاصيل أنماط وأصناف العمارة لا الدخول في تفصيلات ومميزات كل نوع، فذلك يتطلب مجلدات وبحوث متعمقة ورسائل دراسات عليا كثيرة وهو ما يحصل بحمد الله في شتى الجامعات الإسلامية وغير الإسلامية لسبر أغوار هذه الثورة المعمارية الفذة التي أنتجتها عقول أبناء هذه الأمة المعطاء.

في قصور الحيز الشرقي والغربي بجوار تدمر وقصر المشتى في الأردن والمنية على بحيرة طبريا وقصر عمرا في البادية، إضافة إلى قصور بغداد والأندلس وإسطنبول وغيرها الكثير، فكانت الحمامات والأرائك والصناديق الخشبية المزخرفة بأوراق الأكانتس وتفرعات العنب والسلال المتدلية منها أفرع النباتات واستخدامات السيراميك والزخارف المختلفة كلها شيدت مدرسة عالمية لهذا النوع من الهندسة.

والشكل (**٣٢ ـ أ**) أدناه يبين واحداً من القصور المهمة الشاخصة لحد اليوم وهو قصر الأخيضر الكائن بقرب مدينة كربلاء العراقية، وقد استمر بناؤه **٨** أعوام بدءاً من العام **٧٢٠** هجرية. أما الشكل (**٣٢ ـ ب**) فيبين مخطط لزخارف قصر المشتى بالأردن.

٥ ـ **المدارس وصروح العلم**: وكان الاهتمام بها متميزاً لدرجة أنه لم ينازعها أي شيء آخر في اهتمام الخلفاء والأمراء والسلاطين برغم اختلاف توجهاتهم ما أوصلهم لحد الاقتتال في أحيان، ولكنهم متفقون على أهمية الاهتمام بالعلم والعلماء. ولعل بناء دار الحكمة ببغداد وما جلبه من نشر للعلم من مختلف مدارسه العالمية يمثل دليلاً ساطعاً على هذا الأمر. كما أن إنشاء المراصد الفلكية في بغداد والشالم والمغرب وفارس وغيرها يمثل دليلاً آخر على هذا التوجه عند مختلف الحكام في دول الإسلام عبر عصورها.

أما التخطيط لذلك، فكان يصرف عليه الوقت والجهد والمال

والرجال، والأمثلة أكثر من أن تحصى في كتاب محدود مثل هذا. ومن ذلك المدرسة المستنصرية والنظامية ببغداد، جامعة القيروان بتونس، الجامع الأزهر بمصر، مدرسة التاريخ ببلخ، مدرسة كاراتاي بكونيا، جامعات ومدارس الأندلس العديدة، منارة المدرسة، الجامعات والمدارس العثمانية وغيرها الكثير، انظر: الشكل (**٣٣**).

Ukhaidar Palace (720-800 CE)



Figure : The main gate showing its Pishtaq form, probably the first used in Islam.

الشكل (٣٢ ـ أ): حصن وقصر الأخيضر قرب كربلاء العراقية

ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

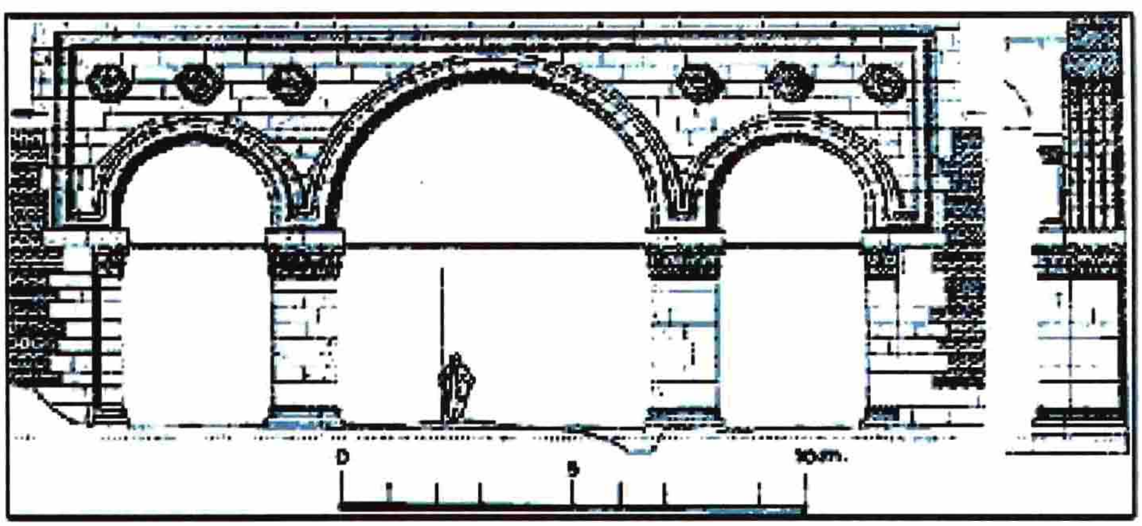
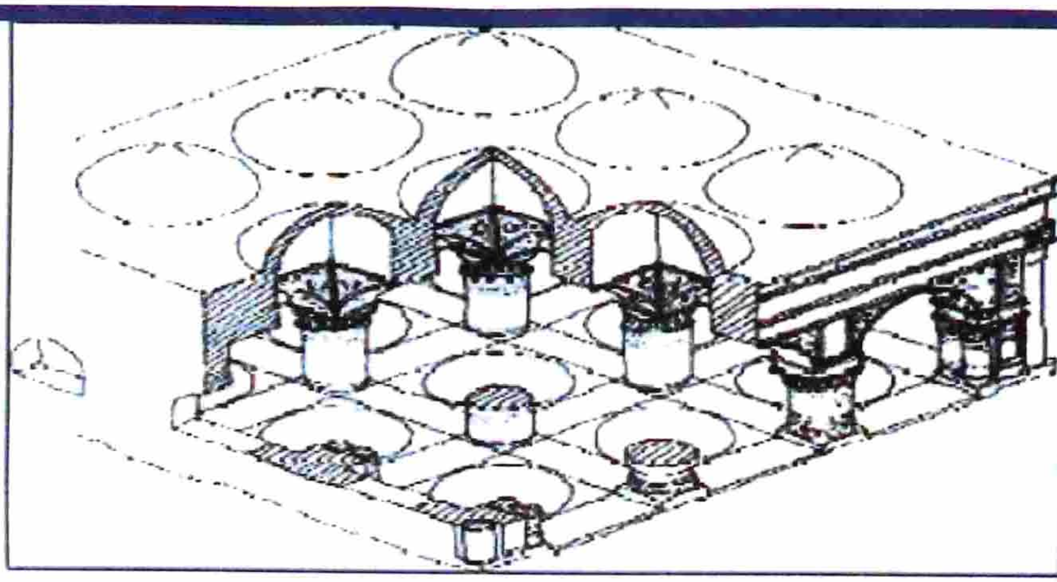


Figure : The triple arched audience hall entrance reconstructed

الشكل (٣٢ ـ ب): أقواس وزخارف قصر المشتى بالأردن

ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



Detailed diagram showing a reconstructed Masjid-i-Tarikh.

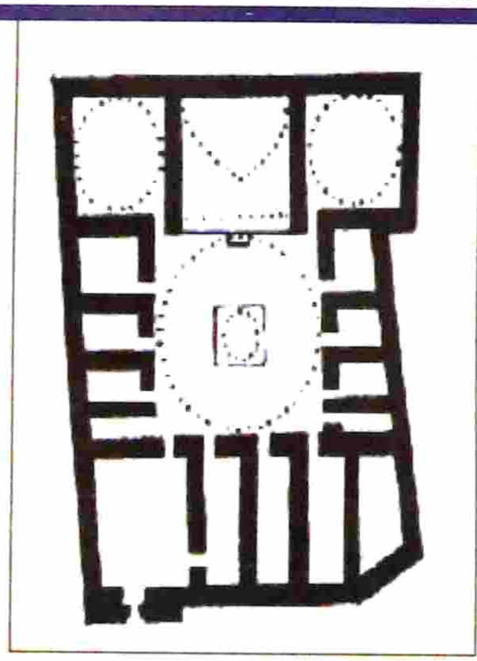
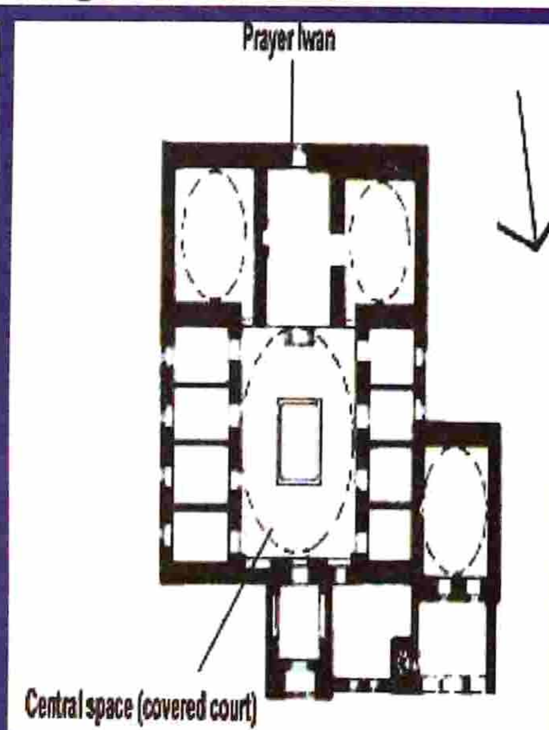


Figure 1. Plan of the Karatay Madrasa showing the dominance of the central hall (covered court)



The general plan of Ince minaret madrasa (1260-65)

شكل يبين مخططات مدارس عديدة

العلوي: مسجد ومدرسة تاريخ ببلخ.. السفلي الأيمن: مدرسة كاراتاي بكونيا

السفلي الأيسر مدرسة المنارة

-عن موقع الإرث الإسلامي -

الشكل (٣٣): مخططات مدارس عديدة

٦ ـ **السوق في المدينة الإسلامية**: حركة السوق في المدينة الإسلامية مرتبطة بالمناخ الإسلامي وبقواعد السلوك الاقتصادي وبالرصيد الحضري للنظام الإسلامي.

الاقتصاد في الإسلام جزءٌ من كل، ولا يمكن تطبيق جزء منه دون بقية الأجزاء عدا بعض الاستثناءات، والإسلام بوصفه كياناً حضرياً لا يقبل التجزئة، لأنه صيغة حياة اجتماعية واقتصادية ونفسية فردية وجماعية، وعالمية، دنيوية وأخروية، خلقية ومادية، وترتبط كل هذه الكيانات العضوية في كائن عام بتفاعلات متبادلة غير قابلة للنقص أو القطع أو التجزئة، تعمل في تناسق واتساق بغير غنًى للجزء عن الكل، أو للكل عن الجزء.

السوق في المدينة الإسلامية ليس نسقاً ثقافياً في ذاته بقدر ما هو جزء من نظام ثقافي أكبر، أو باعتباره جزءاً متكاملاً ومتلاحماً ومتفاعلاً مع أنظمة فرعية أخرى منبثقة من نظام أكبر هو النظام الإسلامي، وما فيه من مذهب اقتصادي يعالج المسائل الاقتصادية، ويحدد أنواع الملكية ويفرض نظاماً وقواعد للإنتاج والتوزيع، ويوفر الضمانات للتكافل الاجتماعي والتوازن الاجتماعي، ويفرض ضريبة الزكاة ليعطيها إلى مستحقيها ولإقامة المشاريع العامة والمنشآت الثقافية، كإقامة الجسور، وبناء المدارس، وتشييد الجامعات، وإقامة المستشفيات ودور الرعاية الاجتماعية.

والسوق كوسط اجتماعي تلتقي فيه جماعات وفئات متغايرة تتأثر بالفكر الإسلامي في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ويتمثل ذلك في نظام الحسبة الذي عرف لأول مرة في العصر العباسي وهو تطوير لفكرة والي السوق التي عرفت في العصرين النبوي والراشدي ومن ثم الأموي. وظيفة المحتسب الرئيسية هي الأشراف على الأسواق والطرق وتنظيمها، وإزالة المعوقات عن الأعمال التجارية، والحفاظ على أمن وسلامة طرق المدينة وأسواقها ونظافتها، ومراقبة الأسعار والمكاييل والموازين والإشراف الصحي على المطاعم، وباعة السمك والدجاج،

ومنع الغش والتدليس، وعدم السماح لكل أمر يؤدي إلى الأضرار بمصلحة الفرد والجماعة حسب القاعدة الإسلامية: (لا ضرر ولا ضرار)، فالسوق يتأثر بالخلقيّة الدينية والإطار الثقافي للمجتمع.

٧ ـ **الحدائق والمروج والساحات**: كان لهذا الصنف من العمارة أهمية كبرى فقد وضع للتشجير والحدائق وريها الاعتبار الكبير، وصرف من أجل ذلك جهد الأمراء والحكام في شتى بقاع العالم الإسلامي وعبر كل دوله وأمصاره.

ومن يقرأ كتب مختصر البلدان لليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، ومعجم البلدان للحموي، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري، وخطط المقريزي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتجارب الأمم لابن مسكويه، والحيوان للجاحظ، وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، والإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي لأندريو واطسن، وغيرها من الكتب الكثير، يعلم أن المسلمين كانوا أول من جعل من الحدائق والمروج علماً هندسياً حقيقياً من حيث أنواع وترتيب الأشجار والثمار، بل حتى حدائق الحيوان كان المسلمون أول من جعلها مرتبة بشكل هندسي وكان ذلك في بغداد[١].

خامساً: عناصر التصميم الداخلي:

إن العناية بدراسة الفراغ الداخلي والأسطح الداخلية بالمباني الدينية وخاصة إيوان القبلة كانت فائقة، ومن ثم عملت له التكسيات الرخامية

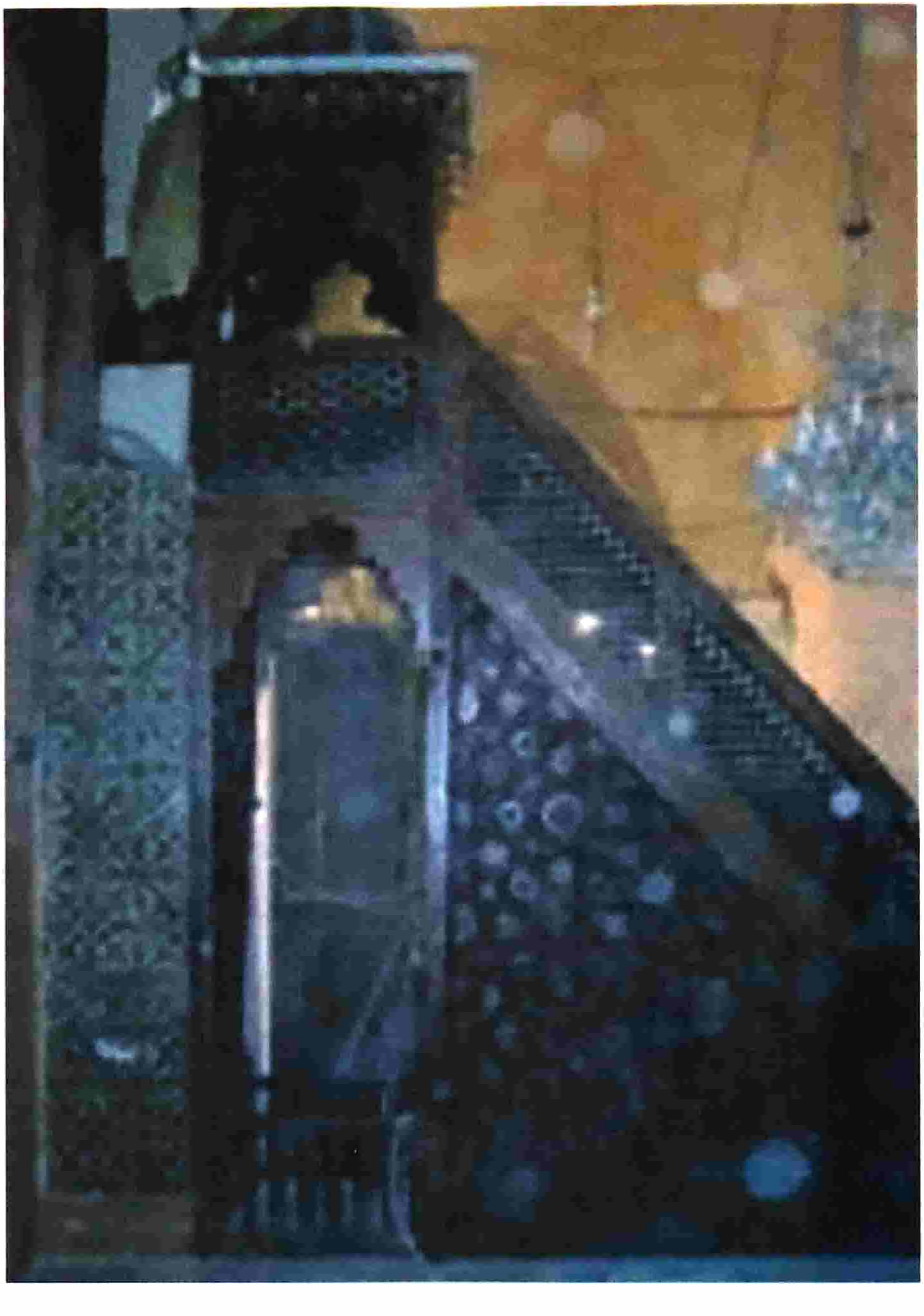
---

(١) عن المطبوع المنشور ضمن أبحاث الندوة التي أقامها مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد بالتعاون مع أمانة بغداد للفترة من ٢٢ ـ ٢٤ نيسان ١٩٩٠م، بحوث الدكتور عماد محمد الحفيظ والأستاذ عادل محمد علي الشيخ حسين والأستاذ خليل حسن الزركاني التي تحمل الصفحات ١٣٥ ـ ١٧٩. وهنا من المهم أن نعيد القارئ الكريم لما ذكرناه في فصل سابق في موضوع هندسة التصميم الخارجي في القرآن الكريم وما بيَّنته الآيات الكريمات في ذلك، ولعل أبرزها ما جاء من ذكر الحدائق ومواصفاتها كما في سورة الكهف وسورة سبأ وغيرها.

والأسقف الخشبية الملونة المزخرفة، وكان الاهتمام بالغاً بالعناصر الداخلية اللازمة لأداء فرائض الصلاة مثل المحراب والمنبر والدكة وكرسي المصحف والمنبر كما في الشكل **(٣٤)**.

ولم تحظ الواجهات الخارجية بالعناية التي أحيطت للحوائط الداخلية، كذلك استعمل الخط بأنواعه المختلفة كعنصر زخرفي في حوائط الواجهات الداخلية أو جدران وحوائط الإيوانات، أو حول المحاريب، كما استعملت الزخارف الهندسية والنباتية معتمدة في تأثيرها على ما تحدثه من تباين بين الضوء والظل.

ولقد اختلفت مدارس كل نوع من هذه الأنواع تبعاً للفترة الزمنية والظروف المحيطة، فمثلاً يبرز لدينا النوع المملوكي الجميل الذي برز إبان الحكم المملوكي بمصر ومن أشهر نتاجاته المنبر المملوكي، وكذلك صناعات الكراسي والمناضد المملوكية التي امتزجت بخبرات ومدارس أخرى لتنتج لنا تحفاً إسلامية رائعة كما في الشكل **(٣٥)**، ومنها ما يعرف اليوم بالـ (أرابيسك).



الشكل (٣٤): المنبر المملوكي وتفاصيله الجميلة
- عن موقع الإرث الإسلامي -



الشكل (٣٥): تحف إسلامية

سادساً: تفاصيل معمارية إسلامية:

ندرس في هذه الفقرة بعض الحالات الخاصة لبعض العمارات الإسلامية ومكوناتها كالأقواس والقباب ومدارسها، وكذلك بعض استعمالات الدائرة في بعض المدن الإسلامية، وأيضاً ما عرف ببيت الكردلية ضمن مدرسة العمارة المملوكية والعثمانية.

١ ـ **أنظمة الأقواس والقباب**: بيَّنا في كتاب الهندسة الوصفية الكثير من التفاصيل التي أوردتها الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في أشكال هندسية تصريحاً وتلميحاً، وكانت من بين تلك الأشكال الأقواس والقباب.

كانت للحضارات القديمة أشكال متنوعة للأقواس والقباب، ولم تخلُ عمارة حضارة من تلك الأقواس والقباب، فهناك الأقواس الإغريقية والرومانية، وهناك الأقواس البابلية والآشورية، والأقواس الفارسية، والصينية وغيرها. ويمكننا عموماً أن نقسم أنواع الأقواس معمارياً إلى الأنواع التالية(١):

١ ـ أقواس أحادية المراكز، ومنها: قوس متدلي، قوس حدوة حصان، قوس قطاع، قوس نصف دائري.

٢ ـ أقواس ثنائية المراكز وتسمى أيضاً بالمدببة أو أقواس الزوايا، ومنها: قوس زاوية حادة، قوس زاوية معتدلة، قوس زاوية مفلطحة.

٣ ـ الأقواس ثلاثية المراكز: وتكون إما برأس زاوية أو بشكل بيضوي.

٤ ـ الأقواس رباعية المراكز: وتكون بشكل رأس زاوية مقارب للمفلطح.

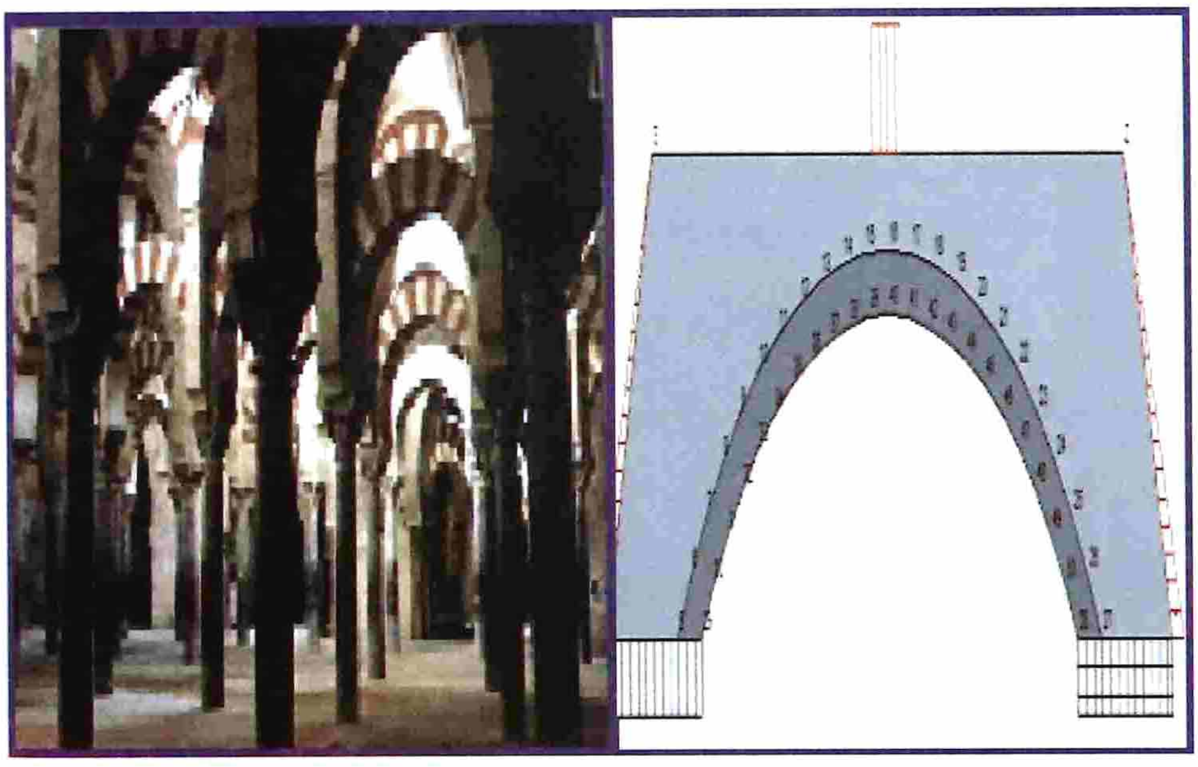
٥ ـ الأقواس ذات الأشكال الخاصة: ومنها المنبسطة، والقوس المتدرج بشرفة وهو قوس برأس زاوية وتتفرع منه قوسان طرفيان أو أكثر، قوس الرفوف وهو قوس برأس زاوية وفي محيطه تدرج سلمي، وكذلك قوس متعدد الأقواس وهو عبارة عن قوس برأس زاوية

(١) إنشاء المباني، آرتين ليفون وزهير ساكو، جامعة بغداد، كلية الهندسة، قسم الهندسة المدنية، ط١، ١٩٨٣، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، بتصرف.

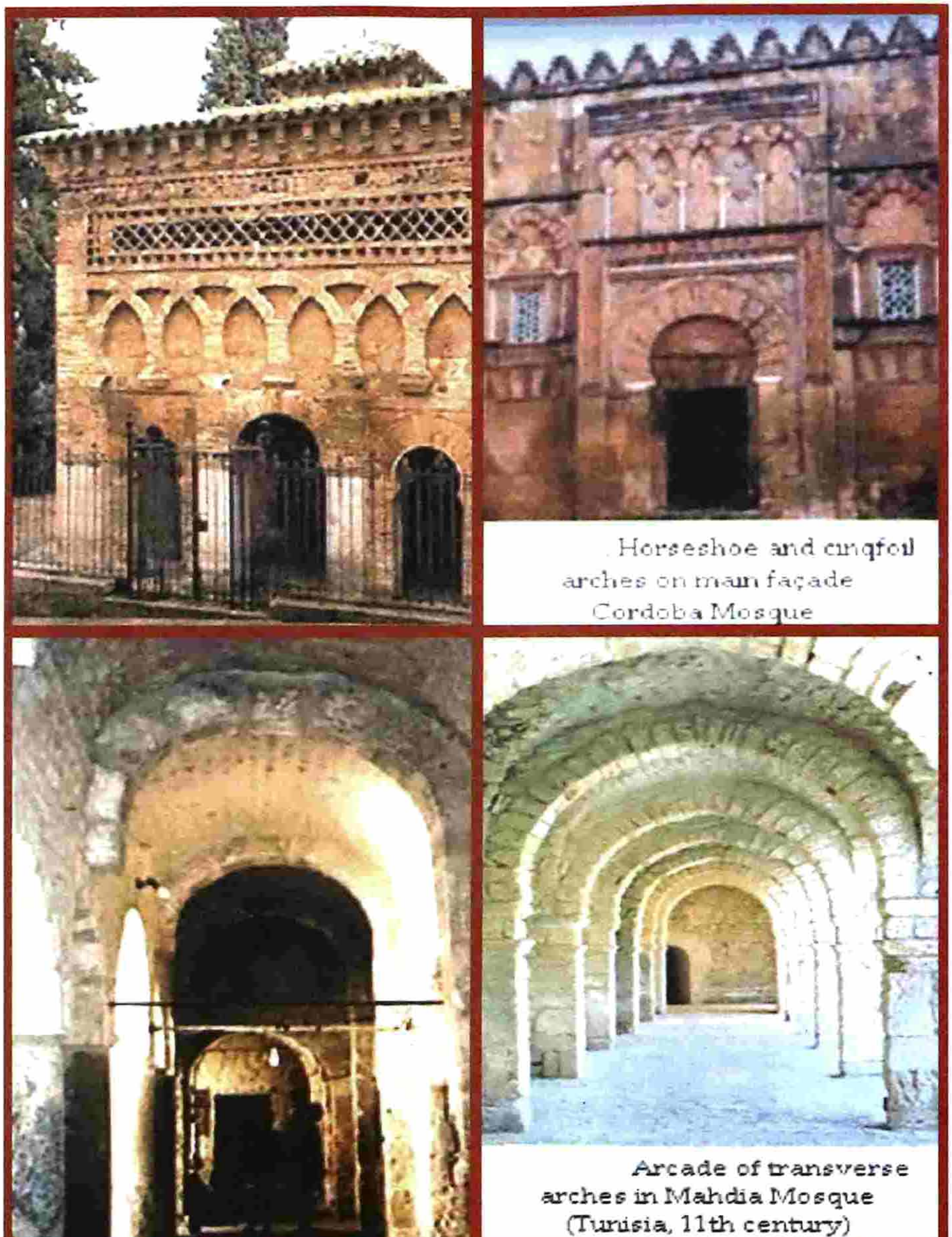
ولكن يحوي أقواساً صغيرةً على طول محيطه (انظر: الأشكال **٢٣** ـ و، **٢٣** ـ س المبيّنان آنفاً).

لو لاحظنا هذه التقسيمات المعمارية للأقواس نجد أن أغلبها أقواس برع بها المسلمون ومنهم نقلت لأوروبا من طرق مختلفة مثل شمال أفريقيا والأندلس وتركيا وأواسط آسيا، فالأقواس القديمة كانت في أغلبها أقواساً دائريةً أو بيضويةً. أما تقنية الأقواس بزاوية (pointed arch) وذات المراكز المتعددة بكل أنواعها المبينة في الشكل **(٣٧)** فقد جاءت بها العمارة الإسلامية ومنها نقلت للعالم، ويبين هذا الأشكال بعض النماذج من هذه الأقواس في عمارة المسلمين وبعض من النماذج الأوروبية المنقولة عنها، بينما يبين الشكل **(٣٦)** نموذجاً حاسوبياً لتصميم القوس ونقاط تحميله وهطوله إنشائياً.

وأما القباب فقد بينا أثرها البالغ في عمارة المساجد وأوضحنا أشكالها الجميلة في صور أصناف المساجد المختلفة عبر العالم، فضلاً عما بيَّناه في كتاب الهندسة الوصفية في هذا الموضوع.



الشكل (٣٦): نظام الأقواس المعماري برع به المسلمون وابتكروا أنماطاً جديدة غيرت عمارة الأقواس القديمة



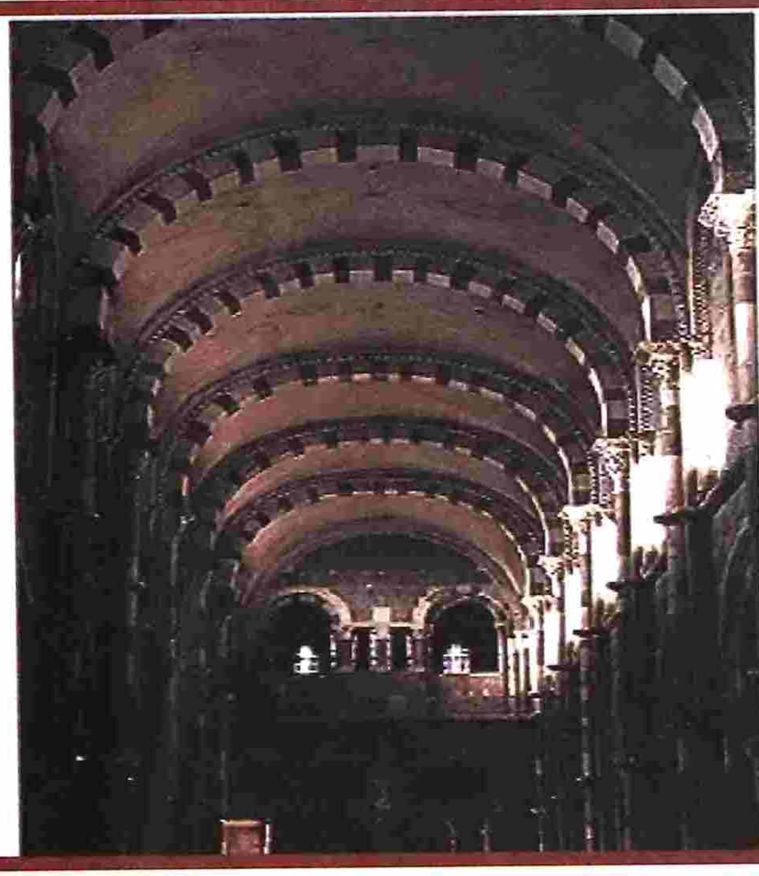
شكل يبين نماذج إسلامية لاستخدام أقواس للتسقيف والتزيين..

أقواس نوع (Hourseshoe) و (cinqfoil) في باب مردم وجامع قرطبة وجامع المهدية بتونس - عن موقع الإرث الإسلامي -

الشكل (٣٧ ـ أ): نماذج إسلامية لاستخدام أقواس للتسقيف والتزيين



Two examples of European imitation of Soussa ribs; Nave at St. Sernin (France), above, and the nave at St.Madeline at Vezelay, (France between 1104- 1132), below.



الشكل (٣٧ ـ ب): يبين نماذج من الأقواس الفرنسية (سانت سيرينين ـ الأعلى ـ، سانت ميديلين ـ الأسفل ـ) التي نقلت عن أقواس العامرة الإسلامية ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ





الشكل (٣٧ ـ جـ): العلوي: قوس (pointed Arch) في مسجد ابن طولون أحد مصادر نقله إلى أوروبا

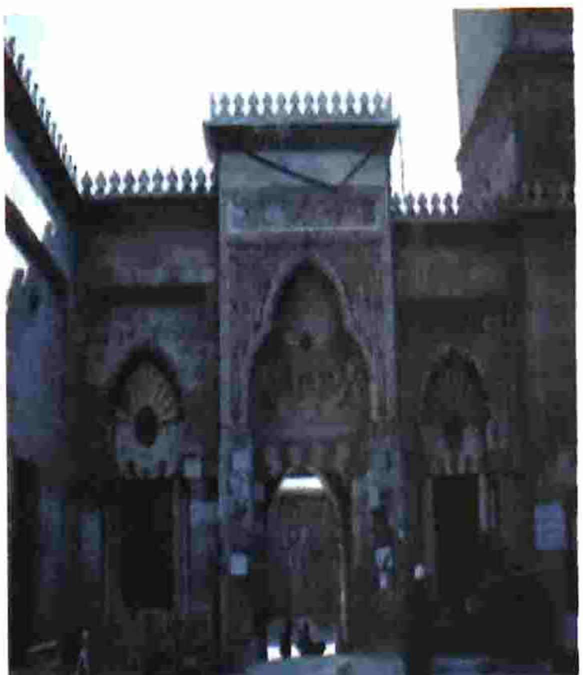
السفلي: بوابة جامع القرويين بتونس وقوسه المزخرف المميز

ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (٣٧ ـ د): الأقواس بمسجد أوزبكستان
طريق آخر لنقل تقنيات الأقواس الإسلامية لأوروبا
ـ عن موقع الفن المعماري (www.m3mary.com) ـ





الشكل (٣٧ ـ هـ): اليمين: زخارف وقوس (pointed Arch) ببوابة مدرسة منار
اليسار: زخارف ومسجد اليبو بمصر ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ



الشكل (٣٧ ـ و): أقواس وقباب متنوعة داخل المسجد السليماني بتركيا طريق آخر لنقل تقنيات الأقواس الإسلامية لأوروبا
ـ عن موقع الإرث الإسلامي ـ

٢ ـ الاستعمال الهندسي للدائرة في عمارة المدن الإسلامية: إن استعمال الشكل الدائري واضح في تنفيذ الفكرة التصميمية وفي تشكيل بناء قبة الصخرة، أقواسها وزخارفها، كما أنها تمثل أسلوباً أموياً ظهر في مبانيهم التاريخية الأخرى من بيوت وقصور وقلاع ومساجد. ويشكل بناء قبة الصخرة متحفاً فنياً أموياً، كما أصبح مدرسة معمارية عند الأجيال الإسلامية المتعاقبة بما يحويه من أفكار ذات أصالة فنية عمرانية واضحة في مجال التشكيل الفراغي الداخلي والكتلي والخارجي، واستعمال المؤثرات الزخرفية المختلفة بألوان قوية وجرأة نادرة تنم عن رقي في الذوق والتشكيل، وتضفي على المكان روعة بصرية ذات تأثيرات حسية ونفسية قوية. هذه المدرسة الفنية أكدت على الخصائص الجمالية المعمارية واللغة الفنية، ومنها الخاصية المكانية، وأثر البيئة الروحية والنفسية عند المعماريين والفنانين، نقلوا منها وحافظوا على أسرارها الجمالية الرائعة، فكانت انطلاقة ذات مفردات معمارية لها من الأصالة والتميز الشيء الكثير. فشهد المكان نشاطاً عمرانياً وفنياً

ملموساً إبان الفترة العباسية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، كل مدخل طابعه الخاص بما ينسجم والبناء والمحيط العمراني ومتأثر باللغة المعمارية للمكان حتى وقتنا الحاضر. يبرز عنصر الدائرة في عمائر بيت المقدس عموماً وفي الطراز المملوكي خاصة حيث تشكل الدائرة كياناً مستقلاً في العناصر والتكوينات المعمارية: في القباب وواجهات الأبنية وفتحاتها كالأبواب والشبابيك والشرفات أو الوحدات الزخرفية المجسمة والمسطحة. وقد قدم بعض الباحثين العديد من الدراسات التي تكشف عن بعض الأسرار التي اعتمدت عليها الفنون المعمارية والزخرفية العربية التي تم استيداعها في مدينة القدس، فأضافت اليها قدسية عربية بالإضافة إلى قدسيتها الإسلامية. وعليه، يجب الحفاظ عليها وعلى أسرارها الفنية[١].

٣ ـ الكردلية ومتحف جاير أندرسون، عبقرية في فن العمارة الإسلامية: بيت الكردلية الذي بناه أحد أعيان القاهرة وهو محمد ابن الحاج سالم بن جلمام الجزار عام **١٦٣١**م ـ **١٠٤١**هـ، يعد هذا البيت وبعض الدور القليلة الباقية في كل أنحاء القاهرة وربما في مصر كلها من الآثار الإسلامية النادرة والثمينة في القاهرة... لكونها تعطي أمثلة حية على ما وصلت إليه العمارة الإسلامية من رقي وتحضر وتفنن اتسقت فيه قيم العقيدة الإسلامية مع القيم الجمالية لهذه العمارة في ركن هام من أركان العمارة الإسلامية وهو عمارة المسكن والإعاشة خصوصاً في العصرين المملوكي والعثماني... وقد تعاقبت الأسر الثرية في السكنة في بيت جلمام الجزار حتى سكنته سيدة من جزيرة كريت فعرف منذ ذلك الحين بيت الكريتلية أو الكردلية وهو مسجل بهذا الاسم في مصلحة الآثار. ويقع هذا البيت في الجهة الشرقية للجامع المهيب المعروف بجامع ابن طولون وبيت الكردلية هو أحد بيتين من بيوت الأعيان يواجهان بعضهما ويعودان في إنشائهما لنفس العصر العثماني. والبيت الآخر

---

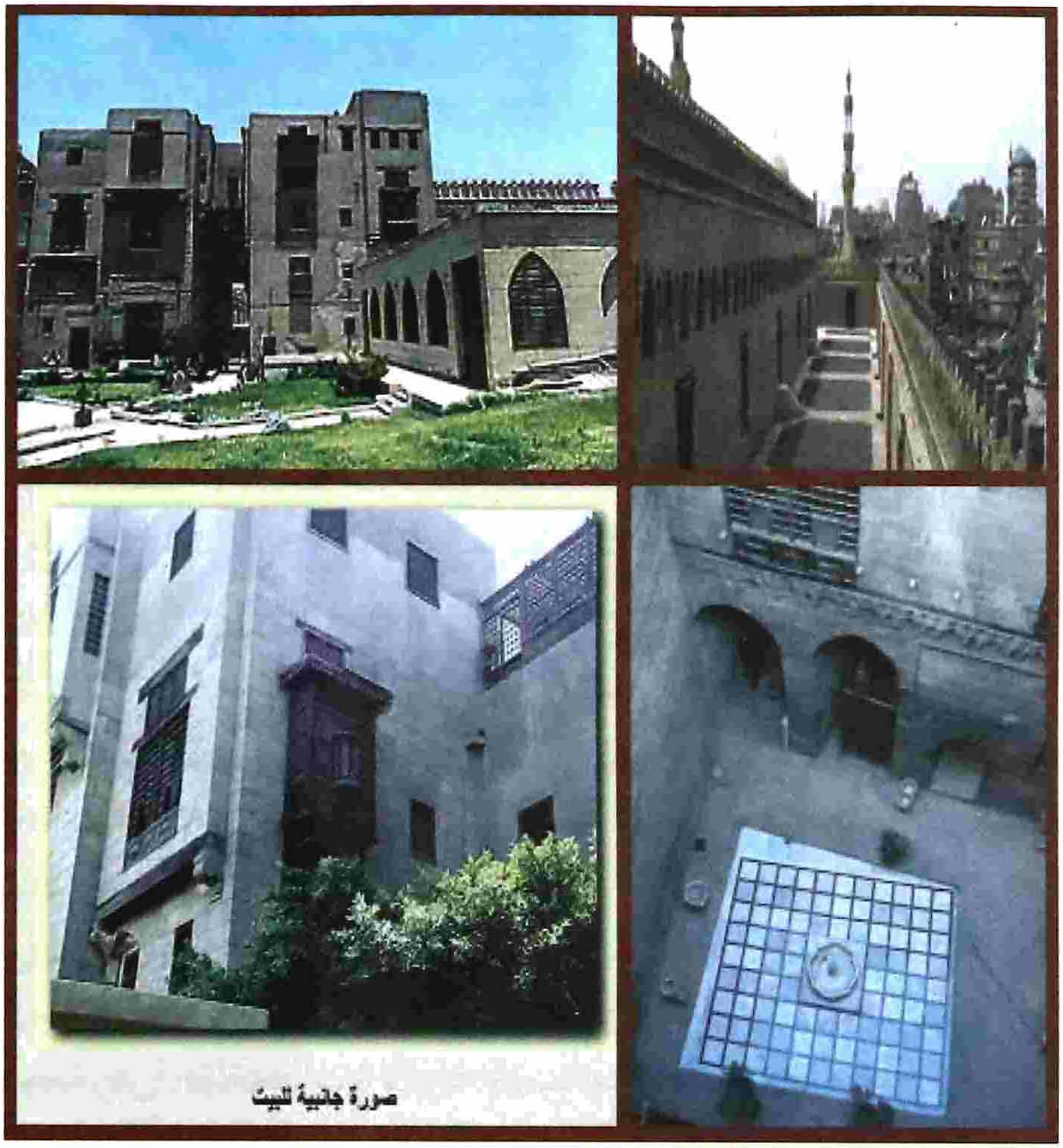
(١) عن بحث للدكتور علي فايز الغول بعنوان: (الاستعمال الهندسي للدائرة في عمارة مدينة القدس).

هو المعروف باسم بيت آمنة بنت سالم (انظر: الشكل **٣٨** ـ أ، ب).

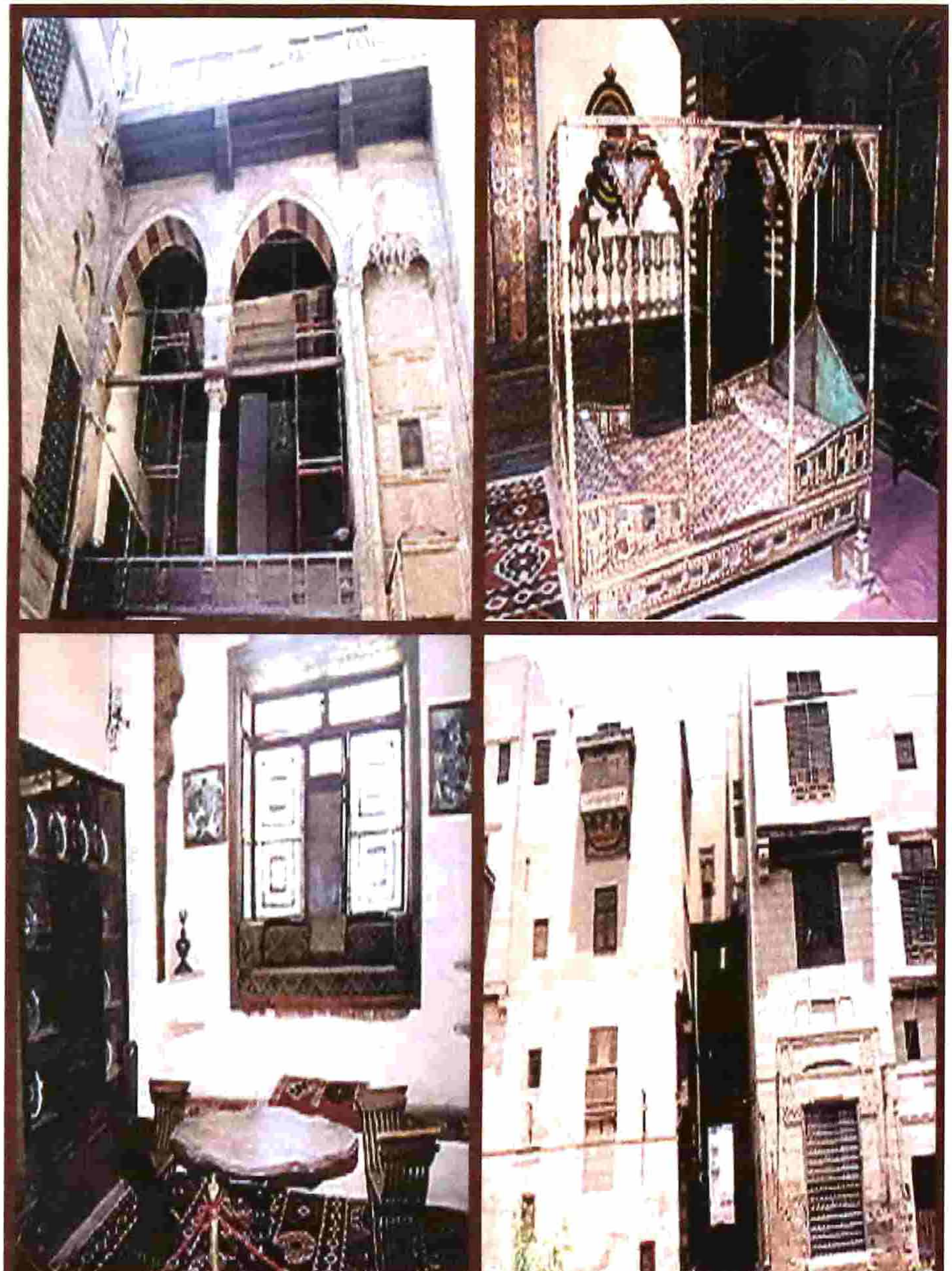
يقول د. عبدالرحمٰن زكي الآثاري الكبير في كتابه (القاهرة... تاريخها وآثارها): وقد نسب البيت إلى آمنة بنت سالم آخر من امتلكته والتي يظن أنها من أسرة صاحب المنزل الأول. وأما الذي قام ببناء البيت فهو المعلم عبدالقادر الحداد وهذا سنه **٩٤٧** هـ / **١٥٤٠** م. ويحصر البيتان على وضعهما دهليزاً بينهما يؤدي إلى الباب الشرقي لجامع ابن طولون وهو ما يعرف بعطفة أو حارة الجامع، والبيتان متصلان بممر أو (ساباط) فوق هذا الدهليز محمول على عقد... وبقي البيتان وقد ساءت عمارتهما للغاية حتى عام **١٩٢٨** حين نزعت مصلحة التنظيم ملكية هذين البيتين وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسع حول جامع ابن طولون. لكن لجنة الآثار العربية أعترضت على ذلك ثم بدأت في تجديدهما وإصلاح ما فيهما يقول عبدالرحمٰن زكي: ليصبحا من أبدع الأمثلة القائمة على طراز العمارة في العصر العثماني.

أما عن سبب تسمية البيتين باسم متحف جاير أندرسون فيرجع ذلك إلى تاريخ **١٩٣٥** حين تقدم الميجور جاير أندرسون الذي كان من بين الضباط الإنجليز الذين خدموا في الجيش الإنجليزي والمصري في وادي النيل بطلب إلى لجنة الآثار العربية بأن يسكن في هذين البيتين على أن يقوم بتأثيثهما على الطراز الإسلامي العربي ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة من المقتنيات الأثرية الإسلامية على أن يصبح هذا الأثاث ومجموعة الآثار النفيسة ملكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً... وقد أقبل أندرسون بعد موافقة اللجنة على عرضه على تنظيم البيتين في همة لا تعرف الكلل وأنفق الأموال الطائلة على شراء الأثاث والتحف من البيوت الأثرية ومن أسواق العاديات في مصر وغيرها من البلدان، فجمع مجموعة كبيرة من القطع الفنية التي تنتمي إلى عصور إسلامية مختلفة وأماكن متفرقة، فهي من صناعة مصر والشام وآسيا الصغرى وإيران والقوقاز، وبعضها تحف من الشرق الأقصى ومن الصين، هذا علاوة على بعض التحف الأوروبية. وبعد أن توفي أندرسون في عام

١٩٤٠ آل البيتان وما فيهما إلى مصلحة الآثار العربية التي جعلت منهما متحفاً باسم جاير أندرسون.



الشكل (٣٨ ـ أ): متحف بيت الكردلية أو الكرتيلية: يعد هذا البيت وبعض الدور القليلة الباقية في كل أنحاء القاهرة وربما في مصر كلها من الآثار الإسلامية النادرة والثمينة في القاهرة. . . لكونها تعطي أمثلة مشاهَدة على ما وصلت إليه العمارة الإسلامية من رقي وتحضر وتفنن اتسقت فيه قيم العقيدة الإسلامية مع القيم الجمالية لهذه العمارة في ركن هام من أركان العمارة الإسلامية وهو عمارة المسكن والإعاشة خصوصاً في العصرين المملوكي والعثماني. . . وفي الصور مناظر متفرقة لواجهة الدار وجوانبه وصحن الدار من أعلى ـ عن الموقع: http://www.egyptsons.com ـ



الشكل (٣٨ ـ ب): تفاصيل معمارية داخلية مختلفة للكردلية

ـ صور لبيت الكردلية الذي بناه أحد أعيان القاهرة

وهو محمد ابن الحاج سالم بن جلمام الجزار ١٦٣١م/ ١٠٤١هـ

- **المدخل المنكسر**: فإذا بدأنا جولتنا من بيت الكردلية سنجد أن هذا البيت ينفرد بعناصر معمارية كثيرة، ليس لكونه واحداً من البيوت النادرة المتفردة الباقية من عمارة البيوت والقصور في الحقبة العثمانية فقط، بل هو ينفرد بخصوصيته حتى بين هذه البيوت القليلة. فهذا البيت به سبيل لسقاية الناس وهو ما يندر وجوده في عمارة البيوت فالسبيل دائماً كان ملحقاً بعمارة دينية: مسجد أو زاوية أو رباط وفي أحيان قليلة بعمارة مدينة مثل شاهد أو مدفن، أما أن يكون ملحقاً ببيت فهذا نادر جداً. وسبيل بيت الكردلية يحتل زاوية الركن الأيمن الأرضي في الدار ليطل على الخارج بشباكي تسبيل واحد على الحارة والآخر في واجهة الدار بجوار باب الدخول الرئيسي... من هذين الشباكين كان يناول (المزملاتي) أو خادم السبيل الماء لمن يطلبه... حيث يغرف الماء من بئر عميقة توسطت حجرة السبيل... وهي التي كانت تملأ بماء النيل العذب والبئر مبنية ومبلطة بالحجر ومقببة السقف... أما سقف حجرة السبيل فقد كان من براطيم خشبية مزخرفة بأشكال هندسية وما زالت محتفظة بألوانها الزاهية. ويقول سيد عبدالمقصود مدير عام المتحف: إن السبيل كان يقدم الماء طوال الوقت طالما كانت هناك أسرة تسكن البيت بل استمر حتى أثناء مدة الخواجة أندرسون، وتوقف من بعد وفاته. وهناك خطة لدى المتحف لإعادة عمل السبيل حتى يقوم بالدور الذي كان يقوم به وهو تقديم الماء لعابري السبيل فضلاً عن معايشة زائر المتحف الحالة الكاملة لما كان عليه البيت قديماً. ويتميز البيت بالمدخل المنكسر الذي يتشكل دركاه ـ مساحة تلي المدخل مباشرة ـ ودهليز يفضي إلى صحن البيت. هذا الشكل لمدخل الدار الذي يسمى بالمدخل المنكسر والذي تميزت به عمارة البيوت الإسلامية في العصر المملوكي والعثماني كان تعبيراً عن الحلول المعمارية التي يقدمها مهندسو العمارة لتتسق عمارة البيت جمالياً، وظيفياً مع عقيدة صاحب المنزل وهي العقيدة الإسلامية، فالمدخل المنكسر كان يحفظ حرمة الدار من عيون المتطفلين.

⊙ **صحن وفناء**: فإذا سلكنا إلى صحن الدار وهو فناء واسع أقرب إلى شبه المنحرف في شكله... تتوسطه فسقية من الرخام الأبيض النقي ذات قسط مثمن... لمسنا تفرداً آخر فالصحن هنا يشكل الإيقاع والتشكيل العمراني للبيت كله المبني على العقيدة الإسلامية فهو يمثل الرئة بالنسبة للمنزل، فكافة طوابق المنزل وقاعاته خصوصاً قاعات الحرملك تنفتح عليه بدلاً من الانفتاح على الخارج، وهذا حفظ لحرمة البيت وساكنيه فضلاً على أنه يسمح بانفتاح المنزل على الداخل لا الخارج اتقاءً للعوارض الترابية. مما يجعل الهواء في البيت منعشاً لطيفاً خاصة إذا اختلط برذاذ الماء الخارج من الفسقية التي تضفي طابعاً جميلاً وساحراً على المنزل خاصة أنه يحيط بها حوض من بلاط الرخام الملون يعكس زرقت السماء الصافية نهاراً ـ حين يمتلئ بالماء ـ ويتلألأ فيه وجه القمر ليلاً، غير أن ماءه الجاري يوفر ماءً طاهراً يصلح للوضوء في كل وقت. وتتوزع على محيط صحن الدار قدور برملية من الفخار تستند على أحواض من الرخام الأبيض ذات مصب يتجمع فيه الماء الرائق الذي رشح من القدر فيروى منه أهل الدار في كل حين. وتوزعت أيضاً بين هذه القدور أصص لنباتات الزينة الجميلة.

أما منافع هذا الطابق الأرضي، فتتمثل في مجموعة من الحواصل التي تتوزع على جوانبه والتي كانت تستخدم لتخزين حوائج أهل الدار من حبوب وخلافه، ولذا كان لها شبابيك صغيرة للتهوية والإضاءة مغشاة بمصبعات من خشب الخرط، وفي خلفية الفناء أسطبل لحصان واحد. وتصعد من الطابق الأرضي على سلم يفضي بنا إلى المقعد وهو مكان فسيح ينفتح على صحن الدار بواجهة تتكون من قنطرتين معقودتين محمولتين على عمود، ومواجهاً الجهة الشمالية ليتلقي الهواء البارد في الصيف... وبذا يكون مقعد أهل الدار طوال الصيف وإن كان يستأثر به الرجال أكثر من النساء وهو من مميزات عمارة البيوت الإسلامية ويتصدره داربزين عريض من الخشب المخروط.

أما السقف، فهو من براطيم خشبية مزخرفة بزخارف نباتية وهندسية

مذهبة وتتوزع على جانبي المقعد خورستانات ـ دواليب حائطية ـ مزخرفة بزخارف نباتية وضعت بها بعض الآنية الزجاجية. وهي تمتاز على تنوعها بنقاء زجاجها وجمال أشكالها وألوانها ودقة صناعتها وهي منتشرة في كافة أركان المنزل، إذ يبدو أن أندرسون كان مهتماً بشكل خاص بجمع الآنية الخزفية والزجاجية، إذ تشكل جزءاً كبيراً ومهماً من مجموعته الأثرية النفيسة التي خلفها بالمنزل. . .

ومما يؤسف له، أنه على قدر ثراء مجموعة أندرسون واشتمالها على قطع أثرية نادرة ونفيسة من حيث قيمتها التاريخية والفنية. . . لم تخرج إلى النور إلى الآن دراسة أثرية فنية تصنف لهذه المجموعة وتؤصل لقيمتها الأثرية الفنية على الرغم من شهرة هذه المجموعة بين المجموعات التي تماثلها في العالم، إذ يشير إلى قطع منها البروفيسور (ديماند) في كتابه الفريد (الفنون الاسلامية)، وهو من أشهر الكتب التي تناولت الفنون الإسلامية وأكثرها أهمية.

⊙ **السلاملك والمشربيات:** ومن مكاننا بالمقعد نستطيع أن نرى المقرنصات التي تعطي اتساعاً للطابق الأول فضلاً عن قيمتها الجمالية. ويمكننا أن نرى مداميك المشهر في جدران المنزل. . . والمشهر هو حلية زخرفية تستخدم في العمارة الإسلامية وهي تلوين مداميك جدران البناء، مدماك باللون الأحمر والآخر باللون الأبيض. ونستطيع أن نرى جمال المشربيات من خشب الخرط الدقيق التي تطل على صحن الدار من كل طابق. ومن المقعد ندلف إلى السلاملك هو قاعة الاستقبالات الخاصة بالرجال. . . وهي تنقسم إلى ثلاثة أجزاء شأنها شأن أية قاعة في بيوت الأعيان في العصر المملوكي العثماني. فهناك إيوانان موزعان على جانبي القاعة ويحصران بينهما درقاعة في الوسط ـ وهي كلمة فارسية ـ تعني الجزء المنخفض في القاعة.

وكل إيوان احتوى على شباك كبير غشي بالمشربيات المشغولة من خشب الخرط بدقة وتفنن باهرين، وقد فرشت القاعة كلها بوسائد وثيرة مكسوة بالجوخ المنقوش والكسوات المخملية،

وتوزعت في كافة أرجاء القاعة قطع صغيرة من الخشب مشغولة بطرز إسلامية ومطعمة بالعاج والصدف. وهنا تجدر الإشارة إلى أن بيتي الكردلية وآمنة بنت سالم يعدان البيتين الوحيدين المفروشين بالأثاث من كل البيوت الأثرية قاطبة. وهذا يعطي لهما قيمة أثرية مضاعفة وقد ازدانت جدران قاعة السلاملك بمجموعة عتيقة من المسدسات القديمة ترجع إلى العصر العثماني. وعلى قدر بدائية كل قطعة فيها كسلاح على قدر رفعة قيمتها كقطعة فنية شغلها الصانع بمهارة يدوية وزخرفة على بدن المسدس المعدن ومقبضه الخشبي. وفي ركن آخر علقت أيضاً مجموعة من السيوف مختلفة الأشكال والأطوال بغمد مزخرفة أيضاً. . .

وقد زخرف إزار سقف القاعة بزخارف نباتية بينها كتابات بخط الثلث المزخرف لبعض الأبيات الشعرية والأقوال المأثورة منها هذا القول: (من يعشق ينبغي ألا ينام)، أما سقف هذه القاعة فمعمول من بروز أو (براطيم) خشبية طليت بلون بني داكن وزخرفت بزخارف هندسية توزعت في هذه القاعة. مجموعة من الدواليب والخورستانات المزخرفة الواجهات وبها آنية وآباريق من الخزف والزجاج. . . وتوجد أيضاً صينية طعام كبيرة مستديرة من النحاس المزخرف وعليها مجموعة من السلاطين النحاسية وهي تعود إلى العصر العثماني. . . وبجوارها قطعة من الرخام الأبيض الفاخر على هيئة صينية بفجوات غائرة هي التي كانت تستعمل كقاعدة للقلل. . . وهناك أيضاً مجموعة من الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج. . . ولا بد أن نذكر هنا أن تكدس التحف في هذه القاعة ليس من طبيعة هذه القاعات لكن ظرف العرض المتحفي لمقتنيات المتحف لمجموعة أندرسون فرض هذا التنوع والكثافة والاحتشاد في القاعات.

⊙ **رواق التصاوير والرسومات**: ويحفل هذا الرواق بمجموعة نادرة من التصاوير والرسومات التي تعد كل واحدة منها تحفة ثمينة في ذاتها ويغلب عليها الأسلوب الفارسي الاسلامي في الرسم والتلوين. . .

وتصور بعض مشاهد الشاهنامة (كتاب الملوك) وهي الملحمة الشعرية التي نظمها الفردوسي سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م. والبعض الآخر تصاوير صيد، وتصاوير أنس وعشق... وتصاوير احتفال وطرب، وله تصاوير لمناظر برية وأزهار وطيور. ويغلب على رسوم الأشخاص فيها دقة الحجم والملامح وتأنق الملبس ويبرز فيها مهارة المصور في استخدام الألوان، فألوان هذه التصاوير قوية ومنسجمة وتتوزع بين لون العقيق الفاتح والذهبي والأزرق السماوي والبني بدرجاته مما يضفي على مشاهد اللوحات جمالاً وبهجةً. ولكن للأسف لقلة المعلومات عنها لا نستطيع أن نحدد إلى أي المدارس الفنية الكبرى في بلاد فارس تنتمي هذه اللوحات وهل هي لمدارس تبريز أم شيراز أم سمرقند[١].

وأكثر ما يميز هذه اللوحات شأنها شأن لوحات الفن الفارسي وهي منظورها المسطح فلا عمق في اللوحة وتبدو عناصرها متراكبة بعضها على بعض بشكل رأسي، وأيضاً تغلب الزخرفة النباتية أو النباتات المحورة والنقوش المنمنمة... على كثير من هذه اللوحات، ومن هذه التصاوير أيضاً ما يظهر البلاط السلطاني وما فيه من أبهة وفخامة وعظمة وسيادة للسلطان.

⊙ **الحرملك والنافذة**: ومن هذا الرواق ندخل إلى الحرملك، وهي قاعة ذات سلم منفصل تماماً، وأكثر ما يميز هذه القاعة تلك المشربيات الكبيرة المنمقة الجميلة في كل جهة من القاعة وهي تطل على كل جهات المنزل الداخلية والخارجية، حيث تتابع من ورائها حريم الدار كل ما يدور في صحن الدار أو في الحارات المحيطة بالدار، وهذا

---

(١) هنا يجب ملاحظة أن أغلب تلك التصاوير والرسوم لا تنتمي للمدرسة المعمارية الإسلامية فهي تتعمق في رسم الشخوص وكل ما فيه روح مشتقة من الإرث الفارسي القديم، بينما تدعو المدرسة الإسلامية المعمارية لتجنب تلك الرسوم والاكتفاء برسم الجمادات، والنباتات والطبيعة والزخارف وضرورة الابتعاد عن التشخيص والتجسيد وإبراز المعالم لكل ما فيه روح.

دون أن تنكشف وجوههن على أحد من المارة الغرباء. حتى ولو حاول أحد ذلك فلن يستطيع فهذه التعاشيق الدقيقة من خشب الخرط ذات المنظر الجمالي والتي تصنع بكل مهارة وتفنن تسمح بالرؤية من داخلها ولا تسمح بالرؤية من خارجها. وهي من الحلول العبقرية التي قدمها الصانع المسلم الفنان لتتسق وظيفة النافذة مع قيد العقيدة الإسلامية التي تؤكد على ضرورة حجاب المرأة من عيون الأغراب وأيضاً بشكل جمالي باهر وغير مسبوق.

وأيضاً هذه المشربيات تضفي نوعاً من البهجة والصفاء على قاعة الحريم لما يتسلل من فتحاتها من ضوء صاف وهواء رائق، هذا فضلاً عن أن وجودها يكسر حالة الركود والملل التي تعايشها الحريم في الحرملك بما يتابعنه من ورائها لأحوال الشارع. ومما يلحظ أيضاً على هذه القاعة أنها مفروشة بوسائد وثيرة وبسط منقوشة جميلة ورقيقة وتوزعت فيها بسمتيرية ملحوظة وتماثل دقيق مجموعة من الدواليب والخورستانات ورسمت على هذه الخورستانات تصاوير بالأسلوب الفارسي والتي تصور مشاهد برية بألوان مبهجة وزاهية... وفي هذه القاعة مجموعة من المقاعد الخشبية المطعمة بالعاج والمصفحة بالزجاج المفضفض والملون وهي ما تعرف بالمقاعد السورية أو مقاعد العروسة وهذا لكونها تخصص كمقعد للعروس في حفلة زفافها... ونشير مرة أخرى إلى أن كثافة عناصر الأثاث في الغرف تعود لغرض العرض المتحفي لا لما كان عليه أثاث هذه القاعة في زمانها. والسقف في هذه القاعة معمول من براطيم مزخرفة... وتتوزع في هذه القاعة عدة مباخر نحاسية على هيئة قباب. وحال أن نخرج من الحرملك نجد سدة من الرخام لفتحة في الأرضية، ياسر سباق المرشد الأثري بالمتحف، والذي كان له الفضل في توفير الكثير من المعلومات عن العناصر المعمارية والمقتنيات بالمتحف، يخبرنا إن هذه سدة لسرداب سري كان يستعمل كمهرب لأهل الدار حال تعرضهم للأخطار.

⊙ **فارسية وتركية ودمشقية**: ومن قاعة الحِرملك ندخل إلى غرفة صغيرة أشبه بقمرة وهي غرفة الكتابة والتخطيط الخاصة بأندوسون وفي طريقنا إليها نمر على غرفة كانت مخصصة للقراءة والآن يستغلها المتحف كقاعة لترميم مقتنيات المتحف من السجاد والبسط والمنسوجات. ونصعد على سلم يفضي بنا إلى سطح البيت الذي كان بمثابة مقعد السيدات الصيفي، لذا فعلى الرغم من أنه مكشوف إلا أنه غشيت أطرافه بمربعات كبيرة من خشب الخرط تحسباً من فضول الناظرين. وتوزعت القدور الكبيرة حول داير السطح ونلمح أحواضاً لغسيل الوجه ومحار علقت عليها صنابير نحاسية لطيفة بمحابس من النحاس المشغول المفرغ. ومن الأشياء الجديرة بالذكر هنا هذه المزولة الشمسية التي علقت في أحد الأركان وهي عبارة عن قطعة من الرخام الأبيض ومنحوت عليها أرقام وإشارات لتحديد المواقيت.

ونهبط بعض الدرجات لنصل إلى الغرفة الفارسية، وهي غرفة تحتوي على أثاث مصنوع من الطراز الفارسي وهي الغرفة التي انتقاها وجهزها أندرسون لتكون غرفة نومه الخاصة وبها سرير كبير مزخرف بطريقة التطعيم بالصدف والعاج وله درابزين دائري حول السرير، وهناك دولاب خشبي به عدة شمعدانات من النحاس ومشغول عليها زخارف بطريقة الرقش على المعدن، وهناك مجموعة لوحات زيتية لفرسان وخيول وسرير صغير كان المرافق. ثم ننتقل إلى الغرفة التركية وهي التي بها صالون على الطراز التركي، يقول ياسر سباق المرشد الأثري بالمتحف: يرجح أن يكون هذا الصالون ملكياً لأن به مقعداً كبيراً بتاج ملكي . . . ومن نفائس هذه الغرفة لوحة لمحمد علي الكبير بالتصوير الزيتي مؤرخة ١٨٠٦، أي: بعد توليه حكم مصر بسنة واحدة فقط.

وهناك لوحة زيتية أيضاً للخديوي سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٧) في وقت مبكر من شبابه يبدو فيها مثل السلاطين الأتراك بالعمامة التركية الكبيرة الداكنة والوجه المثلث الأبيض الشاحب وشارب رفيع جداً مبروم وملتو. وتوزعت في أرجاء الغرفة مجموعة نفيسة من القوارير والفازات من زجاج بوهيميا الذي اشتهر بجودته . . . وكان يهواه أعيان الشرق الإسلامي.

- **متحف داخل متحف**: وفي ردهة واسعة تنفتح على قاعة كبيرة خصصت كلتاهما كمتحف للمنزل لعرض مجموعة من مقتنيات أندرسون التي تعد من نفائس مجموعته، والتي نرى فيها مجموعة لوحات منها تلك اللوحة المرسومة بطريقة الليثوغراف وهي تصور حركة العامة الصاخبة أمام باب زويلة في القاهرة منذ ثلاثة قرون مضت، وهناك لوحات لزهور ووجوه أشخاص قام برسمها أندرسون نفسه... وهناك أيضاً مجموعة كبيرة من الأواني الزجاجية... والأواني الخزفية النادرة ثمينة القيمة. ومن رواق في هذه الغرفة نسير إلى الغرفة الدمشقية وهي عبارة عن غرفة مزخرفة بالكامل بزخارف نباتية وورود يغلب عليها اللون الوردي، وهذه الزخارف تشمل السقف وكل الجدران حتى الأرضية. فيتوسط هذه الغرفة سرير ضخم مزخرف بنفس لون وزخارف الغرفة. وهو سرير ملكي على الطراز الدمشقي ومعظمه من الصدف والعاج. وتوجد على وزرات السقف أبيات من قصيدة (البردة) للبوصيري، ويقول عنها ياسر المرشد الأثري بالمتحف: إنها غرفة يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر، وكان أندرسون قد اشتراها من منقولات قصر قديم في سوريا ونقلها من هناك وأعاد تركيبها هنا.

- وعن طريق (ساباط) ممر نذهب إلى البيت الثاني، وهو بيت آمنه بنت سالم الذي يفضي بنا إلى مائدة ضيوف الحرملك وهي مائدة مخصصة لطعام السيدات الأميرات اللاتي قد يكن ضيوفاً على سيدات الدار، وهي مائدة كبيرة تتوسطها صينية كبيرة للطعام لها مقاعد للجلوس... بجوارها قاعة لاستقبال الأميرات والهوانم، وسقف هذه الغرفة مزخرف برسومات وأشكال هندسية ومنمنمات كغلاف كتاب. وبجوار قاعة الطعام رواق المغاني وهو رواق صغير مسقوف وينفتح بتقشية بالمشربيات المنمقة دقيقة الصنع على قاعة الاحتفالات الكبرى ليتسنى للسيدات رؤية ما يدور من طرب ورقص في هذه القاعة دون أن يلحظهن أحد. أما قاعة الاحتفالات

نفسها في هذا المنزل فهي تعد من أفخم القاعات الموجودة ليس في هذين البيتين فقط... بل في كل البيوت والقصور الإسلامية الباقية... فهي طولها **١٥** متراً حسب د. رفعت موسى في كتابه (الوكالات والبيوت الإسلامية في العصر العثماني)، وتنقسم إلى إيوانين عظيمين الإيوان الأول على يمين الداخل يتصدره عرش هائل كأنه عرش ملكي من الخشب المنقوش والمزخرف والمطعم بالصدف والعاج وتمتد على جانبيه مصاطب ودكك بحواشي ووسائد وثيرة مكسوة بالدمستق والديباج لجلوس خاصة الأمير، أما الوسط فقد كان للدور قاعة بانخفاضها النسبي عن مستوى الإيوانين ويتوسطها نافورة للماء من الرخام الأبيض، وأرضية القاعة كانت تحفة في ذاتها فقد رصفت كلها برخام الخردة والرخام المعشق على هيئة تشاكيل هندسية مثل الطبق النجمة الذي يتشكل من دوائر وأشكال هندسية على شكل نجمة، أما سقف الغرفة فكان بزخارف نباتية وهندسية منمقة باهرة. والإيوان الثاني كان بدخلة عميقة بها غرف للاختلاء الخاص للتشاور في أمر بعيد عن الجمع.

⊙ ومن هذه الغرفة الباهرة نهبط إلى صحن الدار الذي يماثل صحن دار الكردلية ويتوسطه أيضاً فسقية من الرخام، لكن مما هو جدير بالذكر أن من الغرف الموزعة على هذا الصحن غرفة الولادة وهي الغرفة التي كانت تخصص للولادة، وبها عدة مقاعد خشبية كانت تستخدم لمساعدة السيدات في الولادة. وفي ردهة تلي باب الدخول والخروج الرئيسي وضعت مجموعة من الصور الفوتوغرافية لما كان عليه البيتان قبل الترميم والمراحل المختلفة لترميمهما نلمس بقوة من خلال هذه الصور الجهد الذي بذل لترميم هذين البيتين في بداية القرن[(١)].

---

(١) تفاصيل عمارة الكردلية عن (بيت الكريتلية تحفة معمارية جميلة تحوى كنوز غاية في الروعة في قلب القاهرة الساحرة)، الموقع: (-http://www.egyptsons.com).

كما أن هناك تفاصيل أخرى كثيرة يطول المقام في شرحها، مثل المآذن وأشكالها الجذابة وأحواض المياه وغيرها الكثير(١).

وقد يقول قائل: إن الإسلام قد نهى عن الزخرفة والتطاول كما بيَّنتم، فكيف نوفق بين هذا وبين ما بيَّناه من أمر الزخارف والتفاصيل المعمارية الجميلة الأخرى، فنقول وبالله التوفيق:

إن الأمر يعتمد على النية، فإن كانت النية للتطاول والتكبر فهذا يخالف الشرع وبالتالي فهو ضد الفلسفة الإسلامية للعمارة التي تتبنى فكرة

(١) لمعرفة المزيد من تلك التفاصيل المعمارية الرائعة أحيل القارئ الكريم إلى عدد من البحوث والمقالات والكتب المهمة لعدد من المتخصصين في العمارة الإسلامية، منها على سبيل المثال: أسس التاريخ الحضاري والعمراني في العصور الإسلامية المختلفة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. مساجد الإسلام، طه الوالي، بيروت. العمارة الإسلامية عبر العصور، د.سعاد ماهر، جدة. العمارة الإسلامية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د. حسن نويصر.. فقه العمارة الإسلامية، خالد عزب (دار النشر للجماعات المصرية). أسس تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، خالد عزب (كتاب الأمة). العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية، جلال شوقي (الكويت ١٩٥٠م). موسوعة حسن الباشا للعمارة والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا (القاهرة ١٩٩٧م). التراث المعماري الإسلامي في مصر، صالح لمعي.. العمارة الإسلامية وخصائصها، د. عبدالقادر الريحاوي. العمارة في صدر الإسلام، د. كمال الدين سامح.. أقطان أصلان آباء فنون الترك وعمائرهم، إسطنبول ProductID ١٩٨٧م. موسوعة الآثار الإسلامية الليبية. العمارة في المغرب الإسلامي، مصطفى زيبس. بخارى الشريفة، تاريخها وتراثها الحضاري، خالد عزب. مدخل إلى العمارة الإسلامية، أمجد بوهميل بورفازكا (سويسرا، مركز هلاب). المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. المساجد، د. حسين مؤنس (الكويت ـ عالم المعرفة). تاريخ المساجد الأثرية، حسن عبدالوهاب (القاهرة ١٩٥٠م). البيوت في القاهرة في القرنين ١٧ ـ ١٨، قللي خنا. فنون الإسلام، زكي محمد حسن. مسجد القرويين، عبدالهادي التازي. المساجد والقصور، السيد عبدالعزيز سالم. صيدا، السيد عبدالعزيز سالم. العمارة الإسلامية في طرابلس والشام، عمر عبدالسلام. الفن الإسلامي، عفيف بهنسي. موسوعة العمارة الإسلامية، عبدالرحيم غالب. المصطلحات المعمارية من خلال وثائق المماليك، ليلى إبراهيم، محمد أمين (القاهرة ١٩٨٨م).

البساطة والتناغم مع البيئة وقلة التكاليف والاستغلال الأمثل للمساحات والإمكانات ومراعاة حقوق الآخرين ومشاعرهم وعدم حشر النقوش والزخارف غير الإسلامية وغير ذلك مما فصلنا من مقومات المواصفات الإسلامية للعمارة والهندسة والبيئة التي نتمنى أن تتحول لواقع ملموس ومثبت. لكن إن كان الأمر لتعريف العالم بعظمة هذا الدين وهيبته وعلو شأنه والدعوة إليه وجذب الناس من كل الأصقاع للتعرف عليه والدخول فيه، فإن الأمر من المندوبات والمستحبات شريطة أن يكون ذلك وفق الضوابط المبينة في المواصفات المعمارية والبيئية والهندسية الإسلامية التي بيَّنا بعضها في فصول هذا الكتاب وندعو لتأصيلها وتحويلها لحقيقة على الأرض، والله تعالى أعلم.

وعلى العموم فإن الجمع بين وسطية الجمال وبساطة التعبير وتحقيق الغاية والابتعاد عن التكلف هو الطريق الأقرب للقلوب والعقول.

سابعاً: شخصيات معمارية إسلامية:

وإذا أردنا أن نتعرف على المهندسين المسلمين عبر العصور الإسلامية فسيطول بنا المقال، فمن مهندسي وتقنيي وبنائي العصور الأموية والعباسية والأندلسية والسلجوقية والعثمانية هناك عشرات الأسماء الكبيرة. لكننا سنختار إحدى القمم الإسلامية ألا وهو الفنان المبدع وشيخ المهندسين في العصر العثماني «سنان باشا» رحمه الله، الذي ولد عام **١٤٨٩**م، في قرية أغرناس قرب قيصرية، وقد اختير كبير المهندسين عندما بلغ الخمسين من عمره، وكانت أهم إنجازاته المعمارية من ضمن الثلاثمائة وأربعة وستين إنشاءً أنشأه طيلة حياته هي عبقريته في تصميم القباب المركزية وتنسيق المساحات، ففي عام **١٥٣٧**م، بنى مجمع الخسروية في حلب، وفي عام **١٥٤٤**م، بنى مسجد شهزاده الذي ابتكر فيه النموذج المثالي للمبنى للقبة المركزية وأنصاف القباب الأربعة الحولية ويكون بهذا قد حقق أحلام مهندسي عصر النهضة في إيطاليا إذ يعتبر هذا المسجد من التحف الرائعة حقاً. . . أما مسجد سليمان العظيم الذي استمر

بناؤه لمدة سبع سنوات انتهت عام **١٧٥٧**م، والذي يسمى بمجمع سليمان القانوني أو مسجد السليمانية فيشتمل على أول وأكبر جامعة منذ زمن محمد الفاتح.

كما اشتمل على (**١٨**) مبنى آخر وجاء بأسلوب جديد ومفهوم واع لنظريات بناء المساجد، وفي الثمانين من عمره أبدع أيما إبداع في بناء مسجد السليمية في أدرنة الذي استمر خمس سنوات وانتهى في عام **١٥٧٤**م، وكانت قبته أكبر من قبة آيا صوفيا حيث يمكن اعتبارها قمة التطور في بناء القباب في العالم فهي تغطي المسجد كله وتحيط بها امتدادات من كل جانب. . . أوَلا ترى أن صلة الأنساب والقربى الواحدة تجمع المصري حسن فتحي والعراقي رفعت الجادرجي بسنان رحمه الله؟[١].

وبعد هذه الجولة نحمد الله أن هنالك عوداً حميداً في العديد من المعاهد والكليات والأقسام الهندسية والمعمارية في الدول الإسلامية لتبني دراسة هذا التراث المعماري العظيم في مجال تخطيط المدن وبناء المنشآت المختلفة، فضلاً عن قيام العديد من الأقسام المعمارية الغربية بدراسة التراث العمراني الإسلامي ونماذجه.

ومن بين ما تدرِّسه بعض الكليات والأقسام الهندسية المعمارية في العالم الإسلامي بعض العلوم المستوحاة من الفلسفة الإسلامية المعمارية التي بيَّنا بعض أوجهها وتفرعاتها، مثل:

١ ـ دراسة التراث المعماري الإسلامي.

٢ ـ دراسة تطور العمارة الإسلامية وفنونها.

٣ ـ دراسة الشخصيات المعمارية الإسلامية عبر التاريخ القديم والحديث.

٤ ـ أهمية تخطيط المدن في الإسلام (مثال: المدينة المنورة، البصرة، الكوفة، بغداد، الفسطاط، القيروان، وغيرها).

(١) نقلاً عن كتاب فنون الترك وعمائرهم لأوقطاي أصلان آب، إسطنبول **١٩٨٩**م، بتصرف. وانظر صناعة الحياة، للراشد، ص**٧١-٧٤**. ويمكن للقارئ الكريم أيضاً التبحر في المصادر التي ذكرناها خلال مسيرة الكتاب.

٥ - التطويرات العمرانية على المدن الإسلامية (مثال: دمشق، طنجة، غرناطة، إشبيلية، قرطبة، أصفهان، الري - طهران حالياً -، وغيرها).
٦ - القواعد التي يجب مراعاتها عند تخطيط المدن (عزل مناطق السكن عن الحِرَف).
٧ - المسجد الجامع وموقعه وأحكام صلاة الجمعة صفة المسجد الجامع وحكم تعدد الجوامع.
٨ - البنايات الخدمية ومواصفاتها الإسلامية: مثل المدرسة، المكتبة، الأسواق التجارية، مطرح النفايات، أحكام الطريق، المساحات ومدى تأثيرها على العلاقات الاجتماعية.
٩ - حق الجار (تعريف الجار، أنواع وحقوقه)، وانتفاع الإنسان بملك جاره إيجابياً، وانتفاع الإنسان بملك جاره سلبياً.
١٠ - أحكام العلو والسفل (التصرفات المأوذن فيها وغير المأذون فيها).
١١ - مواقع الأماكن المقلقة للراحة والخطيرة والمضرة بالصحة.
١٢ - تحديد ارتفاعات وعدد طوابق المباني.
١٣ - المصحات والمشافي (موقعها، توفر الآداب الإسلامية فيها).
١٤ - المقابر (موقعها وأهميتها، الدفن، صفة القبر، حرمة المؤمن ميتاً، آداب الزيارة الشرعية للقبور).
١٥ - دراسة بعض الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلم والتي لها مساس قوي بطبيعة عمل المهندس (الأمانة والصدق).

وبإذن الله تعالى ستكون بعد هذه الصحوة المعمارية الإسلامية صحوات وصحوات إيمانية وعلمية حتى تتسلق الأمة من جديد ذرى المجد لتعتلي قمة المنحنى الحضاري للأمم كما كانت، وإن أخذ الزمن مأخذه ودار دورته لأنها سنة الله في خلقه وهي قوانينه التي بيَّنها في كتابه الكريم[١].

---

(١) يراجع كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

الاستنتاجات والتوصيات

الاستنتاجات والتوصيات

الاستنتاجات:

١ ـ إن كثرة ورود قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، وغير ذلك مما يقول عنه أهل البلاغة بأنه حث على التفكر والتدبر والتأمل، يعني بالضرورة أن الله تعالى قد حث عباده المؤمنين على كثرة إعمال العقل الذي زودهم به في شؤون الحياة وعدم جعله منغلقاً منكفئاً على شؤون المأكل والمشرب وكسب الرزق، بل إن دعوات التفكر في القرآن الكريم أكثر من دعوة كسب الرزق. وهذا كله يعني أن فهم قوانين الله في كونه ومحاولات محاكاتها وتقليدها وتسخيرها لصالح الناس هي من صلب دعوة الكتاب الكريم، وهذا لعمري هو صلب معنى جميع أنواع الهندسة والتقنية والصناعة.

٢ ـ تبيَّن لنا أن اللغة العربية ومفرداتها الغنية لغة ديناميكية متحركة تحرك الزمان والمكان تتسع لخطاب عصور البلاغة كما تتسع لخطاب عصر التقنيات العلمية والهندسية، وهذا أكبر رد على أدعياء تنحيتها عن عالم اليوم باعتبارها لا تتسع ولا تستوعب مفردات العصر التقني الحديث. فلقد أثبتنا في خلال بحوث هذا الكتاب وكتب السلسلة الأخرى كيف أن المصطلح القرآني لأي ظاهرة أو مادة أو تعريف أو معادلة أو شكل هندسي يصطحب معه جميع احتمالات شمول التعريف العلمي الرصين

لكل شيء ينص عليه باستخدام هذه اللغة العظيمة التي يقول عنها أهل فقه اللغات بأنها أكثر لغات الأرض شمولاً للمصادر الاشتقاقية للكلمات وأكثر لغات العالم شمولاً وانفتاحاً.

٣ ـ إن الآيات التي تتحدث عن علم أو مجموعة علوم في الهندسة بكل أشكالها جاءت من خلال قصة ضربت أو مثل سرد أو حقيقة ضمن سياق عام. وقد جاء ذكر ذلك إما بشكل تفصيلي أو إشارة تصريحية أو إشارة تلميحية أو استنباط من آية واحدة أو مجموعة آيات. وهذا الذكر حقق بتعاضد تفسيره اللغوي والاصطلاحي أو بتنوع القراءات أو أسباب النزول ما يمكن إدراجه ضمن تصنيف وتفصيل العلوم الهندسية المختلفة رغم اختلاف التسميات والمصطلحات بين عصري التنزيل والعصر الراهن. كما أن التسلسلات العددية للسورة والآية والكلمة وتكرارات الكلمات لها حكم ومقاصد علمية عددية وهندسية أراد الله تعالى أن يجعلها ذخراً وسلاحاً قرآنياً يبرز وقت التحدي المقابل ليعلم الناس حقيقة وعد الله الحق بغلبة ونصرة هذا القرآن العظيم وهذا الدين الكريم في الجوانب العلمية الهندسية، كما في الجوانب البلاغية والتشريعية وغيرها.

٤ ـ سبق القرآن والسُّنة في تصنيف العمارة وعلومها قبل مصنفاتنا الحديثة، إذ كما بيَّنا ليس هناك من تخصص حديث للعمارة إلا وفيه تفصيل أو ذكر أو إشارة في الكتاب والسُّنة مع اختلاف في المصطلحات والتسميات لمساقات جامعاتنا ومعاهدنا المعمارية اليوم عما بيَّنه وشخَّصه وفصَّله القرآن الكريم والسُّنة المطهرة خصوصاً إذا ما أضفنا العلوم المرتبطة التي بيَّناها في كتب أخرى مثل الهندسة الوصفية والرياضيات والهندسة المدنية، فالمعنى واحد ولكن المصطلح مختلف.

٥ ـ تطابق المجموعتين (A ـ الكون المنظور) و(B ـ القرآن الكريم أو الكون المقروء) اللتين اخترناهما في الكتاب الأول كمعيار بحثي في منهجية بحوث هذه السلسلة في معلوماتهما في موضوع العمارة وفنونها.

٦ ـ بيَّنا أن هناك تفاصيل كثيرة ورائعة في العمارة والهندسة

المعمارية في القرآن والسُّنة النبوية (Architectural Engineering Sciences In The Holy Qur'an & Sunna)، ومن ذلك أهمية الاتجاهات الأربعة ومسارات الرياح في القرآن الكريم (Directions, Coordination, Northing-Easting & Wind Roots In The Holy Qur'an & Sunna)، البعد المكاني والتخطيط العمراني في القرآن الكريم (Place' Location & Architectural Planning In The Holy Qur'an)، المساحة وعلومها في القرآن الكريم (Surveying In The Holy Qur'an)، الظل والمنظور في القرآن الكريم (Shadow & Perspective In The Holy Qur'an)، الأمن ولأمان وأهميتهما في العمران والتطور (Security & Safety In The Holy Qur'an)، الأحمال والقوى والإجهادات في القرآن الكريم (Loads, Weights, Forces & Stresses In The Holy Qur'an & Sunna)، التاريخ العمراني في القرآن الكريم(Architectural History In The Holy Qur'an)، هندسة التصميم الداخلي (Interior Design In The Holy Qur'an)، هندسة التصميم الخارجي (Landscaping & Exterior Design In The Holy Qur'an)، الصورة القرآنية لعمارة الجنة.

٧ ـ بيَّن القرآن الكريم أهمية المكان، الأبعاد، الزمن، الرياح، ضوء الشمس، الذوق، الراحة النفسية، الأمان، الجمال، الدقة، البساطة وأمور أخرى عديدة في الفكر المعماري.

٨ ـ أقرَّ القرآن الكريم بحقيقة أهمية الضوء للبقاء من جهة وضرورة هندسة دخول الضوء من خلال فجوات ليكون وسطياً بين النور والدفء اللذين يجلبهما الضوء معه، وبين الأذى الناجم من التأثير المباشر لضوء الشمس على الجسم لفترات طويلة، وهو مفهوم تقنية كاسرات الشمس (Sun breaker) التي توضع فوق الشبابيك لمنع ضوء الشمس من الدخول كاملاً إلى داخل المبنى بل يكسره بزاوية مقبولة ليدخل إثره مما يجعله مقبولاً ونافعاً ودافئاً بدل أن يكون مؤذياً بحرارته القوية، وهذا الأمر مستخدم في بناياتنا اليوم، فسبحان الله.

٩ ـ علمنا أثر الفكر العمراني القرآني على خصائص العمارة الإسلامية (The Effect Of The Holy Qur'an On The Islamic Architecture) فنبحث في العمارة الإسلامية وأثرها العالمي (The International Effect Of Islamic Architecture)، الفلسفة الإسلامية للعمارة (The Islamic Architectural Philosophy)، العمارة الإسلامية والبيئة (The Islamic Architectural-Environmental Interaction)، الوقف وعمارته في الإسلام (The Islamic Endowment -Waqf- and its Architecture)، تطور العمارة الإسلامية (The Development Of Islamic Architecture)، الهوية الإسلامية للعمارة المعاصرة (The Modern Islamic Architecture)، تحذيرات الإسلام من البناء الشاقولي (Be Ware Of The High-Rise Buildings). وقد أثبت هذا الكتاب أن هناك خصائص للعمارة الإسلامية امتد أثرها ليشمل أرجاء العالم بأسره، وأن لها فلسفة متميزة مبدعة تمزج بين الجمال والبساطة والدقة والتناغم مع البيئة والاهتمام بالجانب النفسي بالتوسع في المكان، فضلاً عن التفاعل مع التطورات المستمرة في إطار الحافظ على الهوية. ومن ذلك أيضاً: أن هذه الفلسفة العميقة الحكيمة حذرت من التكلف والتبذير والاحتكار والتوسع الشاقولي في البناء فضلاً عن الإضرار بالبيئة بل حتى الحفاظ على شعور الفقراء من الناس. ومن ذلك اهتمام الفلسفة المعمارية الإسلامية بالناحية الاقتصادية بمنظور جمعي وليس فردي، أي: بنظرة مسؤولة تجاه المجتمع تبتعد عن التكبر والتعالي دون إهمال جوانب الجمال والدقة بحيث تتشكل لدينا منظومة (دقة ـ بساطة ـ جمال ـ اقتصاد ـ اجتماع) بمستوى راقي جداً.

١٠ ـ شهد للعمارة الإسلامية وروعتها أغلب المعماريين العالميين من مختلف الفلسفات المعمارية على مر العصور.

١١ ـ أسست العمارة الإسلامية للعديد من المصطلحات والمسميات والتفاصيل والطرز والأنماط المعمارية التي لم تكن متعارف عليها من قبل.

١٢ ـ تنوعت العمارة الإسلامية في الكثير من ميادين النشاط البشري

وأسست للعديد من الأصناف المعمارية التي ميزتها عن غيرها واستنبط منها فيما بعد أكبر المعماريين في العالم.

١٣ ـ إن ناطحات السحاب هي نتاج حضارة مظاهر تتعامل مع الإنسان كما تتعامل مع الآلة، فتقدم مظهر البنيان وبعض المنافع المادية دون مراعاة إنسانية الإنسان، وإن الانتشار في الأرض وتعمير مساحات بلادنا الشاسعة أمر مطلوب و(أرض الله واسعة). يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. ولقد حبب المسكن الواسع في الفلسفة المعمارية الإسلامية، بل جاء استحباب السكن الواسع صريحاً في السُّنة. ولقد وضع الشرع الحنيف معايير هندسية معمارية وبيئية ينبغي مراعاتها في ارتفاعات المباني. وفعلاً بدأت الأبحاث والدراسات تصدر من كل مكان في العالم كلها تتحدث عن مساوئ الأبنية العالية، ليس من جهة الأمان ضد الهجمات المتعمدة فحسب، بل من كل الجهات: من حيث ضررها على البيئة والإنسان من الناحية الصحية والاجتماعية والنفسية. . .إلخ. ولعل الرجوع للنمط الإسلامي في العمارة واستنباط طرق منه لعلاج مشكلة ازدياد السكان يكون أحد أهم العلاجات لمشكلة الارتفاع المفرط في البنيان الذي يتسابق به أهل التشييد اليوم.

١٤ ـ علمنا روعة نماذج العمارة الإسلامية (Samples Of The Islamic Architectures)، مثل حالات المساجد (The Mosques-Al Masjid-)، الهندسة المعمارية النبوية في إنشاء مسجد صنعاء الكبير (The Architecture Of Profit Mohammed - PBUH- In Building The Big Mosque Of Sana'a)، هندسة الخط والزخرفة (Islamic Ornamentation, Embroidery & Fonts Engineering)، تخطيط المدن والمباني الخدمية (City Planning & Service Buildings)، عناصر التصميم الداخلي (The Interior Design Elements)، وتفاصيل معمارية أخرى (Islamic Architectural Details)، ثم تطرقنا إلى شخصيات معمارية إسلامية. وتوصلنا من خلال هذا الاستعراض لتلك النماذج لحقيقة عظمة هذه المدرسة ودقة تفاصيلها وضرورة استنباط

مواصفات معمارية إسلامية تجمع بين كل ما حوته متطلبات فلسفتها العميقة.

١٥ ـ تحدثنا عن عمارة الحرمين الشريفين عبر التاريخ (Historical Review For The Haramain Architecture)، فبيَّنا الوصف الخارجي للكعبة المشرفة، صفة الكعبة المشرفة من داخلها، تاريخ بناء الكعبة العمراني، موجز المسرد التاريخي لزمزم، المسرد التاريخي لمقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، المسرد التاريخي للمسعى، موجز توسعة وعمارة المسجد الحرام منذ عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى نهاية التوسعة السعودية الأولى عام **١٣٩٦**هـ، وأخيراً، المسجد النبوي الشريف وعناصره ومتعلقاته عبر التاريخ لغاية التوسعة السعودية له.

١٦ ـ من خلال استعراضنا لفصول هذا الكتاب عن العمارة الإسلامية وسبقها وعظمة مدرستها خرجنا بالعديد من الاستنتاجات المهمة وهي مبينة في كل فصل، ولعل أبرزها ذلك التناغم بين السمو والدقة والوسطية والبساطة والجمال ومراعاة البيئة ومراعاة شعور الآخرين في تفاصيل البناء والتشييد وأشكاله على عكس عمارة اليوم التي تهتم بالجمال والبذخ والكلف العالية على حساب تلوث البيئة والمجتمعات وسحق الغالبية من الشعوب المغلوبة على أمرها في إطار عدم توزيع الثروات بين خلق الله بشكل يزيد المظالم.

١٧ ـ المدرسة المعمارية الإسلامية الرائعة في كل شيء هي الأجدر والأنفع لنا أن نتخذها منهجاً معمارياً ولا نلهث وراء الصيحات المعمارية في العالم دون أن نجعلها تحت مظلة فلسفتنا المعمارية الأصيلة والجميلة. فقد أوضحنا خلال مسيرتنا في هذا الكتاب أن العولمة الهندسية التي أرادوها لتدمير الفكر الهندسي المرتبط بجذور الأمم وتاريخها، وخصوصاً الهندسة التي وضعها القرآن الكريم وشيد صرحها المسلمون في بقاع الأرض، إنما جاءت وبالاً عليهم بعدما رفضت الأمم هذه الفكرة وهذه العولمة فجاء الرد سريعاً وخلال أقل من عشر سنوات بظهور مدارس

عالمية محلية أو إقليمية جديدة، ورغم أنها لم تجد الصدى العالمي الواسع حتى الآن، إلا أنها صيحة في وجه هذا الأخطبوط العالمي البغيض وعودة إلى الطبيعة والتراث والربط المتناغم بينهما. وقد يقول قائل: إن الإسلام كان عولمة عصره فلماذا تعترضون على العولمة اليوم، فنقول وبالله التوفيق: إن الإسلام لم ينشر في العالم لغرض دنيوي ولم يفرض فكر وثقافة على شعب إلا من باب تنقيح معتقدات كانت تنافي التوحيد لله تعالى، بل ترك الشعوب على معتقداتها الثقافية الأصلية مع تغيير رئيسي في أصل معتقد التوحيد وشرع لهم شرائع تضبط إيقاع حركتهم بما يحقق العدل الاجتماعي والاقتصادي الذي هو أساس الملك، وما كان يبغي احتكار لمال أو سلطان أو فرض إرادة ثقافية معينة على أي شعب اعتنق الإسلام، وما كان يريد لينهب ثروات قوم ليوزعها على شعب بعينه، بل كان يبغي تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية. أما عولمة اليوم فهي تحتكر العلم والمال ضمن حدود معينة ولمجموعة معينة وتريد تصيير كل العالم إلى آلات بشرية تعمل لتزيد من غنى الأغنياء وبؤس الفقراء تحت شعارات غدت مضحكة لكل ذي بصيرة.

التوصيات:

١ ـ نوصي باستلهام المصطلحات القرآنية في علوم هذه الهندسة، ونوصي باستلهام المصطلحات القرآنية في جميع أنواع الهندسة وعلومها. كما نوصي بالاهتمام بالمصطلحات القرآنية العربية واستخدامها كمصطلحات علمية عالمية تنفع كل الأزمان. كما نوصي بالاهتمام بهذه اللغة العظيمة القادرة على استيعاب أعقد العلوم والتقنيات عكس ما يروجه أعداؤها.

٢ ـ استمرار البحوث في مجالات حقائق القرآن والسُّنة مما قد يوصلنا لحقائق أخرى دامغة في هذه العلوم المهمة.

٣ ـ تأسيس جمعيات وهيئات ومؤسسات لرعاية وتبنِّي الفن المعماري الإسلامي وهندسته الرائعة والصدع بها في العالم كله لنواجه

بهذه الهندسة الرائعة الجميلة صرخات العشوائية والتخبط واللاانتماء الذي يعاني منه الكثيرون من معماريينا بحجة التفتح والتحضر وحاجات العصر، وكأن العمارة الإسلامية عاجزة عن حل مشاكل عصرنا الهندسية والمعمارية.

٤ ـ تشجيع المشاريع العمرانية التي تستلهم هذه العمارة الأصيلة المتناغمة مع البيئة والمحققة لجميع الرغبات بشكل يضمن الراحة للجميع.

٥ ـ على واضعي المواصفات المعمارية والبيئية والإنشائية والإدارية والصناعية وتعليمات السلامة للمشاريع الهندسية أن ينهلوا من هذا الإرث الأخلاقي العظيم الذي جاء به الكتاب العزيز والسُّنة المطهرة في موضوع حقوق الجيرة، وحقوق الطريق، وحقوق الأجير، وحقوق المؤجر والمستأجر، وحقوق أصحاب الآلات والمعدات والصناعات والحرف وغير ذلك. فالحقيقة، إن لنا في إرثنا العظيم ذاك ما يجعلنا نستوعب كل القيم العظيمة في مواصفات هندسية وصناعية خاصة بنا ولا نقلد الغرب في كل ما وضعه من مواصفات قد لا تلتقي بالكثير من تلك القيم الرائعة التي دعا لها ديننا الحنيف، بل تبعدنا عن قيمنا التي توارثناها كابراً عن كابر تتعلق تحديداً بالإحساس بمسؤوليتنا تجاه الجميع دون استثناء.

٦ ـ حاجتنا الكبرى لاستلهام هذه المعاني واستنهاض الهمم فنسير على خطى سلفنا الصالح وأجدادنا الأماجد وعلمائنا الأجلاء لبناء مجد الإسلام الهندسي من جديد من خلال العمل الحثيث والبحث المستمر.

يريدوننا أن نترك مدرستنا القرآنية العظيمة ونورها الساطع ونتشبث بالعشوائية والعولمة والتدمير الفكري الذي تبثه لنا جهات معروفة وأعوانهم من أصحاب مبدأ التحرر (التفسخ). يريدوننا أن نخلع عنا هذا التراث وندمر هذه المدرسة ونسير وراء نظرياتهم الجوفاء كالتفكيكية وغيرها من مدارس الثقافات المراهقة والعقليات اللامنتمية، ولكن خاب فألهم بإذن الله تعالى كما خاب من قبل، وسيخيب في كل زمان ومكان بحول الله وقوته

وبحفظه لدينه وكتابه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

إن الحقائق المبينة في هذا الكتاب تثبت بدون شك علمية هذا الدين وحثه على البحث والاستقصاء في الآفاق والأنفس، كما تثبت حقائق كثيرة في سبقه لعلوم عصرنا الراهن في الكثير من القضايا، سواء في مجال تصريحه لتلك الحقائق أو تلميحه لها، أو من خلال استنباطها كحقيقة ثابتة بشكل منطوق أو ثابت عددي أو معادلة أو شكل ووصف.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وإلى لقاء جديد مع هندسة جديدة من مدرسة الإسلام الهندسية العظيمة.

ملحق

عمارة الحرمين الشريفين

عبر التاريخ

أولاً: الوصف الخارجي للكعبة المشرفة.

ثانياً: صفة الكعبة المشرفة من داخلها.

ثالثاً: تاريخ بناء الكعبة العمراني.

رابعاً: موجز المسرد التاريخي لزمزم.

خامساً: المسرد التاريخي لمقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

سادساً: المسرد التاريخي للمسعى.

سابعاً: موجز توسعة وعمارة المسجد الحرام منذ عهد رسول الله ﷺ إلى نهاية التوسعة السعودية الأولى عام **١٣٩٦** هـ.

ثامناً: المسجد النبوي الشريف وعناصره ومتعلقاته عبر التاريخ لغاية التوسعة السعودية له.

ملحق:
عمارة الحرمين الشريفين عبر التاريخ

أولاً: الوصف الخارجي للكعبة المشرفة:

أبعاد الكعبة: تفاوت المؤرخون في ذكر أبعاد الكعبة، وهو اختلاف طبيعي ناشئ من اختلاف الأذرع، وما بين ذراع اليد، وذراع الحديد من فرق، وهما يتفاوتان، فقد جاء في كتاب تاريخ الكعبة المعظمة أن ذراع اليد يتراوح ما بين (٤٨) إلى (٥٠) سم، وذراع الحديد (٥٦,٥)، بينما ذكر أخيراً أن ذراع اليد (٤٨) سم. وعلى هذا، فإن الحديث عن أبعاد الكعبة بمقياس الأذرع في العصر الحاضر لا يعطي دقة في التعرف على هذه الأبعاد، بل يؤدي إلى حيرة، وذلك لأن المتر وأجزاءه هو لغة القياس المفهوم في العصر الحاضر، ولقد قام مركز أبحاث الحج في جامعة أم القرى بمكة المكرمة بدراسة الحركة في المطاف، ووضع من خلالها مخططاً تفصيلياً للكعبة المشرفة، وحجر إسماعيل، بيانها كالتالي بالنسبة للكعبة كما يبين الشكل (م١ ـ ١):

١ ـ من الركن الأسود إلى الركن العراقي **١١,٦٨** متراً وفيه باب الكعبة.

٢ ـ من الركن اليماني إلى الركن الشامي **١٢,٠٤** متراً.

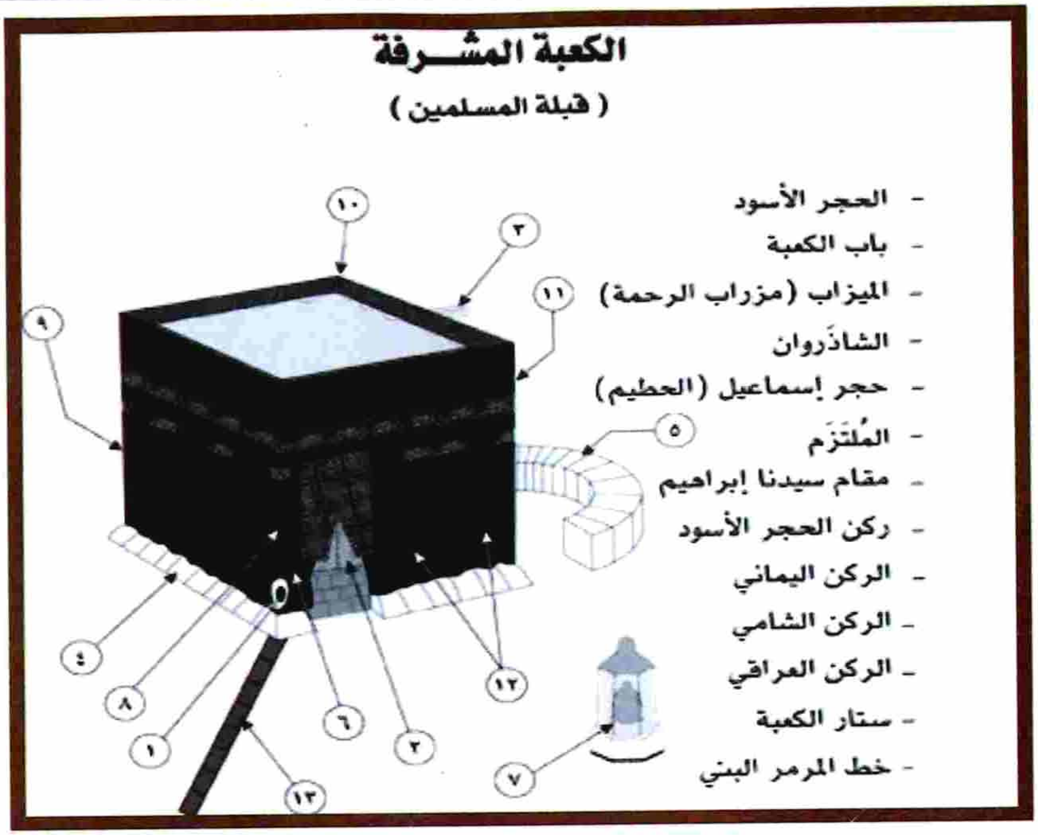
٣ ـ من الركن الأسود إلى الركن اليماني **١٠,١٨** متراً.

٤ ـ من الركن الشامي إلى الركن العراقي **٩,٩٠** متراً.

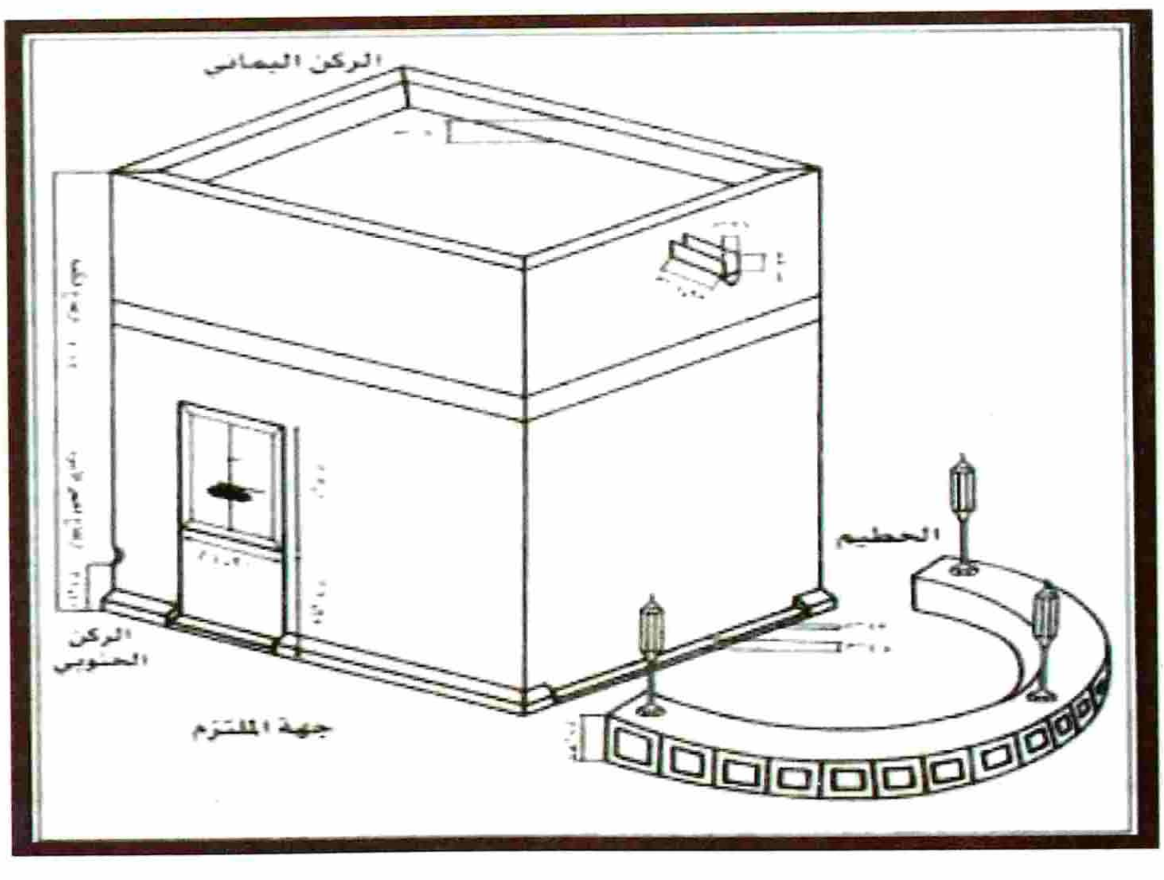
أما الارتفاع، فقد كان حسب بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالتحويل إلى وحدة المتر (**٤,٣٢**) متراً، وبناء قريش (**٨,٦٤**) متراً، وفي بناء عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ (**١٢,٩٥**) متراً، وحافظ الخليفة عبدالملك بن مروان على هذا الارتفاع في بناء الحجاج. ويقول الشيخ حسين باسلامة في كتابه ـ تاريخ الكعبة المعظمة ـ بأن الله وفقه لذرع الكعبة من داخلها، وذلك في يوم الجمعة الموافق **٢٣** من شهر ذي القعدة سنة **١٣٥٢**هـ بالمتر، فكان طولها من وسط الجدار اليماني إلى وسط الجدار الشامي **١٠,١٥**م، ومن وسط جدارها الشرقي إلى وسط جدارها الغربي **٨,١٠**م[١].

---

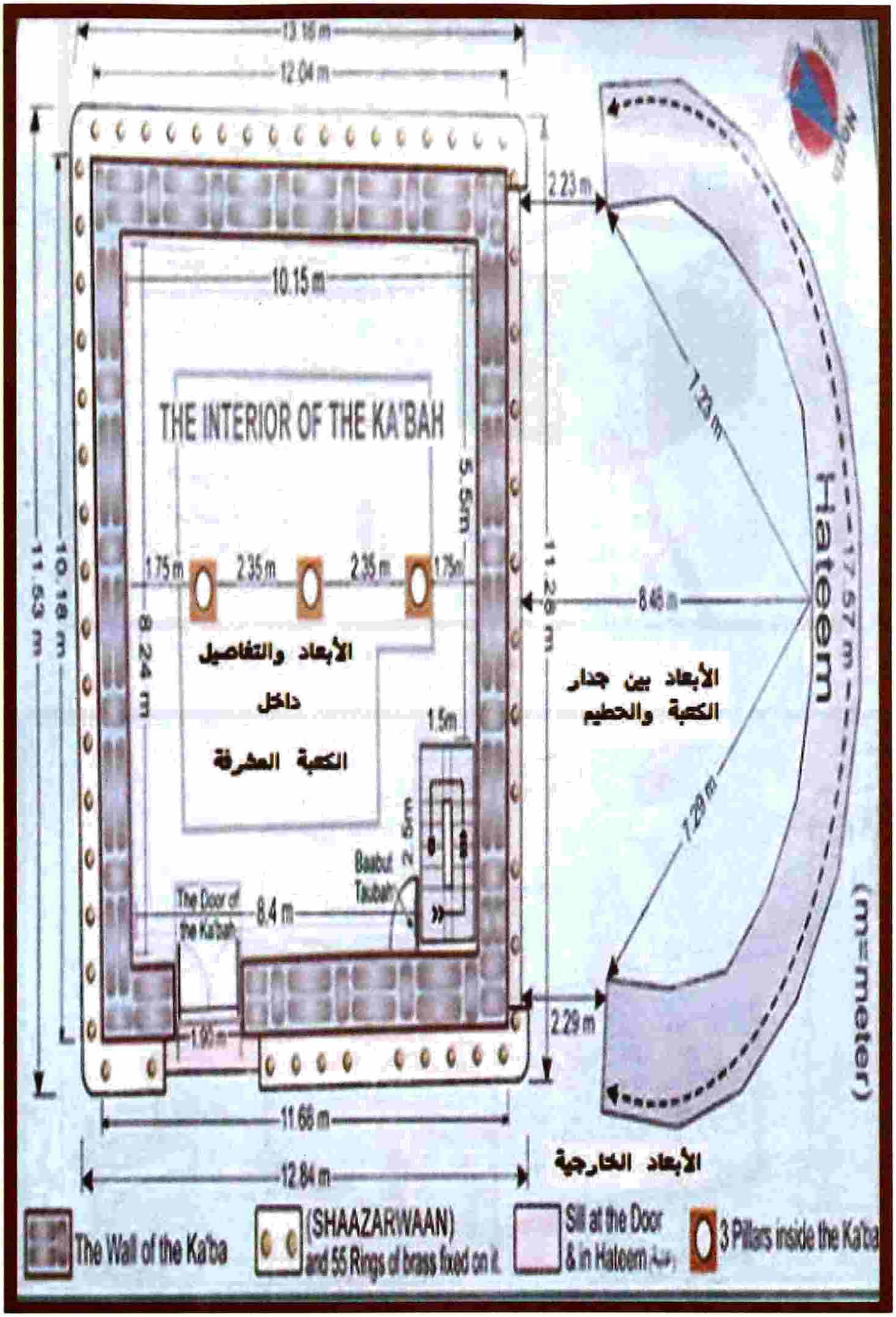
(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



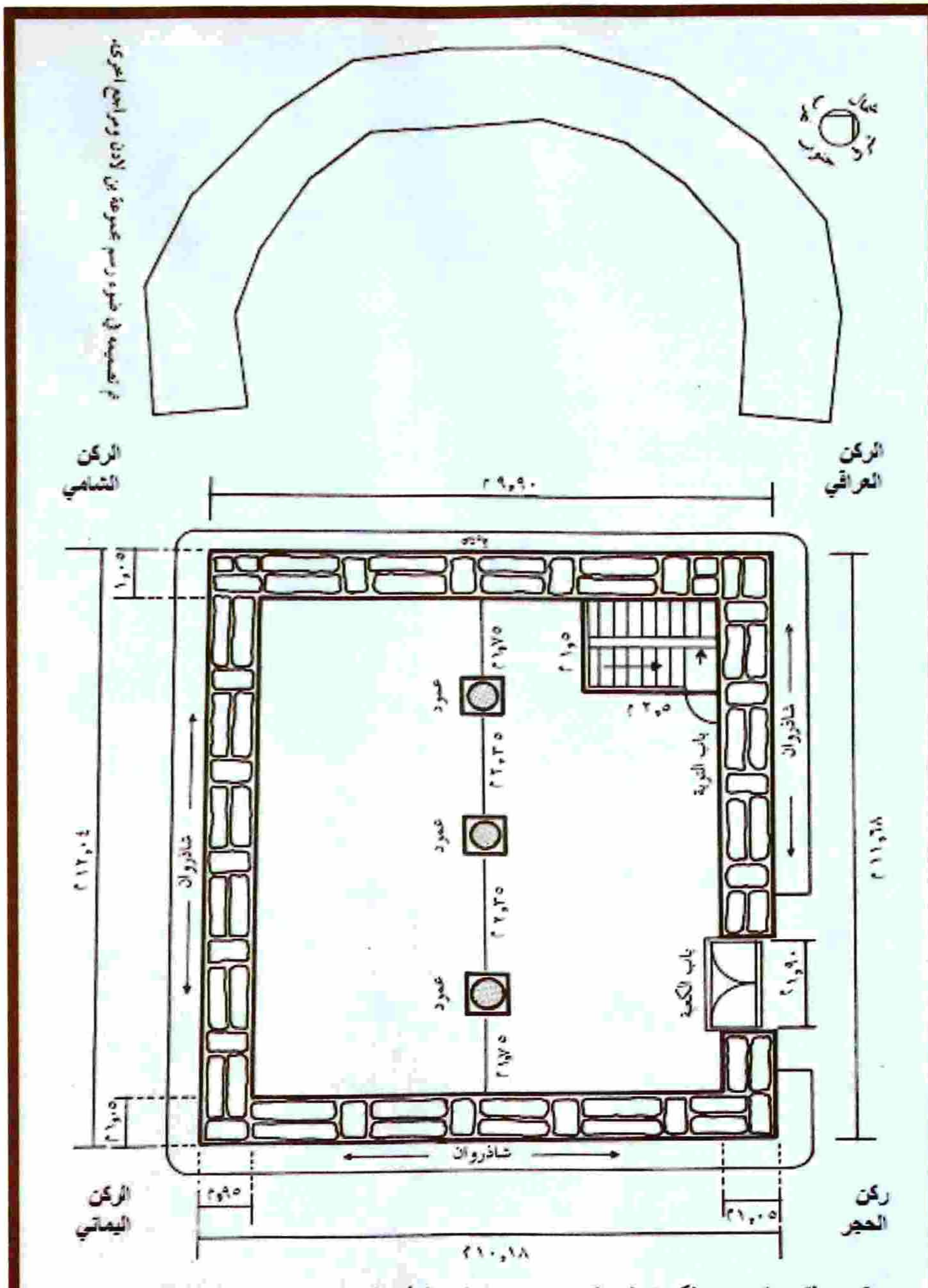
الشكل (م١ ـ ١ ـ أ): أقسام الكعبة ومحيطها



الشكل (م١ ـ ١ ـ ب): أبعاد منظور الكعبة المشرفة من الخارج منذ بناء الحجاج بن يوسف

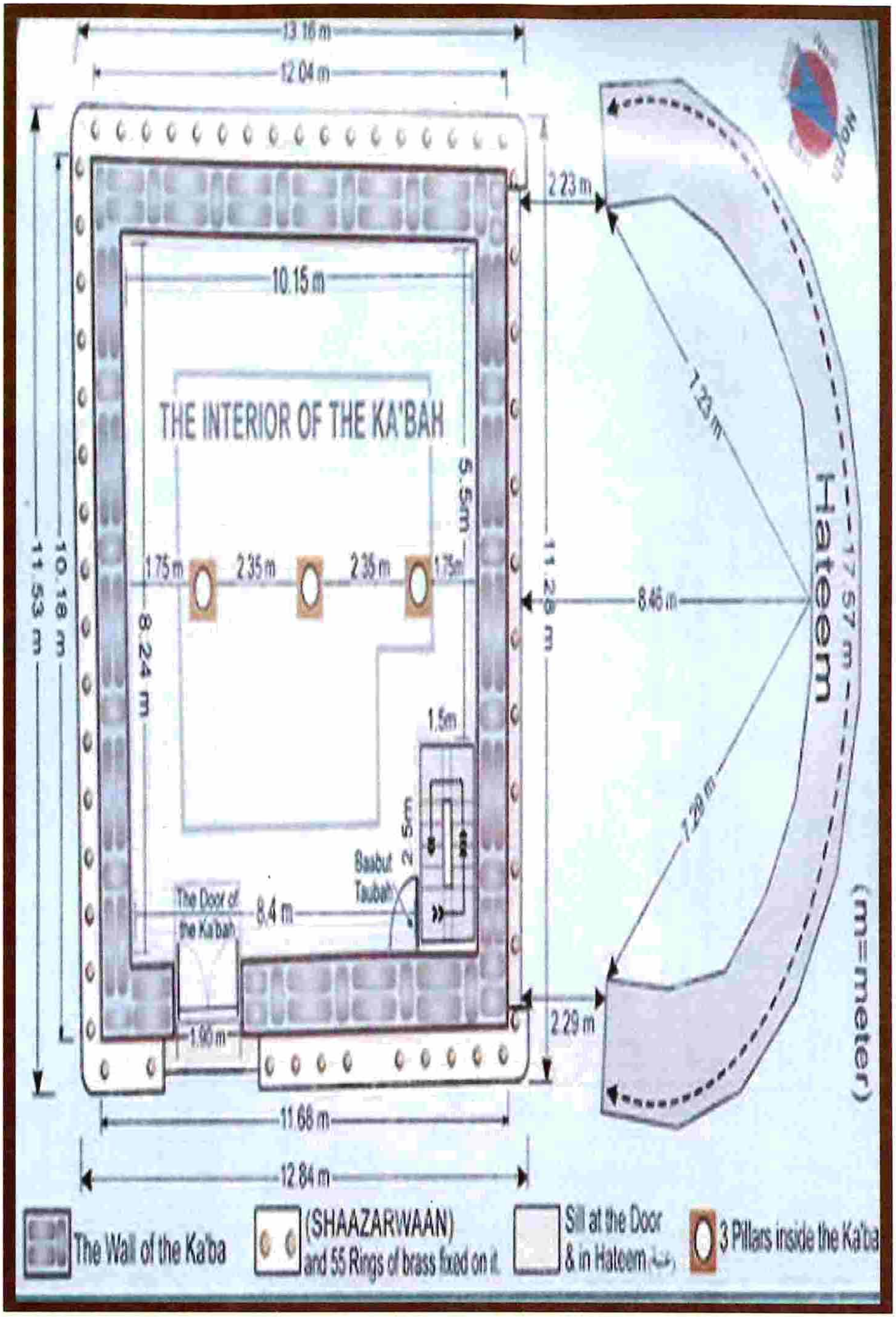


الشكل (م١ ـ ١ ـ جـ): الأبعاد والتفاصيل الكاملة لداخل وخارج الكعبة المشرفة وما يحيط بها مع سمك الجدران والأعمدة الداخلية منذ بناء الحجاج بن يوسف

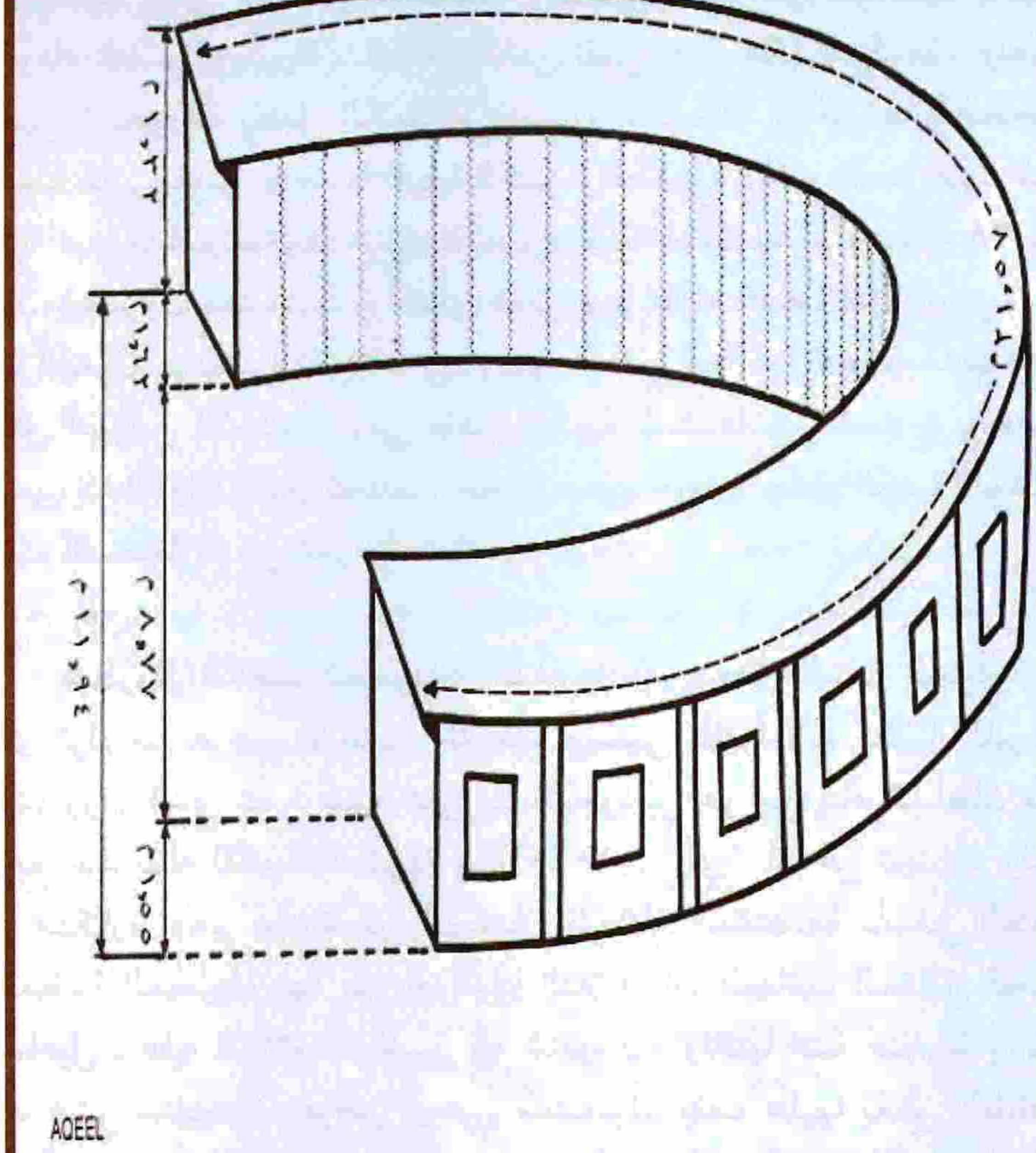


رسم تقريبي لقاعدة جدار الكعبة المشرفة وساحتها، ويلاحظ أن الشاذروان غير داخل في المساحات ضمن هذا الرسم، وفي الرسم بيان لباب التوبة والسلالم المؤدية إلى السطح وبيان لموقع الأعمدة والمساحة بينها.

الشكل (م١ ـ ١ ـ د): أبعاد المسقط الأفقي للكعبة المشرفة من الخارج والداخل منذ بناء الحجاج بن يوسف



الشكل (م١ ـ ١ ـ هـ): أبعاد المسقط الأفقي للكعبة المشرفة من الخارج والداخل مع الحطيم والشاذروان



رسم للحطيم وبيان لبعض أبعاده

الشكل (م١ ـ ١ ـ و): أبعاد الحطيم وحجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ منذ بناء الحجاج بن يوسف

بناء الكعبة المشرفة بشكلها الحالي الذي أجرى الله ترميمه على يد السعوديين هو من بناء السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان عام **١٠٤٠** هـ. وهي بناية قوية متينة، وعنصر بنائها هو الحجارة الكبيرة السوداء المشوبة بالزرقة، المأخوذة من نفس جبال مكة المكرمة، وأهمها الجبل المعروف بجبل الكعبة في محلة الشبيكة، ولكن هذه الحجارة ليست على مقاس واحد، ففيها الكبير والصغير، وأكبر حجر فيها طوله **١٩٠** سم مائة وتسعون سنتيمتراً، وعرضه نصف متر، وعمقه **٢٨** سم ثمان وعشرون سنتيمتراً، وأصغر حجر فيها طوله نصف متر وعرضه **٤٠** سم أربعون سنتيمتراً تقريباً، ورؤوسها المدفونة داخل الجدار مدببة على شكل أضراس الأسنان، وفي قاعدة الكعبة المشرفة من الخارج يوجد ما يسمى الشاذروان الذي تختلف حجارته عن حجارة جدار الكعبة المشرفة حيث أن حجارته من المرمر(١).

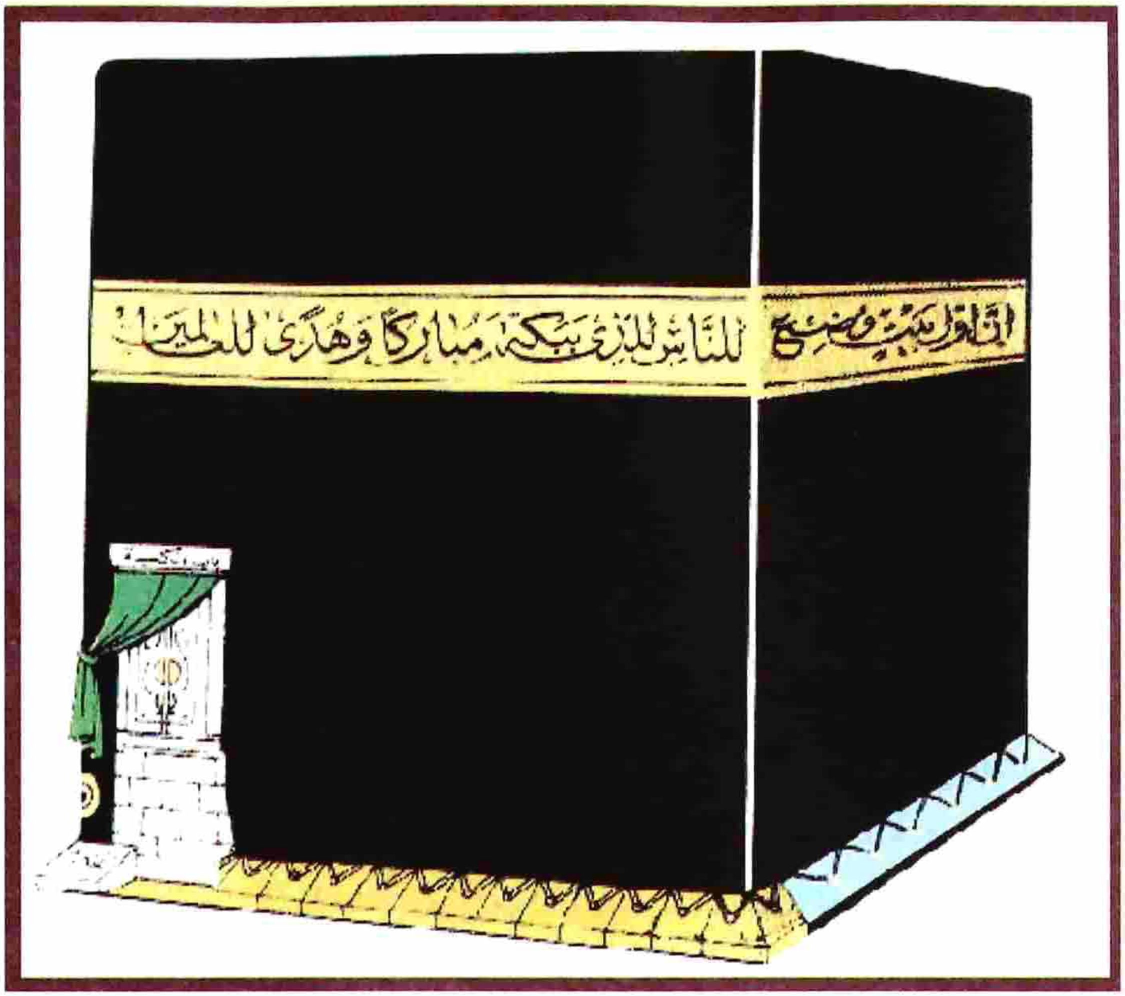
شاذروان الكعبة المشرفة: الشاذروان من جدار البيت الحرام وهو الذي ترك من عرض الأساس خارجاً، ويسمى تأزيراً لأنه كالإزار للبيت، والشاذروان الذي تم ترميمه على يد السعوديين هو من بناء السلطان مراد الرابع عند بنائه للكعبة المشرفة سنة **١٠٤٠**هـ، أي: أنه من تجديده وليس من ابتكاره. وهو عبارة عن الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المعظمة المحيطة بها من جوانبها الثلاثة. أما الجانب المقابل لحجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ، فليس فيه شاذروان، ولكنها عتبة صخرية بارتفاع أحد عشر سنتيمتراً وعرض أربعين سنتيمتراً، يقف عليها بعض الطائفين ملصقين بطونهم وأذرعتهم، وأوجههم، وأكفهم إلى الكعبة المشرفة تضرعاً بالدعاء. ولم يوضع شاذروان في هذه الجهة لأنه لا يمثل حد البيت الشمالي، فالحد هنا يمتد إلى ستة أذرع وشبر داخل الحجر. كما أنه لم

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

يوضع شاذروان أسفل باب الكعبة المشرفة تيسيراً لوقوف الناس للتعلق بعتبة باب الكعبة والملتزم للضراعة والدعاء، ويوجد مكانه عتبة بطول ثلاثة أمتار وخمسة وأربعين سنتيمتراً بارتفاع بسيط عن أرض المطاف، والشاذروان على الأصح هو جزء من الكعبة المشرفة، وقيل: إن أول من وضعه هو عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، على قواعد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحماية جدار الكعبة المشرفة من تسرب المياه إليها، وربط حبال ستارة الكعبة المشرفة في حلقاته المثبتة فيه لهذا الغرض، ولإبعاد أجساد الطائفين عن الاحتكاك بستارة وجدار الكعبة، كي لا تتضرر أجسادهم ولا يسرع التلف إلى ستارة الكعبة. وقد رمم الشاذروان عام **١٠٩٨** هـ أحمد باشا. وحجارة الشاذروان كلها من حجر الرخام الأبيض القوي الصلب وهي متفاوتة الحجم، وعدد حجارته واحد وسبعون حجراً منها ثمانية أحجار من ناحية باب الكعبة المشرفة إلى الشمال، من أنفس حجارة المرمر في العالم. وعدد الحلقات المثبتة فيه لربط حبال ستارة الكعبة المشرفة إحدى وأربعون حلقة، الشكل (م١ ـ ٢)[١].

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



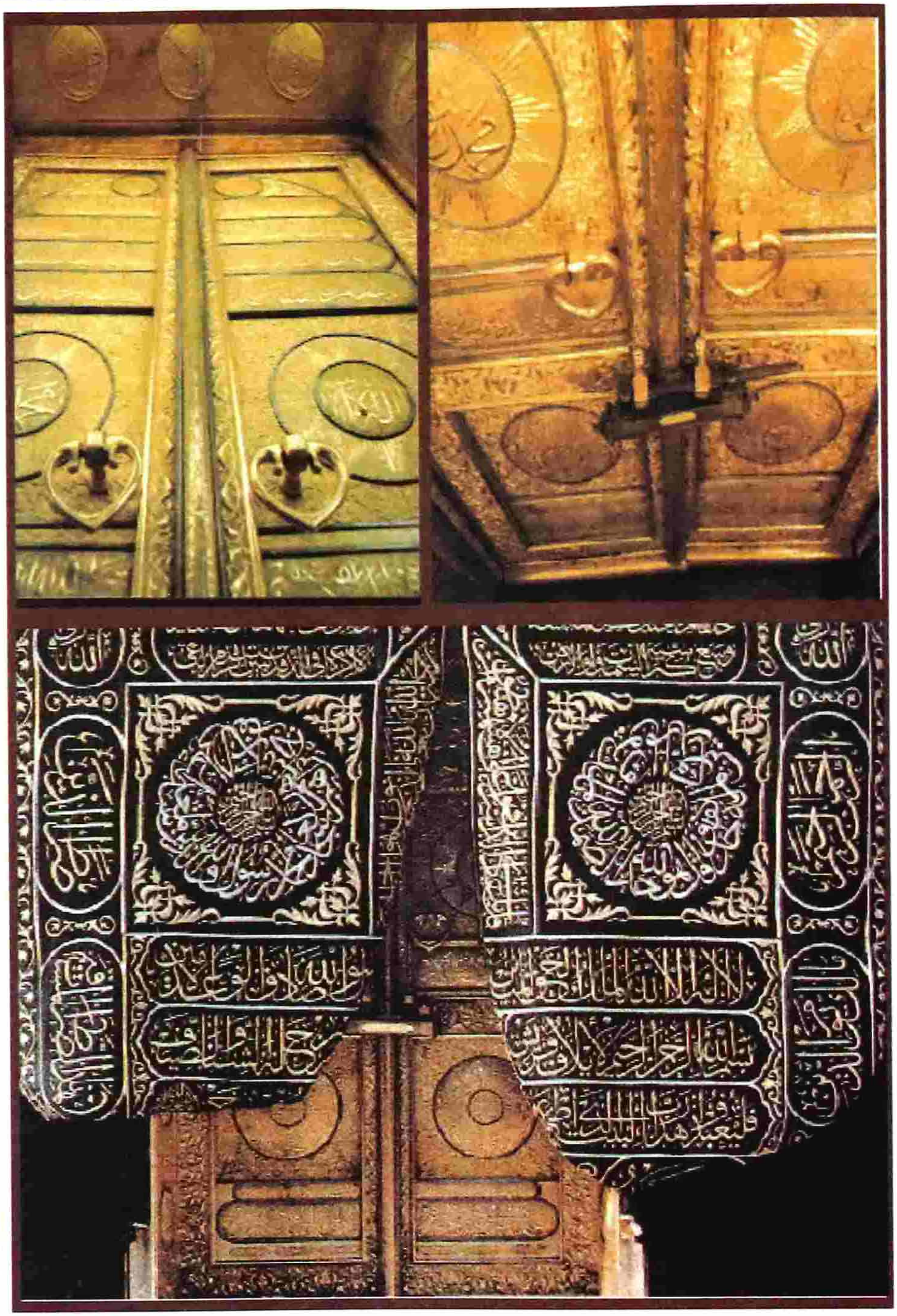
الشكل (م١ ـ ٢): شاذروان الكعبة في أسفلها وفيه حلقات لربط الكسوة

باب الكعبة: يطول بنا الكلام، لو تحدثنا عن بدايات باب الكعبة المعظمة، وتركيبه خلال تاريخه الطويل، منذ أن جعل تبع الحميري قبل الإسلام أول باب للكعبة، ومروراً بالعصور الإسلامية المختلفة، ثم وصولاً إلى العهد السعودي الحاضر. غير أن من المناسب أن نذكر آخر باب ـ قبل العهد السعودي ـ كان هو الباب الذي أمر بعمله السلطان مراد خان العثماني سنة (**١٠٤٥هـ**)، وجعل فيه من الحلية الفضية ما زنته مائة وستون رطلاً. ومن المعلوم، أن باب الكعبة المشرفة يقع في الجهة الشرقية منها، وهو الآن يرتفع عن أرض المطاف بحوالي (**٢,٢٥**) متر، وارتفاع الباب نفسه (**٣,١٠**) أمتار، وعرضه حوال (**٢م**)، وبعمق ما يقارب من نصف المتر. وقد مر الباب عبر تاريخه الطويل بالعديد من المراحل من حيث تصنيعه وأشكاله وزخارفه، ونوعية المادة المصنع منها، حتى جاء العهد

السعودي، فتطورت المواصفات وتم تركيب بابين في فترتين متقاربتين زمنياً وهما: الباب الأول: وهو الذي أمر بصنعه الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمٰن آل سعود يرحمه الله، وكان الباب مصفحاً بالذهب والفضة، ومزيناً بأسماء الله الحسنى، وقد تم تركيبه باحتفال كبير سنة **١٣٧٠**هـ. ثم جاء الباب الثاني: الذي أمر بصنعه الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود عندما لاحظ وهو يطوف الكعبة قدم الباب الموجود آنذاك، ووجود آثار خدوش عليه، فأصدر توجيهاته بصنع باب جديد حديث، تم صنعه من الذهب الخالص وبمواصفات جديدة. ومن الجدير بالذكر أن الملك فهد بن عبدالعزيز (كان ولياً للعهد آنذاك) وكانت له توجيهاته الخاصة، التي ظهر بسببها هذا العمل الجليل بالصورة المتقنة التي نراها اليوم. واستغرق العمل من غرة ذي الحجة **١٣٩٨**هـ، اثني عشر شهراً، وقد أقيمت ورشة خاصة لصناعته، لاحظ الشكل (م١ ـ ٣).

أما عن مواصفات الباب فلقد روعي مسبقاً وضع أفكار وتصاميم مبدئية لباب الكعبة المشرفة وذلك من أجل تحقيق أفضل المواصفات، وأدق التفاصيل وأجود المواد المستعملة وأعرق أساليب الزخرفة الإسلامية لما سيكون عليه الوضع النهائي للباب. وبالفعل فقد تم استخدام أحدث الطرق الفنية في الهيكل الإنشائي للباب، للتوصل إلى درجة عالية من المتانة والجودة، بحيث يقوم الباب بوظيفته بدون الاحتياج إلى صيانة، وقد جرى تفصيل الهيكل الإنشائي وتجهيزه بواسطة فنيين أخصائيين في ضوء مطابقة التصميم الزخرفي من جهة، ومراعاة عوامل الطقس والموقع في تحمل الحرارة الشديدة والأمطار من جهة أخرى، وأعدت أحدث الاحتياطات الفنية لمعالجة كافة النقاط التفصيلية والارتباط بين الباب والحلق من جهة والجوانب من جهة أخرى، وزودت نهاية الباب بعارضة من الأسفل لمنع دخول المطر إلى داخل الكعبة المشرفة، وتحتوي على قضيب خاص يضغط حرف الباب على العتبة عند الإغلاق. أما بالنسبة للزخرفة والكتابة على الباب، فقد اختيرت الزخرفة من أنواع متجانسة أهم عناصرها هي زخرفة الإطار البارز، وهي الزخرفة التي تستمر في مستوى

مكان القفل حيث تعطي له الأهمية اللازمة، لأن قفل الكعبة المشرفة له شخصية خاصة في الشكل التراثي والوظيفي. وأضيفت في الزاويتين العلويتين زخارف متميزة لإبراز شكل قوس يحيط بلفظ الجلالة (الله جل جلاله)، واسم رسول الله ـ ﷺ ـ والآيات القرآنية الكريمة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿... رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: من الآية ٨٠]، ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ...﴾ [الأنعام: من الآية ٥٤]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ...﴾ [غافر: من الآية ٦٠]. ويلي ذلك حشوتان على شكل شمسين مشرقتين في وسطهما كتابة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) على شكل برواز دائري، وقد ثبتت على أرضية الحشوتين العلويتين حلقتا الباب اللتان تشكلان مع القفل وحدة متجانسة شكلاً ونسقاً. وبين الحلقتين والقفل مساحة بارتفاع مناسب بغرض الفصل بين أنواع الزخارف المتجانسة شكلاً والمتباينة نسبة ليكون الشكل العام مريحاً للنظر، وكتب تحت الحشوتين العلويتين الآية الكريمة: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].



الشكل (م١ ـ ٣): باب الكعبة المذهب وقفلها

والحشوتان اللتان تحت القفل، كتبت في وسطيهما سورة الفاتحة على شكل قرصين بارزين، وتحت هاتين الحشوتين عبارات تاريخه بخط صغير: صنع الباب السابق في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمٰن آل سعود سنة ١٣٦٣هـ، وتحتها: صنع هذا الباب في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٩٩ هـ. وكذلك فإنه كتب في الدرفة اليمنى وضمن زخرفة خفيفة عبارة: (تشرف بافتتاحه بعون الله تعالى الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود في الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٩٩ هـ)، وكتب في الدرفة اليسرى عبارة: (صنعه أحمد إبراهيم بدر مكة المكرمة، صححه منير الجندي، واضع الخط عبدالرحمٰن أمين). كما وضعت زخرفة دقيقة خاصة لأنف الباب المثبت على الدرفة اليسرى. أما الجوانب، فقد صممت بطريقة فنية ومثبتة حسب التصميم الزخرفي بعد مراعاة اللوحات الدائرية البارزة التي تحمل أسماء الله الحسنى وعددها خمس عشرة، كتب فوق الباب: يا واسع ـ يا مانع ـ يا نافع، وعلى الجانب الأيمن: يا عالم ـ يا عليم ـ يا حليم ـ يا عظيم ـ يا حكيم ـ يا رحيم، بينما كتب على الجانب الأيسر: يا غني ـ يا مغني ـ يا حميد ـ يا مجيد ـ يا سبحان ـ يا مستعان. أما على القاعدة الخشبية فقد تم تثبيت لوحات الذهب الخالص بطريقة النقش والحفر، وهذه القاعدة الخشبية، مؤلفة من ثلاثة مستويات، في البروز منها عملت الزخرفة الإطارية المستمرة، والثانية تحمل الآيات الكريمة. وبالنسبة لقفل الباب فلقد تمت صناعة قفل جديد للباب حين أريد تغيير القفل القديم، والذي يعود إلى عهد السلطان عبدالحميد سنة (١٣٠٩هـ)، وذلك بنفس مواصفات القفل القديم بما يناسب التصميم الخاص بالباب الجديد، ومع زيادة ضمانة الإغلاق دون الحاجة إلى صيانة[(١)].

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

الحجر الأسود: هذا البيت العظيم يحوي حجراً كريماً ما مثله حجر في الدنيا يسمى الحجر الأسود.



هذه صورة الحجر الأسود وتظهر منه ثماني قطع. رسمها بنفسه الخطاط الشيخ محمد طاهر الكردي.

صورة مكبرة لثماني قطع الحجر الأسود

الشكل (م ١ ـ ٤): ما تبقى من الحجر الأسود

روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم**»[(١)]. ومن السُّنة تقبيل الحجر الأسود واستلامه. وروى مسلم والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عابس بن ربيعة قال: (رأيت عمر يقبل الحجر ويقول: إني لأقبلك وأعلم أنك حجر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لم أقبلك)[(٢)]. وروى الترمذي وقال: حديث حسن وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في الحجر: «**والله! ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق**»[(٣)]. كما روى ابن خزيمة في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «فدخلنا مكة ارتفاع الضحى، فأتى ـ يعني: النبيّ ـ ﷺ ـ باب المسجد فأناخ راحلته ثم دخل المسجد، فبدأ بالحجر فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء فذكر الحديث. . . وقال: ورمل ثلاثاً ومشى أربعاً حتى فرغ فلما فرغ قبَّل الحجر ووضع يديه عليه ثم مسح بهما وجهه»[(٤)].

لقد خشي عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يظن الجهال أن استلام الحجر هو مثل ما كانت تفعله العرب في جاهليتها فأراد عمر من قوله أن استلامه وتقبيله والتمسح به وكذا التمسح بالركن اليماني لا يقصد به إلا تعظيم الله عز وجل والوقوف عند أمر نبيه ـ ﷺ ـ، وأن ذلك من شعائر الحج التي

---

(١) سنن الترمذي (جزء ٣ - صفحة ٢٢٦)، قال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الشيخ الألباني: صحيح.. انظر المصادر.

(٢) صحيح مسلم (جزء ٢ - صفحة ٩٢٥)، وسنن الترمذي (جزء ٣ - صفحة ٢١٤). انظر: المصادر.

(٣) اللفظ في سنن الترمذي (جزء ٣ - صفحة ٢٩٤)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: المصادر.

(٤) صحيح ابن خزيمة (جزء ٤ - صفحة ٢١٢). قال الأعظمي: إسناده ضعيف لعنعنة ابن إسحاق.

أمر الله بتعظيمها، وأن استلام المسلمين للحجر وتقبيلهم إياه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم للأصنام، لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى، فبادر عمر إلى استلامه وتقبيله تأسياً برسول الله - ﷺ - وأكَبَّ على الركن اليماني وقال: (إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أر حبيبي - ﷺ - قبَّلك واستلمك ما استلمتك ولا قبَّلتك). ولقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال - ﷺ -: «**خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا**»(١). وروى أبو يعلى عن ابن عمر قال: رأيت عمر بن الخطاب قبّل الحجر وسجد عليه، ورجال إسناده رجال الصحيح غير المخزومي وهو ثقة، ورواه البزار بإسناد جيد.

هنالك رأي يقول: إن الحجر الأسود نيزك من النيازك نزل إلى الأرض، وهذا الرأي لا يبتعد كثيراً عن حقيقة اعتقاد المسلم كما وصلته من رسول الله - ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى، وهي أن الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين، يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبَّله من أهل الدنيا. وهو إما دفع إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليضعه في مكانه من الكعبة بوحي الله، وإما أن يكون أودع في جبل أبي قبيس إلى أن وصل إبراهيم في بنائه موضع الحجر فجيء به منه إليه. وموضعه في الركن الشرقي الجنوبي من الكعبة، يرتفع على أرض المطاف متراً ونصف متر تقريباً، وهو محاط بإطار من الفضة الخالصة صوناً له، ويظهر مكان الحجر بيضوياً، والحجر الأسود لا يمكن وصفه لأننا لا نرى منه الآن إلا ثماني قطع صغار مختلفة الحجم أكبرها بقدر التمرة بسبب ما كان من أمر تفتيته على يد القرامطة المجرمين عندما سرقوه وأعادوه مفتتاً لاحقاً. ويروى أن القطع تبلغ خمس عشرة قطعة إلا أن القطع السبع الأخرى مغطاة بالمعجون البني الذي يراه

(١) سنن البيهقي الكبرى (جزء ٥ - صفحة ١٢٥)، وجاء في الموطأ ومسند الشافعي ومسند الشاميين. انظر: المصادر.

كل مستلم للحجر، وهو خليط من الشمع والمسك والعنبر موضوع على رأس الحجر الكريم، فالمنظور من الحجر داخل في بناء الكعبة المشرفة والتي يحيط به حجارة الكعبة من كل جانب، وأما طول الحجر فقد رآه يوم قلعه القرامطة في القرن الرابع الهجري محمد بن نافع الخزاعي، فرأى السواد في رأسه فقط وسائره أبيض وطوله قدر ذراع.

وقد رآه أيام السلطان مراد العثماني ابن علان المكي أحد العلماء رأى طوله نصف ذراع وعرضه ثلث ذراع، والحجر أبيض ورأسه أسود سوَّدته خطايا بني آدم، ولا يقال: لِمَ لَمْ تبيضه طاعات أهل التوحيد؛ لأن الله لو شاء لكان ذلك، ولكن العادة جارية بأن السواد يصبغ ولا يصبغ، وفي بقائه أسود عبرة لمن له بصيرة، فإن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصلد فتأثيرها في القلب أشد.

وأول من طوق الحجر الأسود بالفضة عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، ثم تتابع الخلفاء والأثرياء من بعده في عمل الإطار من ذهب وفضة، وكان آخر من أهدى إطاراً للحجر الأسود قبل الحكومة السعودية السلطان محمد رشاد خان في عام **١٣٣١**هـ، وكان من الفضة الخالصة، وقد أصلح الملك عبدالعزيز جزءاً من هذا الطوق عام **١٣٦٦**هـ، ثم في شعبان عام **١٣٧٥**هـ، بدل الملك سعود الإطار الرشادي بإطار جديد من الفضة الخالصة. (انظر: الشكل م١ ـ ٤)[١].

الركن اليماني: هو ركن الكعبة المشرفة الواقع في الجنوب الغربي منها، وهو الركن الموازي للركن الجنوبي الشرقي الذي يوجد به الحجر الأسود والذي يبدأ منه الطواف بالبيت العتيق، ويسمى بالركن اليماني لأنه باتجاه اليمن، وهو يستلم باليد كما فعل ـ ﷺ ـ، والخلاف في تقبيله، والأكثر على عدم تقبيله، وإن فعل ذلك فلا بأس. ومن مميزات الركن

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com) وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

اليماني أنه على القواعد الأولى للبيت التي رفعها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، وقد ورد عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «**مسح الحجر والركن اليماني يحط الخطايا حطاً**»[1][2].

ميزاب الكعبة المشرفة: ميزاب الكعبة هو الجزء المثبت على سطح الكعبة في الجهة الشمالية والممتد نحو حجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ والمصرف للمياه المتجمعة على سطح الكعبة المشرفة عند غسل السطح أو سقوط الأمطار، وأول من وضع ميزاباً للكعبة المشرفة قريش حين بنتها سنة **٣٥** من ولادة النبيّ ـ ﷺ ـ، حيث كانت قبل ذلك بلا سقف كما سنبين لاحقاً، ثم لما بناها عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ وضع لها ميزاباً وجعل مصبه على حجر إسماعيل كما فعلت قريش، ثم لما أنقص منها الحجاج بن يوسف ما زاده فيها عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ على بناء قريش على حسب قواعد إبراهيم، ـ ﷺ ـ وضع الميزاب في موضعه من الجهة الشمالية، وجعل مصبه على حجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ كما كان سابقاً. وقال الأزرقي: وذرع طول الميزاب أربعة أذرع، وسعته ثمانية أصابع في ارتفاع مثلها، والميزاب ملبس بصفائح الذهب، وكان الذي جعل عليه الذهب الوليد بن عبدالملك. وقد وقع تغيير وتبديل في ميزاب الكعبة المشرفة، وذلك لسببين، أحدهما: كان إذا اعتراه خراب عمل غيره، والثاني: كان بعض الملوك أو الأغنياء من عظماء المسلمين يهدي للكعبة المعظمة ميزاباً فيركب في الكعبة المشرفة، وينزع الذي قبله.

والميزاب الموجود في الكعبة المشرفة إلى العصر الحاضر هو الميزاب الذي عمله السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان، عمله في القسطنطينية ثم جيء به وركب سنة **١٢٧٦**هـ، وهذا الميزاب

---

(١) صحيح ابن حبان (جزء **٩** - صفحة **١١**)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي. وأخرجه أحمد وصاحب الحلية وفي مسند عبد بن حميد. انظر: المصادر.

(٢) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

مصفح بالذهب. وقد أدخلت عليه ترميمات جزئية في المسامير العلوية المانعة لوقوف الحمام عليه، وذلك في عهد الملك سعود حين رمم سطح الكعبة المشرفة. (انظر: الشكل م١ ـ ٥)[(١)].



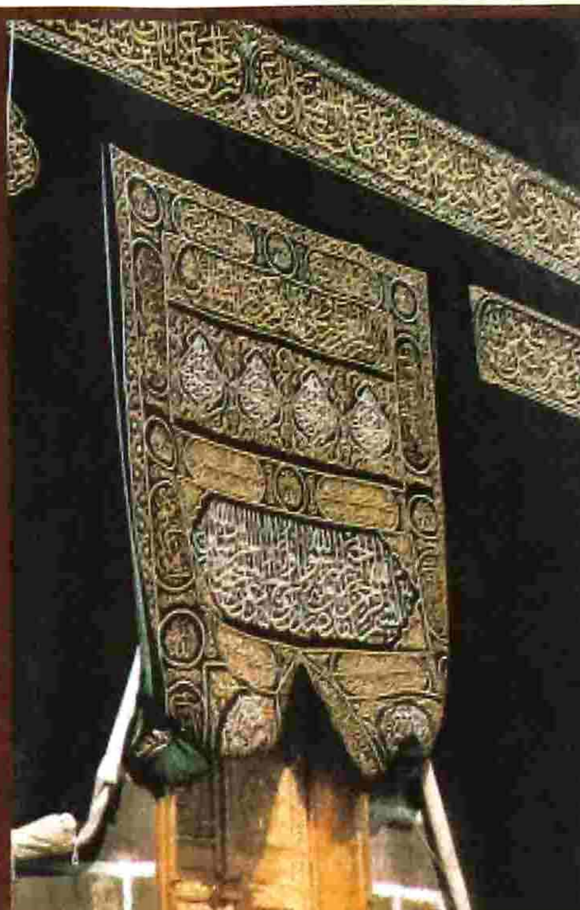
الشكل (م١ ـ ٥): الميزاب بعد ترميمه ونوع النقش المثبت عليه

كسوة الكعبة: كسوة الكعبة المعظمة هي ما يتخذ من الثياب للستر والجلية فوقها، تقول: كسوت الكعبة، أي: ألبستها الكسوة. وقد مرت كسوة الكعبة منذ بناها سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ بأطوار مختلفة ارتبطت بعوامل اجتماعية واقتصادية مختلفة، غير أن الوازع المشترك في نية الكسوة هو التقديس لهذا البيت الحرام والتقرب من الله سبحانه وتعالى. وقد اختلفت الروايات في أول من كسا الكعبة، فبعض العلماء يقولون: إن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو أول من كساها، ومنهم من قال: إنه عدنان بن أد الجد الأعلى للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن الثابت أن تبع الحميري ملك اليمن، هو أول من كساها بالخصف، وبعد تبع كساها الكثيرون في الجاهلية، وكان ذلك واجباً من الواجبات الدينية، ومن هؤلاء أبو ربيعة بن عبدالله المخزومي الذي كان يكسوها سنة، وجميع قريش تكسوها السنة التالية. ثم كساها رسول الله ـ ﷺ ـ

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

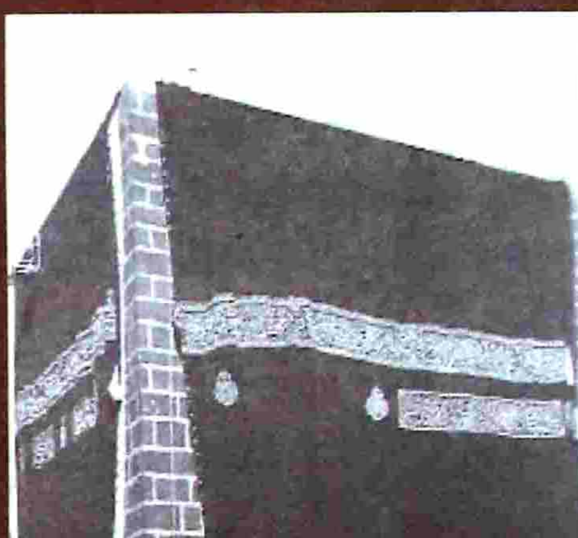
بالثياب اليمانية عندما احترقت على يد امرأة أرادت تبخيرها، وبعد ذلك كساها الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ بالقماش المسمى بالقباطي. وبعد الخلافة الراشدة كان الخلفاء الأمويون والعباسيون ثم المماليك والأتراك يتنافسون على كسوة الكعبة والتفنن فيها. وقد كانت الكساوي توضع على الكعبة بعضها فوق بعض، حتى حج الخليفة العباسي سنة **١٦٠هـ**، فشكا إليه السدنة الأمر، فأمر بألا يسدل على الكعبة أكثر من كسوة واحدة واستمر ذلك إلى الآن.

ومنذ عهد محمد علي باشا حاكم مصر الذي أنشأ إدارة حكومية لصنع الكسوة، والحكومة المصرية قائمة بالإنفاق على صناعة الكسوة. وظل الأمر كذلك حتى جاء العهد السعودي على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمٰن آل سعود الذي أمر في سنة **١٣٤٦هـ**، بإنشاء دار خاصة لعمل كسوة الكعبة المشرفة في مكة المكرمة.

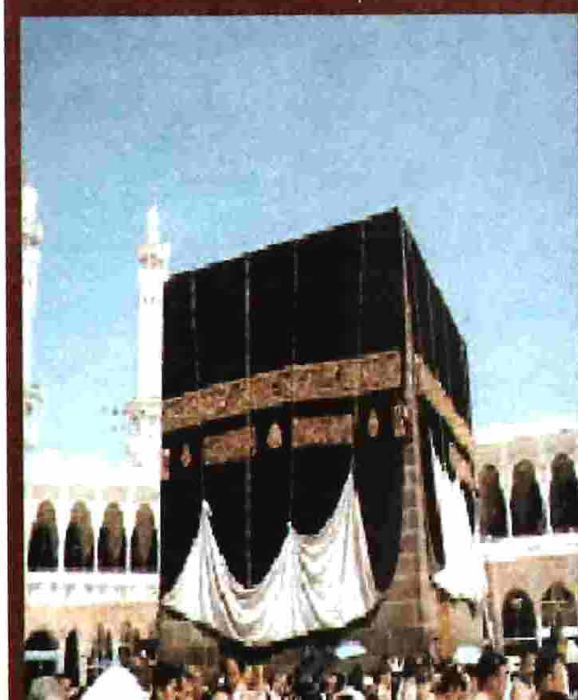




منظر للكعبة المشرفة بدون كسوة



الكعبة المشرفة أثناء تغيير الكسوة



الشكل (م١ ـ ٦): كسوة الكعبة المشرفة

وتم توفير كل ما يحتاج إليه العمل، وافتتح مصنع كسوة الكعبة في منتصف العام نفسه، وفيه تم إنتاج كسوة للكعبة المشرفة، واستمر المصنع ينتج ثوب الكعبة المشرفة، ومع التقدم الحضاري العالمي في فن النسيج وتقنيته أراد الملك فيصل أن يواكب هذا التطور التقني فيطور مصنع الكسوة بما يحقق أفضل وأمتن وأجمل إنتاج لثوب الكعبة، فصدر أمره السامي في عام **١٣٩٢**هـ ـ **١٩٧٢**م بتجديد مصنع الكسوة بأم الجود بمكة المكرمة، وتم افتتاحه في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز عندما كان ولياً للعهد وذلك في ربيع الآخر سنة **١٣٩٧** هـ ـ **٢٦** مارس **١٩٧٧**م. (انظر: الشكل م١ ـ ٦)[١].

وصف كسوة الكعبة المشرفة: تنسج الكسوة من الحرير الطبيعي الخالص المصبوغ باللون الأسود وقد نقش عليه بطريقة (الجاكارد) عبارات: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ـ الله جل جلاله ـ سبحان الله وبحمده ـ سبحان الله العظيم ـ يا حنان ـ يا منان ـ على شكل سبعة متكررة ومتصلة. ويبلغ ارتفاع الثوب **١٤.٥** متراً، ويوجد في الثلث الأعلى منه حزام الكسوة بعرض **٩٥** سم، كما يوجد تحت الحزام على الأركان سورة الإخلاص مكتوبة داخل دائرة محاطة بشكل مربع من الزخارف الإسلامية، وعلى الارتفاع نفسه، وتحت الحزام أيضاً توجد **٦** آيات من القرآن مكتوبة كل منها داخل إطار منفصل، وفي الفواصل بينها يوجد شكل قنديل كتب عليه يا حي يا قيوم ـ يا رحمن يا رحيم ـ والحمد لله رب العالمين. وكل ما تحت الحزام مكتوب بالخط الثلث، ومطرز تطريزاً بارزاً، ومغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب، وقد أحدث وضع هذه القطع في العهد السعودي[٢].

الستارة الداخلية للكعبة: أنشئ قسم خاص في مصنع الكسوة

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

(٢) نفس المصادر السابقة.

المشرفة، ينتج الستارة الداخلية للكعبة، وستارة الحجرة النبوية الشريفة، ويتم العمل فيه يدوياً، حيث يعتمد على المهارة والدقة، والمستوى الفني الرفيع، وقد تم ابتكار وتطوير العمل في مجال اللف والمكائن اليدوية المستوردة. وتمر صناعة الستارة الداخلية للكعبة المشرفة بعدة مراحل ابتداء من إعداد شكل الحرير الطبيعي ومروراً بطباعة الأشكال والخطوط على القماش والتطريز عليها حسب النصوص من الآيات القرآنية وذلك بأسلاك الذهب والفضة[١].

ستارة باب الكعبة: الستارة هي البرقع الذي يعلق على باب الكعبة المشرفة من الخارج، وقد وضعت الستارة المنقوشة لأول مرة على باب الكعبة عام (٨١٠هـ)، واستمر وضعها منذ ذلك التاريخ باستثناء سنوات ٨١٦ ـ ٨١٨هـ. وتصنع الستارة من الحرير الأسود، وتبطن بقماش أخضر متين من الحرير، وتكتب عليها آيات قرآنية وزخارف إسلامية مطرزة بتطريز بارز، مغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب. وتحت الآيات كتبت بنفس الخط والتصميم عبارة: (صنعت هذه الستارة في مكة المكرمة، وأهداها إلى الكعبة المشرفة). وارتفاع الستارة ستة أمتار ونصف المتر، وعرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر، وتتكون من خمس قطع تجمع رأسياً ثم تبطن بالقماش.

حزام الكعبة المعظمة: يقع الحزام في الثلث الأعلى من الثوب بعرض (٩٥) سم، كتبت عليه آيات قرآنية بخط الثلث المركب، محاط بإطار من الزخارف الإسلامية، والحزام مطرز بتطريز بارز ومغطى بسلك فضي مطلي بالذهب، ويحيط الحزام بالكسوة كلها، ويبلغ طوله (٤٧) متراً وعرضه (٩٥) سم، ويتألف من (١٦) قطعة. في كل جانب أربع قطع، أما تحت الحزام فتوجد في كل جانب من جوانب الكعبة قطعتان وثلاثة

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

قناديل، ما عدا جهة باب الملتزم ففيه قطعة واحدة كبيرة تسمى الأهداء. وفي كل ركن من أركان الكعبة المشرفة، توجد قطع مربعة تسمى الصمدية، وهي سورة الإخلاص، ويكتب على حزام كسوة الكعبة المشرفة من جهاته الأربع العديد من الآيات القرآنية الكريمة. وعلى العموم فالحزام قطعة فنية باهرة شديدة الخصوصية، تحيط بالكعبة من جوانبها، فتلقي على الثوب بهاء وجمالاً وجلالاً[١].

ثانياً: صفة الكعبة المشرفة من داخلها:

أما صفة الكعبة المشرفة من داخلها فهو كالتالي:

في الركن العراقي على يمين الداخل إلى الكعبة المشرفة يوجد بناء الدرج المؤدي إلى السطح، وهو عبارة عن بناء مستطيل شكله كالغرفة المسدودة بدون نوافذ، ضلعاها الشرقي والشمالي من أصل جدار الكعبة المشرفة، وتحجب في داخلها الدرج، ولها باب عليه قفل خاص وعليه ستارة حريرية جميلة مكتوبة ومنقوشة بالذهب والفضة.

وعرض الجدار الجنوبي للدرج والذي فيه بابها **٢٢٥**سم، وعرض الجدار الغربي **١٥٠**سم، وإذا صعد الإنسان من الدرج إلى السطح فقبل وصوله إلى السطح بنحو قامة يرى أمامه باباً صغيراً وعن يساره باباً مثله، وكلاهما يدخل إلى ما بين سقفي الكعبة المشرفة، ومسافة ما بين السقفين **١٢٠**سم، وينتهي الدرج عند السطح بروزنة (منور) مغطاة بغطاء محكم منعاً لدخول المطر. ويرفع الغطاء عند الصعود إلى السطح. (انظر: الشكل م١ ـ ٧).

وفي داخل الكعبة أعمدة خشبية ثلاثة تحمل سقف الكعبة المشرفة، وهي من أقوى أنواع الأخشاب التي لا يعرف مثلها، وهي من وضع عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أي: أن عمرها أكثر من **١٣٥٠**

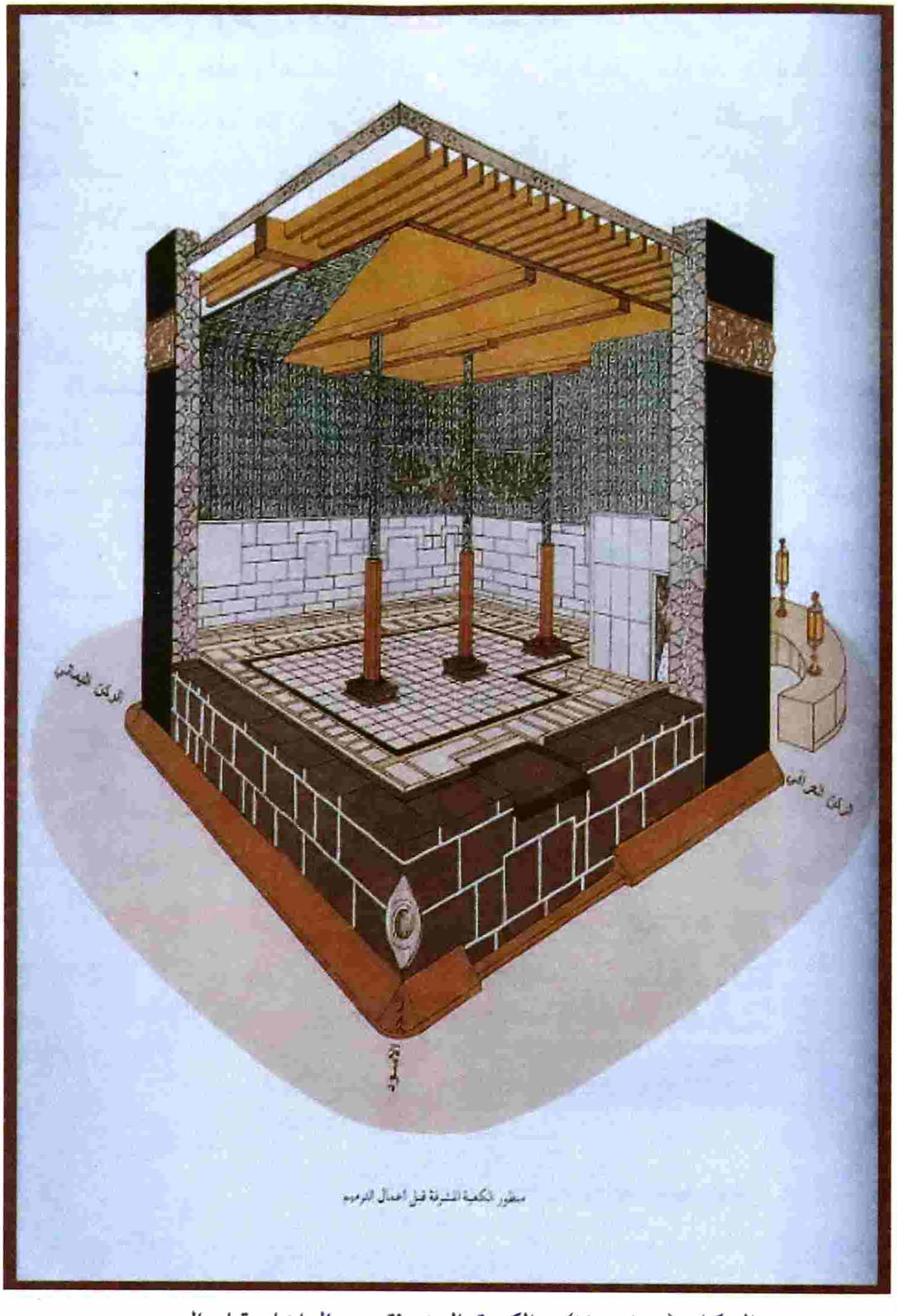
(١) نفس المصادر السابقة.

عاماً، وهي بنية اللون تميل إلى السواد قليلاً، ومحيط كل عمود منها **١٥٠**سم تقريباً وبقطر **٤٤**سم، ولكل منها قاعدة مربعة خشبية منقوشة بالحفر على الخشب، ويوجد بين الأعمدة الثلاثة مداد معلق فيه بعض هدايا الكعبة المشرفة. ويمتد على الأعمدة الثلاثة حامل يمتد طرفاه إلى داخل الجدارين الشمالي والجنوبي.

وهذه الأعمدة الثلاثة مرتفعة إلى السقف الأول الذي يلي الكعبة المشرفة ولا تنفذ من هذا السقف إلى السقف الأعلى الذي يلي السماء، ولكن جعلت عدة أخشاب بعضها فوق بعض على رؤوس هذه الأعمدة الثلاثة من داخل السقفين إلى أن تصل إلى السقف الأعلى، فتكون هذه الأعمدة الثلاثة بهذه الصفة حاملة للسقفين المذكورين. ويوجد في كل عمود ثلاثة أطواق للتقوية. (انظر: الشكل م١ ـ ٧)[1].

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



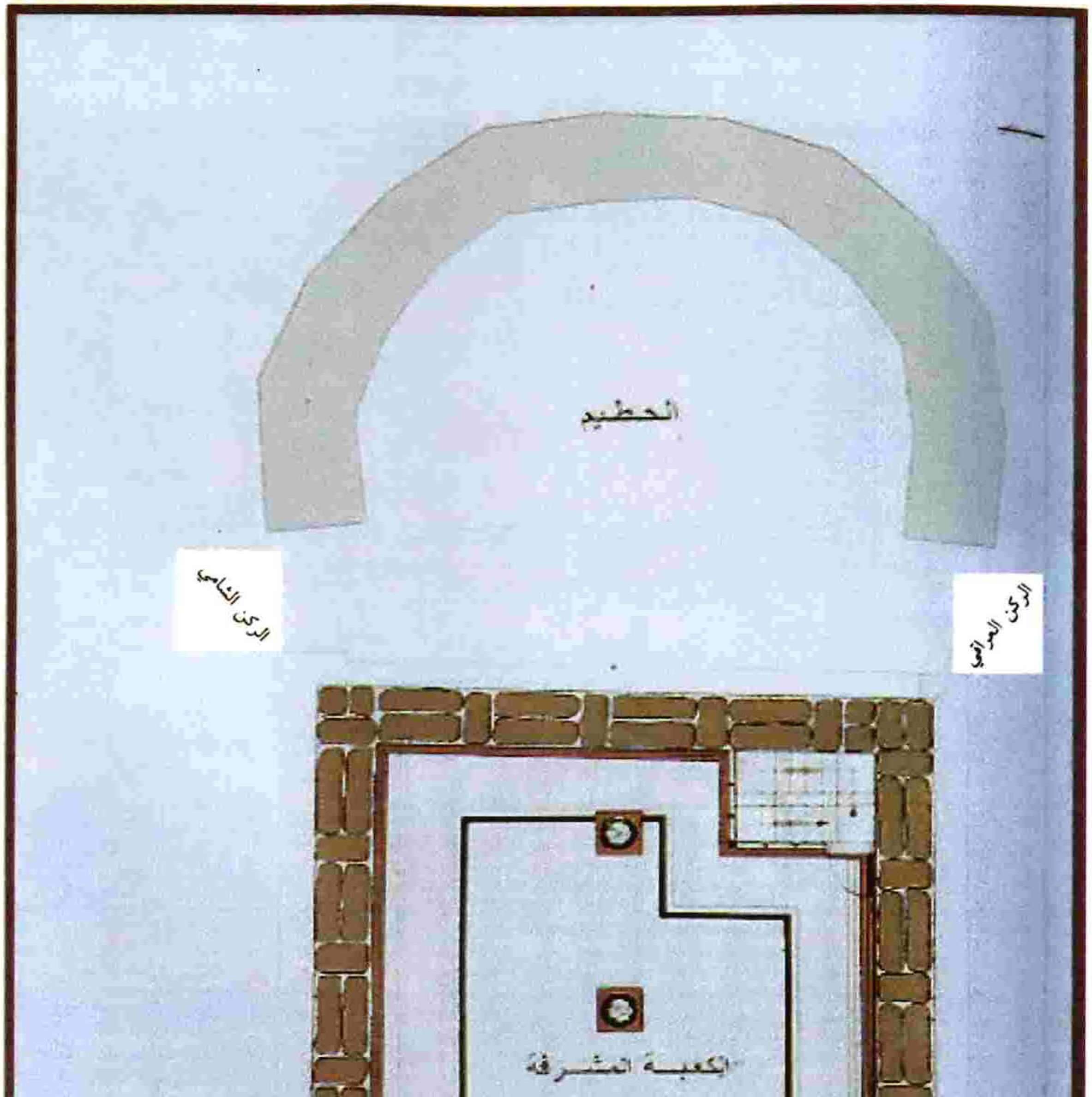
الشكل (م ١ ـ ٧): الكعبة المشرفة من الداخل قبل الترميم

نمط رخام أرض وجدار الكعبة المشرفة: أما أرض الكعبة المشرفة فهو مفروش بالرخام وأغلبه من النوع الأبيض والباقي ملون. وجدار الكعبة المشرفة من داخلها مؤزر برخام ملون ومزركش بنقوش لطيفة، وتغطي الكعبة المشرفة من الداخل بستارة من الحرير الأحمر الوردي مكتوب عليها بالنسيج الأبيض الشهادتان وبعض أسماء الله الحسنى على شكل **٨** ثمانية أو **٧** سبعة متكررة، وكسي بهذه الستارة سقف الكعبة المشرفة أيضاً. (انظر: الشكل (م**١** ـ **٨** ـ أ، ب).

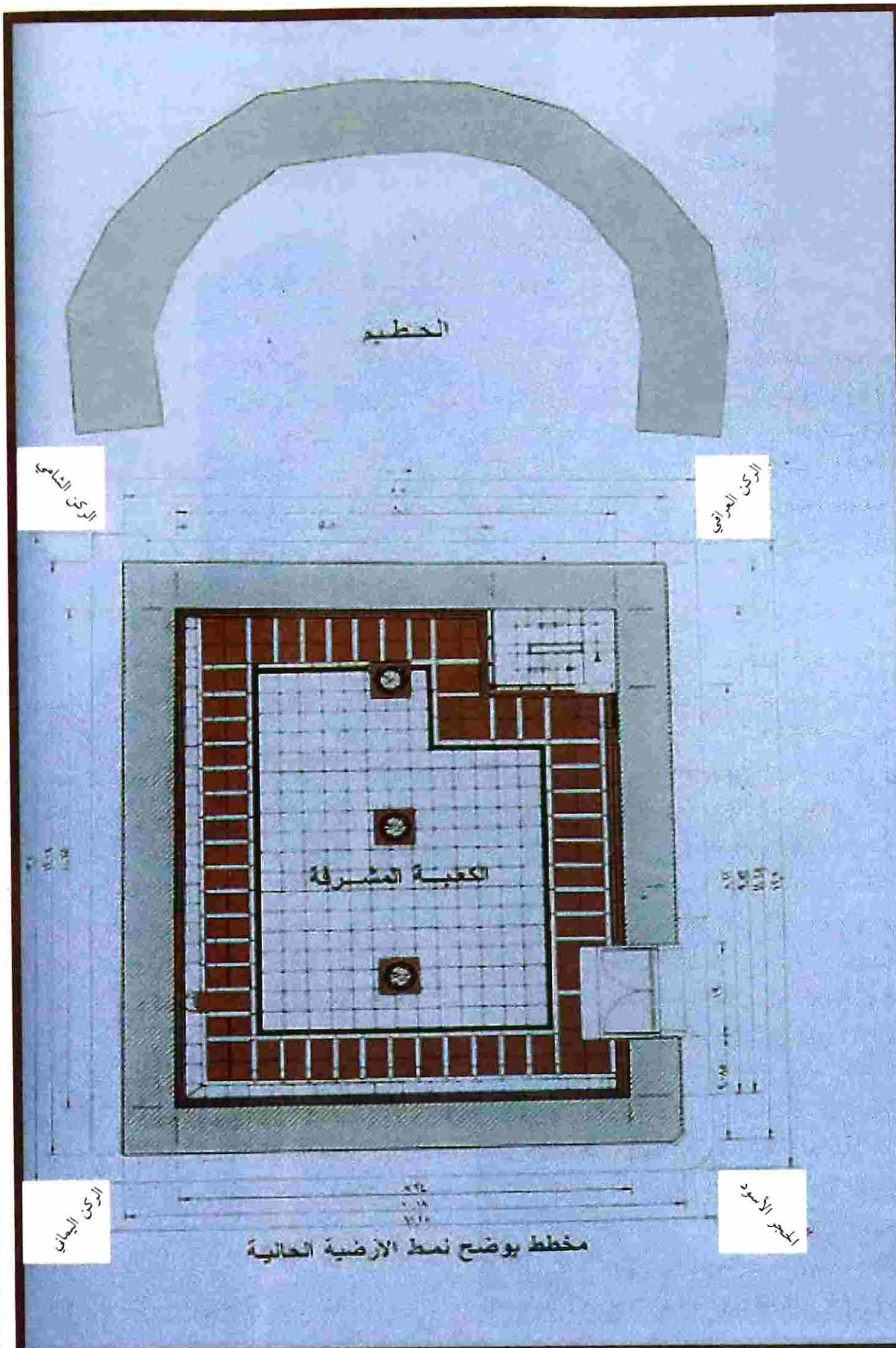
الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة: توجد في داخل الكعبة المشرفة تسعة أحجار من الرخام مكتوبة بالخط الثلث بالحفر على الحجر، إلا حجراً واحداً فإنه مكتوب بالخط الكوفي البارز، وحروف الكلمات على هذه اللوحة تتكون من قطع من الرخام الملون الثمين، ملصقة بعضها إلى جانب بعض على قاعدة الخط الكوفي المربع. وكل هذه الأحجار مكتوبة بعد القرن السادس للهجرة، وفي الحائط الشرقي وبين باب الكعبة المشرفة وباب التوبة وضعت وثيقة الملك فهد محفورة على لوح رخام تشير إلى تاريخ ترميمه الشامل لبناء الكعبة المشرفة.

وبذلك صار عدد الأحجار المكتوبة في باطن الكعبة المشرفة عشرة أحجار كلها من الرخام الأبيض، وكل هذه الرخامات مرتفعة عن رخام أرض الكعبة بمقدار **١٤٤**سم مائة وأربعة وأربعين سنتيمتراً. ما عدا الحجر الموضوع فوق عقد باب الكعبة المشرفة من الداخل فإنه يرتفع بأكثر من مترين، وهذه اللوحات مفصلة كما في المخططات المبينة في الشكل (م**١** ـ **٩**)[١].

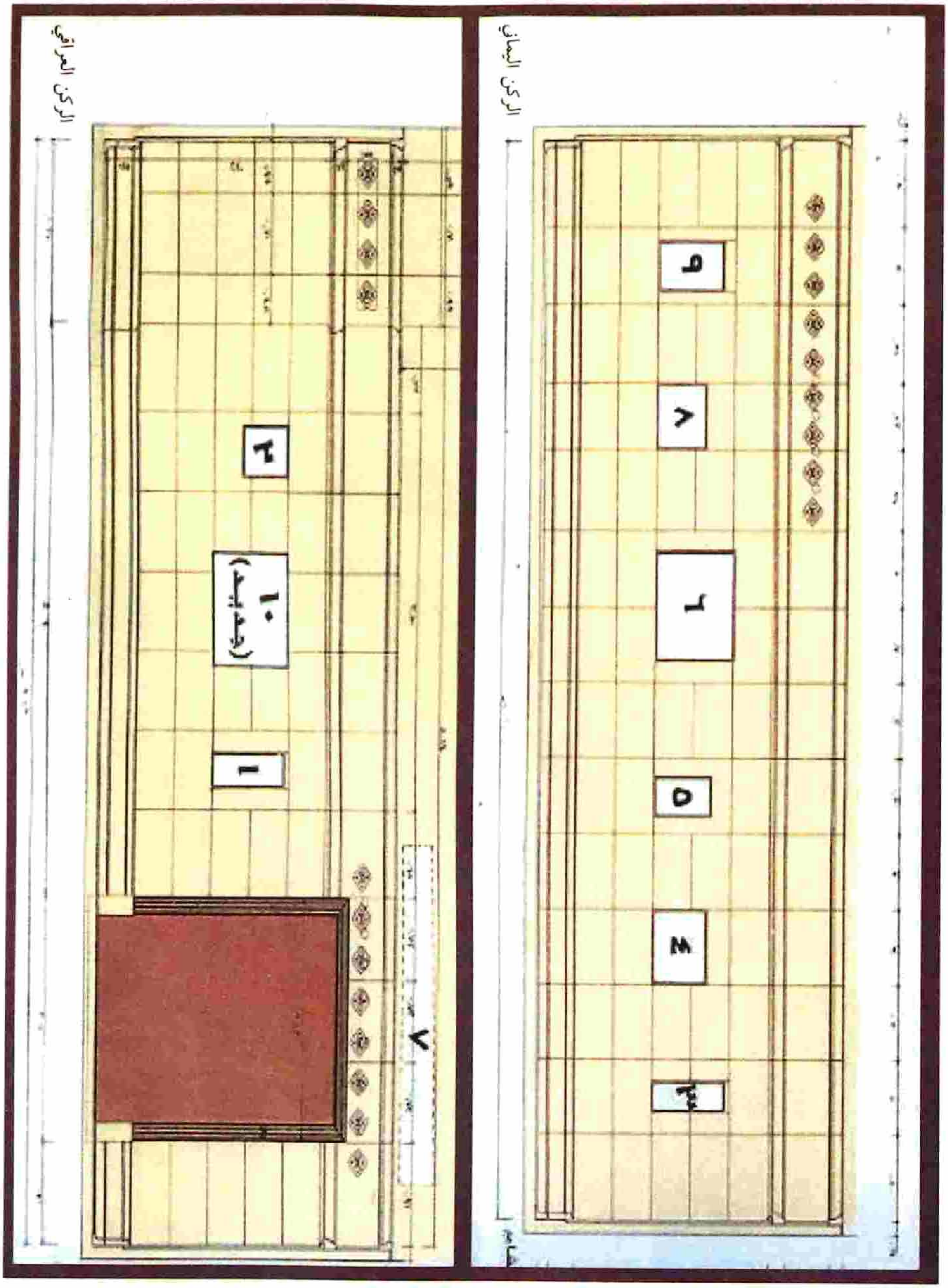
(١) نفس المصادر السابقة.



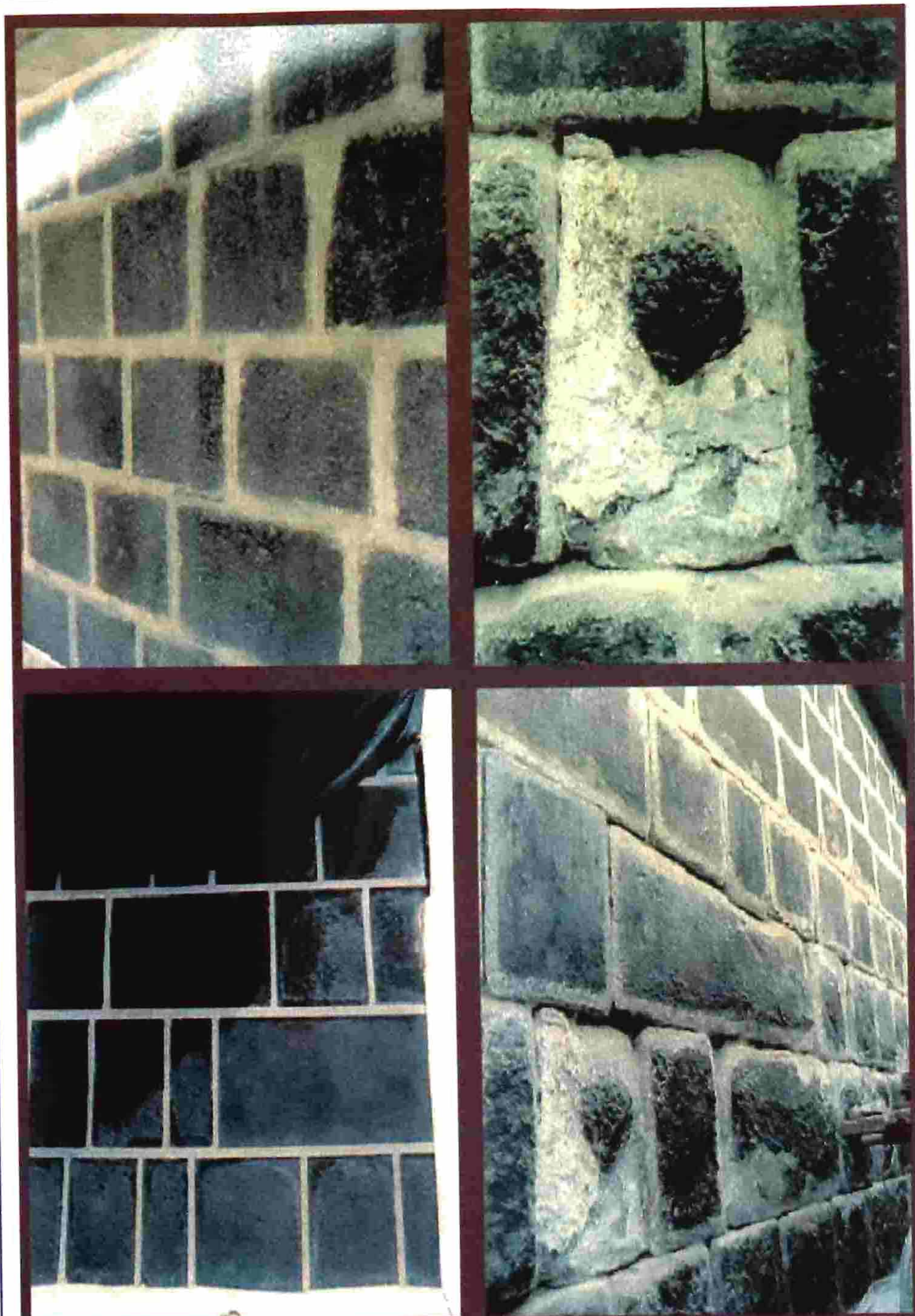
الشكل (م١ ـ ٨ ـ أ): مسقط أفقي لأبعاد الكعبة المشرفة وفيه الدورة الأرضية



الشكل (م١ ـ ٨ ـ ب): مسقط أفقي لأبعاد الكعبة المشرفة وهي مفروشة بالرخام



الشكل (م١ ـ ٩): حجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة



الشكل (م١ ـ ١٠): ترميم الجدران الخارجية للكعبة المشرفة ومعالجة التكسرات والتشققات والتخسفات والثقوب بشكل علمي حديث

الترميم الخارجي لجدار الكعبة المشرفة: الكل يعلم أن بيت الله بناء قائم متكعب وبارز وسط ساحة المطاف الواسعة بالمسجد الحرام، مكشوف للسماء، ومسدل عليها ثوبها الشريف تعظيما لها، وفي الوقت نفسه يلبسها هذا الثوب حماية نسبية من المؤثرات الطبيعية عليها، ولكن منهج الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته أنه جعل كل شيء بفعل الزمن يتأثر فيتغير، وعوامل التغيير وأسبابه كثيرة، ولكن من أهمها في التأثير على المنشآت والبناء ما يسمى بالعوامل الجوية بنوعيها الميكانيكية والكيميائية، أي: الحركية والتفاعلية، ولقد تأثر بناء الكعبة المشرفة على مرور حوالى **٣٧٥** عاماً بعد ترميمها الشامل الأخير عام **١٠٤٠**هـ بعوامل التجوية، فظهرت هذه الآثار على شكل تقشرات وفجوات في أوجه الحجارة الخارجية لجدار الكعبة المشرفة، وكذا نخر وشقوق في لياسة الفواصل بين الحجارة شمل أجزاء عليا وسفلى من الحوائط، مما ينفي أن ذلك بفعل تأثير يد الطائفين للبيت، إذ أن أيديهم إذا لامست الأجزاء السفلى فلن تستطيع أن تصل إلى الأجزاء العليا من الجدار[(١)].

وفي أوائل شهر ذي الحجة من عام **١٤١٤**هـ، بدء بإصلاح الفواصل الخارجية والتقشرات والفجوات في الحجارة وكل ما يحتاجه جدار الكعبة المشرفة الخارجي من الإصلاح، فكان التنفيذ في حينه آخذاً الأسلوب والخطوات التالية:

١ - لقد أخذ الترميم الخارجي أسلوب نخر الفواصل بين الحجارة وتفريغها إلى أبعد مدى يحتاجه الإصلاح من التفريغ وبما لا يؤثر على أصل العمارة، ثم تنظيفها التنظيف التام، ولقد وجد في الشقوق آثار رطوبة ربما تسربت بين الحجارة بفعل العوامل الجوية وغيرها، كما أن الأرضة (وهي دودة الخشب والتي نسميها باللغة

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

الدارجة ـ العتة ـ) قد اتخذت من هذه الفواصل مرتعاً لها، وليس هذا بالعجيب عليها، فبيت الله هو مسكنها الطبيعي الذي تحن إليه منذ أن أمرها الله بأكل الصحيفة الغاشمة الظالمة التي حملت القطيعة من قريش لكل من يوالي محمداً ـ ﷺ ـ من بني هاشم وغيرهم، حيث علقت في جوف الكعبة، فكانت معجزة نقضها بعد ثلاث سنوات من تعليقها عن طريق الأرضة بقرضها، ما عدا كلمة الجلالة ونورها.

٢ ـ وبعد نخر الفواصل وتنظيفها نظفت أسطح الحجارة الخارجية لجدار الكعبة، وشطف المفتت من قشرتها الرخوة والرطبة وكذا فجواتها ثم غسلت جميعها، وجففت تماماً بقوة النفخ الآلي.

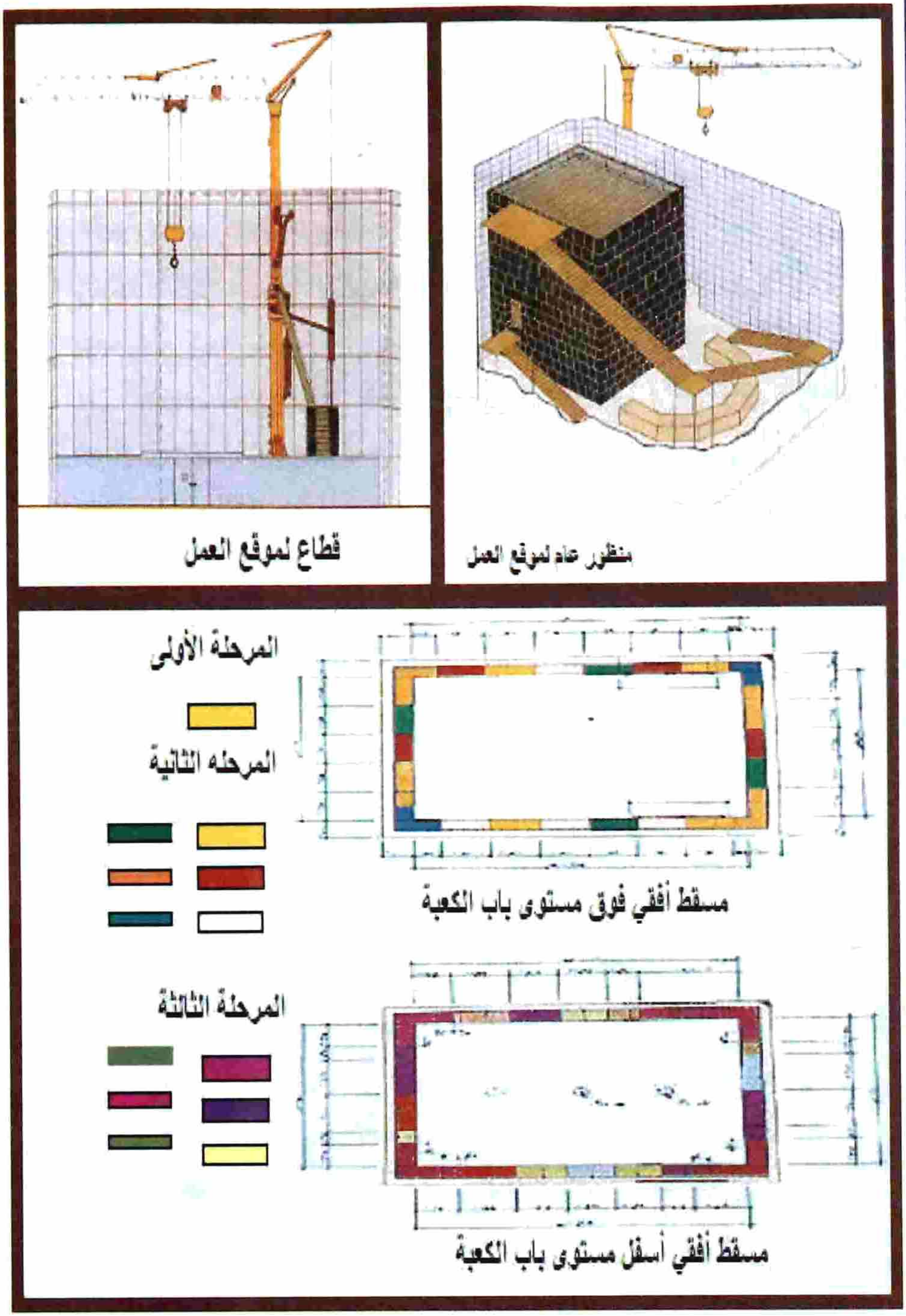
٣ ـ وبعد دراسة كاملة لنوعية صخور الكعبة، ومطابقة الأوصاف على جبال مكة المعروفة، أخذت صخور مجانسة لصخور الكعبة، ثم صنع من كسارتها عجينة، عوملت معاملة كيماوية وعلمية خاصة، بمستحضرات مواد ماسكة، تعطي صلابة أعلى من الأساس الصخري، فكسيت بها الأسطح الخارجية للحجارة، وخشن سطحها بواسطة قوالب مصنوعة تحاكي خشونة وحفيرات السطح الطبيعي للصخور، دق بها المعجون السطحي قبل أن يجف فأعطت الشكل النهائي بما لا يختلف في شيء عن الأصل الطبيعي.

٤ ـ أما الفواصل المفرغة فقد حقنت بمعجون ماسك (ملاط) صنع خصيصاً لهذا الغرض ويعطي قوة تماسك يبقى مفعولها أكبر عمر افتراضي ممكن، وتم الحقن عن طريق آليات متطورة بدفع قوي حتى يتخلل المعجون أدق جزئيات الفراغات الداخلية فلا تبقي أثر الفراغ، ومن ثم سوي السطح الخارجي لهذه الفواصل بما يظهر على شكل خطوط مستقيمة، أفقية ورأسية، وتكون مربعات مستطيلة حسب شكل الحجر وتربيعه، ولإعطاء شكل توازني لشكل

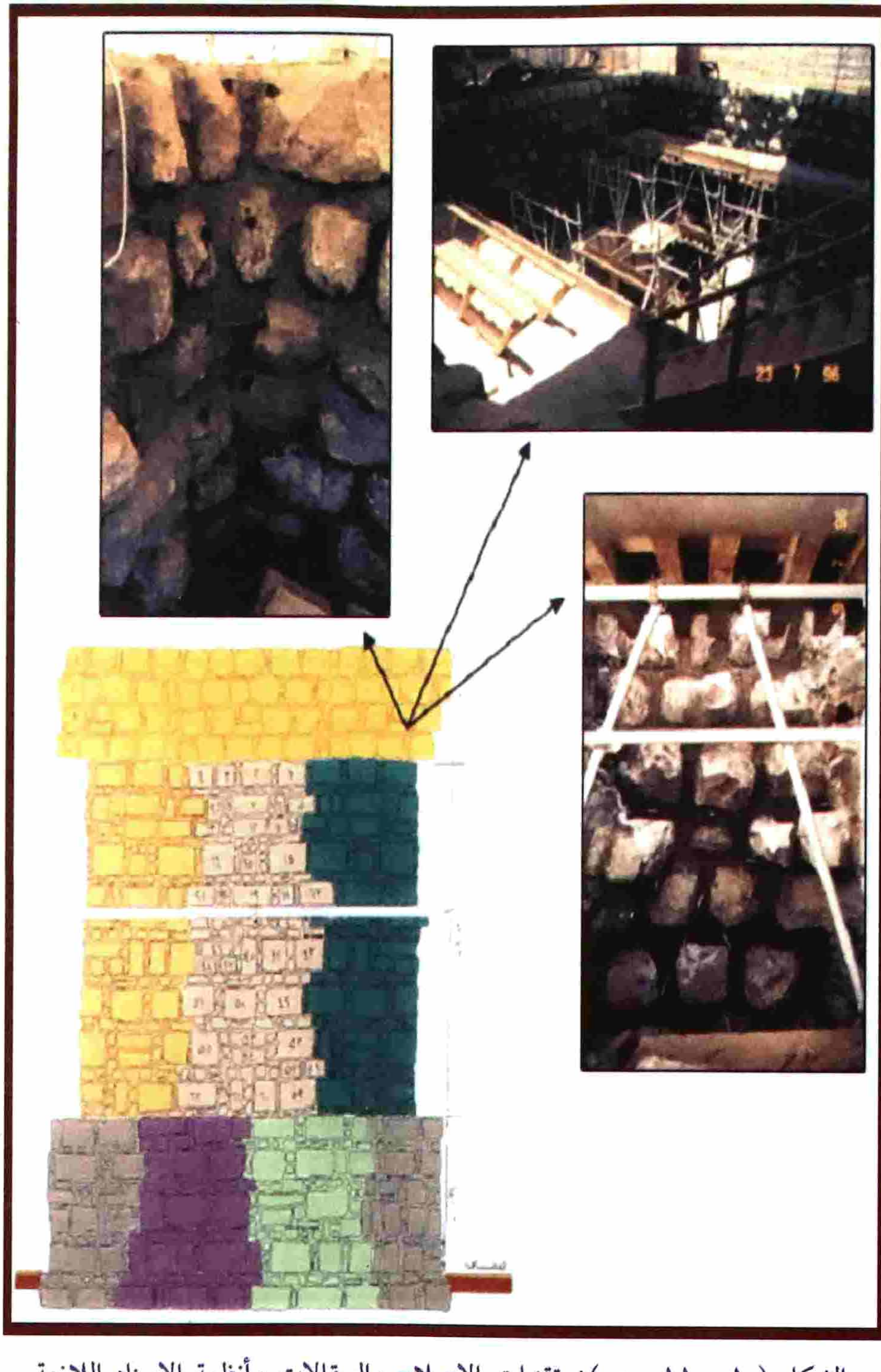
مربعات خطوط الفواصل تم إضافة بعض الخطوط الطولية على الحجارة الكبيرة. وقد عملت هذه الفواصل من الملاط بصورة بارزة ونافرة قليلاً بعد أن كانت قبل الترميم إلى حد ما غائرة، وهذا البروز البسيط يعطي الفواصل حماية أكبر من تأثير العوامل الجوية عليها.

٥ ـ وهكذا ظهر جدار الكعبة الخارجي بمظهر البناء الجديد وهو ليس بجديد، كما يتضح من الشكل (م١ ـ ١٠)، ولكنه الإتقان بتوفيق من الكريم المنان. أما تقنية العمل الإصلاحي والترميمي الجبار هذا فيبينه الشكل (م١ ـ ١١ ـ أ، ب، جـ، د) أدناه[١].

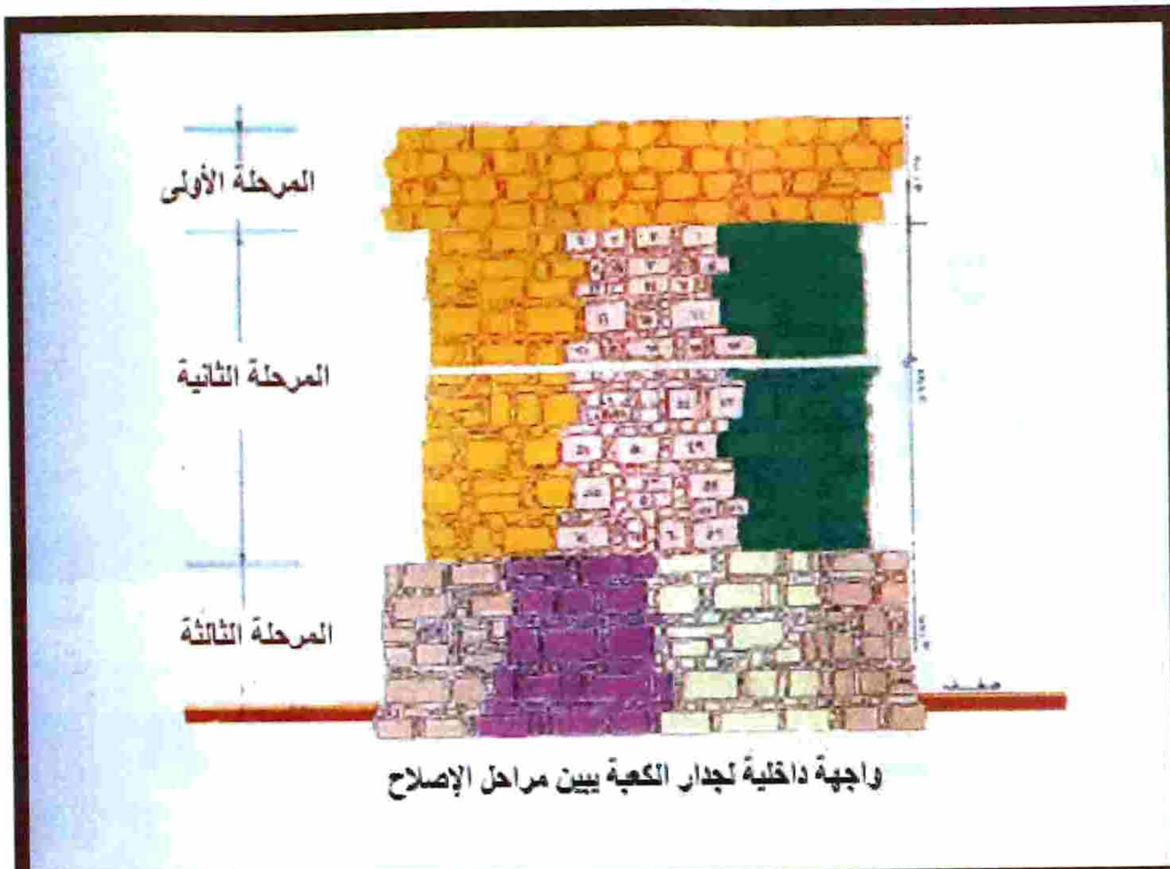
(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

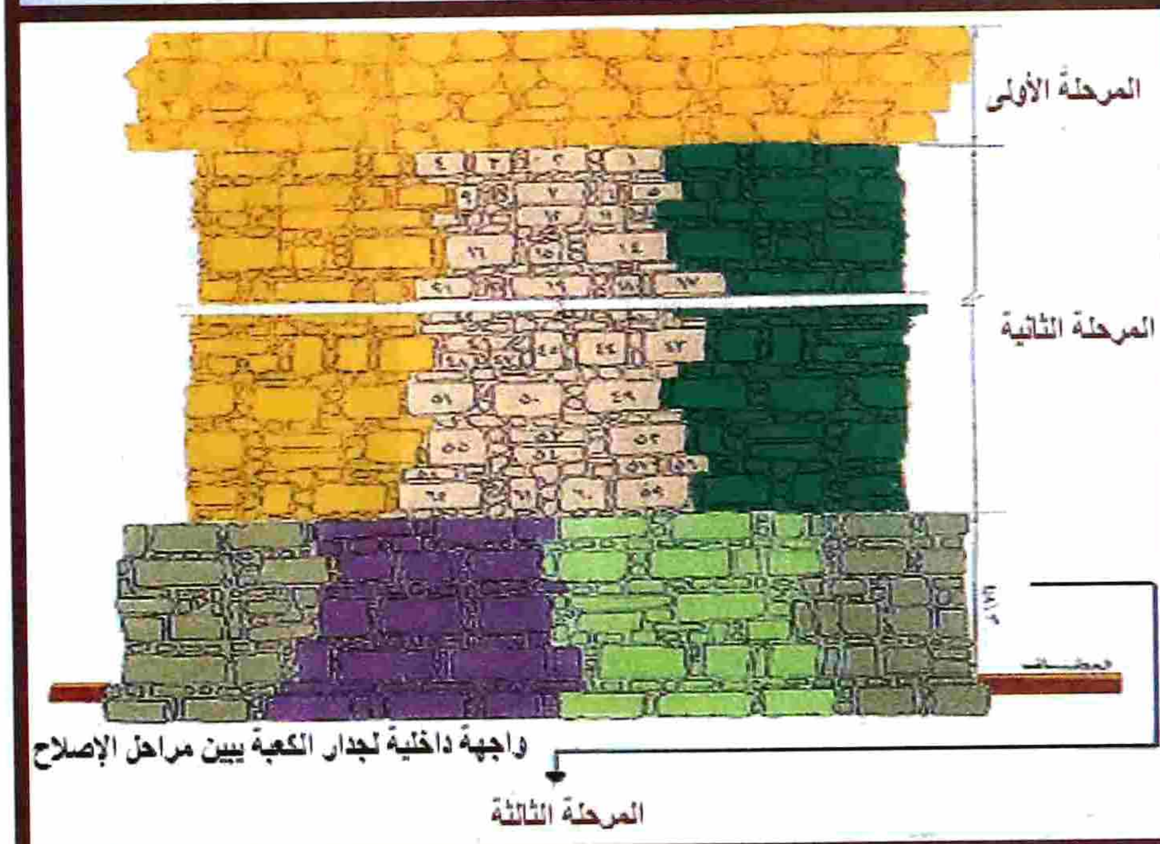


الشكل (م١ ـ ١١ ـ أ): مخططات تقنيات الترميم والإصلاح للكعبة المشرفة من الداخل والخارج



الشكل (م١ ـ ١١ ـ ب): تقنيات الإصلاح والسقالات وأنظمة الإسناد اللازمة





الشكل (م١ ـ ١١ ـ جـ): إصلاح الجدران الداخلية والخارجية ومراعاة مستوى أرضية الطواف



الشكل (م١ ـ ١١ ـ د): إصلاح الجدران

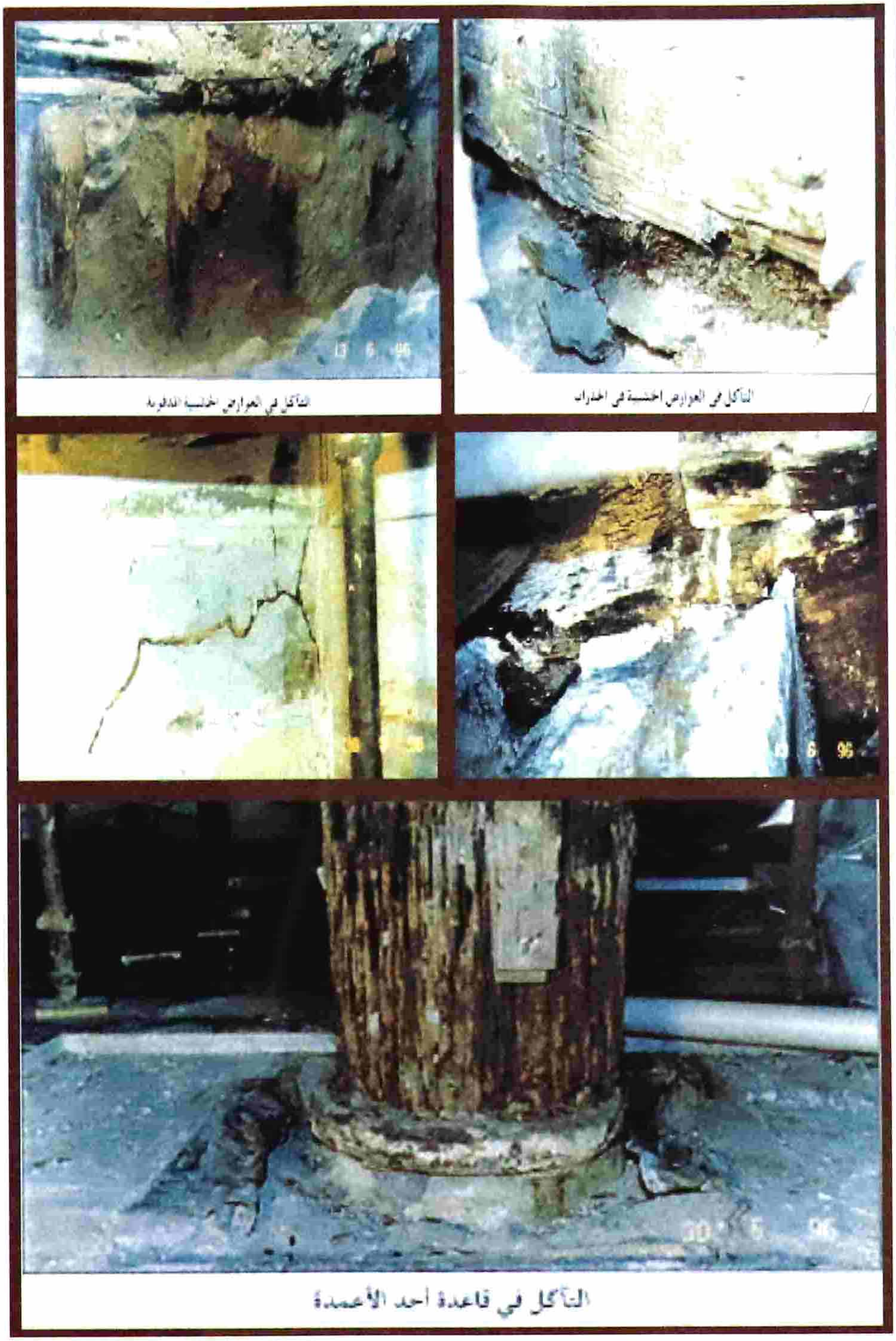
الترميم الشامل لداخل الكعبة المشرفة: لقد تم الترميم الخارجي للفواصل والشقوق لجدار الكعبة المشرفة في عام **١٤١٥**هـ، وكان ذلك عن طريق استخدام السقائل المكشوفة دون وضع سواتر حاجزة في الخارج، إذ إن الأمر لم يكن يستدعي ذلك، وكان يجري كل شيء تحت مرأى ومشهد الطائفين. ولقد كانت هذه البداية في الترميم عاملاً مهماً في شحذ موالاة الهمة عند ولاة الأمر بتكثيف الاهتمام في ملاحظة ورعاية بيت الله الحرام، وأخذ كل تدابير الاحتياط بألا يتعرض هذا البيت في الحاضر أو المستقبل إلى ما لا يتناسب مع مكانته من حيث المهابة والمثابة والتعظيم والتكريم، ولا سيما أنه ظهر من الخارج عند التكحيل ما عملته الأرضة، والفطريات والرطوبة في الفواصل المشققة ما لا يستبعد معه أن تكون الآثار قد تغلغلت إلى داخل جدر الكعبة ومن ناحية جوفها. وتمت الدراسة العلمية والفنية والهندسية الدقيقة للحال في داخل الكعبة لغرض الوقوف على الوضع الحقيقي لها، والتوثيق من الصفة العمرانية لحالتها، إذ أن السطح الخارجي لا يعطي الحقيقة دائماً، فقد تكون هناك عوامل إتلاف مستترة داخل البناء، ظاهرها السلامة وباطنها تسوس وتآكل يفضي إلى عكس السلامة، وبالذات إذا كان العامل فطريات وحشرات، فهي دائماً تعمل في خفاء، هذا إلى جانب ما تستره وراءها حجارات الرخام التذكارية التي يصل عددها إلى تسع تحمل تواريخ وذكرى الترميمات.

ومن هذه الحيثيات تمت الدراسة الاستكشافية لجدار الكعبة المشرفة، بالملاحظة الظاهرة، وبالحفر الاختباري، لأخذ عينات عشوائية عمقية، فكانت النتيجة أن تبين وجود الكثير من حشرات الأرضة والفطريات، مستترة بين الفواصل وتحت اللوحات، أما السقف فقد تبين تآكل وتلف فيه كبير، فالأعمدة الخشبية والأكسية المكونة من خليط الطين والرمل والجير، كلها غزتها الحشرات الدقيقة والفطريات، ساعدتها الرطوبة على التكاثر والنمو فأكلت ونخرت ولكنها تحت

القشرة السطحية استترت. فالنتيجة الحتمية لهذا الوضع هو اعتبار الإصلاحات والترميمات ضرورة، وتجديد التالف بما هو أفضل وأمتن وأقوى يجب أن يتم في أكمل صورة، مع مراعاة اتخاذ كل تدابير الاحتياط، لمقاومة كل الأسباب التي قد تؤدي إلى تلف أو أدنى خراب، تفادياً لتكرار ما حدث، إلى أبعد مدى زمني ممكن، أخذاً بالأسباب، والحماية من الله في المآل والمآب. (انظر: الأشكال م١ - ١٢)[1].

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



التآكل في العوارض الخشبية في الجدران

التآكل في العوارض الخشبية المدفونة

التآكل في قاعدة أحد الأعمدة

الشكل (م١ ـ ١٢): التآكل والأضرار الداخلية لأعمدة وجدران الكعبة المشرفة

لماذا وقف الترميم عند حدود الأساسات؟: إنه من الطبيعي في عمل أي ترميم معماري شامل لأي مبنى أن يكون الكشف فيه عن حال الأساسات وتقييمها ضرورة لا يمكن إغفالها، إلا أن أسلوب الكشف والتقييم يختلف من وضع إلى وضع. فالكعبة ذات مكانة قدسية، بنيت على قواعد لدنية. لذا، فإن طبيعة تقييم أساساتها يجب أن يأخذ طريقة خاصة لا تؤدي بأي حال إلى ما يخدش تلك القدسية من تجاوز إلى باطن القواعد الأساسية أو غير ذلك. إذن، فليكن أسلوب الكشف مبنياً على أساليب تضمن صحة التقييم مع اعتبار ما للبيت من مهابة وتكريم.

حالة الجدران أسفل منسوب المطاف الحالي وكذا حال أساس القواعد: لتحديد حالة الجدران أسفل منسوب المطاف الحالي، تم عمل حفرتين استكشافيتين بجوار الجدران، إحداهما: على بعد **٢** متر من الركن العراقي وتقع بينه وبين الركن اليماني، والأخرى: على بعد **٢.١** متر من ركن الحجر الأسود وتقع بينه وبين الركن اليماني، وكانت البيانات المستقاة من الحفرتين(١).

تقييم الأساسات في الوضع الحالي: نظراً لأن أعمال الكشف عن أساسات الكعبة المشرفة كانت ذات طبيعة محدودة نسبياً لعدم إمكانية النزول بالحفر إلى أعماق أكبر من التي تم تنفيذها، فإن تقييم الأساسات في الوضع الحالي تطلب البحث في بعض الخلفيات التاريخية التي تساعد مع المشاهدات الواقعية في الموقع على الوصول إلى أفضل صورة ممكنة. وخلاصة المعلومات التاريخية المتوفرة توضح أن أساس الكعبة المشرفة منذ عهد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الأحجار الصخرية المتداخلة تداخلاً متيناً، وأنه لم يتم المساس بهذا الأساس وقواعده خلال المرات العديدة التي تم هدم وإعادة بناء الكعبة المشرفة خلالها. وقد دعمت هذه المعلومات بما

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

تم مشاهدته بالفعل على الموقع، حيث ظهرت الأحجار القديمة المتداخلة المستقرة به دون أي مونة رابطة والتي يماثل شكلها أعناق الإبل كما روى عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ عند كشفه للأساس (وأشهد على ذلك خمسين رجلاً من الفضلاء) والتي من غير الممكن أن تتعرض لأي هبوط أو فروق هبوط نتيجة أحمال مبنى الكعبة المشرفة بعد الترميم، والتي تماثل الأحمال التي كانت قائمة فوق الأساس منذ مئات السنين. والتي من المؤكد أنها قد أحدثت كل الهبوط الممكن حدوثه تحت تأثير هذه الأحمال، حيث إن الطبيعة الميكانيكية لتصرف هذه الكتل الصخرية المتداخلة المترابطة تجعل الهبوط الناشئ عن الأحمال ذا طبيعة فورية تقريباً (خلال عدة أيام أو أسابيع على أكثر تقدير)، تصل بعده الكتلة الصخرية إلى الاتزان مع وجود أقل نسبة فراغات ممكنة بين الأحجار، حيث لا تكون هناك أي إزاحة لتحرك هذه الأحجار لاحقاً تحت تأثير نفس الأحمال.

أجمعت كافة المشاهدات التاريخية والحديثة عن عدم حدوث أي أضرار نتيجة حدوث هبوط للتربة أو الأساس أسفلها خلال نحو أربعمائة عام بعد إعادة بنائها، وكذلك قبل ذلك خلال أكثر من تسعمائة عام، بعد أن أعاد بناءها عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، والتعديلات التي أجراها الحجاج بن يوسف الثقفي، حتى هدمت بفعل السيل فقط، دون وجود أي مشاكل في الأساس. والجدير بالذكر أنه في حالة المباني الحجرية المشابهة وفي حال حدوث مشاكل في الأساسات أو التربة أسفلها، يحدث تدهور سريع في حالة الحوائط، وعلى سبيل المثال لا التشبيه في حالة برج بيزا في إيطاليا، والذي بدأ في الميلان منذ المراحل الأولى لإنشائه نتيجة مشاكل في تربة الأساس، وقد أدى ذلك الميلان إلى سقوط بعض الأحجار من الحائط وإلى حدوث العديد من المشاكل الإنشائية الأخرى المذكورة في المراجع التي تتحدث عن هذا الموضوع، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق في حالة مبنى الكعبة المشرفة.

وباستعراض ما تم تنفيذه من أعمال يتبين أن الجزء من جدران الكعبة المشرفة أعلى منسوب المطاف الحالي قد أعيد تركيب أحجاره

بصورة تضمن عملها كوحدة متجانسة ذات قوة ممتازة عالية جداً، وذات مقاومة عالية لإجهادات الشد نظراً لوجود تسليح مواز لاتجاه الحوائط لضمان الربط بين الشرائح المتجاورة وتسليح عمودي على اتجاه الجدران، لضمان ربط أحجار التكسية الخارجية مع الأحجار الداخلية، وأيضاً باستخدام مونة عالية الجودة لربط الأحجار مع بعضها البعض. كما أن تجانس الجدران التام بارتفاع يزيد على **١٣** متر يضمن انتظام توزيع الإجهادات على المداميك أسفلها وبالتالي على التربة أسفل الجدران، أيضاً فإن هذه الجدران لها من القوة والمتانة والترابط ما يضمن سلامة الكعبة وعدم تأثرها حتى في حالة وجود أية تجاويف أو أماكن ضعيفة أسفل الجدران لقدرة الجدران حالياً على توزيع الأحمال على الأساسات.

ويستنتج مما سبق أن الأساس القائم لمبنى الكعبة المشرفة في حالة ممتازة وصالحة للتأسيس، ولا يحتاج إلى معالجة من أي نوع لاستقبال أحمال مبنى الكعبة المشرفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(١).

سقف الكعبة: إن العنصر الأساسي في تكوين سطح الكعبة المشرفة هو الخشب، والنوع الأمثل الذي يجب استخدامه في سطح الكعبة يجب أن يحمل مواصفات معينة منها:

١ - مقاومة الأحمال لأطول عمر افتراضي ممكن.

٢ - انخفاض درجة الانكماش لدرجة قريبة من الانعدام.

٣ - مقاومة التغير في الأجواء الحارة الجافة.

٤ - مقاومة الأرضة والفطريات والحشرات الدقيقة والرطوبة المتسربة.

٥ - طول الجذوع بما يزيد على عشرة أمتار وبنفس درجة مقاومة الأحمال مع قطر لا يقل عن متر واحد بعد التهذيب والإعداد للاستخدام.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

إن هذه المواصفات لا يمكن الحصول عليها إلا بعد الاستعانة بمراكز الأبحاث الخشبية العالمية، وقد تم الاتصال فعلاً بمراكز في أوروبا وأستراليا ونيوزيلندا، وانتهى التباحث العلمي الدقيق على اختيار خشب «التيك» من بين جميع الأنواع التي تمت دراسة مواصفاتها، حيث أن خشب التيك المأخوذ من موطنه الطبيعي (غير المزروع في موطن آخر) معروف بمتانته وطول عمره، ويمكن الحصول على جذوع من أشجاره ما يبلغ طولها حتى عشرة أمتار، وبأقطار ١.٥م، وهو طارد للأرضة ويمكن تجفيفه بسرعة وبأقل قدر من التفسخ، وعند دهانه بالزيت يعطي لمعية جميلة جداً، وقد سبق استعماله في المملكة في مشاريع الحرمين الشريفين. (انظر: الشكل م١ ـ ١٣ وم١ ـ ١٤) أدناه[١].

التصميم: تم اختيار جميع القطاعات للسقف والأعمدة بحيث تكون مماثلة لأكبر الأحجام التي كانت موجودة سابقاً، ثم تم توزيع الأعمدة على مسافات متساوية بحيث تتوزع أحمال السقف بشكل متوازن على جميع الجدران والأعمدة الداخلية.

أعمال العزل والرخام: تم وضع طبقة من مواد العزل فوق السقف الخشبي وفوقها طبقة من الخرسانة الخفيفة لحمايتها وتأمين الميول لتصريف المياه عن السطح، ثم تمت تغطية السطح بالرخام على كامل مساحته وجوانبه[٢].

الميزاب: تم استبدال الميزاب القديم بميزاب جديد بنفس المقاسات والكتابات ولكنه روعي فيه أن يكون أقوى وأمتن وأجمل من سابقه.

قواعد الأعمدة: لقد استعيض عن القواعد الصخرية القديمة لقواعد الأعمدة بقواعد خرسانية مسلحة، تم حمايتها من تأثير الرطوبة بوضع مواد

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية.

(٢) نفس المصادر السابقة.

عازلة حولها، ثم عملت جدران خرسانية داخلية مع وضع طبقات العزل حولها بحيث تتوزع أعمال الردم حتى منسوب باب الكعبة إلى الأرض بدلاً من الضغط على جدران الكعبة[١].

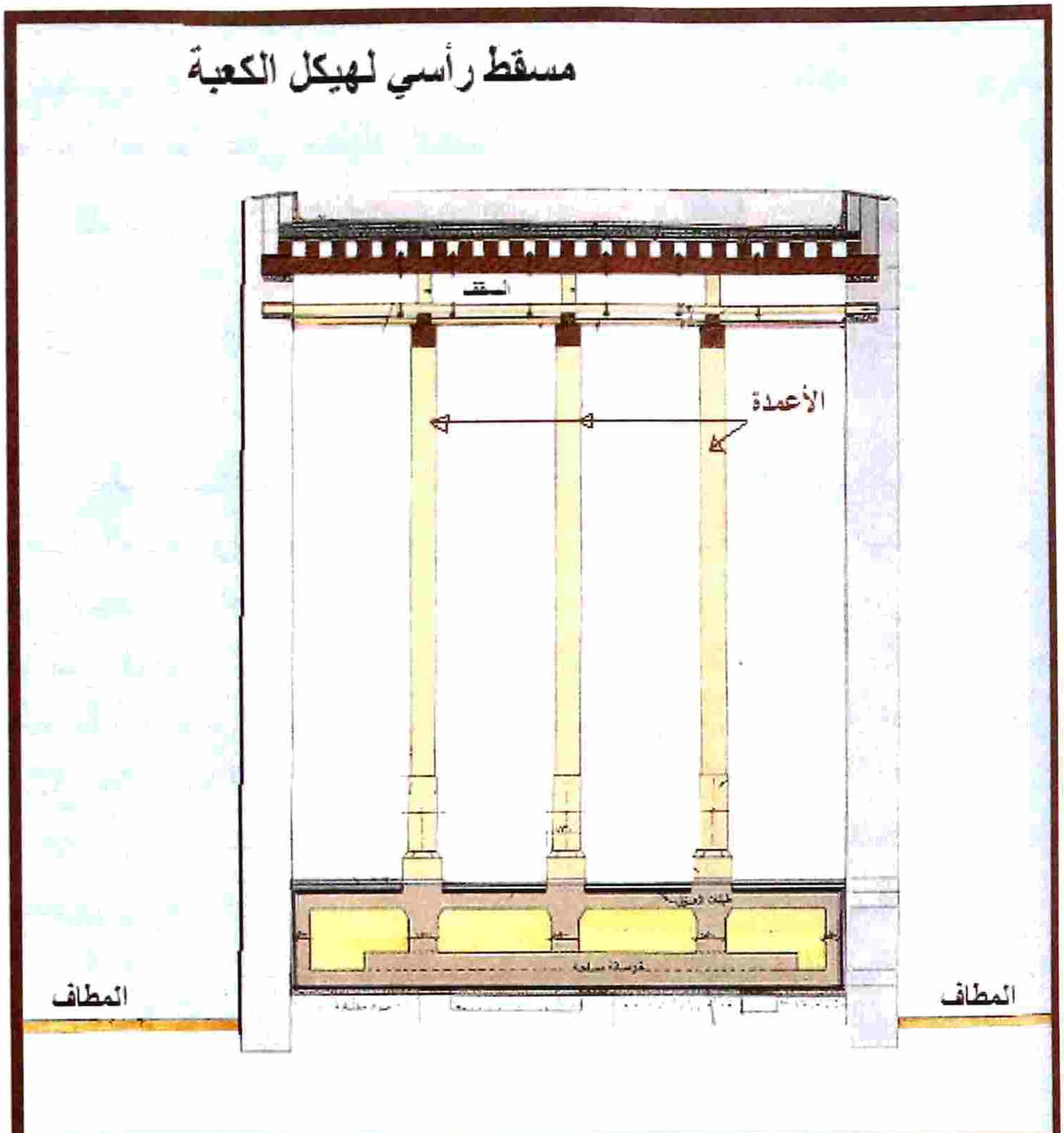
الشاذروان: لقد جدد رخام الشاذروان القديم برخام جديد يحاكي ألوان ونوعية الرخام القديم، مع المحافظة على الرخامات القديمة الموجودة تحت ناحية باب الكعبة، وهي رخامات جميلة ونفيسة ومحافظة على جودتها ومتانتها.

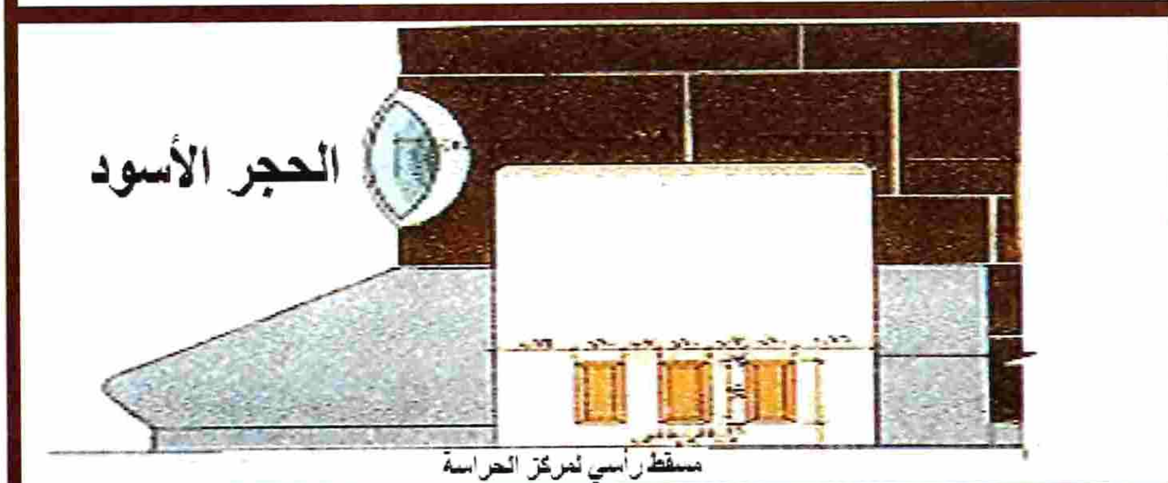
حجر إسماعيل وأعمال التجديد فيه: تم إزالة الرخام القديم لجدران وأرضية الحجر واستبدالها برخام جديد. كما تم تنظيف الفوانيس الموجودة على الجدران وإعادتها إلى موقعها السابق، وتم عمل حاجز من الحبال لمدخل الحجر متين القوام، منمق الشكل يتناسب مع مكانة الحجر وتعظيمه، ويفتح الحاجز بصورة دائمة، ويغلق عند الحاجة فقط. (انظر: الشكل م١ ـ ١٤)[٢].

---

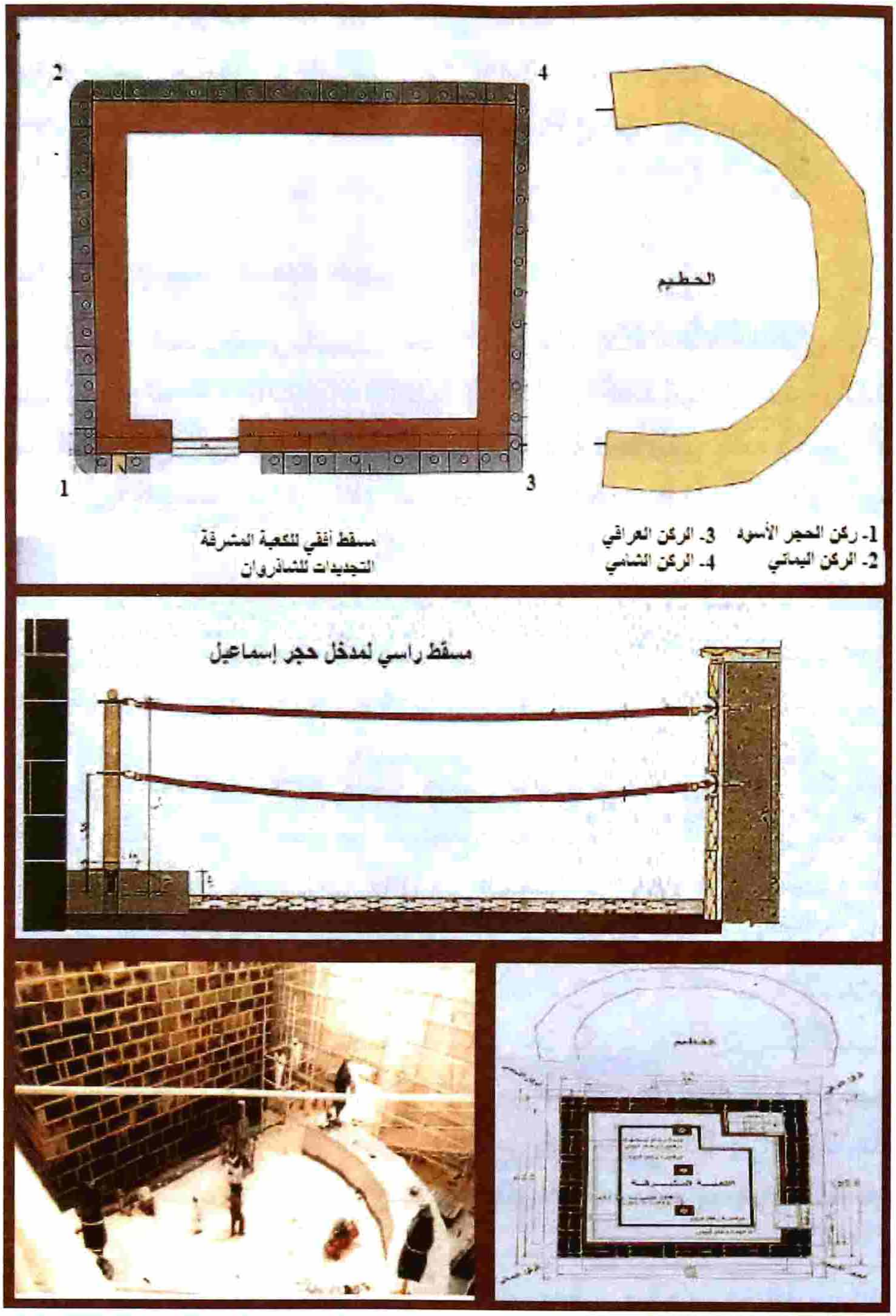
(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) نفس المصادر السابقة.





الشكل (م١ ـ ١٣): يبين مقاطع ومساقط داخلية وخارجية للكعبة المشرفة بعد الترميم



الشكل (م١ ـ ١٤): مساقط مختلفة لترميمات الحجر والحطيم ومصطبات الحراسة والجدران

مصطبة الحراسة: لقد أنشئت إلى جانب الحجر الأسود مصطبة ذات تكييف سفلي مرتفعة بجدار من رخام يرقى عليها جندي الحراسة لتنظيم عملية تقبيل الطائفين للحجر الأسود كما موضح في الشكلين (م١ ـ ١٣) و(م١ ـ ١٤)(١).

ثالثاً: تاريخ بناء الكعبة العمراني:

الكعبة المشرفة أو البيت العتيق هي أول بيت وضع للناس، وهي ليست رواية تاريخية نتداولها، ولكنها آية قرآنية، تصديقها إيمان، والشك فيها كفر. هي من قول من قال في حق ذاته: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: من الآية ١٢٢]، فهو الذي قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

يقول تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]. . . المعنى في هذه الآية يحتمل أنه أول بيت على الإطلاق وضعه الله في الأرض لكافة الناس. فيكون على هذا الاحتمال أنه من بناء الملائكة، أو أنه من بناء آدم ـ عليه السلام ـ أول ما أهبط إلى الأرض. ويحتمل المعنى أن يكون هو أول بيت للعبادة وضع في الأرض، فيكون البناء جاء بعد هبوط آدم ـ عليه السلام ـ وظهور مباني السكن أولاً ثم مباني العبادة. وأما ما يقال بأن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذي بنى البيت ابتداءً والذي ارتفع بجداره إلى بناء بارز

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

مرئي معلوم، فالآية الواردة في ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]، تحمل معنيين[(١)]:

١ ـ المعنى الأول: أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت ابتداءً والذي ارتفع بجداره إلى بناء بارز معلوم. وهذا المعنى يتعارض مع الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]. . . لأنه قبل إبراهيم عليه السلام كانت هناك بيوت سكن وبيوت عبادة وأنبياء ورسل. ولكن يرد على هذا الاعتراض أن البيوت السابقة سواء للعبادة أو لأغراض أخرى كانت تخص أفراداً أو أمماً أو جماعات، أما بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهو أول بناء عام لكل البشرية الذين حددهم الله بقوله: ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ في الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧]، لم يناد قوماً أو طائفة بل كل الناس.

٢ ـ المعنى الثاني: الذي تحتمله الآية أن البيت بني قبل سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ثم تهدم وزالت شواهده وبقيت قواعده، فجاء إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ بأمر الله، فرفع تلك القواعد بجدار يشكل هيكل البيت ليظهر البناء من جديد مرتفعاً بحيطانه كما كان.

بناة الكعبة المشرفة: هنالك روايات كثيرة عن بناء الكعبة بعضها

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

ظني الثبوت لا قطعي، والبعض الآخر ثابت تاريخياً وآثارياً. ويروي بعض أهل السنن أحاديث عن ذلك بعضها صح والآخر لم يبت في قطعيته. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: (وضع البيت قبل الأرض بألفي سنة، فكان البيت ربدة بيضاء حتى كان العرش على الماء، وكانت الأرض تحته كأنها خسفة فدحيت منه)[١]. وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما هبط آدم من الجنة قال الله تعالى: «**إني مهبط معك بيتاً أو منزلاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي**»، فلما كان زمن الطوفان رفع، وكان الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه، فبوأه الله تعالى لإبراهيم فبناه على خمسة أجبل: حراء وثبير ولَبنان وجبل الطور[٢] وجبل الخير، فتمتعوا منه ما استطعتم[٣]. وهذا البناء على تلك الأجبل على سبيل المعجزة، إلا إن البيت تهدم وبقيت قواعده التي بوأها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فيما بعد.

ولقد ذكرت كتب التاريخ أن البيت الحرام بني مرات كثيرة وصلت إلى إحدى عشرة مرة، وذكرت هذه الكتب أسماء الذين بنوه عبر التاريخ، إلا أن بعض الروايات في ذلك ظني الثبوت وبعضها يقيني الثبوت. فمجمل الذين ذكروا على أنهم بنوا الكعبة المشرفة هم:

١ ـ الملائكة ـ عليهم السلام ـ بأمر من الله.

٢ ـ آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقيل: إنه بناء واحد هو والملائكة

---

(١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد **٢٨٨/٣**. وانظر: تاريخ مكة قديماً وحديثاً، ص **٣٥**.

(٢) وهو جبل حراء، وثبير بالفتح على يسار الذاهب من مكة إلى منى مقابل جبل حراء ويمتد لأواخر منى، انظر: التاريخ القديم، **٣٩٩/٢**، ولَبَنان بالفتح لحرف اللام على صيغة التثنية جبلان قرب مكة، انظر: معالم مكة التاريخية، ص **٢٣٥**، وطور سيناء: جبل في صحراء سيناء شرقي مصر.

(٣) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد **٢٨٨/٣**، وانظر: تاريخ مكة قديماً وحديثاً، ص **٣٥**.

على يد آدم - عليه الصلاة والسلام - وساعدته الملائكة - عليهم السلام - في ذلك.

٣ - بناء شيث بن آدم - عليهما السلام -.

٤ - بناء إبراهيم مع ابنه إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام -.

٥ - بناء العمالقة.

٦ - بناء جرهم.

٧ - بناء قصي الجد الرابع للنبيّ - ﷺ -.

٨ - بناء قريش الذي شارك فيه الرسول - ﷺ - قبل بعثته بخمس سنوات بحمل الحجارة مع عمه العباس إلى مكان البناء، والذي كان فيه دوره الحكيم في حل النزاع حول من الذي يضع الحجر الأسود في مكانه.

٩ - بناء عبدالله بن الزبير - رضي الله عنه - سنة **٦٥**هـ، بعد حصار الحصين بن نمير الذي جاء بجيشه من قبل يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير، فضرب الكعبة بالمنجنيق، فوهنت جدرانها ثم احترقت، فكان من الضروري هدمها وإعادة بنائها بعد انصراف الحصين وجيشه.

١٠ - بناء الحجاج سنة **٧٤**هـ، والواقع أن بناء الحجاج لا يعتبر بناءً شاملاً، ولكنه هدم لزوائد ابن الزبير في البناء.

١١ - بناء السلطان مراد خان العثماني سنة **١٠٤٠**هـ، بعد أن تهدمت معظم جوانب الكعبة بسبب الأمطار الغزيرة والسيول التي غمرت مكة ليلة الخميس وعصره في العشرين من شعبان عام **١٠٣٩**هـ.

١٢ - التوسعة السعودية الشاملة في عهدين، عهد الملك سعود وعهد الملك فهد.

هؤلاء هم الذين بنوا الكعبة عبر التاريخ، ونظراً لأن الغرض

والهدف من تسطير هذا السجل هو إيضاح الجانب العمراني فقط في تاريخ الكعبة المعظمة، وبما أن بعض الروايات في ذلك ظنية الثبوت، لذلك فقد اقتصر الحديث على موجز أخبار العمارة للكعبة المشرفة التي ثبتت ثبوتاً شرعياً وتاريخياً، وهي عمارة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وعمارة قريش التي شارك فيها سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وعمارة عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ وما جاء من نقض الحجاج بن يوسف الثقفي لجزء منها بعد ذلك.

ثم عمارة السلطان مراد خان العثماني سنة ١٠٤٠هـ، حتى نصل إلى موضوع العمل التاريخي العظيم وهو الترميم الشامل والكامل للملك فهد بن عبدالعزيز(١).

بناء إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ للكعبة المشرفة: يقول الله سبحانه وتعالى في الآية السابعة والعشرين بعد المائة وآيتين بعدها من سورة البقرة، واصفاً حال خليله إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أثناء بنائهما للبيت، تغمرهما البهجة وعشق أداء الواجب، مع حداء الامل في القبول من الله سبحانه وتعالى، والدعاء لنفسيهما ولذريتهما من بعدهما بكل خير، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

لقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه وخليله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

ببناء البيت بعد أن بوأه مكانه وحدده له، فنفذ الأمر الإلٰهي بكل شوق وعشق، وساعده في هذه المهمة العظيمة الشريفة ابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ. ولقد أتما البناء على الشكل العمراني المبين في الشكل (م١ ـ ١٥) وكما يلي: (لقد بنى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكعبة المشرفة بالحجارة، وجعل ارتفاعها إلى السماء تسعة أذرع، وجعل طولها من الجنوب من ركن الحجر الأسود إلى الركن الشمالي مما يلي الجهة الشرقية، أي: من واجهة الباب الحالي اثنين وثلاثين ذراعاً، ومن الجنوب من الركن اليماني إلى الركن الشمالي مما يلي الجهة الغربية إحدى وثلاثين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية، أي: من الحجر الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب من جهة حجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ اثنتين وعشرين ذراعاً، وجعل لها بابين ملاصقين للأرض، أحدهما: من الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود، والآخر: من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سمت الباب الشرقي، وحفر في جوفها على يمين من دخلها حفرة بعمق ثلاثة أذرع لتكون خزانة للكعبة المشرفة أو مستودعاً لمقتنياتها وهداياها، ولم يجعل لها سقفاً ولا وضع على بابيها أبواباً تفتح وتغلق. كما أن البناء كان على شكل صف الحجارة صفوفاً بعضها فوق بعض بدون مادة ماسكة للحجارة، وكان يكمل كل يوم صفاً واحداً، وهذا الأسلوب في البناء بدون مونة يسمى رضماً. وقد جعل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للبيت ركنين فقط، ركن الحجر الأسود والركن اليماني، ولم يجعل له أركاناً من الجهة الشمالية بل جعله منحني الشكل، وجعل إلى جانبه عريشاً أو زرباً متناسباً في شكله مع انحناء جدار الكعبة المقابل له، تقتحمه غنم إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ويمثل الرسم في الشكل (م١ ـ ١٥) الشكل التخطيطي للكعبة على بناء سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك كما تصوره الشيخ محمد طاهر كردي رحمه الله تعالى.

عن يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أن النبيّ ـ ﷺ ـ قال لها: «**يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية**

لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم»[١] . . . فذلك الذي حمل ابن الزبير - رضي الله عنهما - على هدمه. قال يزيد بن رومان: وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل (الشكل م١ - ١٦). قال جرير: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال: هاهنا قال جرير: فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها[٢].

بناء قريش للكعبة المشرفة: كانت الكعبة المشرفة في عهد قريش وما قبله مبنية بالحجارة المصفوفة، وكان بابها بالأرض، ولم يكن لها سقف وإنما تدلى الكسوة على الجدار من الخارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها، وكان في بطن الكعبة عن يمين الداخل جب يكون فيه ما يهدي إلى الكعبة من مال، كهيئة الخزانة، وكان قرنا الكبش الذي ذبحه سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - معلقين في بطنها بالجدر، ثم إن امرأة من قريش ذهبت تجمر الكعبة المشرفة، فطارت من مجمرتها شرارة، فاحترقت كسوتها وتصدعت الجدران، وزاد في ذلك التصدع السيول الجارفة التي أتت بعد ذلك، ففكرت قريش في هدمها وتجديد بنائها، وحدث أن سمعوا بأن سفينة رومية انكسرت عند الشعيبة ميناء مكة المكرمة، فركب الوليد بن المغيرة مع نفر من قريش، واشتروا خشبها، وتعاقدوا مع نجار من بين ركابها اسمه (باقوم) على أن يبني الكعبة معهم بناء أهل الشام،

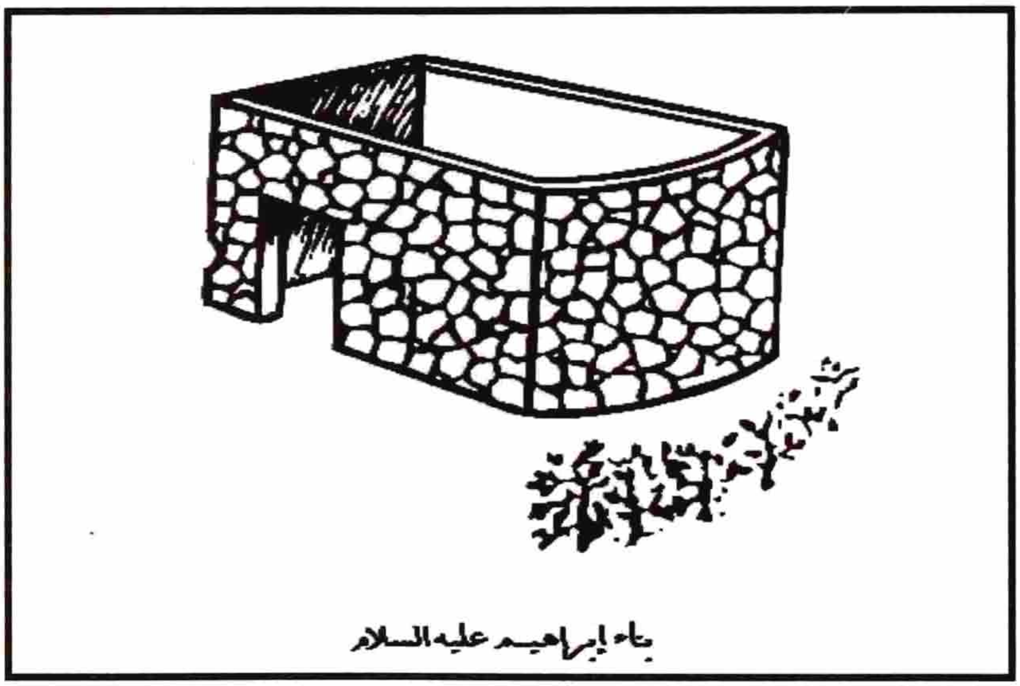
---

(١) صحيح البخاري (جزء ٢ - صفحة ٥٧٤، رقم ١٥٠٩). وانظر: شرح الحديث في فتح الباري. وانظر: تاريخ مكة قديماً وحديثاً، ص ٣٦. راجع المصادر. قال الشراح: (حديث عهد) عهدهم قريب، أي: لم يمض عليهم زمن طويل لتركهم الجاهلية. (ألزقته) جعلته ملتصقاً غير مرتفع. (فذلك)، أي: حديث عائشة رضي الله عنها. (كأسنمة) صخور كبيرة أمثال ظهور الإبل. (أين موضعه) أي: الأساس. (فحزرت) قدرت.

(٢) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

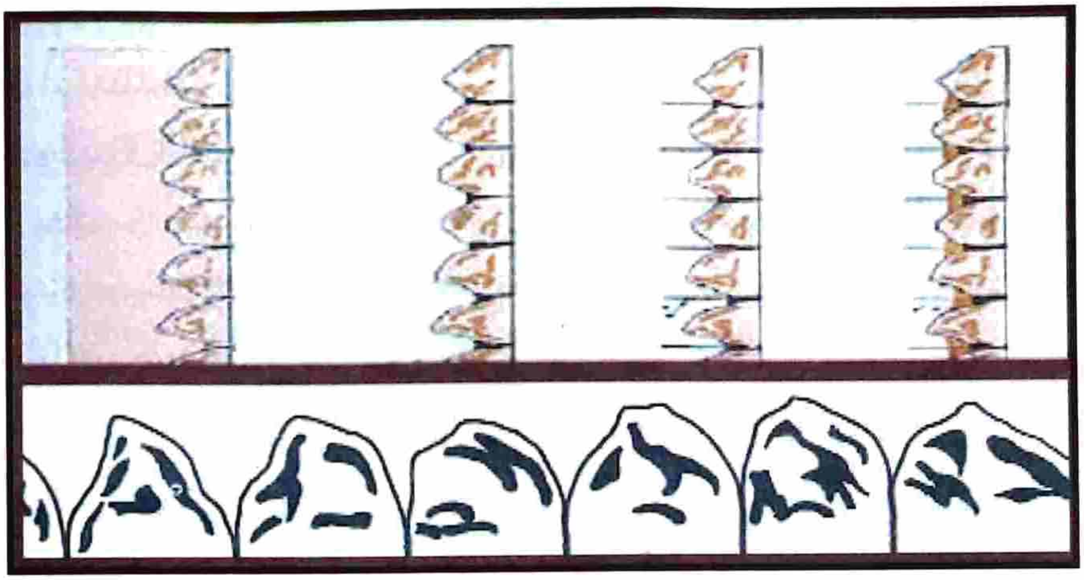
وقرروا ألا يدخلوا في بناء الكعبة مالاً من رباً أو ميسر أو مهر بغي أو مال قطيعة أو مظلمة، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وحين اختلفوا في توزيع الهدم والبناء اتفقوا على تجزئة البيت إلى أربعة أجزاء ثم تجزئة كل ربع إلى أربعة، واختصت كل قبيلة أو عدد من القبائل بجزء، وأسهمت النساء في البناء حيث كان على الرجال حمل الأحجار وعلى النساء نقل الشيد (المونة)، وجمعوا ما بداخل الكعبة من حلية ومال ومعاليق وجعلوها عند أبي طلحة عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي وأخرجوا من البيت هبل ونصب عند المقام(١).

كان رسول الله - ﷺ - ينقل معهم الحجارة وعمره إذ ذاك خمسة وثلاثون عاماً. وتم الهدم كاملاً إلى القواعد التي حين مسوها بالعتل اهتزت لها جبال مكة فوقفوا عند القواعد.



الشكل (م١ - ١٥): الشكل نصف الاسطواني لبناء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على قواعد البيت الأصلية كما تصوره الشيخ طاهر الكردي رحمه الله تعالى - عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٣٥، وانظر: موقع الحج والعمرة -

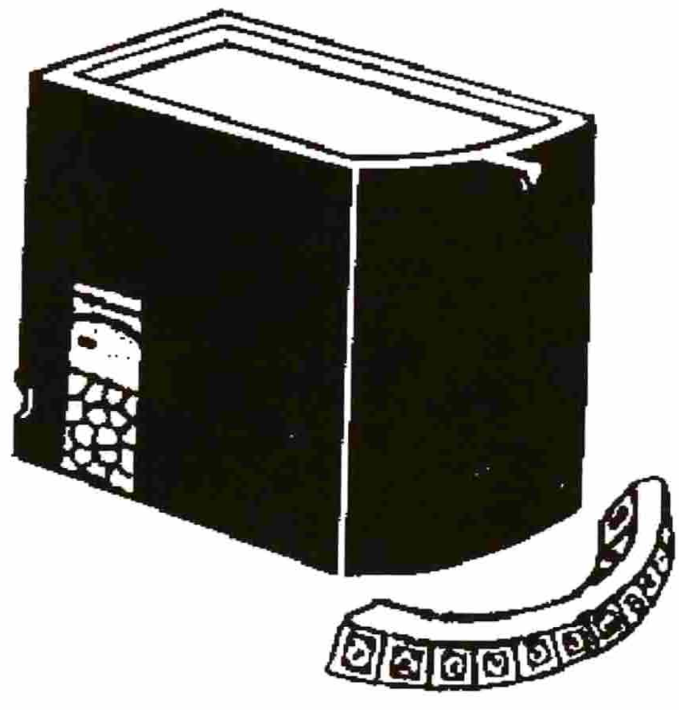
(١) نفس المصادر السابقة.



الشكل (م١ ـ ١٦): رسم لأساس الكعبة المشرفة وهي حجارة كأسنمة الإبل ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٣٦، وانظر موقع الحج والعمرة ـ

وبدأ البناء، ولكن حين وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفعه ويضعه في مكانه، وكانت خصومة بينهم لبضعة أيام كادت أن تنشب بسببها حرب دامية، حتى اقترح عليهم أبو أمية حذيفة بن المغيرة المخرومي أن يحكموا أول داخل من باب بني شيبة، فوافقوا على ذلك، فكان أول داخل هو رسول السلام، أمين مكة، وأمين الإسلام، سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فرضيت قريش به وحل النزاع بينهم بأن طلب رداء وضع الحجر وسطه، وطلب عضواً من كل قبيلة يمسك بطرف الرداء فيرفعوه إلى موضعه، ثم أخذه ـ ﷺ ـ بيده الشريفة ووضعه في مكانه، ثم بعد ذلك بنوا حتى وصلوا إلى ارتفاع أربعة أذرع وشبر، عند ذلك ردموا وكبسوا باطن الكعبة المشرفة ووضعوا بابها مرتفعاً على هذا الذرع، ورفعوا البناء بعد ذلك مدماكاً من خشب ومدماكاً من حجارة، وزادوا ارتفاعها من تسعة أذرع إلى ثمانية عشر ذراعاً وسقفوها، وجعلوا في داخلها ست دعائم تحمل سقفها في صفين، كل صف ثلاثة دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحجر إلى الشق اليماني، وكانت خمسة عشر مدماكاً (صفاً) من الخشب وستة عشر مدماكاً من الحجارة. وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر، وجعلوا أدرجة من خشب في بطنها في الركن الشامي

في صف جدار الباب يصعد فيها إلى سطحها، وزوَّقوا سقفها وجدرانها من باطنها ودعائمها، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء، فكانت صورة إبراهيم خليل الرحمٰن ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هيئة شيخ يستقسم بالأزلام، وكذا جعلوا فيها صور الملائكة ـ عليهم السلام ـ وصور الشجر، وصورة مريم ـ عليها السلام ـ مزوَّقاً في حجرها عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاعداً، وجعلوا لها باباً واحداً يغلق ويفتح(١).



بناء قريش

الشكل (م١ ـ ١٧): بناء قريش للكعبة المشرفة كما تصوره الشيخ طاهر الكردي رحمه الله تعالى ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٤١ ـ ٤٢، وانظر: موقع الحج والعمرة ـ

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

فلما فرغوا من البناء ردوا المال في الجب وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك، وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية.

الشكل (م١ ـ ١٧) يمثل الشكل التخطيطي للكعبة المعظمة في بناء قريش كما تصوره الخطاط الشيخ محمد طاهر الكردي.

لما أرسل يزيد بن معاوية الحصين بن نمير مع جيشه إلى مكة المكرمة لقتال ابن الزبير، غلب الحصين على مكة كلها إلا المسجد الحرام، فلجأ ابن الزبير وأصحابه إلى المسجد، فبنوا حول الكعبة بيوتاً من القصب وأرففاً من الخشب يستترون فيها من حجارة المنجنيق ويستظلون بها من الشمس، وكان الحصين بن نمير قد نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وقعيقعان يرمي بها الكعبة المشرفة، حتى تمزقت كسوتها وترجرجت حجارتها، وصادف أن أوقد أحد أصحاب ابن الزبير ناراً طارت منه شرارة سببت حريقاً عظيماً في الكعبة، والكعبة يومئذ مبنية ببناء قريش، مدماك من خشب ومدماك من حجارة، وكان ذلك ليلة السبت الثالث من ربيع الأول لعام ٦٤هـ، فتناثرت حجارة الكعبة حتى إن الحمام والطيور لتقع على جدرها فتطير الحجارة الصغيرة من تحت أرجلها، ثم جاء خبر وفاة يزيد بن معاوية فترك الحصين الحصار، وغادر مكة بجيشه في الخامس من ربيع الثاني من العام نفسه، فكان من الضروري هدم الكعبة كاملاً وإعادة بنائها من جديد، فشاور ابن الزبير ذوي الأحلام والنهى في ذلك، وأخيراً استقر قراره على هدمها كاملة وإعادة بنائها.

فأعاد بناءها على قواعد سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تيمناً بما كان يتمناه رسول الله ـ ﷺ ـ، وجمع حجارتها من الجبال التي جمعت منها الحجارة حين أرادت قريش بناء الكعبة، وهي جبل حراء وثبير والمقطع والخندمة وحلحلة وجبل الكعبة ومردلة.

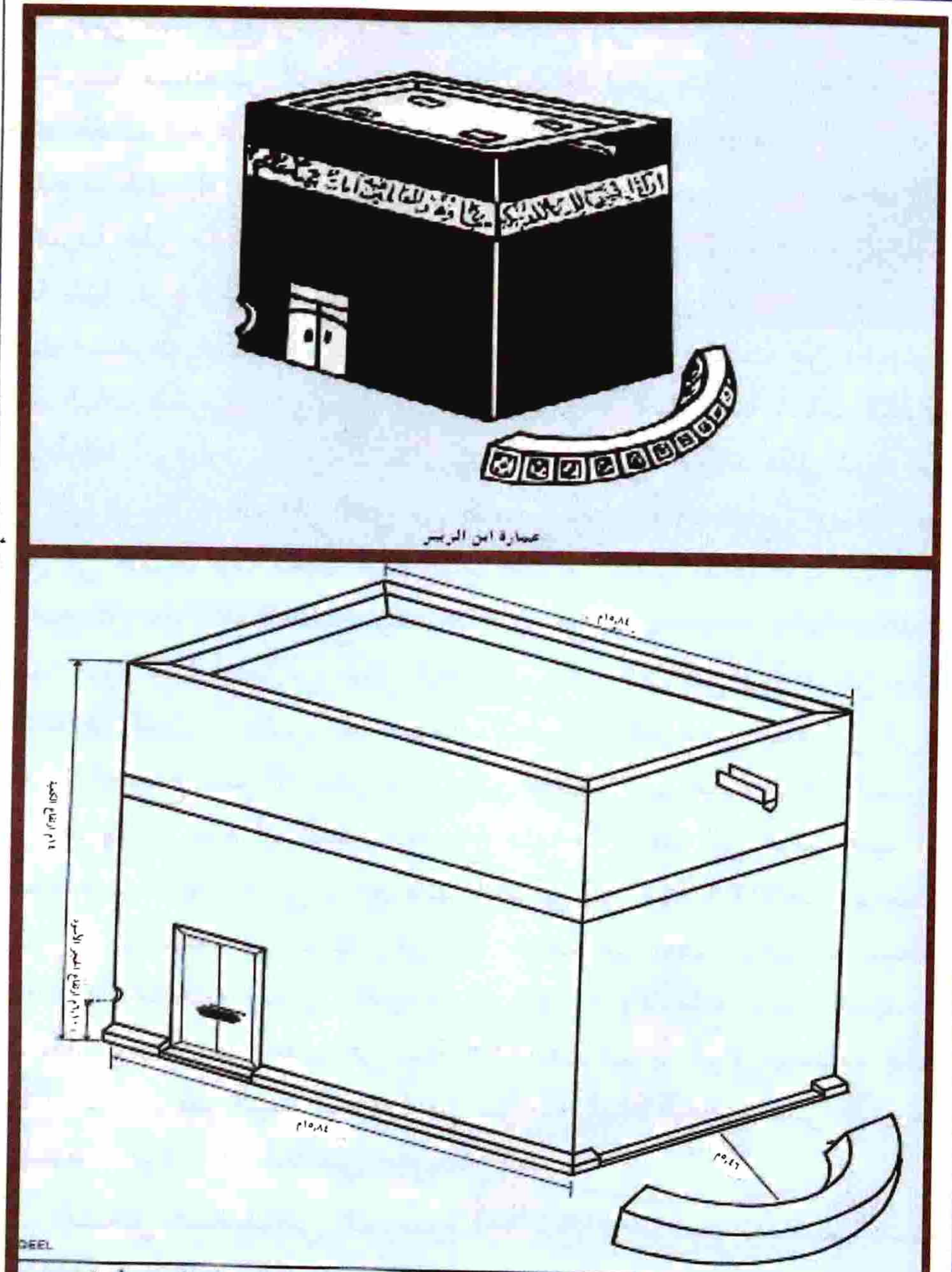
فلما اجتمع لابن الزبير عدة البناء كاملة أخذ ما في باطن الكعبة من حلية وغيرها ووضعها في دار شيبة بن عثمان إلى أن أتم البناء، وكان ابن الزبير أول من علاها بنفسه وابتدأ هدمها في يوم السبت نصف جمادى الآخر عام ٦٥هـ، وتبعه الناس في ذلك وتم هدمها في نصف نهار، ثم أخذ ابن الزبير الحجر الأسود وجعله في ديباج وأدخله في تابوت وقفل عليه ووضعه في دار الندوة. ونصب أخشاباً حول الكعبة وجعل عليها الستور يطوف الناس حولها. ولما كشفت قواعد البيت وجد أنها داخلة في الحجر بمقدار ستة أذرع وشبر، كأنها أعناق الإبل آخذاً بعضها ببعض، فإذا حرك الحجر من القواعد تحركت معه الأركان كلها، ودعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشهدهم على ذلك الأساس، ثم وضع البناء على ذلك الأساس وجعل باب الكعبة الشرقي على مدماك الشاذروان الملاصق للأرض، وجعل الباب الآخر الغربي بإزائه في ظهر الكعبة مقابله تماماً، ثم لما وصل البناء إلى موضع الركن وضع الحجر الأسود في مكانه على حال غفلة من الناس. وقد زاد في ارتفاع الكعبة إلى سبعة وعشرين ذراعاً، وجعل عرض الجدار ذراعين، وجعل فيها ثلاث دعائم تحمل السقف في صف واحد من الشمال إلى الجنوب.

وبني روازن السقف برخام مجلوب من صنعاء، وجعل باب الكعبة مصراعين بدل المصراع الواحد الذي كان قبل ذلك، وطوله أحد عشر ذراعاً، وجعل لها درجة في بطنها في الركن العراقي من خشب معرجة يصعد فيها إلى السطح، وجعل في سطحها ميزاباً يسكب في الحجر. وبعد أن فرغ من بنائها طيب جوفها بالعنبر والمسك كما لطخ جدارها الخارجي بالمسك من أعلاها إلى أسفلها، وسترها بالديباج، وبقيت من الحجارة بقية فرش بها حول البيت على مداره عشرة أذرع، وكان الفراغ من عمارة البيت في السابع عشر من رجب سنة ٦٥ للهجرة. ثم بهذه المناسبة حرض الناس على الاعتمار من التنعيم شكراً لله عز وجل، وعلى الذبح والنحر على مقدار الطاقة صدقة لله على ما أولى وأكرم، وأحرم هو وأصحابه من

أكمة أمام مسجد عائشة بالتنعيم، وأهدى كثيراً من البدن ذبحها صدقة وحمداً لله، وبقيت هذه العمرة سنَّة عند أهل مكة في هذا اليوم من كل عام. والشكل (م١ ـ ١٨) المبين هنا هو من تصميم الشيخ الخطاط محمد طاهر الكردي[١].

عمارة الحجاج للكعبة المشرفة: إن احتساب عمل الحجاج العمراني في الكعبة عملاً بنائياً شاملاً مستقلاً هو من باب التجوز الذي أخطأ فيه المؤرخون، لأن الواقع أنه لم يقم بأي عمارة، ولكنه قام بنقض جزء من عمارة ابن الزبير للكعبة.

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



رسم تقريبي لبناء الكعبة المشرفة في عهد عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وبيان لبعض أبعاده

الشكل (م١ ـ ١٨): منظور لبناء

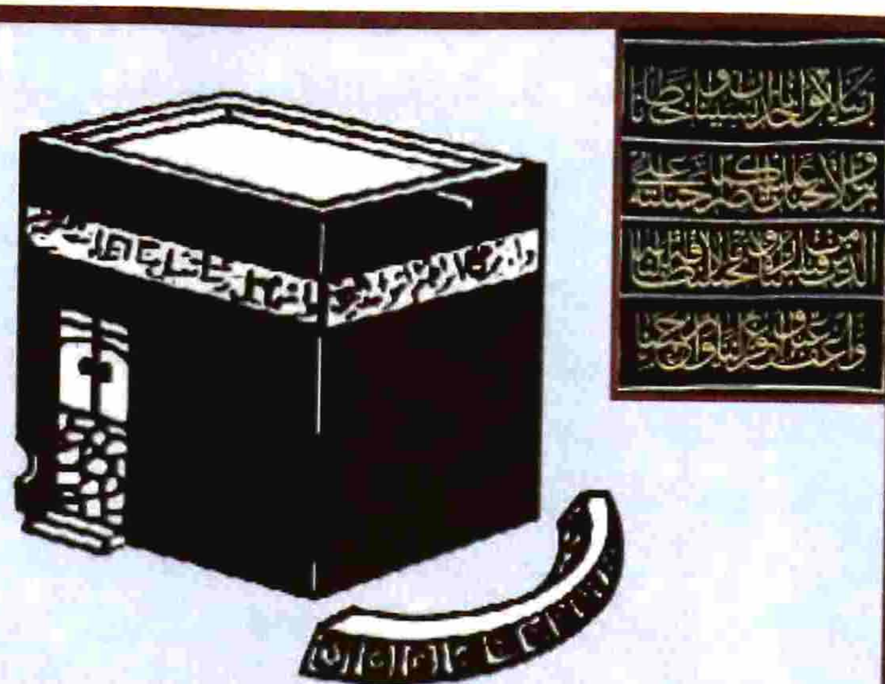
عبدالله بن الزبير للكعبة المشرفة كما تصوره الشيخ طاهر الكردي رحمه الله تعالى ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٤٥ ـ ٤٨، وانظر: موقع الحج والعمرة ـ

ففي سنة أربع وسبعين كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان أن أبا خبيب عبدالله بن الزبير زاد في البيت ما ليس منه، وأحدث فيه باباً آخر، فكتب إليه عبدالملك أن سد بابها الغربي الذي كان فتحه ابن الزبير، واهدم ما كان زاد فيها من الحجر واكبس أرضها بالحجارة التي تفضل من أحجارها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مما يلي الحجر، وبناها على أساس قريش الذي كانت استقرت عليه، وكبس أرضها بالحجارة التي فضلت من أحجارها وسد الباب الغربي الذي كان في ظهرها، وما تحت عتبة الباب الشرقي وهو أربعة أذرع وشبر، وترك سائرها لم يحرك منها شيئاً، فكل شيء فيها بناء ابن الزبير إلا الجدار الذي في الحجر فإنه بناء الحجاج، وسد الباب الذي في ظهرها وما تحت عتبة الباب الشرقي الذي يدخل منه اليوم إلى الأرض كل هذا بناء الحجاج والدرجة التي في بطنها اليوم، والبابان اللذان عليها اليوم هما أيضاً من عمل الحجاج. ولقد كان بين بناء قريش وبناء عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ ثمانون سنة، وبين بناء ابن الزبير وعمارة الحجاج تسع أو عشر سنين على خلاف، ثم بقيت الكعبة المشرفة على حالها من يوم أن اقتطع الحجاج منها ما أدخله ابن الزبير فيها من الحجر وسد بابها الغربي ورفع بابها الشرقي إلى سنة **١٠٣٩**هـ، تسعمائة وست وستين سنة، لم يصبها وهن ولا خراب غير بعض ترميمات بسيطة، ثم قدر الله سبحانه وتعالى الذي لا راد لقضائه ولا مانع لقدره أن يدخل المسجد الحرام سيل عظيم في سنة **١٠٣٩**هـ، لم ير الراؤون مثله، فكان سبباً لسقوط معظم البيت الحرام ومن ثم جاء البناء الحادي عشر الذي قام به السلطان مراد خان العثماني عام **١٠٤٠**هـ.

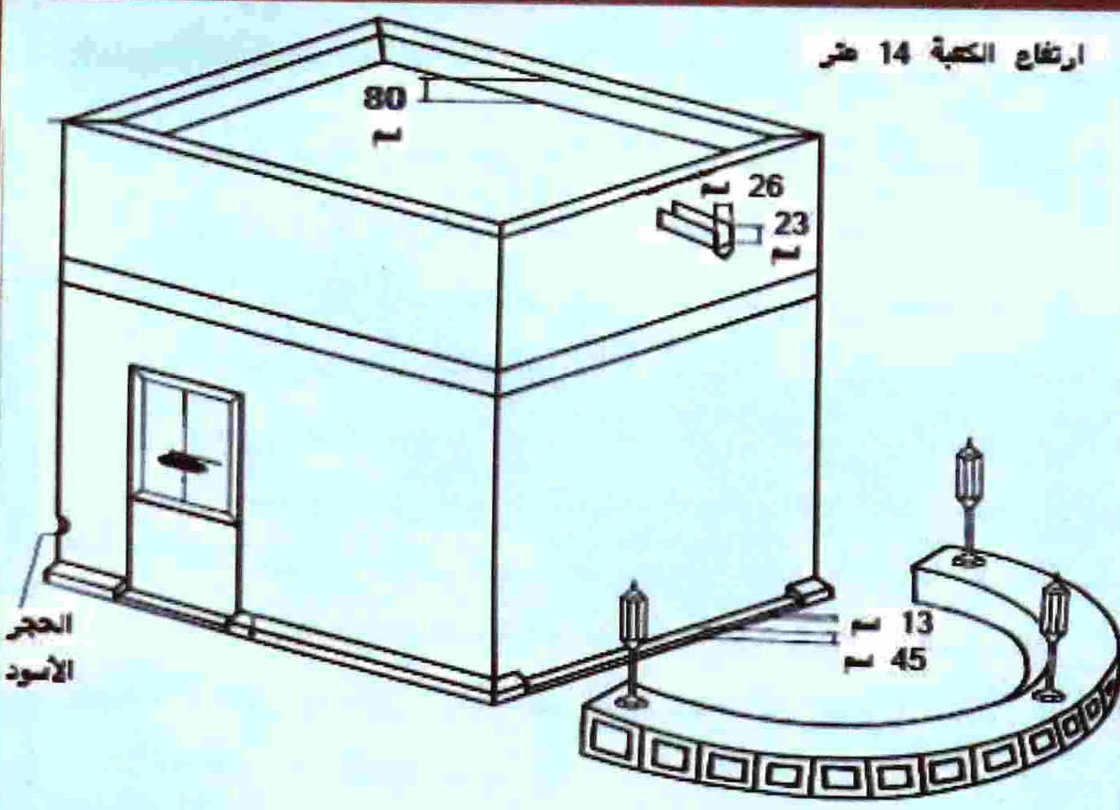
الشكل التخطيطي المرسوم (م١ ـ ١٩) هو من تصميم الشيخ الخطاط محمد طاهر الكردي[١].

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



عمارة الحجاج الثقفي



رسم تقريبي بناء الكعبة المشرفة وبيان لبعض أبعاده منذ بناء الحجاج إلى العصر الحاضر

الشكل (م١ ـ ١٩): بناء الحجاج بن يوسف الثقفي للكعبة المشرفة كما تصوره الشيخ طاهر الكردي رحمه الله تعالى

ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٣٢، وانظر: موقع الحج والعمرة ـ

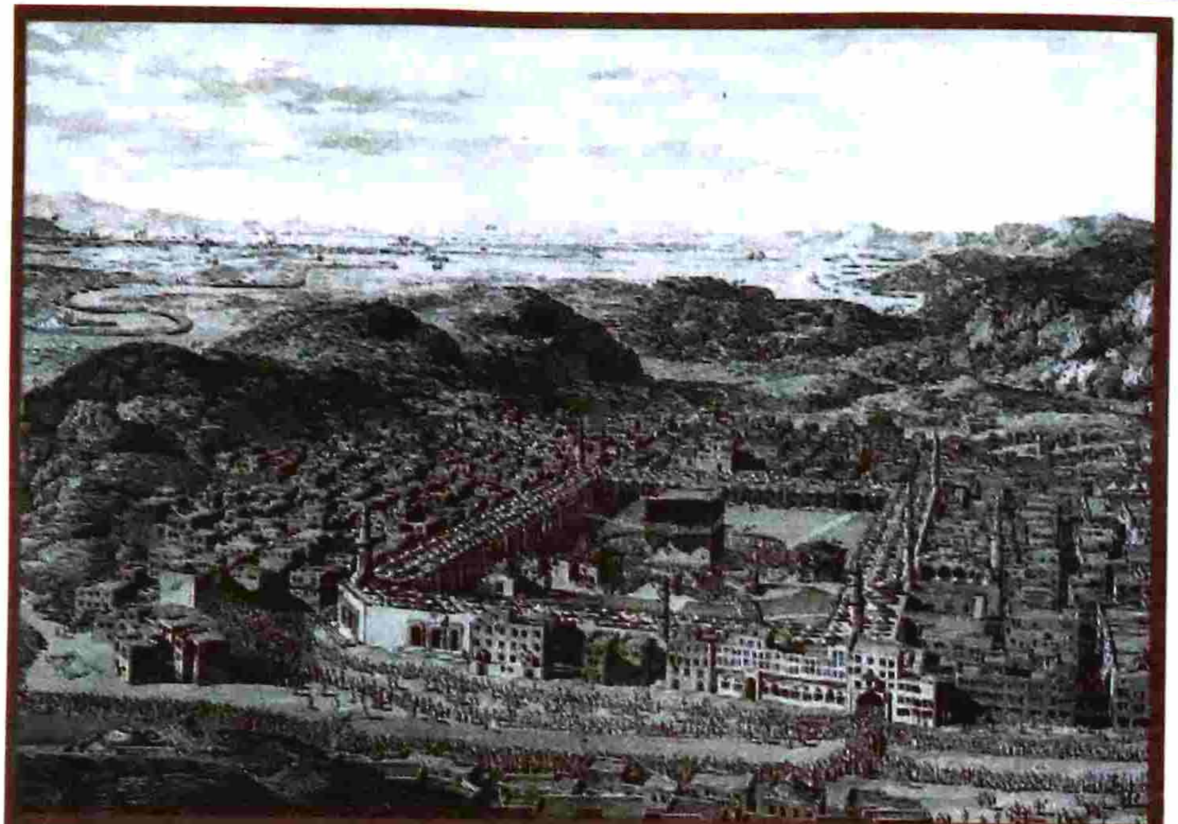
بناء السلطان مراد خان للكعبة المشرفة: إنه في يوم الأربعاء **١٩** شعبان سنة **١٠٣٩**هـ، سقط على مكة المكرمة مطر عظيم استمر إلى ليلة الخميس، جرى منه سيل وفيضان كبير لم تشهد مكة مثله قط، وأغرق المسجد الحرام إلى نصف جدار الكعبة، فسقطت جدر الكعبة الواحد تلو الآخر، وذلك في عهد أمير مكة الشريف مسعود بن إدريس بن حسن، فعملت الإجراءات اللازمة من أخذ مقتنيات الكعبة وحفظها وتنظيف المسجد الحرام واجتماع العلماء وأهل الحل والعقد للنظر فيما يمكن عمله لإعادة بناء الكعبة، وانتهى القرار بالكتابة إلى السلطان مراد خان، ثم عمل ستار خشبي حول الكعبة يبعد عنها من جميع جهاتها ستة أذرع، ووصلت سفينة إلى جدة كامل حمولتها معدات بناء للكعبة المشرفة، وابتدأ العمل في أواخر جمادى الأول لعام **١٠٤٠**هـ، وأعيد بناء الكعبة المعظمة كما كانت عليه أيام الحجاج، ويمكن إيجاز صفة البناء ومجرياته وتاريخه في النقاط التالية:

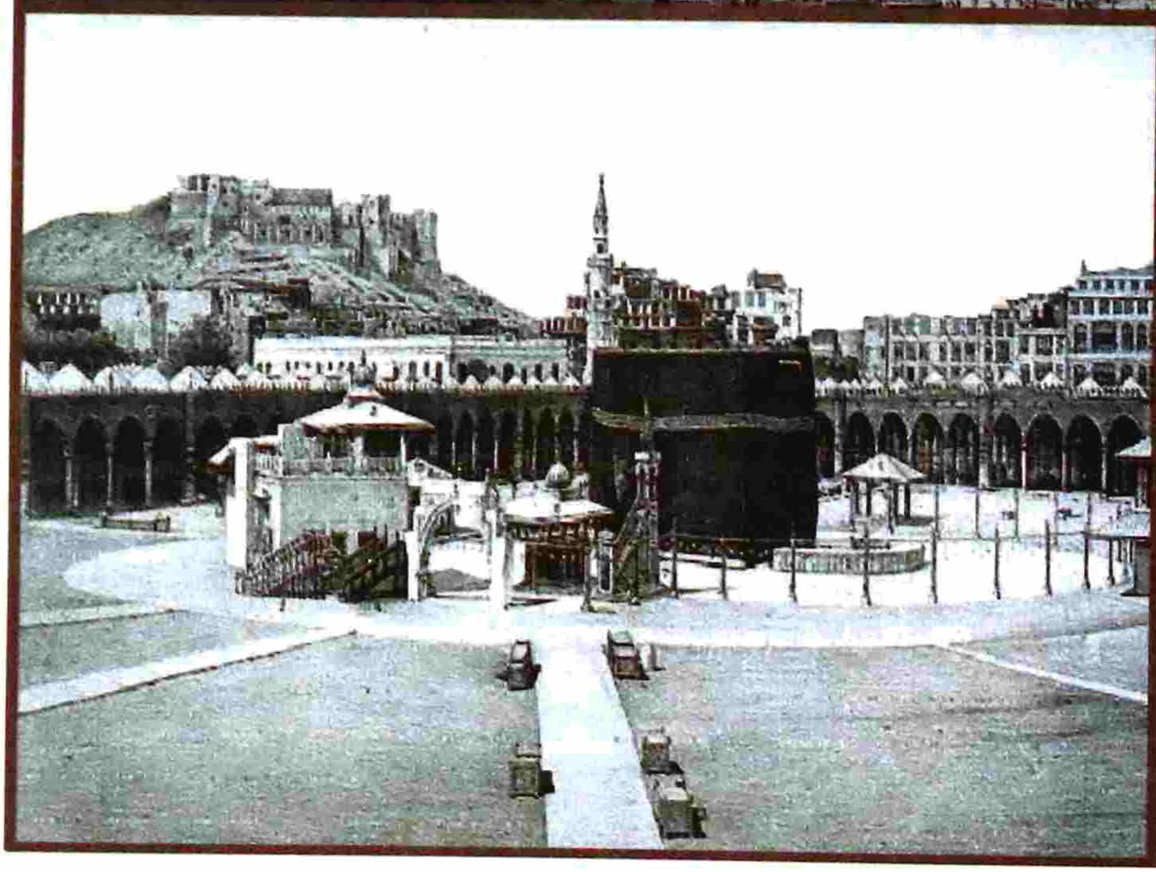
١ - أقام السلطان مراد البناء على ما كانت عليه صفة الكعبة المشرفة من عهد الحجاج ولم يزد فيها شيئاً أو ينقص منها شيئاً.

٢ - تاريخ عمارتها إذا اعتبرناه من بداية المباشرة في هدم ما تبقى من أنقاضها فيكون يوم السبت نهاية جمادى الأولى **١٠٤٠**هـ، وإذا اعتبرناه من بداية وضع أول أساس في البناء فيكون يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الثانية عام **١٠٤٠**هـ. وكان الانتهاء الكامل من جميع أعمال البناء المتعلقة بالكعبة المشرفة هو في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة لعام **١٠٤٠**هـ. وهذه العمارة هي آخر عمارة استمرت على وضعها إلى عهد الترميم الشامل للكعبة المشرفة على يد السعوديين.

٣ - في عملية الهدم وصلوا إلى المدماك أو الصف الأول من الحجارة الذي على وجه الأرض، وقام البناء عليه، لذلك لم تتغير أبعاد الكعبة ولا بصورة جزئية.

٤ - أخذت الحجارة الناقصة للبناء من جبل الكعبة (الشبيكة).





الشكل (م١ ـ ٢٠): بناء السلطان مراد خان للكعبة المشرفة

ـ انظر: موقع الحج والعمرة ـ

٥ - في الهدم نقضت الأركان الثلاثة ما عدا ركن الحجر الأسود، فقد كشف الحجر الذي يعلوه ورمم ما حوله ترميماً جيداً ولم يخرج من مكانه.

٦ - وجد أن لون ما استتر من الحجر الأسود أبيض مثل رخام المقام.

٧ - وضعت لوحة تذكارية في داخل الكعبة فيها اسم السلطان مراد وتاريخ البناء.

الشكل (م١ - ٢٠) يبين عمارة السلطان مراد خان للكعبة المشرفة[(١)].

ترميم سطح الكعبة المشرفة في عهد الملك سعود: في أول شهر محرم لعام **١٣٧٧**هـ، ظهر أن سقف الكعبة المشرفة يحتاج إلى ترميم، وذلك بقرار لجنة علمية وفنية أمر بتشكيلها الملك سعود، فبدأ بعمارة سقفي الكعبة المشرفة وترميم ما يحتاج منها إلى ترميم، فتم العمل على الوجه التالي:

١ - لقد بدئ بالعمل في الحادي والعشرين من جمادى الثانية **١٣٧٧**هـ، بنصب ستار خشبي مرتفع حول الكعبة من جميع جهاتها فيما عدا موضع الحجر الأسود والركن اليماني وحجر إسماعيل - عليه السلام -. ونصبوا ممر السقايل إلى السقف من حجر إسماعيل - عليه السلام -.

٢ - أحضرت الأخشاب ومكونات المونة وجميع المعدات اللازمة للترميم كاملة ثم بدأ العمل بعد ذلك.

٣ - وفي ضحى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب الحرام حضر ولي العهد الأمير فيصل بن عبدالعزيز نيابة عن أخيه الملك سعود وارتقى سطح الكعبة مع بعض الضيوف والمسؤولين وهدم بيده جزءاً بسيطاً من إفريز السطح إعلاناً لبدء العمل.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٤ ـ ثم كشف السقف الأعلى كشفاً تاماً، وركبت الميدات على الحيطان الأربعة ووضع عليها أخشاب السقف باتجاه الشرق إلى الغرب وثبتت بالمونة البلدية الجيدة وجعلت تحت رؤوسها عودان من الخشب، أحدهما: في الجدار الشرقي، والثاني: في الجدار الغربي، وتحت هذه الأعواد من الوسط كمرة رأساها في الجدار الشمالي والجنوبي لحمل السقف الأعلى، كما عملت كمرة أخرى لحمل السقف الأسفل، وفرش على السقف ألواح الخشب، ثم بنيت سترة السطح القصيرة بارتفاع ٨٠ سم، وهو ما يسمى (الطنف)، وثبت فيها من الجهات الأربع أسياخ معدنية قوية لتعليق ثوب الكعبة عليها بعد أن كانت من الخشب سابقاً، ودهن خشب السقف بالسليقون وفرش عليه القلع المشمع، فطبقة من المونة، ثم طبقة من طوب العاقول الأحمر، ثم طبقة من الخلطة والمونة البلدية القوية، ثم غطيت بنفس الرخام الأبيض الذي كان على السطح بعد تنظيفه. مع مراعاة الميول تجاه الميزاب الذي يسكب في حجر لسيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ. ثم أذيب الرصاص وصب بين أطراف الرخامات ليحكم تثبيتها وعدم تسريبها لمياه الأمطار، ثم وضع رخام الإفريز على الجوانب الأربعة عمودياً بارتفاع **٢٥**سم، ورممت فتحة باب الدرج الذي بأعلى السطح وأبدل غطاؤها بغطاء جديد ملبس بالمعدن القوي الجميل.

٥ ـ لقد استخدم الصالح من الخشب القديم للسقف إلى جانب الأعواد الجديدة.

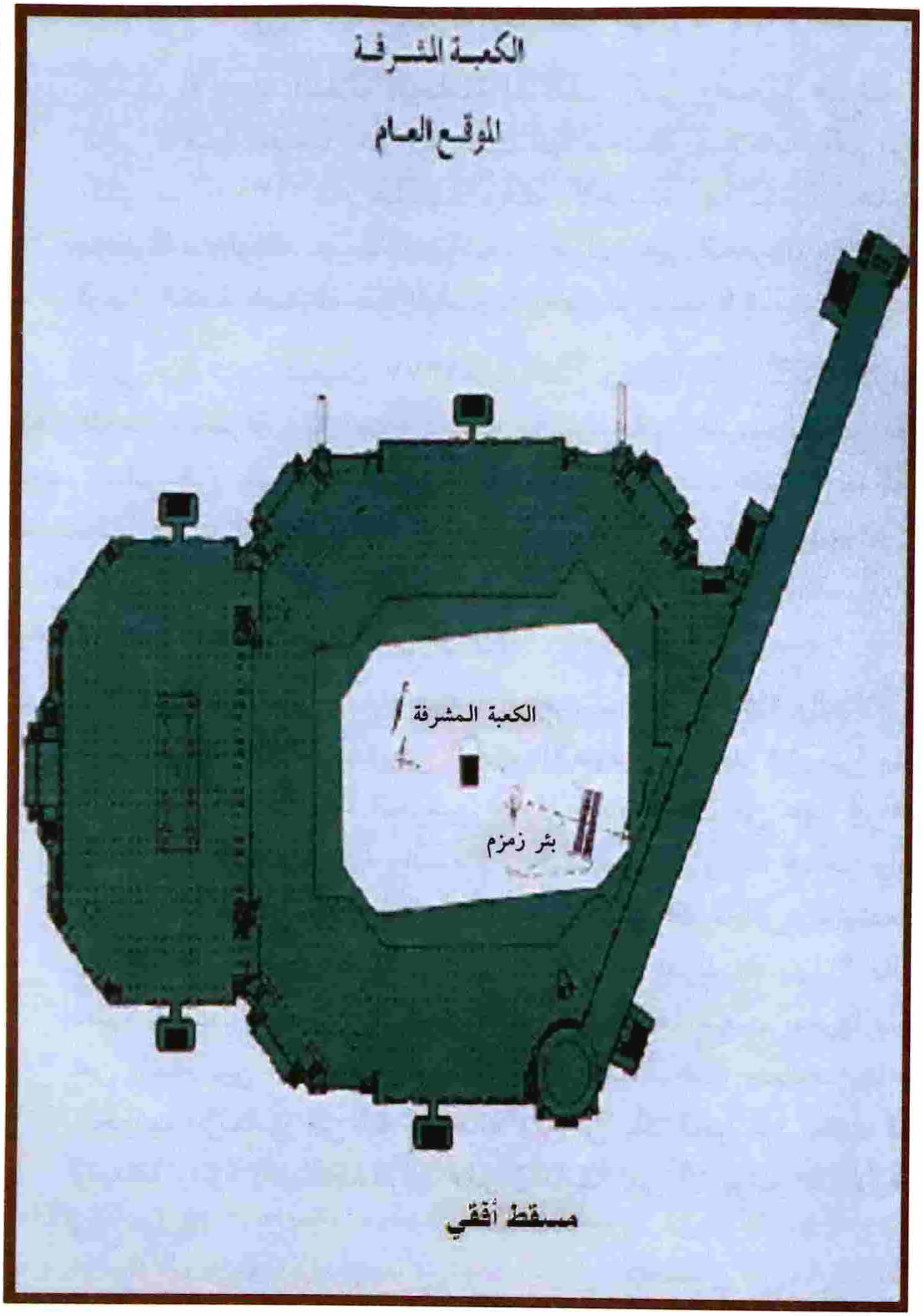
٦ ـ تم ترميم السقف الأدنى باستبدال الخشب التالف منه الذي كان مفروشاً على أعمدة ثلاثة ممتدة من الشرق إلى الغرب ولم يستبدل منها سوى العمود الأوسط.

٧ ـ عملت بعض الترميمات الخفيفة في لياسة جدار داخل الكعبة المشرفة والرخامات الأرضية والحائطية.

٨ - تم صنع صندوقين كبيرين بطول **١٥٠** سم وارتفاع **٨٠** سم لحفظ قناديل الكعبة المشرفة وستارتها الداخلية فيها.

٩ - أما ميزاب الكعبة فهو الميزاب الذي عمله السلطان عبدالمجيد خان عام **١٢٧٣**هـ، من الفضة الخالصة الملبس بالذهب، وهو من المتانة بحيث أنه لم يظهر عليه القدم، فأعيد إلى مكانه بعد ترميم القاعدة الخشبية له وإعادة غرس المسامير الرأسية عليه والتي تمنع الحمام والطيور من الوقوف عليه.

١٠ - رمم خشب باب الكعبة المشرفة والعتبة وجدار كتف الباب.



الشكل (م١ ـ ٢١): مسقط أفقي يمثل الموقع العام للكعبة المشرفة والمسجد الحرام المحاط بها بعد الترميمات في العهدين السعوديين الأول والثاني

١١ - رمم درج داخل الكعبة المشرفة ولم يغير منها ولا عتبة واحدة.

١٢ - رممت الأعمدة الثلاثة الحاملة للسقف والتي وضعها عبدالله بن الزبير ترميماً سطحياً خارجياً حيث أنها محتفظة بسلامتها رغم مرور أكثر من **١٣٠٠** عام عليها. وهذه الأعمدة لها تيجان علوية مزخرفة، وقواعد مربعة منقوشة، وطولها غير المغروس منها في أرض الكعبة المشرفة هو **٧** أمتار، وقطر كل منها **٤٤** سم تقريباً.

الثاني من شهر شعبان **١٣٧٧هـ**، أعلن رسمياً عن انتهاء الترميم لسقف الكعبة المشرفة وما احتاجت إليه من ترميمات جانبية. ثم تبع ذلك الترميم الثاني في عهد الملك فهد وفيه اكتمل الترميم الشامل للكعبة المشرفة كما فصلنا آنفاً. (انظر: الشكل م١ ـ ٢١)(١).

رابعاً: موجز المسرد التاريخي لزمزم:

١ - تقع بئر زمزم بجوار مقام سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أمام الكعبة المشرفة مما يلي الحجر الأسود على بعد **١٨** متراً منه، كما ذكره صاحب مرآة الحرمين. وأول ميلادها كان في عهد إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما ترك زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل بواد غير ذي زرع بأمر من الله تعالى، وارتفعت إيمانية هاجر عندما سألته لم تتركنا؟ فهل أمرك الله بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا. وحين نفد ماؤها سعت سعيها بحثاً عن الماء بين الصفا والمروة، وبعدما استفرغت جهدها جاءها الجواب الإيماني من الله سبحانه وتعالى بأن فجر من تحت قدم وليدها زمزم إحياءً لذكرى علو إيمانها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٢ ـ لما انفجرت زمزم تحت أقدام وليدها إسماعيل ـ عليهما السلام ـ حوضت أم إسماعيل عليها بتراب يحجز الماء خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنتها وتقول: زمي زمي، فلذلك سميت زمزم. (ولو تركته بدون تحويض لكانت عيناً معيناً يجري).

٣ ـ طمرت زمزم ودفنت وعفا موضعها بسبب الظروف السياسية التي أدت إلى إهمالها، والظروف الجغرافية، فأخرجها عبد المطلب من محبسها بأمر إلٰهي منامي.

٤ ـ زمزم بسببها تعرض عبدالله والد النبيّ ـ ﷺ ـ للذبح وفاءً لنذر أبيه، ولكن الله الذي جعل زمزم سبباً لحياة إسماعيل لا يمكن أن يجعل منها سبباً لقتل أحد فهي ماء الحياة، لذلك كانت زمزم هي أيضاً معتقة عبدالله من الذبح بأن أجرى الله الوسائل على يد عبد المطلب لإنقاذه من ذلك الذبح.

٥ ـ زمزم سبب في جعل الدية مائة من الإبل وهو الفداء لعبدالله، واعتمدتها الشريعة الإسلامية بعد ذلك.

٦ ـ زمزم معتقة المتضلع منها من صفة النفاق.

٧ ـ زمزم شراب ضيفان الله عز وجل الذين يزورون بيته.

٨ ـ عاش أبو ذر على ماء زمزم فقط ثلاثين يوماً فسمن منها حتى تكسرت عكن بطنه.

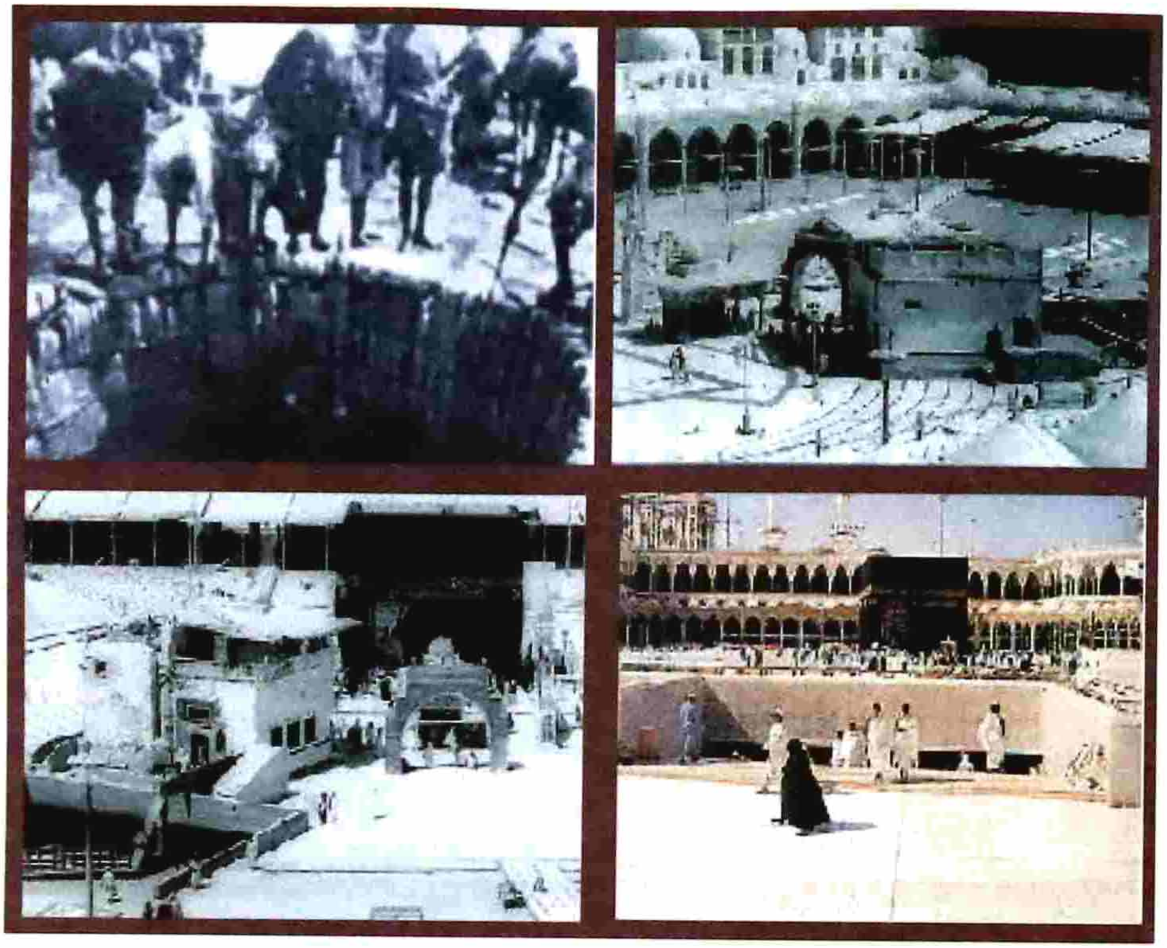
٩ ـ ماء زمزم مفضل على سائر المياه لأن سبب نبعه نبي وأمه وإيمان عال، وواسطته ركلة جبريل، وموقعه بجوار الكعبة أقدس بقعة على وجه الأرض، ومنبعه ثلاث جهات مشرفة جهة الركن الأسود والمروة والصفا، وشرب منها الأنبياء والأصفياء والأتقياء، ومنها غسل قلب النبيّ ـ ﷺ ـ، وكان ـ ﷺ ـ يستجلب ماءها إلى المدينة المنورة تبركاً وتسوغاً واستعذاباً. وهو لما شرب له وطعام طعم وشفاء سقم.

١٠ - أصل تولي سقاية زمزم بمكان معد بجوارها بعد حفر عبد المطلب بن هاشم لها كان لعبد المطلب ذاته، فلما توفي تولى أمر السقاية ابنه أبو طالب، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم فصرفها وجاء الموسم ولم يكن معه شيء، فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف درهم إلى الموسم القابل فشرط عليه إذا جاء الموسم ولم يقضه أن يترك له السقاية فقبل ذلك، وجاء الموسم فلم يقضه فترك له السقاية، فكانت بيد بني العباس بن عبد المطلب وولده إلى أن انقضت خلافتهم. ويقول أيوب صبري في كتابه (مرآة جزيرة العرب): ولما تولى بنو العباس الخلافة حالت أعمال الملك دون قيامهم بأمر السقاية، فكانوا يعهدون إلى آل الزبير المتولين التوقيت في الحرم الشريف القيام بأعمال السقاية بالنيابة، ثم طلب الزبيريون من الخلفاء العباسيين ترك السقاية لهم، فتركوها لهم بموجب منشور. إلا أنه نظراً لكثرة الحجاج فقد اشترك معهم آخرون في العمل باسم الزمازمة. (انتهى).

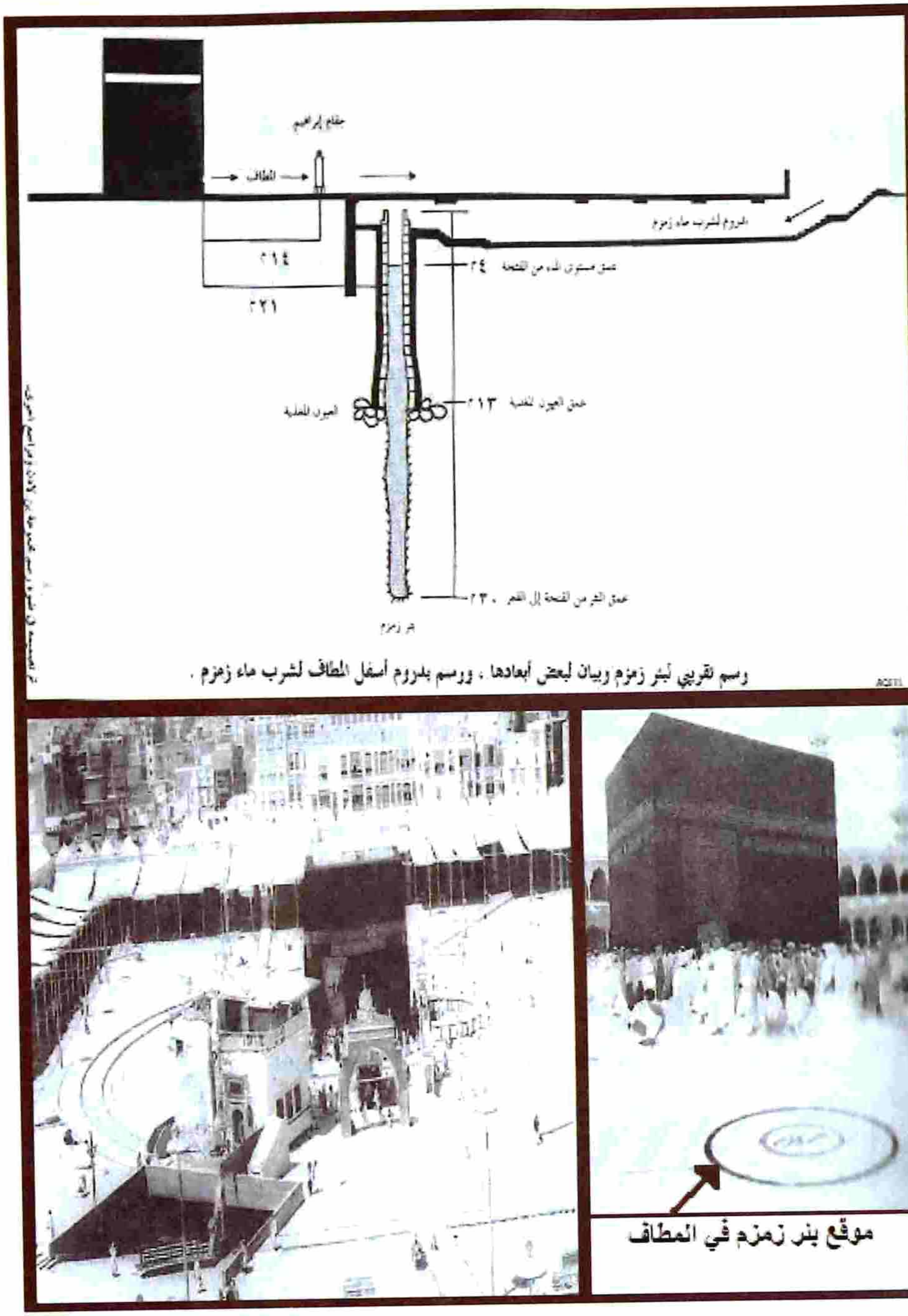
١١ - ثم إن الأتراك العثمانيين ثبتوا آل الزبير في عمل السقاية ولا تزال رئاستها بيدهم إلى اليوم. وآل الزبير هؤلاء يعرفون اليوم (ببيت الريس).

١٢ - وكان على زمزم قبة وغرف مستودعات ومستبرد لدوارق ماء زمزم، ولكن ذلك هدم عام **١٣٨٣هـ**، حين اضطر عمل التوسعة ذلك.

لقد تطرقنا للتفاصيل الهيدرولوجية والجيولوجية والبيوكيميائية لماء زمزم في كتاب هندسة المياه والري ضمن هذه السلسلة... الشكل (م**٢٢** - أ، ب) يبين بعض ملامح البئر.



الشكل (م١ ـ ٢٢ ـ أ): بئر زمزم في أدوار تاريخية مختلفة
ـ عن المصادر نفسها ـ



الشكل (م١ ـ ٢٢ ـ ب): موقع وبناء زمزم ومقام إبراهيم وباب بني شيبة في المطاف سابقاً ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، ص٧٠ ـ ٧٧، وانظر: موقع الحج والعمرة ـ

خامساً: المسرد التاريخي لمقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -:

١ - قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥]، أي: اتخذوا عند مقام إبراهيم مصلى.

٢ - قيل: المسجد كله مقام إبراهيم، وقيل: الحرم كله، وقيل: جميع مشاهد الحج كمنى وعرفة ومزدلفة، وقيل: هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عند بناء الكعبة وكان يرتفع به كلما ارتفع البناء. وهذا القول الأخير هو الصحيح وهو الذي يتبادر إلى الأذهان إذا ذكر المقام وهو الذي أراد الله أن تغوص فيه قدما إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تخليداً لذكراه وما يحوطها من إيمان كامل وتعلق بالله شامل.

٣ - أصل المقام من الجنة لما رواه الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله - ﷺ - بيَّن أن الركن والمقام من ياقوت الجنة، فعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب**»[١].

٤ - ومع عظيم احترام العرب في الجاهلية للحجر الأسود والمقام إلا أن الله حماهما من عبادتهما فلم يتحولا إلى أصنام، وكذا الكعبة لأن الله ببالغ علمه الواسع أراد أن تكون هذه المقدسات لأمة محمد - ﷺ - صافية نقية من شائبة الشرك في تاريخ وجودها.

(١) اللفظ في سنن الترمذي (جزء ٣ - صفحة ٢٢٦)، قال أبو عيسى: هذا يروى عن عبدالله بن عمرو موقوفاً، قوله وفيه عن أنس أيضاً وهو حديث غريب. الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٤م.

٥ - لقد تغير أثر القدمين عن هيئتهما الأصلية وذلك لأن المقام كان مكشوفاً، ومن كثرة مس الأيدي له ذهبت معالم تفصيل الأصابع.

٦ - الظاهر من أثر القدمين في مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أنه كان بدون نعلين حين يرتقي الحجر.

٧ - روى البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فأنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبيّ - ﷺ - في الغيرة عليه فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فأنزلت هذه الآية[(١)].

٨ - السُّنة أن تكون الصلاة خلف المقام وليس من الضروري مقابلته تماماً بل يقف خلفه في أي مكان، مثل وقوف المأموم بالنسبة للإمام خلفه وعن يمينه وشماله.

٩ - كان موضع المقام في الجاهلية وعهد رسول الله - ﷺ - إلى يوم الفتح إلى سقع الكعبة ثم إن رسول الله - ﷺ - أخَّره عن موضعه عندما نزلت آية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ إلى مكانه الحالي حتى لا يعوق المصلون خلفه الطائفين، وكان كذلك على

(١) صحيح البخاري (١٥٧/١). قال الشراح: (وافقت ربي في ثلاث)، أي: وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت. (آية الحجاب)، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩]. (البر والفاجر)، أي: التقي والفاسق. (هذه الآية) وهي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥]، راجع شرح الحديث في فتح الباري. انظر: المصادر.

عهد أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وحينما جرفه السيل في خلافة عمر وأعادوه إلى ملاصقة البيت، جاء عمر بنفسه من المدينة وأعاده إلى مكانه بمحضر من الصحابة، وكان ذلك في رمضان عام ١٧هـ، فهو في موقعه إلى اليوم.

١٠ ـ أول من طوق مقام إبراهيم بالذهب أمير المؤمنين محمد المهدي عام ١٦١هـ، ثم تتابع بعد ذلك الخلفاء والسدنة وغيرهم في صيانة المقام وترميم فضته وذهبه وتثبيته بالرصاص وغيره.

١١ ـ كان المقام مكشوفاً بدون أي حاجز يحميه. وفي فتنة القرامطة الذين سرقوا الحجر الأسود أرادوا سرقة المقام أيضاً، إلا أن بعض السدنة غيبه عنهم، فبدأ التفكير بعد ذلك في حمايته، فجعلت له قبتان متحركتان إحداهما: خشبية، والأخرى: حديدية، ثم بعد ذلك عمل للمقام تابوتاً يوضع فيه، وتطور الوضع إلى بناء مقصورة له تنتهي مؤخرتها بمظلة متصلة بالمقصورة ليصلي الناس تحتها ركعتي الطواف، ويقال: إن أول عمل المقصورة كان عام ٨١٠هـ، وكان يتم بعد ذلك ترميمها من قبل السلاطين وغيرهم إلى أن أزيلت هذه المقصورة واستعيض عنها بالصرح البلوري في عهد دولة آل سعود وفقها الله، وذلك تجنباً لتعويق الطائفين عن الطواف ولكنه لم يغير موضعه إطلاقاً.

١٢ ـ ولقد كان مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى عام ١٣٨٥هـ، داخل مقصورة وعليه ستار لا يخلص إليه، وقد قام بذرعه في جمادى الأولى لعام ١٣٧٧هـ، الشيخ محمد طاهر كردي فوجد أن ما بين شاذروان الكعبة المشرفة وبين أول شباك مقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ المقابل للكعبة المشرفة أحد عشر متراً.

١٣ ـ لقد كان قرار إلغاء مقصورة المقام واستبدال ذلك بالصرح البلوري المشاهد اليوم مبنياً على قرار توصية المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الذي اتخذه في جلسته الحادية عشرة

المنعقدة بتاريخ ١٣٨٤/١١٢/٢٥هـ. ثم عرضت مواصفات المشروع، وكانت الاستجابة سريعة جداً فكان هذا الإنجاز البلوري المشاهد اليوم(١).

الشكل (م١ ـ ٢٣) يبيِّن رسم تقريبي لكنه إلى الحقيقة أقرب، رسم لحجر مقام سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حسب مشاهدة الشيخ طاهر الكردي له حينما فتح له المقام في ١٧ شعبان ١٣٦٧ هـ. والمقام الكريم كله محاط بالفضة من سطحه وجوانبه كما هو ظاهر في هذا الشكل (م١ ـ ٢٣)، وهو ملتصق بالرخامة التي تحته لا يمكن تحريكه (محمد طاهر الكردي).

وهو حق لا شك فيه لما ورد من الأحاديث الصحيحة، ولما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم. وكان أبو جهم ابن حذيفة القرشي الذي حضر بناء الكعبة المعظمة مرتين: في بناء قريش، وفي بناء ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ يقول: ما رأيت شبهاً كشبه قدم النبيّ ـ ﷺ ـ بقدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ التي كنا نجدها في المقام. وقال قوم من بني مدلج وهم من أشهر العرب معرفة بالقيافة وبالآثار والعلامات لعبد المطلب جد النبيّ ـ ﷺ ـ حينما كفله بعد وفاة أمه آمنة: احتفظ بمحمد فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في مقام إبراهيم منه.

وتبعاً للترميم الكامل للكعبة المشرفة فقد تم ترميم مقام سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مكانه مع عدم تغيير في موقعه ولا بمقدار مليمتر واحد. وقد تم في هذا الترميم التغيير فقط للهيكل والقبة والهلال والكسوة الخرسانية للقاعدة على الشكل التالي:

١ ـ تم تغيير الهيكل المعدني المركب على مقام سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهيكل نحاسي جديد ذي جودة عالية، بالإضافة

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

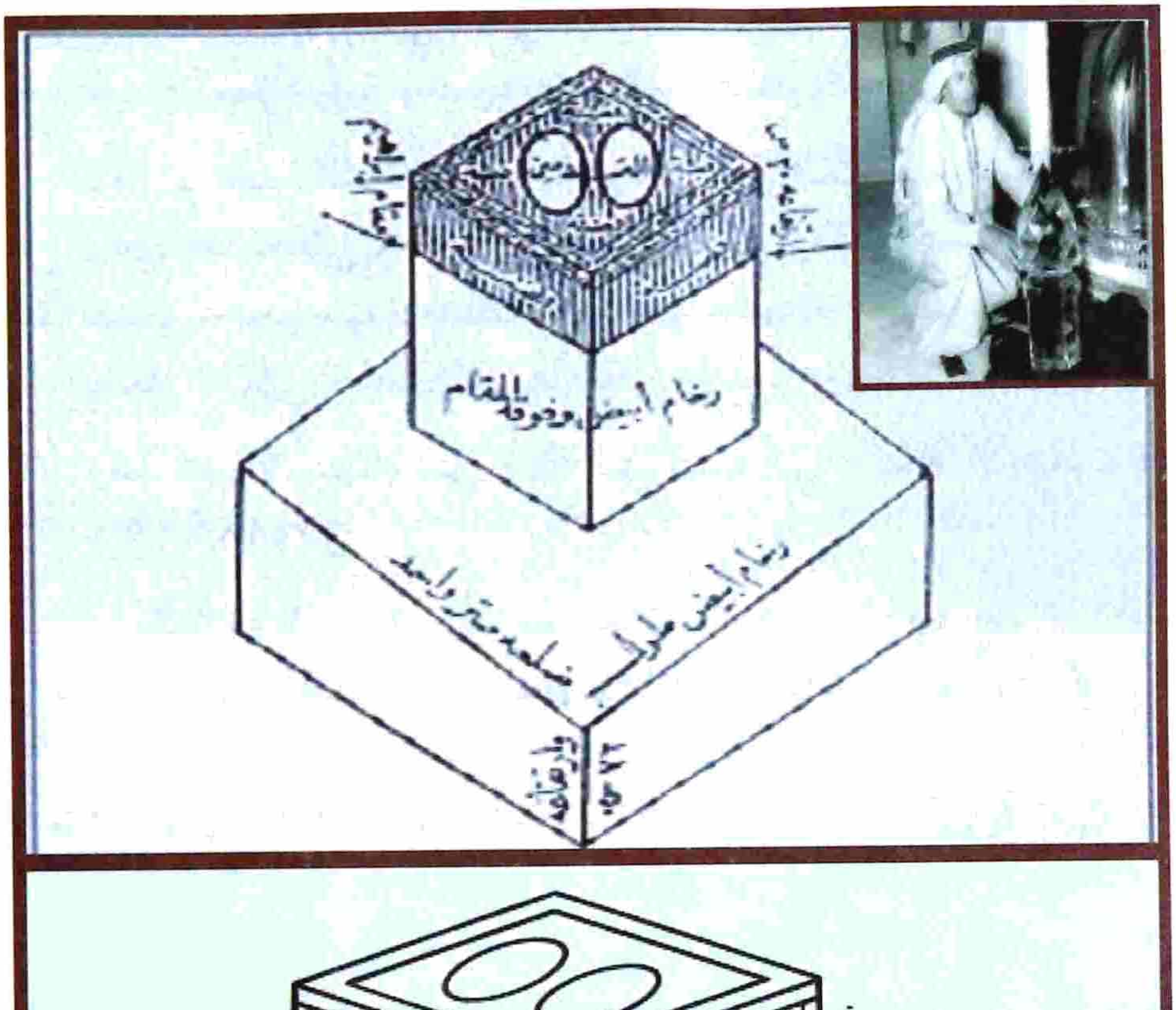
إلى أن شبكه الداخلي مطلي بالذهب ومن الخارج زجاج مقاس ١٠ مليمتر ليعطي رؤية واضحة ومن النوع المقاوم للحرارة والكسر.

٢ ـ كما تم تغيير كسوة القاعدة الخرسانية من الجرانيت الأسود ورخام وادي فاطمة إلى رخام كرار أبيض صافي ومحلى بجرانيت أخضر ليماثل حجر سيدنا إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وليصبح بشكل انسيابي بعد أن كان ذا شكل مضلع.

٣ ـ وقد تم الانتهاء من هذا الترميم في مساء الأربعاء في ١٤١٨/١٠/٢١هـ[١].

الشكل (م ١ ـ ٢٤ ـ أ، ب، جـ، د، هـ، و، ز، ح، ط) أدناه يبين مراحل مختلفة لمقام سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



رسم تقريبي لمقام إبراهيم وبيان لأبعاده

الشكل (م١ ـ ٢٣): مقام إبراهيم وبيان لأبعاده ومواد تثبيته بعد الترميم
ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، ص ٧٤، وانظر: موقع الحج والعمرة



الشكل (أ): صورة توضح الصندوق الحديدي المغطى لمقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام- والذي كان قبل الهيكل القديم الذي تم تركيبه في عام 1387 هـ الموافق 1967م

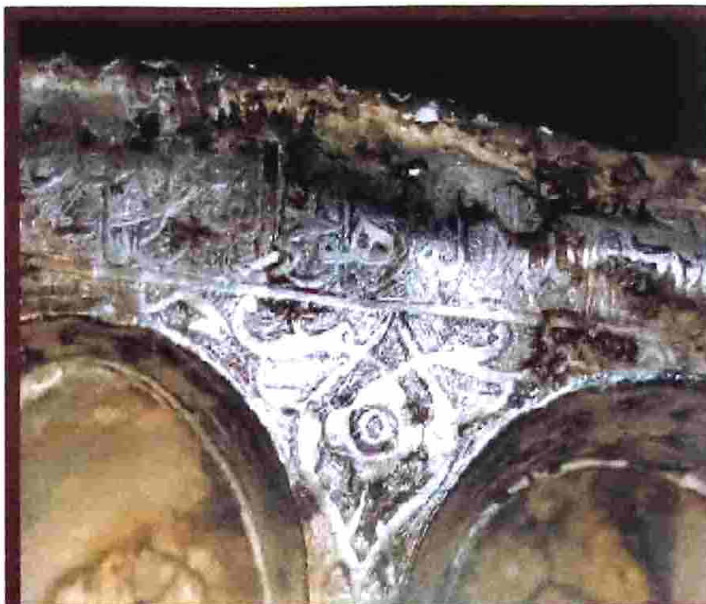


الشكل (ب): صورة توضح مقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بعد تركيب سطح القاعدة الرخامية الجديدة للمقام



الشكل (جـ): صورة توضح مقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بالخلفية الفضية السطحية الجانبية الملبسة به وذلك أثناء بناء القاعدة الخرسانية المحيطة بالمقام لتركيب الهيكل القديم عليه عام 1387 هـ الموافق 1967م

الشكل (م ١ ـ ٢٤ ـ أ، ب، جـ)



الشكل (د): صورة توضح جزءاً من الحلية الفضية المحيط بحجر مقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام- من الأعلى ويظهر في الصورة بداية آية الكرسي كما يظهر بعض النقش



الشكل (هـ): صورة توضح تركيب الحزام النحاسي -بعد طليه بالذهب- المثبت لقاعدة القبة الكرستالية المغطية لمقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام-

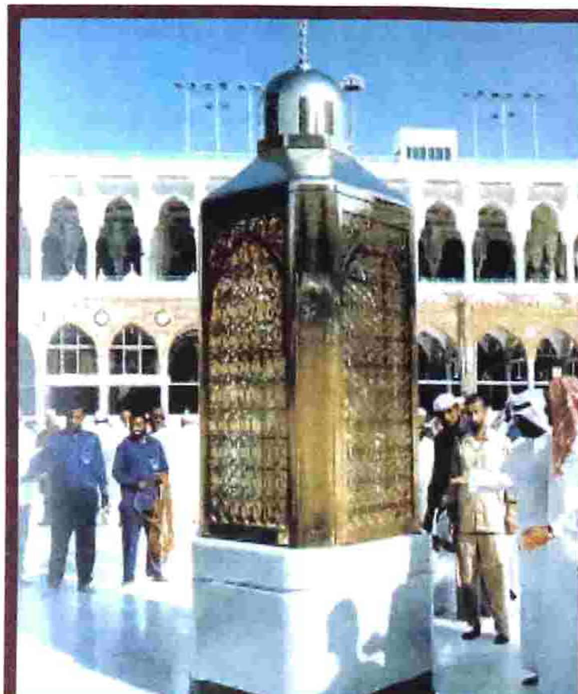


الشكل (و): صورة توضح القاعدة النحاسي للقبة الكرستالية المغطية لمقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام- داخل الهيكل ويظهر في الصورة مفتاح الكعبة داخل المخمل الأخضر

الشكل (م ١ ـ ٢٤ ـ د، هـ، و)

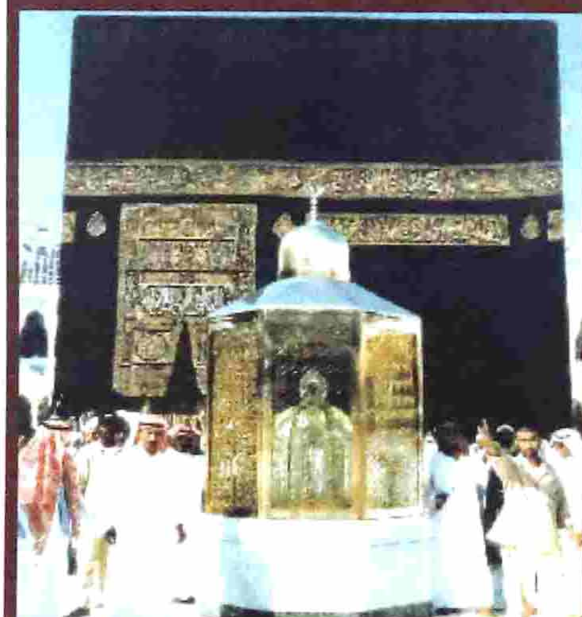


الشكل (ز): صورة جانبية كاملة لهيكل مقام سيدنا إبراهيم -عليه السلام - القديم مع القاعدة الجرانتية القديمة



لشكل (ح): صور جانبيةً كاملةً لهيكل مقام سيدنا إبراهيم -عليه لسلام -لجديد مع لقاعدة لرخاميةً لجديدة بعد الانتهاء تماماً من تركيب لهيكل لجديد

لشكل (ط): صورة توضح الكعبة المشرفة مع هيكل مقام سيدنا إبراهيم الجديدة بالقاعدة الرخامية الجديدة بعد إزالة الحاجز الخشبي المحيط بالمقام والانتهاء تماماً من عملية التركيب



الشكل (م ١ ـ ٢٤ ـ ز، ح، ط)

الشكل (م ١ ـ ٢٤ ـ أ، ب، جـ، د، هـ، و، ز، ح، ط):

مراحل مختلفة لترميم المقام الطاهر لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ

سادساً: المسرد التاريخي للمسعى:

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]، وجبل الصفا واقع أسفل جبل أبي قبيس مما يقابل ركن الحجر الأسود من الكعبة ومنه يبدأ السعي، أما المروة فهي واقعة جهة المدعى، وإليها ينتهي السعي، وجبلها يقع في أصل جبل قعيقعان.

٢ - السعي بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله سبحانه وتعالى علينا في محله المخصوص ولا يجوز العدول عنه.

٣ - أصل السعي عمل تعبدي لا نقاش في علته، ولكن بعضاً من حكمته قد تظهر للمتدبر لأصول التشريع، وربما كان جزء من الحكمة أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يرمز إلى علو إيمان أم إسماعيل - عليه السلام - لنتذكر دائماً قصتها فنسمو بإيماننا إلى درجة سموِّها بإيمانها حيث عبارتها المشهورة: (الله أمرك بهذا)، فأجابها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بنعم فقالت: (إذن لن يضيعنا). أجابت بذلك رغم أن القرائن تدل على أنها منطقة مضيعة، ولكنها أدركت قيومية الله في أوامره فأجابت بتلك العبارة الخالدة: (إذن لن يضيعنا).

٤ - لقد كان المسعى على عهد رسول الله - ﷺ - عريضاً، ثم بنيت بعض الدور بعد ذلك في بعض عرض المسعى القديم، فهدمها المهدي وأدخل بعضها في المسجد الحرام وترك بعضها للسعي فيه.

٥ - لقد كان في بداية الأمر على الصفا والمروة درج، وكان قد بناها عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس عامل أبي جعفر المنصور على مكة المكرمة، وقد كانت اثنتا عشرة درجة على الصفا وخمس عشرة درجة في المروة.

٦ ـ كان في المروة عقد بمثابة علم يحدد المروة ومكتوب في أعلاه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ الآية، وكذلك كان.

٧ ـ على الصفا عقد أيضاً، وكان يصعد إليها بدرج، وتاريخها يعود إلى ما قبل القرن الثالث الهجري.

٨ ـ كانت تنتهي درج الصعود إلى عقد الصفا والمروة بمصطبة واسعة للوقوف للدعاء وللدوران للرجوع ولاستراحة الضعفاء.

٩ ـ وفي إصلاح منطقة المسعى في عهد الملك سعود هدم عقد الصفا في **٢٤/١٠/١٣٧٧هـ**، وبنيت درجات من الإسمنت المسلح للصعود ودرجات للهبوط.

١٠ ـ طول المسافة بين الصفا والمروة (**٣٧٥** متر)، وذلك حسب قياس الخطاط محمد طاهر كردي بنفسه بعد التوسعة السعودية للمسجد الحرام التي كان المسعى من ضمنها.

١١ ـ كانت أرضية المسعى غير مستوية ومكان الرمل بين العلمين كان منحدراً يجبر الساعي على الإسراع، وحينما سويت أرضية المسعى أصبح من الضروري الاهتداء بالعلمين في مكان الرمل لأنه عمل تعبدي.

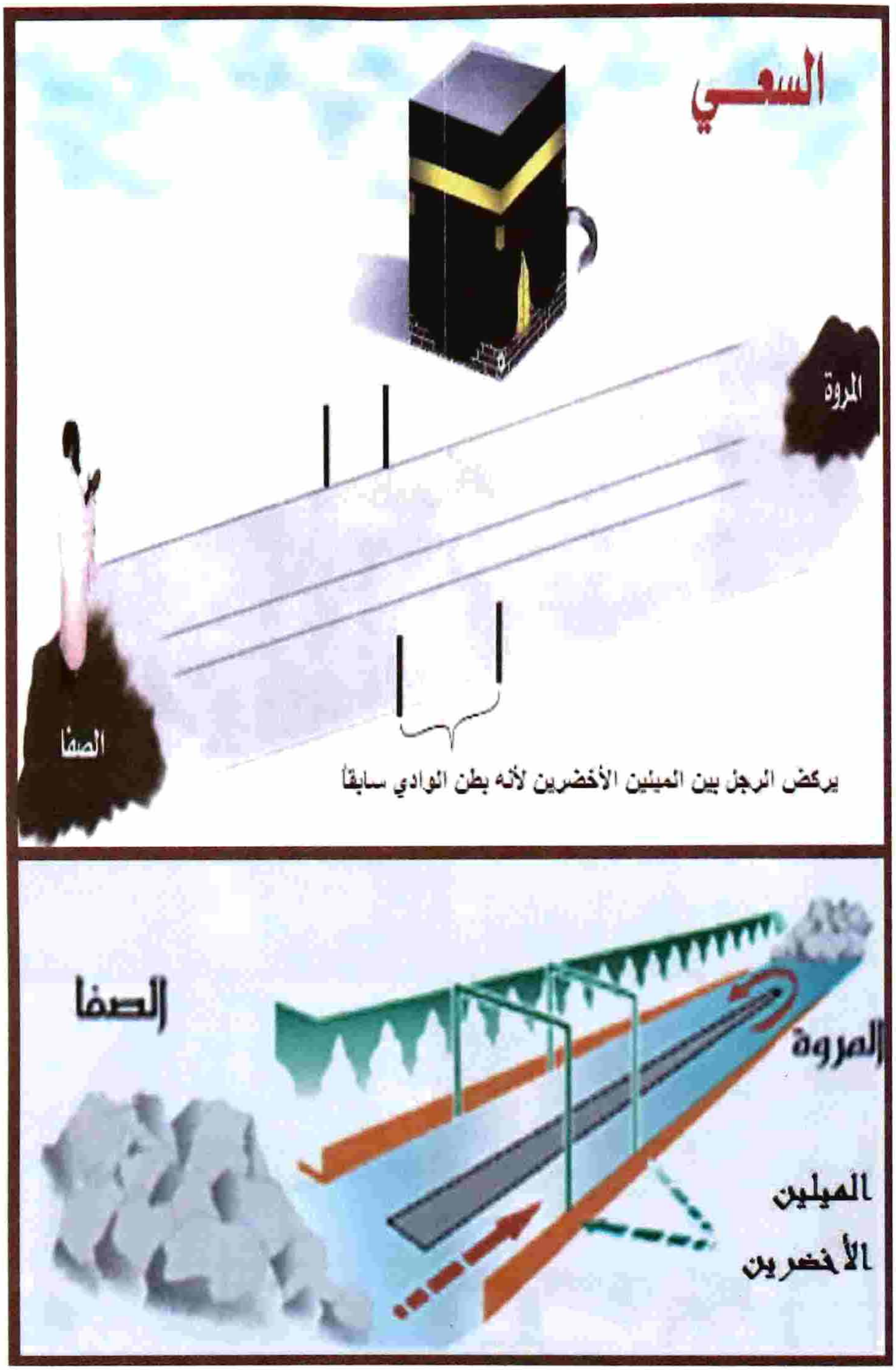
١٢ ـ الميلان الأخضران اللذان بالمسعى وضعا للعلامة على طلب الهرولة بينهما في السعي ذهاباً وإياباً، وحينما أريد هدمهما بتوسعة المسجد الحرام والمسعى هدم أحدهما عام **١٣٧٥هـ**، وظل الثاني ليكون هادياً للساعين، وحين أعيد وضعه في مكانه في عام **١٣٧٦هـ**، هدم الثاني ثم أعيد إلى مكانه، فبهذا أعيد وضع العلمين إلى مسامتة المحل الأصلي الذي كانا فيه.

١٣ ـ من استقراء أقوال المؤرخين يمكن استنباط أن العلمين الأخضرين

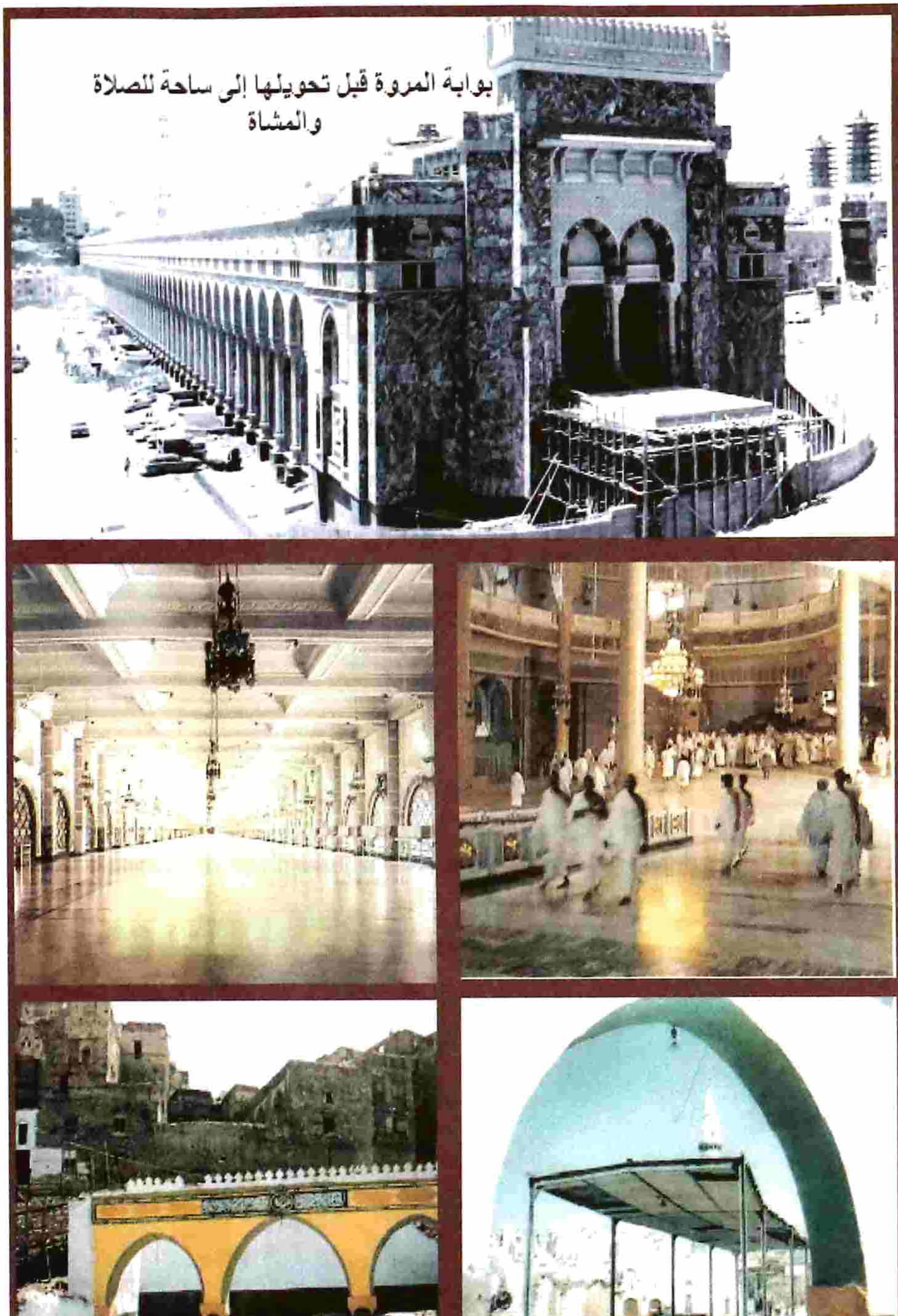
ليسا مستحدثين ولكنهما وضعا لغرضهما منذ القرن الأول الهجري هداية للناس لمواطن الرمل في السعي.

١٤ - لم يكن المسعى مظللاً حتى عام **١٣٤١**هـ، حيث أمر الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون بتظليل معظمه، ثم في عام **١٣٦٦**هـ، أمر الملك عبدالعزيز بتجديد سقيفة المسعى بصفة فنية محكمة بعرض **٢٠.٥** متر.

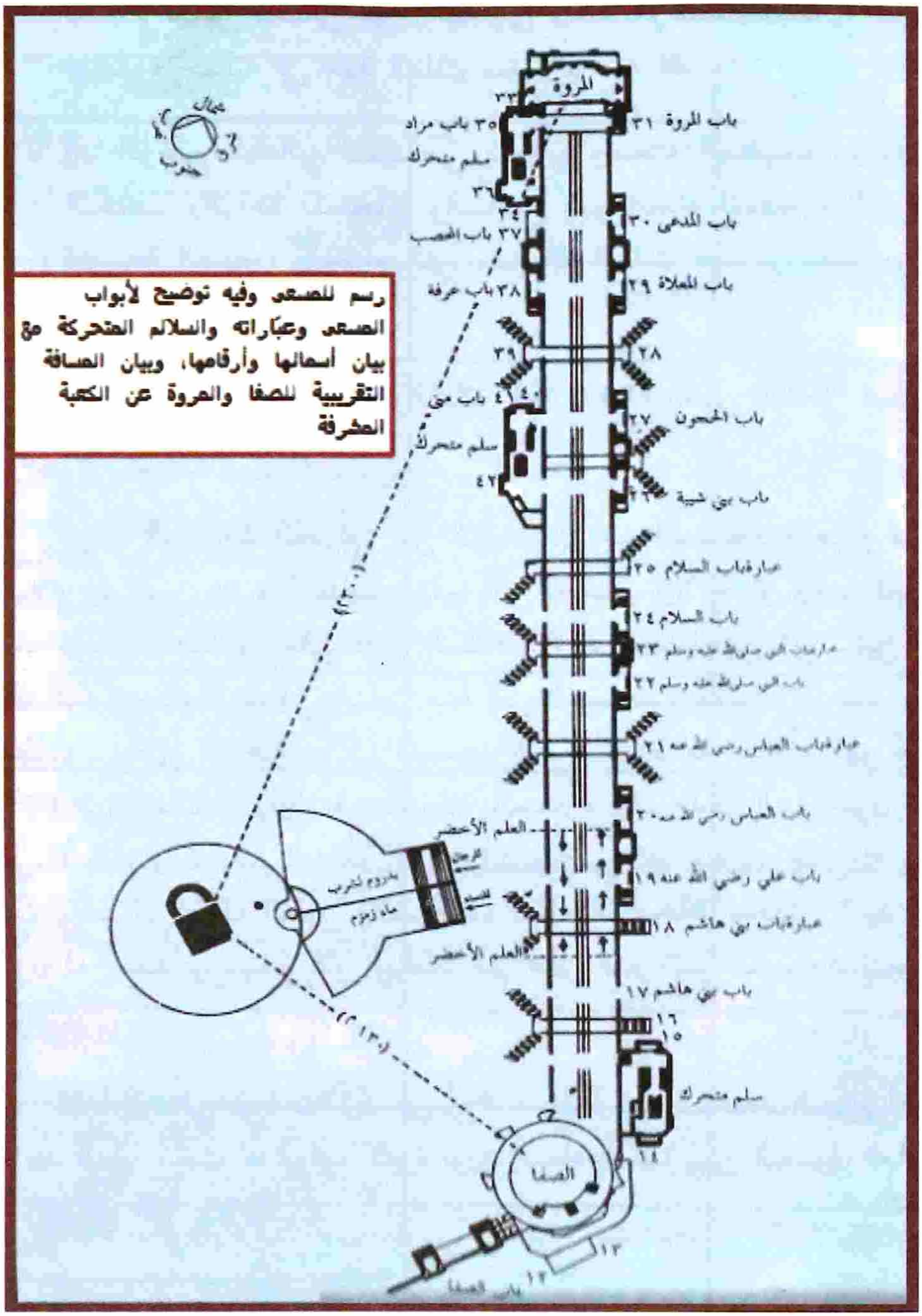
١٥ - فرش المسعى لأول مرة في تاريخه بالحجارة في عهد الملك عبدالعزيز بناءً على أمره الكريم عام **١٣٤٥**هـ، وذلك منعاً للضرر من الغبار الذي كان يؤذي الساعين وأصحاب الدكاكين حول المسعى.



الشكل (م١ ـ ٢٥): مخطط للمسعى بين جبلي الصفا والمروة



الشكل (م١ ـ ٢٦ ـ أ): بعض مراحل عمارة مسعى الصفا والمروة



الشكل (م١ ـ ٢٦ ـ ب): مخطط للمسقط الأفقي لمسعى الصفا والمروة وأبواب دخولها من الحرم مع المسافات للكعبة المشرفة ومواضع السلالم العادية والمتحركة فيه ـ عن كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، ص ٦٨ ـ

١٦ ـ لقد تم تعمير المسعى من أرضه إلى سقفه بالإسمنت المسلح كاملاً وبصورة جمالية في عهد الملك سعود يرحمه الله.

١٧ ـ أما الوضع الحالي للمسعى بدوريه وسعته العظيمة ووسائل التكييف والراحة للحجاج والساعين فهو امتداد للمفخرة الكبرى لتوسعة المسجد الحرام التي وفق الله الملك فهد بن عبدالعزيز لإنجازها[١].

يبيِّن الشكل (م١ ـ **٢٥**) والشكل (م١ ـ **٢٦**) بعض مراحل عمارة مسعى الجبلين الصفا والمروة.

أبواب المسجد الحرام: من الثابت أن حد المسجد الحرام قبل الإسلام هو نفس دائرة المطاف، ولم يكن له سور ولا جدار وإنما كانت بيوت قريش تحيط به على دائرة المطاف. وقد جعلوا بين كل بيتين أو ثلاثة ممراً ومنفذاً يدخل الناس منه إلى المسجد، فلما زاد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، في المسجد الحرام أحاط به جداراً، فهو أول من زاد في المسجد وأول من أحاطه بالجدار، ولم يذكر المؤرخون أنه عمل له باباً. ولكن من البداهة القول بأنه ـ رضي الله عنه ـ، عمل له باباً حيث يعلم من دلالة العمل بالضرورة، فما كان محاطاً بجدار لا بد أن يكون له منفذ والمنفذ هو الباب، ثم على قدر كبر المسجد تتعدد الأبواب.

فلما زيد في مساحته زيد في أبوابه، ولما كان المسجد الحرام أكبر مساجد الدنيا كانت له أبواب كثيرة نورد أسماءها كما يبين الجدول (م١ ـ ١) والشكل (م١ ـ **٢٦**)[٢].

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

(٢) نفس المصادر السابقة.

الجدول (م١ ـ ١): تفاصيل الأبواب للمسجد الحرام

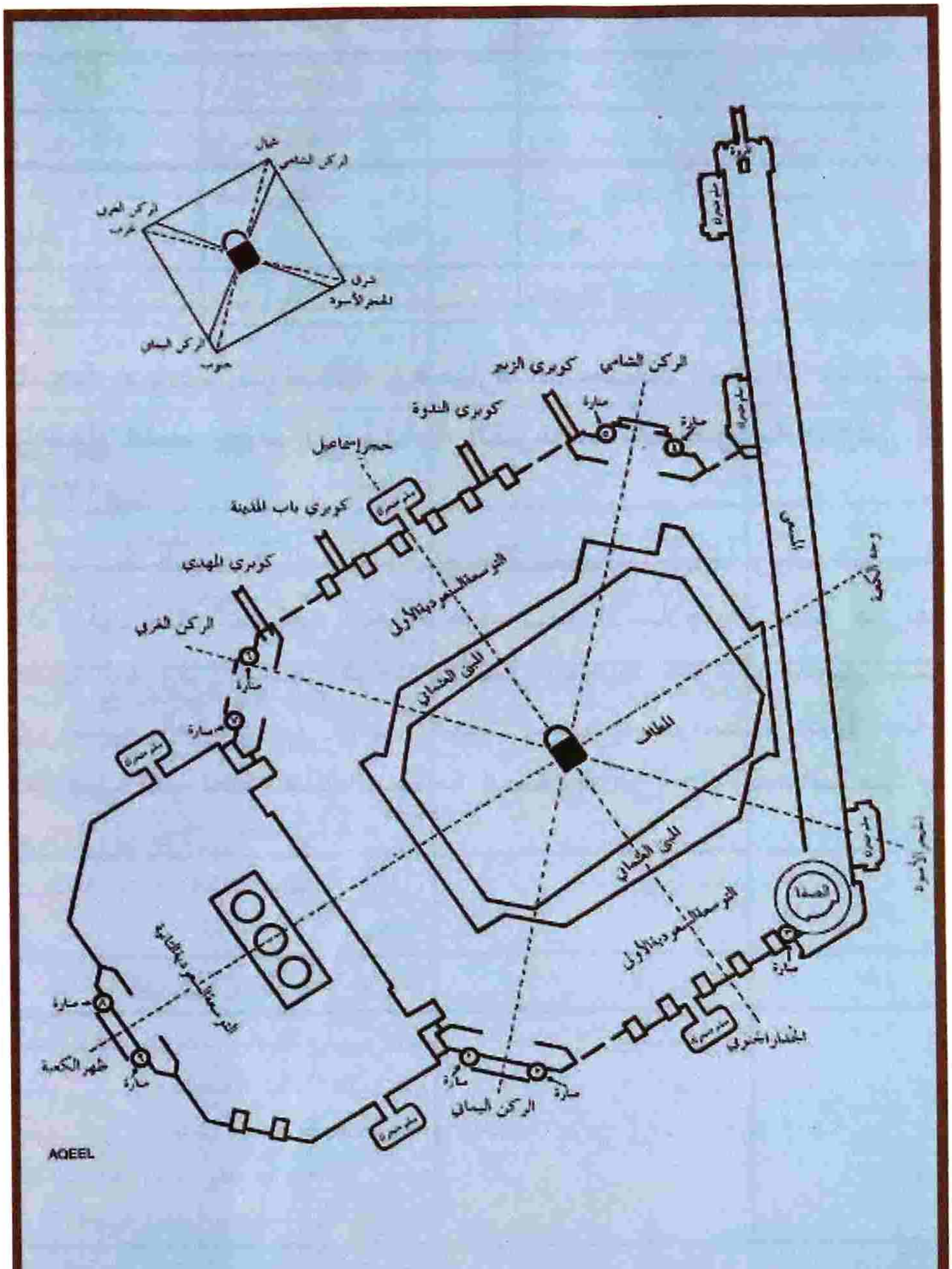
التسلسل	اسم الباب	ملاحظات
١	باب السلام	ولا ندري لماذا سمي بذلك، مع أن باب بني شيبة الذي أمام مقام إبراهيم هو باب السلام قديماً.
٢	باب قايتباي	وبه مئذنة السلطان قايتباي، سلطان مصر سابقاً، وكان يقال له: (باب القوارير).
٣	باب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ	سمي بذلك لأن النبيّ ـ ﷺ ـ كان يخرج منه ويدخل فيه من منزله بزقاق العطارين، وهو منزل خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، ويسمى باب الجنائز لأنها كانت سابقاً تخرج منه، ويقال له: باب النساء، ويقال له: باب الحريريين، لبيع الحرير في الدكاكين التي كانت بجواره.
٤	باب العباس	وهو ابن عبد المطلب سمي به لأنه يقابل داره التي بالمسعى.
٥	باب علي	ويعرف بباب بني هاشم، وبباب البطحاء أيضاً.
٦	باب بازان	ويقال له: باب بني عائذ كما سماه الأزرقي، ونحن نسميه: باب القرة قول، أو باب مخفر الشرطة.
٧	باب البغلة	يقال له: باب بني سفيان كما عرفه الأزرقي.
٨	باب الصفا	سمي بذلك لأنه يقابله، ويقال له: باب بني مخزوم، وباب أجياد الصغير.
٩	باب أجياد	سمي بذلك لأنه يخرج منه إليها على خط مستقيم.
١٠	باب الرحمة	ويقال له: باب المجاهدية، لأن عنده مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن، ويسمى أيضاً: بباب أجياد.

التسلسل	اسم الباب	ملاحظات
١١	باب التكية	أي: التكية المصرية لأنه أمامها، ويقال له: باب الشريف عجلان، وباب بني تيم.
١٢	باب أم هانئ	وهي ابنة أبي طالب، ويقال له: باب الحميدية (وهي دار الحكومة)، ويقال له أيضاً: (باب أجياد الكبير).
١٣	باب الوداع	ويقال له: باب الحزورة، وباب الحزامية، وباب بني حكيم بن حزام.
١٤	باب إبراهيم	سمي باسم رجل خياط كان عنده اسمه إبراهيم.
١٥	باب صغير	بمدرسة الشريف عبد المطلب.
١٦	باب الداودية	سمي بذلك لأنه يدخل إلى المسجد من مدرسة الداودية.
١٧	باب العمرة	وسمي بذلك لأن المعتمر من التنعيم يرجع من طريق الشبيكة فيدخل المسجد الحرام من هذا الباب غالباً لقربه، ويقال له: باب بني سهم، وباب بني جمح.
١٨	باب العتيق	ويقال له: باب السدة، وباب عمرو بن العاص.
١٩	باب الزمامية	وهو بين باب العتيق وباب الباسطية.
٢٠	باب الباسطية	سمي بها لاتصاله بمدرسة عبدالباسط، ويقال له: باب العجلة، وسمي بذلك لدار كانت عنده بناها ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ، على عجل فكانت تبنى بالليل والنهار حتى فرغ منها سريعاً.
٢١	باب القطبي	وهو في جانب رحبة باب الزيادة. وكان يقال له أيضاً: باب الزيادة. والقطبي المنسوب إليه هو عبدالكريم القطبي.
٢٢	باب الزيادة	ويقال له: باب سويقة لأنه يخرج منه إليها.

التسلسل	اسم الباب	ملاحظات
٢٣	باب المحكمة	سمي بذلك لأنه يؤدي إليها.
٢٤	باب الكتبخانة	ومنه يدخل إلى مكتبة المسجد الحرام.
٢٥	باب دريبة	سمي بذلك لأن درباً صغيراً ينفذ إلى سويقة.
٢٦	باب مراد	وهو الذي عند المروة.

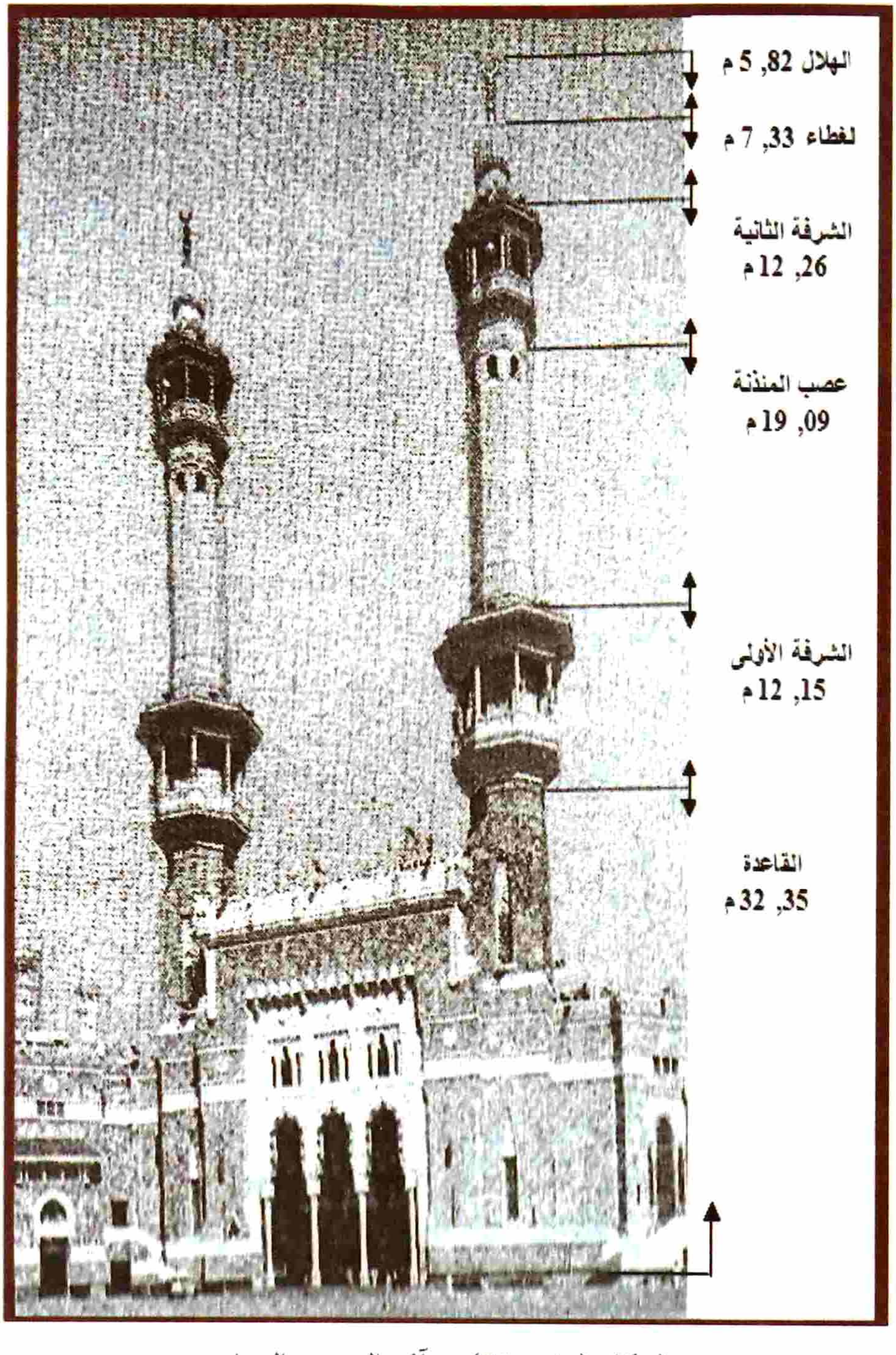
سابعاً: موجز توسعة وعمارة المسجد الحرام منذ عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى نهاية التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٩٦هـ:

يرتبط المسجد الحرام بالكعبة المعظمة ارتباطاً وثيقاً منذ بنائها الأول، فإن حد المسجد الحرام منذ صدر الإسلام وما قبله هو نفس المطاف المفروش بالحجر الرخام الأبيض المحيط بجوانب الكعبة المشرفة الذي نسميه بالصحن قبل توسعة الملك سعود له، ومعظمنا أدرك مساحته ورآها قبل التوسعة، هذه المساحة الصغيرة هي حد المطاف منذ بناء الكعبة لأول مرة.



رسم يوضح الاتجاه لأركان الكعبة المشرفة، والمطاف، وموقع المبنى العثماني والتوسعة السعودية الأولى والثانية، والمسعى، ومواقع السلالم السبعة المتحركة، ومواقع المنائر السبع.

الشكل (م١ ـ ٢٧): ملخص التوسعات للمسجد الحرام عبر التأريخ
ـ عن كتاب تاريخ مكة قديماً وحديثاً، ص ٨٨ ـ



الشكل (م١ ـ ٢٨): مآذن المسجد الحرام
ـ عن كتاب تاريخ مكة قديماً وحديثاً، ص ٩٧ ـ

وهي نفسها أيضاً حد المسجد الحرام منذ العصور الغابرة، وإلى حده كانت منازل قريش، فكانت منازلهم محيطة بالمسجد كأنها جداره وبينها فتحات توصل إليه وإلى الكعبة، حيث لم يكن للمسجد جدار يحيط به.

ثم إن المسجد الحرام ضاقت مساحته الصغيرة على الناس في صدر الإسلام لانتشار الإسلام، فحصلت فيه عدة مرات من الزيادات والتوسعة من عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى يومنا هذا، وها نحن نحصي تلك المرات كما يأتي:

١ ـ زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سنة **١٧هـ**، زاد فيه بعد أن انتهى من وضع حجر مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ في موضعه الموجود فيه اليوم بعد أن ذهب به سيل أم نهشل إلى أسفل مكة، فاشترى أمير المؤمنين دوراً من تلك الدور التي تلاصق المسجد الحرام وهدمها وأدخل أرضها فيه، وبذلك توسع المسجد نوعاً ما، ثم بنى عمر ـ رضي الله عنه ـ حائطاً على المسجد دون القامة وجعل فيه أبواباً، فكانت المصابيح التي تضيء المسجد توضع على هذا الحائط. فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ أول من وسع المسجد وزاد فيه، وأول من أحاطه بالجدار، وأول من فرشه بالحصباء. وقدرت مساحة زيادته بـ **١٤٠٠** متر مربع تقريباً.

٢ ـ زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ سنة **٢٦هـ**، فقد ضاق المسجد الحرام على المصلين، فاشترى عثمان ـ رضي الله عنه ـ من الدور الملاصقة للمسجد وهدمها وأدخل أرضها فيه، ولما لم يكن للمسجد رواق فإنه ـ رضي الله عنه ـ جعل له أروقة يستظل الناس تحتها. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **١٤٧٥** متراً مربعاً تقريباً.

٣ ـ زيادة عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ سنة **٦٥هـ**، فإنه في خلافته بعد أن انتهى من بناء الكعبة المشرفة عمَّر المسجد وزاد فيه

زيادة كبيرة بالنسبة للزيادتين السابقتين، فاشترى دوراً وهدمها وأدخل أرضها في المسجد، ومن ضمنها بعض دار الإمام الأزرقي صاحب تاريخ مكة ببضعة عشر ألف دينار، إذ كانت لاصقة به. فكانت مساحة المسجد الحرام مع زيادة ابن الزبير مساحة كبيرة استوجبت أن يسقف جزءاً منها. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **٣٢٢٥** متراً مربعاً.

٤ ـ زيادة الوليد بن عبدالملك بن مروان سنة **٩١**هـ، فإنه أمر بتوسيع المسجد الحرام وعمارته عمارة متينة محكمة قوية، وأحضر له أساطين الرخام من مصر والشام وجعل على ر ؤوسها صفائح الذهب، وسقف المسجد بالساج المزخرف، وجعل له شرفات، وجعل في حائطه الطيقان (العقود)، وجعل في أعلى العقود الفسيفساء، فكانت زيادة الوليد من الجهة الشرقية. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **١٧٢٥** متراً مربعاً.

٥ ـ زيادة أبي جعفر المنصور سنة **١٣٧**هـ في شهر محرم، فإنه أمر عامله على مكة زياد بن عبدالله الحارثي بتوسيع المسجد الحرام فزاد في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة، وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة ومنها على خط مستقيم من الجهة الغربية إلى ما يلي باب إبراهيم على حد الحصوة كما ذكر المرحوم الشيخ حسين باسلامة. وقد زاد في المسجد كثيراً عما كان عليه من قبل وزخرفه بالذهب والفسيفساء، وألبس حجر إسماعيل بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه ـ فكان أبو منصور أول من ألبسه بالرخام المرمر، وقد استدام هذا العمل ثلاثة أعوام ـ فقد بدئ فيه في السُّنة المذكورة وانتهى منه في ذي الحجة سنة **١٤٠**هـ، وفي هذه السُّنة حج أبو جعفر المنصور وبذل الأموال العظيمة رحمه الله. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **٤٩٥٠** متراً مربعاً.

٦ ـ زيادة محمد المهدي العباسي سنة **١٦٠** وسنة **١٦٤**هـ، أي وسع

المسجد مرتين، وتوسعته وزيادته فيه تعادل جميع زيادات من تقدمه حتى صار بوضعه الحالي إلى اليوم، ما عدا زيادة باب إبراهيم وزيادة باب الزيارة. (ففي المرة الأولى) لما حج ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٦٠هـ، وأتى بالأموال العظيمة التي قدرت بثلاثين ألف ألف درهم استدعى قاضي مكة يومئذ محمد الأقوص المخزومي وأمره أن يشتري دوراً في أعلى المسجد الحرام ويهدمها ويدخل أرضها فيه، فاشترى القاضي جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعى من الدور فما كانت من الأوقاف والصدقات (كالأربطة، ويطلق عليه: المصريون التكايا) اشترى للمستحقين بدلها دوراً في فجاج مكة، فكان مما أدخل فيه من الدور ما بقي من دار الأزرقي الذي كما ذكرنا من أن ابن الزبير اشترى بعضها وأدخله في المسجد الحرام حينما زاد فيه، وأدخل المهدي في المسجد كثيراً من الدور الشهيرة في الجانب الشرقي. وكذلك اشترى كثيراً من الدور من الجانب الغربي وأدخلها في المسجد الحرام، وكذلك زاد من الجانب الشمالي والجانب الجنوبي. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ ٨٣٨٠ متراً مربعاً.

(وفي المرة الثانية) لما حج المهدي سنة ١٦٤هـ، رأى أن المسجد الحرام لم يكن مربعاً تمام التربيع وأن الكعبة المشرفة لم تقع بوسطه، فجمع المهندسين ومهرة البنائين وأمرهم أن يربعوا المسجد بحيث تكون الكعبة المشرفة بوسطه تماماً فاعتذروا باستحالة هذا الأمر وصعوبة تنفيذه لأن الجهة الجنوبية ـ التي لم يتمكنوا من توسيع المسجد من ناحيتها ـ بها مجرى سيل وادي إبراهيم وخلف المجرى دور ومنازل، ففي هدم هذه الدور وتحويل المجرى إلى أرضها قد لا يكون من السهل الميسور وربما لا يثبت أساس البناء، فأصر أمير المؤمنين محمد المهدي رحمه الله وأحسن مثوبته على تنفيذ رغبته، وقال لهم: لا بد من ذلك ولو أنفقت جميع بيوت الأموال وصمم على ذلك تصميماً قوياً، فلما رأى المهندسون قوة عزم أمير المؤمنين نزلوا على إرادته وعملوا على تنفيذ أمره بهمة

ونشاط وشمروا عن ساعد الجد بنية صادقة وإخلاص كبير، فقاموا بتحويل مجرى سيل وادي إبراهيم عن موضعه بأن نصبوا الرماح على أسطحة الدور من أول الوادي إلى آخره، وبينوا ما يهدم من البيوت والدور وموضع المسعى ومحل السيل، وعملوا كل ما من شأنه أن يربع المسجد الحرام وأن تكون الكعبة المشرفة بوسطه، فلما شاهد المهدي ـ رحمه الله ـ رسم ذلك واطمأن إلى تنفيذ رغبته على الوجه الأكمل، توجه إلى العراق وخلف أموالاً عظيمةً لشراء البيوت وقيام العمارة ـ وبذلك صارت هذه التوسعة أضعاف ما تقدم من الزيادات ولا يزال المسجد الحرام على هذه التوسعة المربعة إلى اليوم، وما حصل من الزيادتين الصغيرتين في المسجد بعده إنما هما خارجتان من التربيع. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **٦٥٦٠** متراً مربعاً.

٧ ـ زيادة المعتضد بالله العباسي سنة **٢٨١هـ**، فإنه أمر بإدخال دار الندوة في المسجد الحرام وكانت محلها رحبة باب الزيادة وعمرها بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف، وفتح لها اثني عشر باباً بستة عقود كبار وبينهم ستة صغار وبنى فيها منارة، وقد فرغ من ذلك في ثلاث سنين. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **٢٥٠٠** متر.

٨ ـ زيادة المقتدر بالله العباسي سنة **٣٠٦هـ**، فإنه أمر بتوسعة المسجد الحرام بإدخال باب إبراهيم وما يتبعه من الرواق، وسمي بذلك باسم خياط كان يجلس عنده، وأيضاً جدد المقتدر بالله أنصاب الحرم. وقدرت مساحة الزيادة فيه بـ **٩٨٠** متراً مربعاً.

هذه خلاصة أمر توسعة المسجد الحرام والزيادة فيه، ثم لم يحدث منذ أكثر من ألف سنة أن عمل أحد في توسعته أو الزيادة فيه مطلقاً، هذا ما كان من أمر التوسعة قديماً.

ومن المهم أن نعلم بأن مساحة المطاف الذي هو المسجد الحرام القديم من قبل الإسلام هي **٢٠٠٠** ألفان من الأمتار المربعة، والمطاف

بيضاوي الشكل تقريباً. ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن معرفة ما زاده عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المسجد وحده، أو زاده عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فيه وحده من المتعذر معرفته معرفة مضبوطة.

الشكل (م١ ـ ٢٧) يبين ملخص التوسعات المتعاقبة على المسجد الحرام خلال الفترات المتعاقبة، أما الشكل (م١ ـ ٢٨) فيبين ارتفاعات المنائر للمسجد الحرام بعد التوسعة السعودية الأولى(١).

ثامناً: المسجد النبوي الشريف وعناصره ومتعلقاته عبر التاريخ لغاية التوسعة السعودية له:

المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ: إن موضوع هذا الجزء هو مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، تأسيسه وتوسعاته وتطور بنائه ومدى اهتمام الأمراء والسلاطين والملوك به، وما كتب في بدايته مما يتعلق بالمدينة المنورة بعامة إنما هو مقدمة وتوطئة ضرورية لموضوع الحديث عن مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، ولا شك أن هذا المسجد الشريف هو من ثمار هجرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ذاك لأن هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة تعني نشأة أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الإسلامية بإشراف منشئها الأول سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ولذا فقد كان أول عمل قام به الرسول ـ ﷺ ـ، أن أقام الأسس الهامة لهذه الدولة، ولقد كانت هذه الأسس ممثلة في الأعمال الثلاثة التالية:

١ ـ بناء المسجد.

٢ ـ المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٣ ـ كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم، وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة.

وسنقتصر الكلام على الأساس الأول الذي هو بناء المسجد.

عندما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى داخل المدينة بركت ناقته في موضع كان لغلامين يتيمين من الأنصار من بني مالك بن النجار هما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم، وكانا تحت كفالة معاذ بن عفراء أو أبو أمامة سعد بن زرارة أو كليهما، وكان أسعد بن زرارة قد اتخذه مصلى قبل هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فكان يصلي بأصحابه فيه. فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبنى ذلك الموضع مسجداً، ودعا الغلامين فساوم رسول الله ـ ﷺ ـ فيه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير. وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالقبور فنبشت، وبالنخيل والشجر فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره ٧٠ ذراعاً، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، ثم بنوه باللبن، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم الحجارة بنفسه، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد. وقيل له: ألا نسقفه؟ فقال: «**عريش كعريش موسى: خشيبات وثمام** ـ نبت ضعيف قصير ـ **الشأن أعجل من ذلك**»، أما أرضه فقد فرشت بعد ذلك بالرمال والحصباء.

وروى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، أنه ـ ﷺ ـ كان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم، قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فجاؤوا، فقال: «**يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله**». فقال أنس: فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد قال: وجعلوا عضادتيه حجارة وجعلوا ينقلون

الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ـ ﷺ ـ معهم وهو يقول: «**اللَّهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة**». ثم وسعه رسول الله ـ ﷺ ـ بعد عودته من خيبر، وكثر المسلمون فصار مائة ذراع طولاً ومثل ذلك عرضاً.

وقد ظل مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ على هذا الشكل دون أي زيادة أو تغيير على عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ. وقبل أن نتحدث عن التطور العمراني له، نود أن نذكر لفتة جوهرية حول بناء المسجد قبل كل شيء لنعرف عبر ودلائل هذا الاتجاه[١].

نأخذ من هذا الذي ذكرناه دلائل هامة نجملها فيما يلي:

١ ـ مدى أهمية المسجد في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية: فقد أقبل رسول الله ـ ﷺ ـ بمجرد وصوله إلى المدينة المنورة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامي راسخ متماسك. يتألف من هؤلاء المسلمين، الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة. فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب. فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزامات نظام الإسلام وعقيدته وآدابه. وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه.

٢ ـ إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين. ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد. فما لم يتلاق المسلمون يومياً على مرات متعددة في بيت من بيوت الله وقد تساقطت مما بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تؤلف بينهم.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٣ ـ إن من نظام الإسلام وآدابه، أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم. ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدي الله عز وجل. وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية له، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله. ومهما انصرف كل مسلم إلى بيته يعبد الله يركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع في العبادة، فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب في المجتمع على معاني الأثرة والتعالي والأنانية.

٤ ـ وإن من نظام الإسلام وآدابه أن ينصهر أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه، ولكن ما لم تقم في أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها عن معرفة وعلم فإن وحدتهم تؤول إلى شتات، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء، فمن أجل تحقيق هذه المعاني كلها في مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة أسرع رسول الله ـ ﷺ ـ قبل كل شيء إلى بناء هذا الصرح الشامخ والأساس المتين (المسجد النبوي الشريف)[(١)].

تطور التوسعات للمسجد النبوي الشريف منذ خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وحتى التوسعة الفهدية الكبرى: قلنا: إن مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ ظل على شكله دون زيادة أو تغيير فيه على عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ. أما الزيادات والتوسعات فيه فقد بدأت من عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، واستمرت حتى عصرنا الحاضر. وإذا أردنا أن نتحدث عن التطور التفصيلي لعمارة المسجد النبوي الشريف خلال هذه الحقبة التاريخية الطويلة فإن الموضوع

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

يحتاج إلى مؤلف ضخم، ثم لن تكون العملية بعد ذلك أكثر من تكرار لما تناثر في الكتب.

لقد تناولنا معظم الكتب التي اهتمت بموضوع عمارة المسجد النبوي الشريف، فوجدنا منها ما هو مطول في فترة وموجز في أخرى بصفة عامة إيجازاً يقصر عن تمام الفائدة، أو مطولاً إطالة قد لا يحتاج إليها كثير من القراء. لذا وجدت أنه من المفيد جداً أن أختصر الموضوع على شكل مسرد موجز لتاريخ المسجد النبوي الشريف وما يلحقه من عناصر اختصرته من عدة مراجع، كلها آخذة من بعض، فاقتفيت أثر بعضها وقدمته على غيرها والفضل في جميعها يعود للسابقين.

ووصلت بهذا المسرد الموجز إلى بداية التوسعة الفهدية الكبرى فتوسعت في الحديث عنها، ذلك لأن ما قبل التوسعة الفهدية أوسعته الكتب طرحاً وإيضاحاً وبحثاً وتحقيقاً، فكان الواجب أن تأخذ التوسعة الفهدية نفس المساحة من الطرح التاريخي والعمراني[١]. وسنوجز هذا المسرد فيما يلي:

حدود المسجد النبوي:

١ ـ الدرابزينات النحاسية الصفر الآخذة من شرق إلى غرب التي تبعد عن المنبر النبوي ذراعاً واحداً أو أكثر قليلاً هي في موضع جدار المسجد القبلي الذي بناه ـ ﷺ ـ.

٢ ـ الأساطين الشمالية في عمارة السلطان عبدالمجيد العثماني المشرفة على رحبة المسجد النبوي الآخذة من شرق إلى غرب المسامتة لعضادة باب النساء هي موضع الجدار الشمالي الذي بناه الرسول ـ ﷺ ـ.

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٣ ـ موقع الحائط الشرقي هو بعد أربعة أذرع من الأسطوانة الخامسة من يمين المنبر الشريف جهة الشرق داخل شباك الحجرة النبوية الشريفة، أي: أن جزءاً من الروضة داخل في شباك الحجرة النبوية الشريفة.

٤ ـ أما الحائط الغربي، فموقعه في موضع الأساطين الممتدة من الشمال للجنوب المكتوب في علوها (حد مسجد النبيّ ـ عليه السلام ـ) داخل عقد مذهب منحوت. . . وهذه الأساطين تسامت الأسطوانة الخامسة بعد المنبر الشريف جهة الغرب.

٥ ـ كل ما يزاد في المسجد النبوي هو من المسجد النبوي الشريف.

٦ ـ حين بنى الرسول ـ ﷺ ـ مسجده لأول مرة كانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعل له أبواباً ثلاثة شرقياً وغربياً وجنوبياً. ولما تحولت الصلاة إلى الكعبة المشرفة فتح باباً في الشمال وسد الباب الجنوبي.

٧ ـ الباب الشرقي، ويسمى باب آل عثمان، وباب النبي، وباب جبريل، وموضعه عند دخولك من باب جبريل قبل نهاية ضلع الحجرة الشمالي بأربعة أو خمسة أذرع تقريباً في امتداد شمالي جنوبي.

٨ ـ الباب الغربي هذا الباب كان يسمى باب عاتكة قديماً ويسمى الآن باب الرحمة، وإذا دخل منه الإنسان من باب الرحمة وسار إلى الشرق مستقيماً ووقف بحذاء آخر أسطوانة مكتوب عليها في أعلاها كما تقدم (حد مسجد النبيّ ـ عليه السلام ـ) كان واقفاً في موضع باب عاتكة الذي فتحه رسول الله ـ ﷺ ـ في مسجده في الجدار الغربي.

٩ ـ الباب القبلي (الجنوبي)، اسمه باب آل عمر ويقع في الجدار القبلي في القسم الشرقي منه الواقع بين مصلى رسول الله ـ ﷺ ـ والحجرة المطهرة، وقد يكون في مكان الزاوية الغربية الجنوبية لشباك الحجرة اليوم كما وصفه المؤرخون.

١٠ ـ وقد سد الرسول ـ ﷺ ـ هذا الباب وفتح بدله باباً في الشمال عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

١١ ـ الباب الشمالي: ذكرت عن الباب القبلي أنه كان في مكان الزاوية الغربية الجنوبية للشباك الدائر على الحجرة النبوية الشريفة، والباب الشمالي فتحه رسول الله ـ ﷺ ـ بحذاء الباب القبلي في الجدار الشمالي للمسجد الذي سبق وصفه. أي: يطل على رحبة الشمسيات الأولى.

١٢ ـ المحراب النبوي (مصلى الرسول الكريم إلى الكعبة): لا يوجد محراب في المسجد النبوي في عهده ـ ﷺ ـ ولا في عهد خلفائه الراشدين، وأول من أحدث المحراب المجوف في المسجد النبوي الشريف هو عمر بن عبدالعزيز في عمارة الوليد بن عبدالملك للمسجد النبوي سنة **٨٨ ـ ٩١هـ**، كما نقله الجلال السيوطي في أوائله ونقل في نزهة الناظرين للسيد البرزنجي. والمحراب الموجود الآن هو من عمارة الأشرف قايتباي ومصلى رسول الله ـ ﷺ ـ للكعبة، يقع في الطرف الغربي لتجويفه المحراب، فاجعل التجويفة في يسارك وقف بينك وبين المنبر الشريف مقدار **١٤** ذراعاً وشبراً تكن في موقف الرسول ـ ﷺ ـ في الصلاة(١).

مصلى النبيّ إلى بيت المقدس في المسجد النبوي: صلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بيت المقدس مدة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفت القبلة إلى الكعبة المشرفة. وليس في المسجد اليوم موضع يعرف بمصلاه ـ عليه السلام ـ إلى بيت المقدس، ونحرص أن نعين ذلك إن شاء الله: ضع أسطوانة السيدة عائشة خلف ظهرك وسر باستقامة جهة الشمال فإذا حاذيت باب جبريل وكان على منكبك الأيمن فقد وقفت في

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

مصلى النبيّ الكريم إلى بيت المقدس حسبما ذكره المؤرخون. (انظر: الشكل م١ ـ ٢٩).

مصلى النبيّ عند أسطوانة السيدة عائشة: قبل أن يتقدم النبيّ الكريم إلى مصلاه الدائم عند المحراب الذي وصفناه صلى رسول الله ـ ﷺ ـ بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بالمسلمين إلى أسطوانة السيدة عائشة بضعة عشر يوماً، ثم تقدم إلى مصلاه عند المحراب. وسيأتي تعيين موقع أسطوانة السيدة عائشة(١).

الأساطين المعلومة التي لها تاريخ في المسجد النبوي الشريف: السواري (الأساطين) التي في المسجد النبوي الشريف في القسم القبلي منه أقيمت في عمارة السلطان عبدالمجيد العثماني في مكان السواري التي كانت في عهد النبيّ ـ ﷺ ـ من جذوع النخل، فقد تحروا عند البناء مواقعها وإذا أطلق اسم سارية فالمقصود بذلك مكانها. وفي المسجد النبوي الشريف ٨ سواري (أسطوانات) دخلت التاريخ، فقد كان لكل واحدة منها قصة حظيت من رسول الله ـ ﷺ ـ بنصيب... وفيما يلي نذكر هذه الأساطين بشيء من الإيجاز:

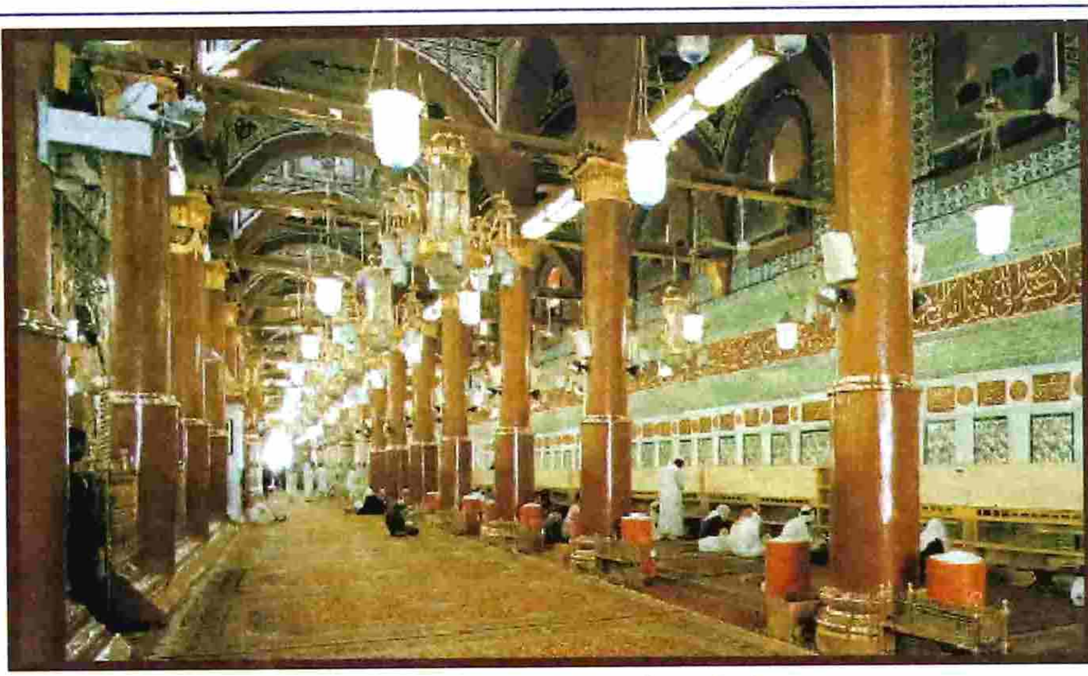
١ ـ الأسطوانة التي هي علم على مصلاه الشريف، وتعرف بالأسطوانة المخلقة (المطيبة المعطرة)، وكان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عندها، ولما سئل قال: إني رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يتحرى الصلاة عندها، وقال مالك: أحب مواضع التنفل حيث العمود المخلق، وأما الفريضة ففي أول الصفوف. وقد جرى تقديم هذه الأسطوانة لجهة القبلة قليلاً وإدخال بعضها في المحراب النبوي وكتب عليها الأسطوانة المخلقة.

٢ ـ أسطوانة السيدة عائشة، وهي الثالثة من المنبر، والثالثة من القبر، والثالثة من القبلة، وتعرف بأسطوانة المهاجرين. فقد كانوا يجتمعون عندها، وتسمى أسطوانة القرعة لحديث عائشة الذي مفاده: لو علم

(١) نفس المصادر السابقة.

الناس ما لفضل الصلاة عند هذه السارية لاستهموا عليها، ولم تحددها السيدة عائشة لهم، ولكن استنبطوها لاحقاً.

٣ ـ أسطوانة التوبة وهي الرابعة من المنبر، والثانية من القبر (الشكل م١ ـ ٣٠)، والثالثة من القبلة، وتعرف بأسطوانة أبي لبابة لأنه ربط نفسه فيها بضع عشرة ليلة بعد الذي أفضى به لحلفائه بني قريظة وبعد أن أنبه ضميره على ما فعل من ذنب حتى كاد لا يسمع وكاد بصره يذهب، وكانت ابنته تحل رباطه إذا حضرت الصلاة وإذا أراد أن يذهب لحاجة، ثم يعود فترده في الرباط، وحلف أن لا يحل نفسه حتى يحله رسول الله ـ ﷺ ـ وحله رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن نزلت توبته في القرآن الكريم سحراً في بيت أم سلمة، وحلف أن لا يطأ بني قريظة أبداً. وكان ـ ﷺ ـ يصلي نوافله إلى هذه الأسطوانة، وينصرف إليها بعد صلاة الصبح ويعتكف وراءها مما يلي القبلة ويسبق إليها الضعفاء والمساكين وضيوف رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤلفة قلوبهم ومن لا بيت له إلا المسجد، فينصرف إليهم النبيّ من مصلاه ويتلو عليهم ما أنزل عليه ليلته ويحدثهم ويحدثونه. (انظر: الشكل م١ ـ ٣١).

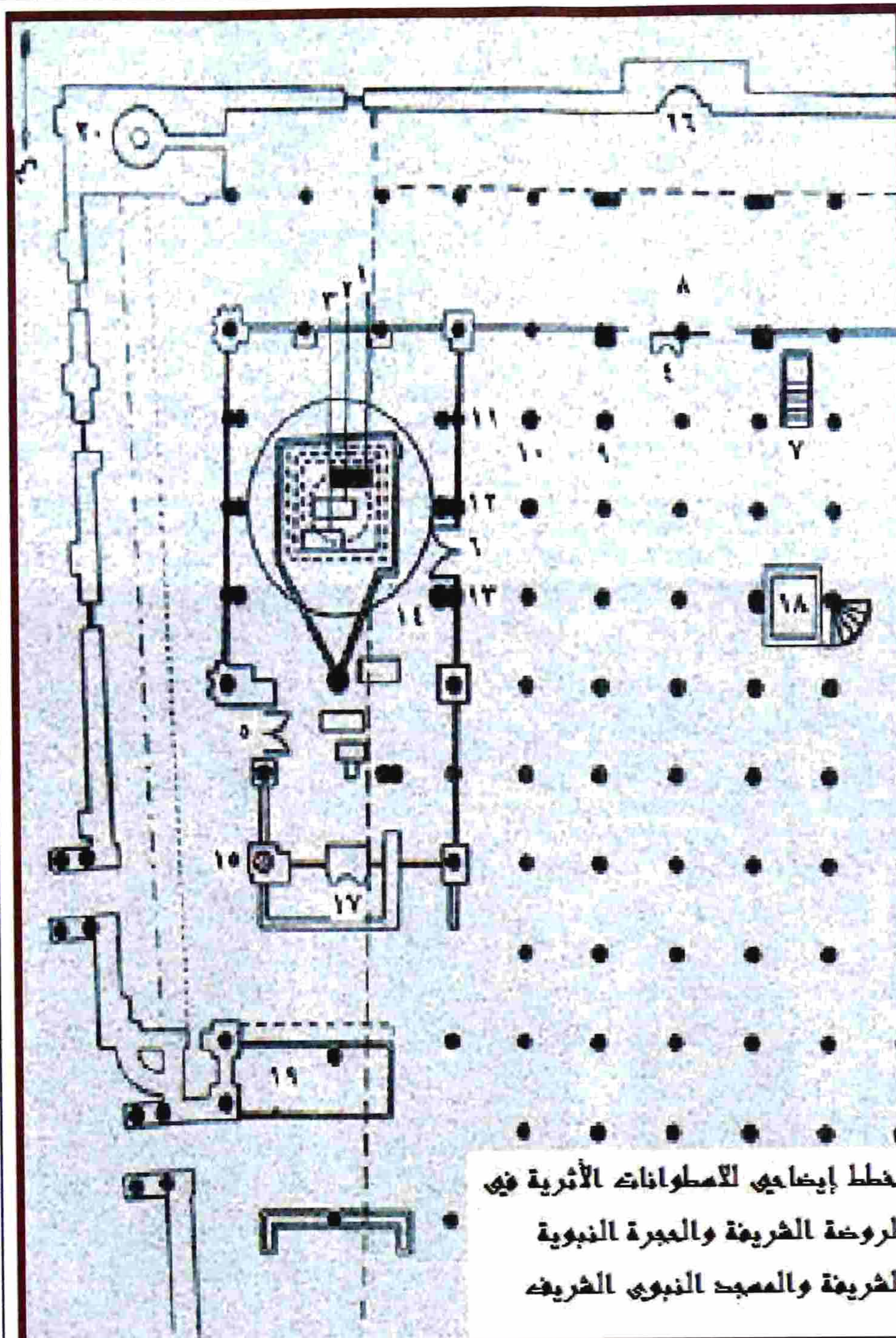


الشكل (م١ ـ ٢٩): المصلى

- مقابلة وجه الرسول ـ ﷺ ـ.
- مواجهة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.
- مواجهة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.
- المحراب النبوي الشريف.
- باب السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ.
- باب التوبة.
- المنبر النبوي الشريف.
- الأسطوانة المخلقة.
- أسطوانة السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أو أسطوانة المهاجرين.



الشكل (م١ ـ ٣٠): القبر الشريف



الشكل (م١ ـ ٣١): مواضع الأسطوانات الأثرية المختلفة

- أسطوانة التوبة أو أسطوانة أبي لبابة.
- أسطوانة السرير.
- أسطوانة المحرس أو أسطوانة الإمام علي.
- أسطوانة الوفود أو مجلس القلادة.
- أسطوانة مربعة القبر.
- أسطوانة التهجد.
- محراب سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ.
- محراب التهجد.
- المكبرية.
- دكة الأغوات.
- المنارة الرئيسية.

٤ ـ أسطوانة السرير، وهي الأسطوانة اللاصقة بالشباك تلي أسطوانة التوبة (أبي لبابة) من جهة الشرق، وقد كان للنبيّ ـ ﷺ ـ سرير من جريد فيه سعفه يوضع قرب هذه الأسطوانة يضطجع عليه، وكان السرير يوضع أيضاً عند أسطوانة التوبة.

٥ ـ أسطوانة المحرس، وتقع خلف أسطوانة التوبة من جهة الشمال وتسمى أسطوانة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد كان مصلاه إليها، وكان يجلس في صفحتها التي على القبر مما يلي باب بيت رسول الله ـ ﷺ ـ يحرسه وكان أمراء المدينة يصلون عندها.

٦ ـ أسطوانة الوفود، وتقع خلف أسطوانة المحرس من الشمال وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته. . . وكانت تعرف بمجلس القلادة يجلس إليها سراة الصحابة وأفاضلهم.

٧ ـ أسطوانة مربعة القبر، ويقال لها: مقام جبريل، وتقع في حائز الحجرة عند منحرف صفحته الغربية إلى الشمال بينها وبين أسطوانة الوفود

الأسطوانة اللاصقة بشباك الحجرة الشريفة، وقد روى سليمان بن مسلم أن باب بيت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في المربعة، وقد كان ـ ﷺ ـ يأتيه حتى يأخذ بعضادتيه ويقول: «**السلام عليكم أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**».

٨ ـ أسطوانة التهجد، وموقعها وراء بيت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ من جهة الشمال، وفيها محراب إذا توجه المصلي إليه كانت يساره إلى جهة باب عثمان المعروف بباب جبريل(١).

المنبر النبوي الشريف: روي في الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه بيَّن منزلة الروضة الطاهرة بين بيته ومنبره الشريف، فعن عبدالله بن زيد المازني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(٢)... وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي**»(٣). وروى أحمد عن أبي هريرة قول رسول الله ـ ﷺ ـ: «**منبري**

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

(٢) صحيح البخاري (**٣٩٩/١**). وأخرجه مسلم في الحج باب ما بين القبر والمنبر، روضة من رياض الجنة رقم **١٣٩٠**. قال الشراح: «**بيتي**»: مسكني وهو مكان قبره الآن ﷺ. «**روضة**»: بقعة مقدسة من الأرض توصل من لازم الطاعة فيها إلى الجنة شريطة أن لا يؤدي ذلك إلى إذاء المسلمين أو التضييق عليهم كما يفعله الكثيرون من الحجاج والزوار الآن، حيث إنهم يمكثون طوال النهار أو فترة طويلة في الروضة الشريفة فيضيقون على الناس ويكونون سبباً في إذائهم مادياً ومعنوياً ويفوتون عليهم خيراً سعوا إليه وقصدوه. انظر: شرح الحديث في فتح الباري. راجع المصادر.

(٣) صحيح البخاري (**٣٩٩/١**) بأرقام (**١٧٨٩، ٦٢١٦، ٦٩٠٤**). وأخرجه مسلم في الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، رقم **١٣٩١**، وقال الشراح في معاني الحديث الشريف: «**منبري على حوضي**»: يوضع منبري هذا على حوضي في الجنة يوم القيامة أصعده وأدعو المسلمين المتبعين لي ليشربوا ويرتووا من ماء الحوض وهو نهر الكوثر. انظر: شرح الحديث في فتح الباري، راجع المصادر.

على ترعة من ترع الجنة»(١). وروى النسائي برجال ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة مرفوعاً: «**من حلف عند منبري هذا بيمين كاذبة استحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً**»(٢). وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر، إلا تبوأ مقعده من النار ـ** أو ـ **وجبت له النار ـ**»(٣).



الشكل (م١ ـ ٣٢): المنبر الشريف

(١) مسند أحمد بن حنبل (٤٠١/٢). تعليق شعيب الأرناؤوط. صحيح. أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

(٢) سنن النسائي الكبرى (٤٩٢/٣). أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) سنن أبي داود (٢٤١/١). قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: المصادر.

كيف كان المنبر وكيف تطور: في مسند الإمام الدارمي كان النبيّ - ﷺ - إذا خطب قام فأطال القيام فكان يشق عليه قيامه فأتى بجذع نخلة فحفر له وأقيم إلى جنبه قائماً للنبيّ - ﷺ - فكان إذا خطب فأطال القيام استند فاتكأ عليه فبصر به رجل ورد المدينة فقال لمن يليه من الناس: لو أعلم أن محمداً يحمدني في شيء يرفق به لصنعت له مجلساً يقوم عليه، فإن شاء جلس وإن شاء قام فبلغ ذلك للنبيّ - ﷺ - فقال: «**ائتوني به**» فأتوه به فأمر أن يصنع له هذه المراقي الثلاث أو الأربع فوجد - ﷺ - في ذلك راحة فلما فارق الجذع وعمد إلى هذه التي صنعت له جزع الجذع فحن كما تحن الناقة... وروى أن المنبر صنع من خشب الأثل من الغابة. (انظر: الشكل م١ ـ **٣٢**).

حنين الجذع: روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: كان النبيّ ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه يمسح يده عليه[(١)]. وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع واتخذوا له منبراً فخطب عليه فحن الجذع حنين الناقة فنزل النبي ﷺ فمسه فسكن[(٢)]. وفي كتاب يحيى عن أبي سعيد أن النبيّ - ﷺ - لما حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها نزل إليه النبيّ - عليه الصلاة والسلام - فضمه فسكن وأمر أن يدفن ويحفر له... وفي كتاب ابن زبالة أن الخشبة (الجذع) دفنت تحت المنبر، وقال بعضهم: دفنت شرقي المنبر[(٣)].

شكل المنبر المصنوع: في صحيح مسلم ما يدل على أن المنبر الذي صنع لرسول الله من ثلاث درجات، وقال الكمال الديري: إن المنبر

---

(١) صحيح البخاري (١/١٣١٣). قال الشراح: «**إلى جذع**»: أي: مستنداً إليه. «**فحن**»: صوت وكأن يبكي. «**فمسح..**»: أي: مسكن.

(٢) سنن الترمذي (٥/٥٩٤). قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي جابر وابن عمر وسهل بن سعد وابن عباس وأم سلمة، وحديث أنس حديث حسن صحيح. قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com).

من ثلاث درجات غير الدرجة التي تسمى: المستراح. وكان - ﷺ - يقف على الدرجة الثالثة وهو يخطب، فلما ولي أبو بكر - رضي الله عنه - قام على الدرجة الثانية ووضع رجله على الدرجة السفلى ولما ولي عمر - رضي الله عنه - قام على الدرجة السفلى ووضع رجليه على الأرض، فلما ولي عثمان - رضي الله عنه - فعل مثل عمر ست سنوات ثم علا إلى موضع النبيّ - ﷺ -. ولقد كان للمنبر عبر التاريخ نصيب كبير من اهتمام الخلفاء والسلاطين حيث جدد حوالى ثماني مرات. ولكن في جميع التجديدات لم يفقد موقعه الأساسي، فهو اليوم على بقعة من الأرض كان منبر النبيّ - ﷺ - عليها أو على بعضها(١). (انظر: الشكل م١ - ٣٢).

الروضة المطهرة: بيَّنا آنفاً ما جاء في فضل منبره وبيته - عليه الصلاة والسلام كما جاء في الحديث: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(٢). اعتمد المؤرخون واتفق أكثر العلماء في ظاهر كلامهم أن الروضة المطهرة هي البقعة الواقعة بين بيت النبيّ - ﷺ - الذي هو بيت السيدة عائشة أيضاً وبين المنبر الشريف، ووردت عدة أقوال في تحديدها. وقال صاحب نزهة الناظرين: إن الأولى بالاعتماد وظاهر ما عليه غالب العلماء أن (الروضة) وهي فيما يسامت المنبر من مقدم المسجد جهة القبلة (الجنوب)، وإن لم يسامت الحجرة وفيما يسامت المنبر من جهة الشمال وإن لم يسامت الحجرة كما جاء في خلاصة الوفا(٣).

المنائر... مآذن المسجد النبوي: لم يكن للمسجد النبوي في عهد

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

(٢) صحيح البخاري (١/٣٩٩). وأخرجه مسلم في الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة رقم ١٣٩٠. راجع المصادر.

(٣) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

رسول الله ـ ﷺ ـ ولا عهد خلفائه الراشدين منائر (مآذن) يرقى المؤذن عليها فيؤذن منها. وأول من أحدث المنائر في المسجد النبوي عمر بن عبدالعزيز في ولايته على المدينة المنورة من قبل الوليد بن عبدالملك الأموي أثناء عمارته وتوسعته للمسجد النبوي ٨٨ ـ ٩١هـ، فقد بنى للمسجد أربع منائر في كل ركن من أركانه منارة، ثم فشا بناء المنائر في المساجد. روى ذلك المؤرخون والسيد البرزنجي في نزهة الناظرين. وقد كان في عمارة المسجد النبوي في عمارة السلطان عبدالمجيد العثماني قبل العمارة والتوسعة السعودية خمس مآذن هي:

١ ـ المنارة الشامية الغربية وتسمى: الشكيلية والخشبية والمجيدية، وموقعها في الركن الشمالي الغربي للمسجد، وقد جددت في عهد السلطان عبدالمجيد العثماني، ثم أزيلت في العمارة السعودية مع ما أزيل وبني بدلها على أجمل وأحدث طراز.

٢ ـ المنارة الشامية الشرقية وتسمى: السنجارية، والعزيزية لعمارة السلطان عبدالعزيز العثماني لها زمن سلطنته، وموقعها في الركن الشرقي، وقد أزيلت في العمارة السعودية مع ما أزيل وبني بدلها على طراز حديث وشكل رائع مع القوة والمتانة.

٣ ـ المنارة الجنوبية الشرقية وتسمى: بالمنارة الرئيسية وتحمل هذا الاسم إلى الآن، وهي المنارة المجاورة للقبة الخضراء والتي تظهر دائماً في الصورة معها، وموقعها في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد... عمَّرها الأشرف قايتباي ثلاث مرات سنة ٨٨٦هـ وسنة ٨٨٨هـ وسنة ٨٩٢هـ، ونزل في أساسها للماء واتخذ لها أحجاراً سوداء متقنة وزاد في طولها إلى ١٢٠ ذراعاً نحو ٦٠ متراً، وهي الآن على عمارة قايتباي، وصورة القبة الخضراء والمنارة الرئيسية يتخذها أهل المدينة هذه الأيام كشعار للمدينة المنورة، وأول من اتخذها هو جريدة المدينة المنورة عند صدورها سنة ١٣٥٦هـ. وكان المؤذنون في الماضي يسمون الرؤساء نظراً لأن المؤذن لا يعتبر قيده رسمياً ضمن المؤذنين إلا إذا أذن في هذه المنارة ولو

مرة واحدة فيسمى بعد ذلك: ريس ويحق له نصيب من أوقاف المؤذنين. (انظر: الشكل م١ ـ ٣٣).

٤ ـ منارة باب السلام الغربية الجنوبية تسمى: بمنارة باب السلام وهي الموجودة الآن وهي من عمارة الناصر ابن قلاوون سنة ٧٠٦هـ، كما رواه الطبري، أما ابن فرحون فقد قال: إن الذي أنشأها شيخ الخدام شبل الدولة كافور المظفري المعروف بالحريري من قناديل الذهب والفضة. وأرسل الصناع الأمير بن سلال وبكير بن سكندر وحفر أساسها إلى الماء ووجدوا بعد حفر قامة برنية فخار مزججة ملآنة دراهم مظفرية، ثم وجدوا تحصيب المسجد النبوي أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سلع كما رواه السيد البرزنجي، ولا تزال المنارة على بنائها الذي بناه شيخ الخدام رحمه الله.

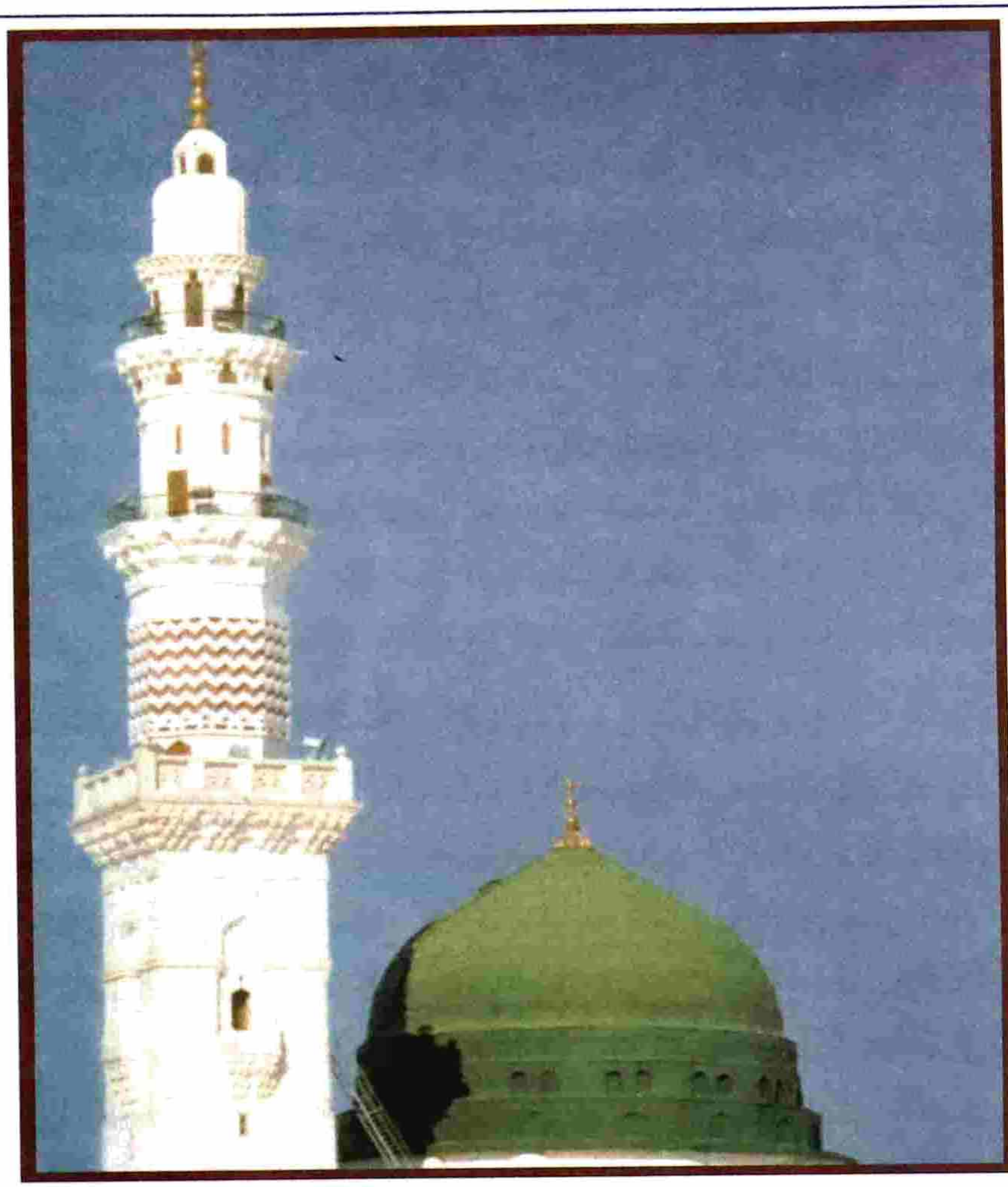
٥ ـ المنارة الغربية وتسمى: منارة باب الرحمة عمرها الأشرف قايتباي سنة ٨٨٨هـ، وبنيت خارج جدران المسجد النبوي ضمن الدار الملاصقة للمسجد قرب باب الرحمة، وهي الدار التي كانت مخصصة لسكنى مدرسي المدرسة المحمودية، وقد أزيلت في التوسعة السعودية مع الدار والمدرسة لتوسعة ما حول المسجد النبوي وعمل الميدان الموجود الآن(١).

المنائر السعودية: وفي العمارة والتوسعة السعودية أزيلت المنارتان الشرقية الشمالية، والغربية الشمالية، ومنارة باب الرحمة كما تقدم، وبني بدلهم منارتان عمق أساس كل منارة ١٧ متراً وارتفاع كل منارة ٧٠ متراً، وأضيئتا بالأنوار الكهربائية المزأبقة، وطوقت الأضواء مطاف المنارتين ـ الموضع الذي يطوف فيه المؤذن عند الأذان ـ فبدت جميلة جذابة ومنظرها ليلاً كأنها أعمدة من نور توغل في السماء، وكان البناء على أحدث طراز

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

وأحسن شكل، ثم بعد التوسعة الفهدية الكبرى زيد في المسجد النبوي الشريف ست منائر أخرى وبارتفاع أعلى، فأصبح المجموع عشر منائر[١].

المقصورة النبوية الشريفة: بنى النبيّ - ﷺ - بيته الشريف المتواضع مثل بنائه للمسجد باللبن وجريد النخل، على مساحة صغيرة وسقفه ينال باليد، وله بابان غربي شارع في المسجد وشمالي، والباب ذو مصراع واحد وبدون غلق يقفل به.



الشكل (م١ ـ ٣٣): القبة الخضراء الشريفة والمنارة الرئيسية

(١) نفس المصادر السابقة.

قبر النبيّ - ﷺ - في بيته: دفن النبيّ - ﷺ - بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في حجرة بيته المتواضع، وقد جعل رأسه الشريف إلى المغرب ورجلاه إلى المشرق ووجهه الكريم إلى القبلة، وكان بينه وبين جدار البيت القبلي قدر شبر، وقيل: بمقدار سوط، وبين الجدار الغربي قدر ذراعين. وبالقرب منه - ﷺ - دفن صاحبه وصديقه ورفيقه في الغار خليفته أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، وقد جعل رأسه إلى المغرب خلف منكب رسول الله - ﷺ - ورجلاه للمشرق ووجهه للقبلة، ولما توفي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - دفن بجوار صاحبيه، وقد جعل رأسه للمغرب خلف منكب أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - ورجلاه للمشرق ووجهه للقبلة. وكان دفنه بوصيته - رضي الله عنه - بعد استئذانه من السيدة عائشة - رضي الله عنها - وموافقتها على ذلك[١].

هدم الحجرة وعمارتها في زمن الوليد: كتب الوليد بن عبدالملك لعمر بن عبدالعزيز عامله على المدينة بعد أن اشترى حجرات أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - بهدمها وتوسيع المسجد بها، فقعد عمر في ناحية وأمر بهدمها فلما هدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة وكان الذي عليها قد انهار. وأراد عمر بن عبدالعزيز أن يصلح القبور بنفسه ثم أمر مولاه مزاحماً بإصلاحها. وروى عبدالله بن محمد بن عقيل قال: خرجت في ليلة مطيرة حتى إذا كنت عند دار المغيرة بن شعبة لقيتني رائحة لا والله ما وجدت مثلها قط، فجئت المسجد فبدأت بالقبر فإذا جداره قد انهدم من المشرق، فدخلت فسلمت فلم ألبث أن سمعت الحس فإذا عمر بن عبدالعزيز قد أمر به فستر بالقباطي. ولما أصبح دعي وردان البناء فدخل الحجرة وقال: لا بد لي من رجل، فكشف عمر بن عبدالعزيز ساقه، وكشف قاسم بن محمد وسالم بن عبدالله عن سوقهما فقال عمر

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

لهما: ما لكم فقالوا: ندخل معك، فقال: لا والله لا نؤذيهم بكثرتنا، وأمر مزاحماً مولاه بالدخول لمناولة وردان.

وروى أنه أمر وردان بالكشف عن الأساس، فبينما هو يكشف عنه وإذا به يتنحى واجماً، فقام عمر فزعاً فقال عبدالله بن عبيدالله: لا يروعنك، فتانك قدما جدك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ضاق البيت عنهما فحفر لهما في الأساس، فقال لوردان: غط ما رأيت. وروى هشام بن عروة أنه لما سقط الجدار زمن الوليد أخذوا في بنائه فبدت لهما قدم ففزعوا وظنوا أنها قدم النبيّ ـ ﷺ ـ فما وجدوا أحداً يعلم ذلك. فقال عروة: والله ما هي قدم النبيّ ـ ﷺ ـ ما هي إلا قدم عمر... وتؤيد هذه الرواية ما ورد في صحيح البخاري[١].

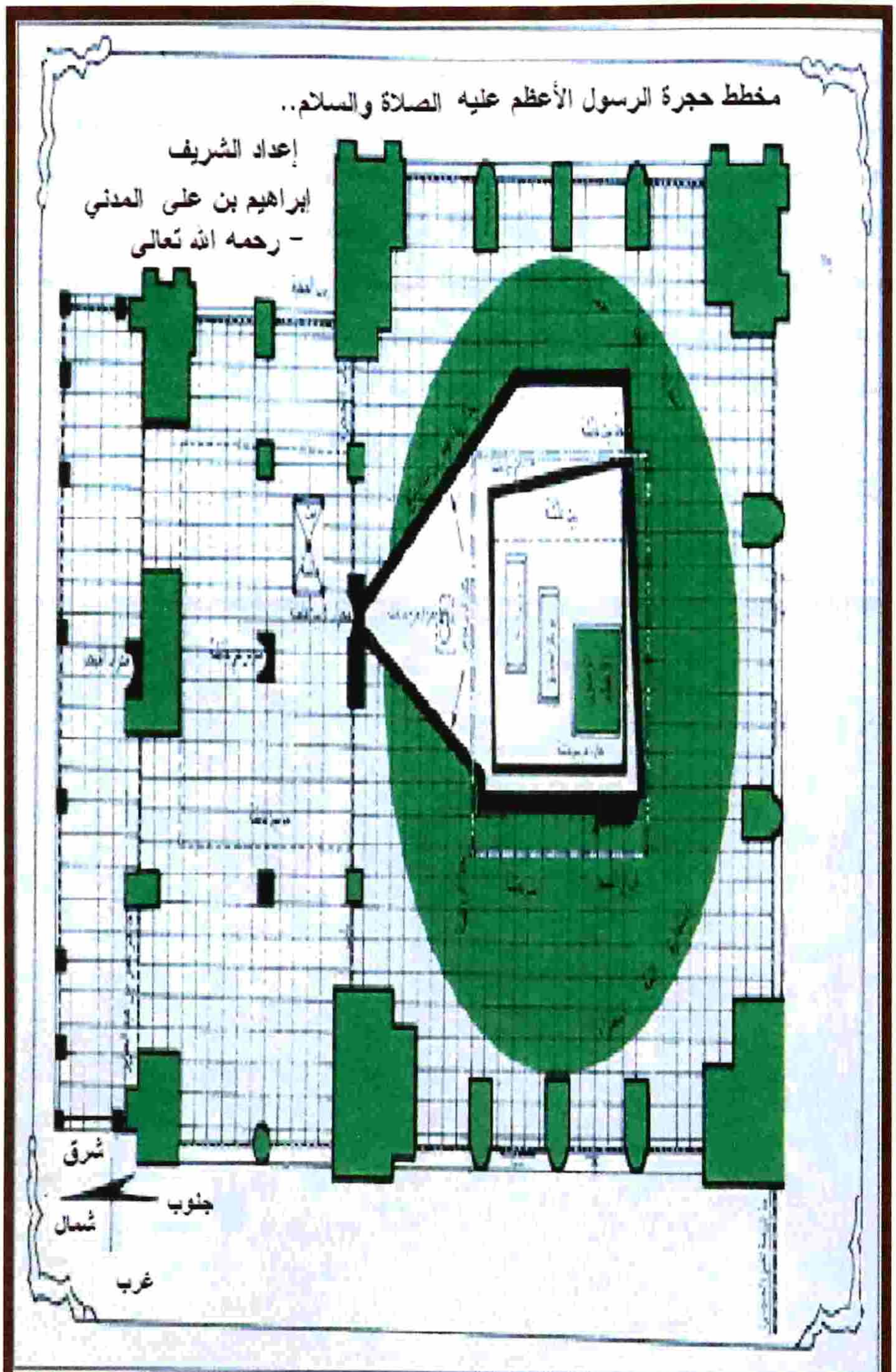
عمر بن عبدالعزيز يبني الحجرة المطهرة ويبني حظاراً حولها: وقد بنى عمر بن عبدالعزيز الحجرة المطهرة بالأحجار السوداء المنحوتة يقرب لونها من لون أحجار الكعبة المشرفة على نفس المساحة التي بنى رسول الله ـ ﷺ ـ بيته عليها، وجعل عرض الجدار في الجوانب كلها ذراعاً ونصفاً وقيراطين إلا الجدار الشرقي فعرضه ذراع وربع وثمن ذراع وجعل ارتفاع الجدار في السماء خمسة عشر ذراعاً. ثم بنى حول الحجرة المطهرة حظاراً وزواه، وجعل له خمسة أضلاع بخمس زوايا فشكل مثلثاً في المؤخرة جهة الشام، وذلك خشية أن يشبه الكعبة في تربيعه وخشية أن يتخذ قبلة فيصلى عليه. ويمكن أن يستنبط القارئ من المخطط الآتي جميع الأبعاد والمعلومات المتعلقة بالحظار[٢].

الشكل (م١ ـ ٣٤) يبين مخطط لمسقط أفقي للحجرة الشريفة.

---

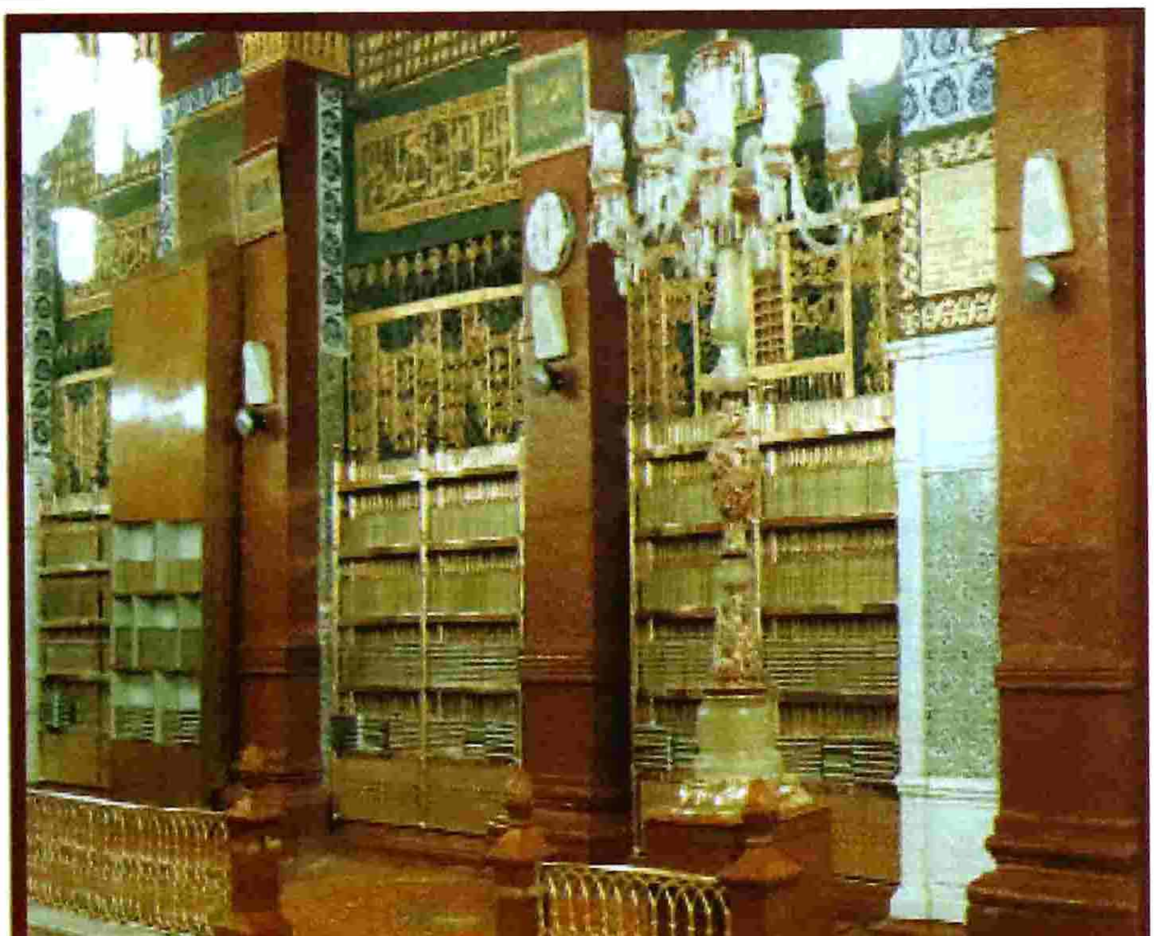
(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

(٢) نفس المصادر السابقة.



الشكل (م١ ـ ٣٤): مخطط الحجرة الشريفة

إحداث المقصورة على الحجرة وعلى دار السيدة عائشة: كان المسلمون عندما يزورون قبر النبيّ ـ ﷺ ـ يستطيعون أن يقفوا ليس بينهم وبين وجه الحجرة الشريفة إلا ثلاثة أذرع تقريباً، وكانوا يقفون عند جدار حظار عمر بن عبدالعزيز مباشرة. وفي سنة ٦٦٨هـ، أحدث الظاهر بيبرس صاحب مصر مقصورة بدرابزين من خشب نصبه بين الأساطين التي تلي الحجرة الشريفة من جهة الشمال، وقد زاد فيه إلى متهجد النبيّ ـ ﷺ ـ حيث أدخل في المقصورة بيت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، وجعل لهذه المقصورة ثلاثة أبواب باباً في القبلة وباباً في الشرق وباباً في الغرب، وجعل ارتفاع الدرابزين نحو قامتين، وقد أخذ مساحة المقصورة بنفسه وقاس ما حولها بيده وبحبال في حج عام ٦٦٧هـ. وبعد إحداث المقصورة ـ الشباك ـ صار الزائر يقف بعد الشباك متجهاً بوجهه إلى وجه رسول الله ـ ﷺ ـ. (انظر: الشكل (م١ ـ ٣٥).



الشكل (م١ ـ ٣٥): المقصورة الشريفة بعد الترميمات

أول من أحدث القبة على الحجرة الشريفة: لم يكن على الحجرة الشريفة قبة، وكان سطح المسجد على ما يوازي الحجرة حظير من الآجر بمقدار نصف قامة تمييزاً للحجرة المطهرة عن بقية سطح المسجد، والسلطان قلاوون الصالحي هو أول من أحدث على الحجرة المطهرة قبة عام ٦٧٨هـ، مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة المشرفة، وسمر عليها ألواحاً من الخشب وصفحها بألواح الرصاص وجعل محل حظير الآجر حظيراً من خشب.

وجددت القبة زمن الناصر حسن بن محمد قلاوون، ثم اختلت ألواح الرصاص عن موضعها وجددت وأحكمت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد سنة ٧٦٥هـ، وحصل بها خلل وأصلحت زمن السلطان قايتباي سنة ٨٨١هـ[(١)].

عمارة القبة بعد الحريق الثاني: وقد احترقت المقصورة الشريفة والقبة في حريق المسجد النبوي الثاني، وفي سنة ٨٨٦هـ في عهد السلطان قايتباي في سنة ٨٨٧هـ، جددت القبة وأسست لها دعائم عظيمة في أرض المسجد النبوي وبنيت بالآجر بارتفاع متناه، وقد حصل بين الجدار الشرقي للمسجد وبين الدعائم المحدثة ضيق، فهدم جدار المسجد الشرقي وزحف به إلى البلاط ناحية مصلى الجنائز بمقدار ذراع ونصف، ولم يسقط شيء من حريق القبة على الحجرة المطهرة، فقد كانت القبة الصغرى التي بناها قايتباي على الحجرة والقبور الشريفة مانعة لذلك. أما المقصورة فقد جعلوا لها شبابيك من النحاس من جهة القبلة، وجعلوا في أعلاها شبكة من شريط النحاس كالزرد بين أخشاب متصلة بعقود الحجرة المحيطة بها، وجعلوا لبقية المقصورة من جهة الشمال والشرق والغرب شبابيك من الحديد وبأعلاها أشرطة من النحاس لمنع الحمام.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

تصدع القبة وتجديدها: بعدما تم بناء القبة بالصورة الموضحة تشققت من أعاليها، ولما لم يجد الترميم فيها أمر السلطان قايتباي بهدم أعاليها وأعيدت محكمة البناء بالجبس الأبيض فتمت محكمة متقنة سنة ٨٩٢هـ.

تجديد القبة زمن السلطان محمود العثماني: بعد عدة قرون ظهرت شقوق في أعلى القبة زمن السلطان محمود بن عبدالمجيد العثماني، فأصدر أمره بتجديدها فهدموا أعاليها وأعادوها في غاية الإحكام والإ تقان، وكان ذلك سنة **١٢٣٣**هـ، ولا تزال على تلك الحال حتى الآن.

أول من صبغ القبة الخضراء باللون الأخضر: في سنة **١٢٥٣**هـ، صدر أمر السلطان عبدالحميد العثماني بصبغ القبة المذكورة باللون الأخضر، وهو أول من صبغ القبة بالأخضر، ثم لم يزل يجدد صبغها بالأخضر كلما احتاجت لذلك إلى يومنا هذا. وسميت بالقبة الخضراء بعد صبغها بالأخضر، وكانت تعرف بالبيضاء والفيحاء والزرقاء[1]. (انظر: الشكل م١ ـ ٣٣).

إصلاح في الحجرة في العهد السعودي: ونمى إلى مسامع الملك عبدالعزيز آل سعود وجود ما يدعو للإصلاح داخل الحجرة الشريفة فجرى الكشف عليه، وصدر الأمر بإصلاحه ولم يكن الخراب ذا بال فقد كان عبارة عن قشور وتشققات في اللياسة في بعض الأسطوانات وتم الإصلاح ليلاً.

توسعات المسجد النبوي الشريف: بعد الزيادة النبوية الشريفة زاد في مساحة المسجد النبوي الخليفتان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ، ثم الوليد بن عبدالملك ثم المهدي العباسي، ثم

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

الأشرف قايتباي، ثم السلطان عبدالمجيد العثماني، ثم الملك عبدالعزيز آل سعود ثم فهد بن عبدالعزيز(١).

زيادة عمر بن الخطاب وعمارته: في سنة **١٧**هـ، زاد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المسجد النبوي من الناحية القبلية بمقدار أسطوانة، ومن الغرب بمقدار أسطوانتين، وزاد في الشمال نحو ثلاثين ذراعاً فصار طول المسجد **١٤٠** ذراعاً، وعرضه **١٢٠** ذراعاً، وبناه كما كان في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ باللبن والجريد والسعف وجذوع النخل، وجعل ارتفاع سقفه **١١** ذراعاً، وجعل له سترة بارتفاع ذراعين أو ثلاثة. وقدر مكتب توسعة المسجد النبوي زيادة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بـ **١١٠٠** متر مربع.

زيادة عثمان بن عفان وعمارته: وفي سنة **٢٨ ـ ٣٠**هـ، زاد فيه عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في جهة القبلة قدر أسطوانة وفي جهة الغرب قدر أسطوانة أيضاً، وفي جهة الشمال نحو عشرة أذرع، وبناه بالحجارة المنقوشة والجص وجعل في أعمدته قضباناً من الحديد مثبتة بالرصاص وسقفه بالساج... وقدر مكتب توسعة المسجد النبوي زيادة عثمان بـ **٤٩٦** متراً مربعاً.

زيادة الوليد بن عبدالملك الأموي: وفي سنة **٨٨ ـ ٩١**هـ، زاد فيه الوليد بن عبدالملك الأموي، وقيل: إنه بدأ العمارة سنة **٨٨**هـ، وانتهى بنهاية **٩٣**هـ، وقام بالعمارة في عهده عمر بن عبدالعزيز واليه على المدينة، وأحدث في العمارة المنائر والمحراب والشرفات وأدخل في المسجد حجرات أمهات المؤمنين بعد أن هدمها، وكانت زيادته في الشرق والغرب والشمال، وقال بعض المؤرخين: إن مساحة المسجد بلغت بعد زيادة الوليد **٢٠٠** ذراع طولاً وعرضه في المقدمة **٢٠٠** ذراع وفي المؤخرة **١٨٠** ذراعاً، وقدر مكتب توسعة الحرم النبوي زيادة الوليد بـ **٢٣٦٩** متراً مربعاً.

---

(١) نفس المصادر السابقة.

زيادة المهدي العباسي: وفي سنة ١٦١ ـ ١٦٥هـ، زاد في المسجد النبوي الشريف المهدي العباسي في الجهة الشمالية فقط، وقالوا: إن الزيادة كانت مائة ذراع، وقال بعض المؤرخين: إنه بهذه الزيادة صار طول المسجد النبوي ٣٠٠ ذراع وعرضه ١٨٠ ذراعاً. وعمَّره وزخرفه بالفسيفساء وأعمدة الحديد في سواريه كما فعل الوليد... وقدر مكتب توسعة الحرم النبوي زيادة المهدي بـ ٢٤٥٠ متراً مربعاً.

زيادة الأشرف قايتباي وعمارته: احترق المسجد النبوي سنة ٦٥٤هـ، ثم احترق مرة أخرى سنة ٨٨٦هـ، فبعد الحريق الأول أسهم في عمارة المسجد النبوي عدد من الملوك والرؤساء المسلمين، وأول من أسهم المستعصم بالله فأرسل من بغداد المؤن والصناع وبدئ في العمل سنة ٦٥٥هـ، ثم استولى التتار على بغداد فتبارى ملوك ورؤساء المسلمين في عمارة المسجد، وهم صاحب مصر المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك الصالحي، وصاحب اليمن المظفر شمر الدين يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول، وصاحب مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري، والناصر محمد بن قلاوون الصالحي، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والسلطان قايتباي، وكان ذلك حوالى سنة ٨٧٩هـ، وقد كملت عمارة المسجد في أواخر القرن التاسع ثم كانت إصلاحات وتوسعات في السقوف وما إلى ذلك... كانت هذه العمارة بدون توسعة بعد الحريق الأول. وبعد الحريق الثاني كتب أهل المدينة للأشرف قايتباي صاحب مصر فأرسل المؤن والعمال وكل المواد والنقود، وعمَّره وتم تسقيف المسجد سنة ٨٨٨هـ، وتمت العمارة حوالى سنة ٨٩٠هـ، وبني للمصلى النبوي محراباً، كما بني المحراب العثماني في الزيادة القبلية.

وعند بناء القبة الخضراء على الحجرة المطهرة ظهر ضيق في جهة الشرق، فخرجوا بالجدار الشرقي بنحو ذراعين وربع ذراع فيما حاذى ذلك، وهذه التوسعة هي آخر توسعة جرت إلى العهد العثماني والعهد السعودي... وقدَّر مكتب توسعة الحرم الشريف مساحتها بـ ١٢٠ متراً.

زيادة السلطان عبدالمجيد وعمارته: مرت على عمارة السلطان

قايتباي للمسجد النبوي بعد الحريق الثاني نحو **٣٨٧** سنة، وهذه المدة كافية لأن تجعل كثيراً من أجزائه يعتريها الخراب، وقد آلت بعض سقوفه للسقوط، فرفع شيخ الحرم وقتئذ داود باشا الأمر إلى السلطان عبدالمجيد خان العثماني في إسطنبول سنة **١٢٦٣هـ**، فاهتم بالأمر كثيراً وبعد أن أمر بالكشف وتحقق من الخراب صدر أمره بإرسال المهندسين والخبراء والنجارين والصناع والمؤن، وبعد إعداد ما يلزم بدأت العمارة لكامل المسجد في سنة **١٢٦٥هـ** وانتهت سنة **١٢٧٧هـ**، واستغرقت العمارة نحو **١٣** سنة، وكانت العمارة من الحجر الأحمر من جبل في غرب الجماوات بذي الحليفة، والجبل معروف اليوم ويسمى: جبل الحرم، وبه آثار تدل على ما أخذ من أحجار للمسجد النبوي الكريم... وكانت من أضخم العمارات التي جرت في مسجد رسول الله وأتقنها وأجملها، وقد بقي منها بعد العمارة السعودية الجزء القبلي ويبدو هذا الجزء حتى الآن قوياً متماسكاً جميلاً رائعاً وقد سقف بالقباب بدل الخشب وزينت بطون القباب بصور طبيعية جذابة، كما كتب في جدار المسجد القبلي سور من القرآن الكريم وأسماء النبيّ - ﷺ - وغير ذلك بخط جميل بقلم الثلث الممتاز، وذهِّبت الحروف بالذهب الوهاج وبنيت أبوابه بشكل جميل جذاب أبدعت يد الفن في إنشائها. وأبواب القسم القبلي الباقية هي باب النساء وباب جبريل وباب السلام وباب الرحمة، وهدم في القسم الشمالي باب المجيدي وباب مخزن الزيت.

وقد لوحظ في العمارة أن يكون بناء أعمدة السقف القبلي في موضع جذوع النخل التي كانت في عهد رسول الله - ﷺ -، وقد زاد السلطان عبدالمجيد في المسجد الكتاتيب لتعليم القرآن والمستودعات في الجهة الشمالية، كما زاد في الشرق نحو خمسة أذرع وربع من المنارة الرئيسية إلى ما يلي باب جبريل لضيق المسجد في ذلك المحل، وبلغت توسعة السلطان عبدالمجيد بالأمتار **١٢٩٣** متراً مربعاً... كما قدرها مكتب توسعة المسجد النبوي.

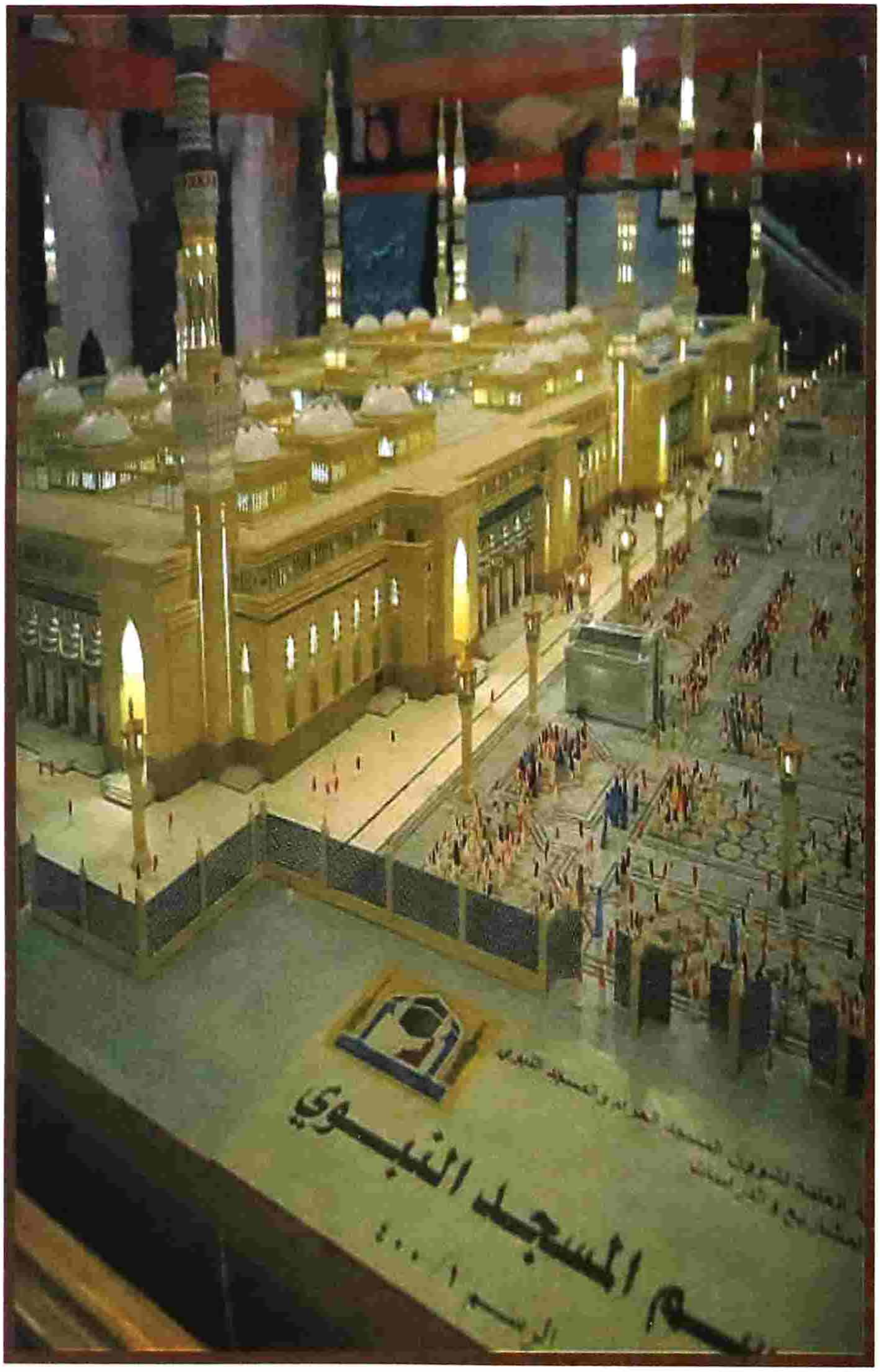
توسعة الملك عبدالعزيز آل سعود وعمارته: شعر الناس بضيق في

المسجد النبوي ولا سيما أيام المواسم بعد توسعته من العهد العثماني، وفي حوالى **١٣٦٥**هـ، لوحظ تصدع في بعض العقود الشمالية وتفتت في بعض حجارة الأعمدة في تلك الجهة بشكل يلفت النظر. وفي شعبان سنة **١٣٦٨**هـ، أعلن الملك عبدالعزيز في بيان إذاعي عزمه على توسعة المسجد[1]».

الشكل (م١ ـ ٣٦) يبين مجسم التوسعة السعودية الشاملة للمسجد النبوي.

---

(١) عن موقع الحج والعمرة (http://www.tohajj.com). وانظر: صفحات مختلفة من كتاب تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً، د. محمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.



الشكل (م١ ـ ٣٦): مجسم التوسعة السعودية الشاملة للمسجد النبوي الشريف

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب التفسير وعلوم القرآن:

١ ـ **الإتقان في علوم القرآن،** لأبي الفضل جلال الدين عبدالرحمٰن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، **١٤٠٧**هـ، **١٩٨٧**م.

٢ ـ **البرهان في علوم القرآن،** لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٩٤ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، **١٤٠٨**هـ ـ **١٩٨٨**م.

٣ ـ **التبيان في تفسير غريب القرآن،** لابن الهائم، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد، تحقيق ضاحي عبدالباقي محمد، دار الغرب الإسلامي، **٢٠٠٣**م.

٤ ـ **التحرير والتنوير،** لابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، ط/١، **٢٠٠٠**م.

٥ ـ **تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل،** دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٣**م.

٦ ـ **تفسير القرآن العظيم،** لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٤**م.

٧ ـ **تفسير الجامع لأحكام القرآن،** لأبي عبدالله ابن فرح الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٥**م.

٨ ـ **تفسير الطبري،** جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

٩ ـ **التفسير الكبير،** للإمام الفخر الرازي، ط/٢، دار الكتب العلمية، طهران.

١٠ ـ **تفسير الكشاف،** لأبي القاسم جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط/٣، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٣**م.

١١ ـ **في ظلال القرآن**، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان.
١٢ ـ **الجواهر في تفسير القرآن**، للشيخ طنطاوي جوهري، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٠هـ.
١٣ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، لابن الجوزي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.
١٤ ـ **صفوة البيان**، لمحمد حسين مخلوف، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٦م.
١٥ ـ **صفوة التفاسير**، لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٦ ـ **الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم**، لأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ)، رواية أبي بكر محمد بن علي بن أحمد الأدفوي النحوي، المكتبة العصرية، ط/١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
١٧ ـ **علوم القرآن الكريم**، لعبدالرحيم فرغل البليني، تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتي، طبع دار الرشد، بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
١٨ ـ **علوم القرآن**. منشورات جامعة القدس المفتوحة. ط: الأولى ١٩٩٣.
١٩ ـ **من موضوعات سور القرآن الكريم**، لعبدالحميد طهماز، ط/١، دار القلم ـ دمشق/الدار الشامية ـ بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٢٠ ـ **المستفاد من قصص القرآن**، لعبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢١ ـ **نظرات في تفسير القرآن الكريم**، للدكتور محسن عبدالحميد، ط٢، شركة الرشد للطباعة والنشر، بغداد العراق، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.
٢٢ ـ **النور السافر في قراءة الإمام ابن عامر**، لمحمود أمين طنطاوي، دار المنار للطباعة والنشر، ط/١، ١٩٩٨م.

علوم الحديث والفقه:

٢٣ ـ **الأحاديث المائة المختارة من أحاديث الأحكام والآداب والحكم وجوامع الكلم**، لسليم بن أحمد محمد المصري، دار إقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١، ٢٠٠٤م.
٢٤ ـ **إحياء علوم الدين**، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار، لأبي حامد الغزالي، ط/٢، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.
٢٥ ـ **تحرير تقريب التهذيب**، لشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط/١، ٢٠٠٠م.

٢٦ ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لمحمد عبدالرحمٰن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

٢٧ ـ **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، لعبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري أبو محمد، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، **١٤١٧** هـ.

٢٨ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط/**٤**، **١٤٠٥**هـ.

٢٩ ـ **سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام**، للصنعاني، محمد إسماعيل، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة/١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٤**م.

٣٠ ـ **السلسلة الصحيحة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض.

٣١ ـ **السلسلة الضعيفة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض.

٣٢ ـ **سنن ابن ماجه**، لمحمد بن يزيد القزويني، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٢**م.

٣٣ ـ **سنن أبي داود**، لأبي داود سليمان السجستاني، تحقيق محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٢**م.

٣٤ ـ **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**، لأبي عيسى محمد الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

٣٥ ـ **سنن الدارمي**، لأبي محمد عبدالله الدارمي، تحقيق محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٦**م.

٣٦ ـ **السنن الكبرى**، لأبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٤**م.

٣٧ ـ **سنن النسائي الكبرى**، لأحمد بن شعيب أبي عبدالرحمٰن النسائي، تحقيق: د.عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، **١٤١١** هـ ـ **١٩٩١**م.

٣٨ ـ **شرح الأربعين النووية**، للإمام ابن دقيق العيد، دار ابن حزم، ط/١، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٢**هـ ـ **٢٠٠١**م.

٣٩ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، لابن بلبان الفارسي، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع.

٤٠ ـ **صحيح الإمام البخاري،** لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠١**م.

٤١ ـ **صحيح الإمام مسلم،** لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٣**م.

٤٢ ـ **صحيح أبي داود،** لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، **١٩٩٠**م.

٤٣ ـ **صحيح ابن ماجه،** لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، **١٩٩٠**م.

٤٤ ـ **صحيح الترغيب والترهيب،** لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط/**٥**.

٤٥ ـ **صحيح الترمذي،** لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، **١٩٩٠**م.

٤٦ ـ **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته،** لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٤٧ ـ **علوم الحديث،** للدكتور عبدالكريم زيدان / عبدالقهار داود عبدالله، مطبعة عصام، بغداد، ط/٢، **١٤٠٩**هـ ـ **١٩٨٨**م.

٤٨ ـ **فتح الباري في شرح صحيح البخاري،** لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

٤٩ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،** لإسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

٥٠ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال،** لعلي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق محمد عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٨**م.

٥١ ـ **مختصر شعب الإيمان،** البيهقي القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٨٣**م.

٥٢ ـ **المستدرك على الصحيحين،** للحاكم النيسابوري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٨**م.

٥٣ ـ **مسند أبي يعلى الموصلي،** لأبي يعلى الموصلي، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٨**م.

٥٤ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني،** بيت الأفكار الدولية، **١٩٩٨**م.

٥٥ ـ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،** لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط/٢، **١٣٩٢**هـ.

٥٦ ـ **نيل الأوطار بتخريج أحاديث كتاب الأذكار وبيان صحيحه من ضعيفه،** لأبي أسامة سليم بن عيد بن محمد الهلالي السلفي الأثري، الطبعة/٢، دار ابن حزم، ٢٠٠٤م.

٥٧ ـ **نيل الأوطار من أسرار ومنتقى الأخبار،** لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة، ط/١، دار الكتاب العربي، **٢٠٠٣**م.

كتب السير والتاريخ:

٥٨ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة،** لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ط/١، **١٤١٢**هـ.

٥٩ ـ **البداية والنهاية،** لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف ـ بيروت.

٦٠ ـ **تاريخ الإسلام،** لحسن إبراهيم حسن، دار الجيل ببيروت، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط/١٥، **١٤٢٢**هـ ـ **٢٠٠١**م.

٦١ ـ **تاريخ بغداد،** لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٢ ـ **تاريخ الخلفاء،** لعبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة ـ مصر، ط/١، **١٣٧١**هـ ـ **١٩٥٢**م.

٦٣ ـ **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار،** لعبدالرحمٰن بن حسن الجبرتي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان.

٦٤ ـ **تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر،** مؤسسة الرسالة، **٢٠٠٠**م.

٦٥ ـ **تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً،** لمحمد إلياس عبدالغني، مطبعة الرشيد، ط/١، **١٤٢٢**هـ ـ **٢٠٠١**م، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

٦٦ ـ **حياة الصحابة،** لمحمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، ط/٢، **٢٠٠٥**م.

٦٧ ـ **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام،** لأبي القاسم عبدالرحمٰن السهيلي، تحقيق مجدي منصور سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

٦٨ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد،** لابن قيم الجوزية، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٢**م.

٦٩ ـ **السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي**، دار ابن كثير، ط/١٢، دمشق ـ سوريا، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٧٠ ـ **السيرة النبوية**، لابن كثير الدمشقي، تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥م.

٧١ ـ **السيرة النبوية لابن هشام الأنصاري**، تحقيق فؤاد علي حافظ، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٩م.

٧٢ ـ **الرحيق المختوم**، لصفي الرحمٰن المباركفوري، دار العلوم، ط/١، عمان ـ الأردن، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٧٣ ـ **السيرة النبوية الصحيحة**، للدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٨م.

٧٤ ـ **الطبقات الكبرى**، لمحمد بن سعد، ط/١، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.

٧٥ ـ **عيون الأثر في المغازي والسير**، لابن سيد الناس، ط/١، دار إحياء التراث العربي.

٧٦ ـ **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، تحقيق أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ط/١، ٢٠٠٥م.

٧٧ ـ **لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية**، لعبدالوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي المصري، تحقيق: محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٩٩٨م.

٧٨ ـ **محمد رسول الله ﷺ**، لمحمد رضا، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٦م.

٧٩ ـ **المعتصر من المختصر من مشكل الآثار**، ليوسف الحنفي، عالم الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٧.

المعاجم وعلوم اللغة:

٨٠ ـ **تاج العروس، للزبيدي**، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

٨١ ـ **التلخيص في علوم البلاغة**، للخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٨٢ ـ **روائع البيان في معاني القرآن**، دار الأرقم، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، ١٩٩٧م.

٨٣ ـ **شذا العرف في فن الصرف**، لأحمد بن محمد الحملاوي (ت١٣١٥هـ)، ط/٤، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٨٤ ـ **القاموس المحيط،** للفيروزآبادي، أبي إسحاق إبراهيم، تحقيق: أبي الوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

٨٥ ـ **قاموس المورد إنكليزي ـ عربي،** لمنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٧.

٨٦ ـ **لسان العرب،** لابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر ـ عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م.

٨٧ ـ **مختار الصحاح،** لمحمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م.

٨٨ ـ **معجم البلدان،** لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥م.

٨٩ ـ **معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية،** لأحمد شفيق الطيب، مكتبة لبنان.

٩٠ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،** لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٩١ ـ **المعجم الوجيز،** طبعة دار التحرير، ١٩٨٩م.

٩٢ ـ **معجم تفسير كلمات القرآن،** لمحمد عدنان سالم ومحمد وهبي سليمان، دار الفكر المعاصر، ط/٢، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

الكتب والبحوث العلمية:

٩٣ ـ **الإحصاء الهندسي،** د. ناجي توفيق والأستاذ رشيد عبدالرزاق الصالحي، مطبعة جامعة بغداد، ط/١، رمضان ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٩٤ ـ **الاحتمالية** (Probability)، **سلسلة شوم، مطبعة** McGraw Hill، ١٩٦٨.

٩٥ ـ **الاستعمال الهندسي للدائرة في عمارة مدينة القدس،** بحث للدكتورعلي فايز الغول.

٩٦ ـ **إنشاء المباني،** آرتين ليفون وزهير ساكو، جامعة بغداد، كلية الهندسة، قسم الهندسة المدنية، ط١، ١٩٨٣.

٩٧ ـ **تاريخ العرب،** فيليب حتى، جبرايل جبور، إدور جرجي، دار الكشاف للنشر والطباعة، ط/١١، ٢٠٠٢م.

٩٨ ـ **الجداول الفنية والأسس التكنولوجية،** تأليف انجلبرت جرايتنز، ترجمة الدكتور المهندس محمد عبدالمجيد نصار، المؤسسة الشعبية للتأليف في لايبزك.

٩٩ ـ **جنوب الجزيرة العربية،** بريان دو، تيمس وهدسون ١٩٧١.

١٠٠ ـ **شمس العرب تسطع على الغرب**، المستشرقة الألمانية، زيغريد هونكه، نقله عن الألمانية، فاروق بيضون وكمال دسوقي، وراجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار صادر، ط/١٠، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٣**هـ ـ **٢٠٠٢**م.

١٠١ ـ **صناعة الحياة**، د. محمد أحمد الراشد، دار المنطلق لنشر وتوزيع الكتب والقرطاسية، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط/٢، **١٤١٢**هـ ـ **١٩٩٢**م.

١٠٢ ـ **العولمة والأقلمة**، اتجاهان جديدان في السياسة العالمية، د. ريتشارد هيجوت، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط/١، **١٩٩٨**م.

١٠٣ ـ **قصة الحضارة**، ول ديوارنت، تحقيق سهيل محمد ديب، **٤** مجلدات، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، **٢٠٠٢**م.

١٠٤ ـ **الكون والحياة ـ من العدم حتى ظهور الإنسان ـ**، د. مخلص الريس / د. علي موسى، ط/١، دار دمشق، سورية، **١٤١٨**هـ ـ **١٩٩٧**م.

١٠٥ ـ **معجم البلدان مع الفهارس**، ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، ط/١، ٧ مجلدات، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٥**م.

١٠٦ ـ **من الحداثة إلى ما بعد الحداثة في الفن** ـ عفيف البهنسي ـ دار الكتاب العربي ـ دمشق ـ ط/١ ـ **١٩٩٧**.

١٠٧ ـ **الموسوعة الإسلامية**، هيكر، **٥** مجلدات.

١٠٨ ـ **موسوعة تاريخ العلوم العربية ـ ٣** أجزاء ـ، مركز دراسات الوحدة العربية، مؤسسة عبدالحميد شومان، إشراف رشدي راشد، ط/**١**، بيروت ـ لبنان، **١٩٩٧**م.

١٠٩ ـ **الهندسة الوصفية**، العبيد ـ سلوم، جامعة البعث، دمشق ـ سوريا، **١٩٩٩**م.

كتب وبحوث الإعجاز:

١١٠ ـ **الأرض ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية ـ ١٥ جزءاً ـ)**، د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/**١**، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٥**هـ ـ **٢٠٠٤**م.

١١١ ـ **أسس التاريخ الحضاري والعمراني في العصور الإسلامية المختلفة**، منظمة العواصم والمدن الإسلامية.

١١٢ ـ **أسس تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، خالد عزب (كتاب الأمة).

١١٣ ـ **أطروحة الدكتوراه** للمهندسة حفصة رمزي العمري، الأستاذة في جامعة بغداد ـ كلية الهندسة قسم الهندسة المعمارية، **٢٠٠٠**م.

١١٤ ـ **الإعجاز القرآني،** بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة **٢١ ـ ٢٦** رمضان **١٤١٠هـ**، الموافق **١٦ ـ ٢١** نيسان **١٩٩٠م**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، العراق.

١١٥ ـ **بخارى الشريفة،** تاريخها وتراثها الحضاري، خالد عزب.

١١٦ ـ **البيئة من منظور إسلامي،** د. صالح محمود وهبي، دار الفكر ـ دمشق ـ **٢٠٠٤**، صفحات مختلفة.

١١٧ ـ **البيوت في القاهرة في القرنين ١٧ ـ ١٨**، قللي خنا. فنون الإسلام، زكي محمد حسن.

١١٨ ـ **تاريخ المساجد الأثرية،** حسن عبدالوهاب (القاهرة **١٩٥٠م**).

١١٩ ـ **التاريخ والآثار ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية ـ ١٥ جزءاً ـ)**، د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م**.

١٢٠ ـ **التراث المعماري الإسلامي في مصر،** صالح لمعي.

١٢١ ـ **تطور العمارة الإسلامية،** بحث المهندسة ياسمين زكي.

١٢٢ ـ **تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد،** د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، **١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م**.

١٢٣ ـ **جدلية العلاقة بين التصميم الداخلي للمبنى والعمارة،** الدكتور مناف جعفر مهدي صالح الجقمقجي، جامعة بغداد / كلية الهندسة ـ قسم الهندسة المعمارية.

١٢٤ ـ جوجل يشهد أن محمداً رسول الله (Google believes Muhammad...http:// uk.youtube.com/watch?v = 3tHbxwlDMHA **الأستاذ الدكتور عبدالمجيد الزنداني.**

١٢٥ ـ **دراسات بيئية،** تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية ـ الإنسان وعلاقته بالبيئة ـ رؤية إسلامية **د. فاروق حمادة ـ منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.**

١٢٦ ـ **الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد،** نخبة من الباحثين، إعداد مركز البحوث والدراسات بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في دولة قطر، ط١، جمادى الآخرة **١٤٢١هـ** ـ أيلول **٢٠٠٠م**.

١٢٧ ـ **ذم التطاول في البنيان،** وأثره على البيئة والإنسان، بحث المهندس رامي لطفي كلاوي، بحث مقدم للمؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

١٢٨ ـ **الظل في القرآن الكريم،** بحث الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي.

١٢٩ ـ **العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية**، جلال شوقي (الكويت ١٩٥٠م).
١٣٠ ـ **العمارة الإسلامية عبر العصور**، د. سعاد ماهر، جدة.
١٣١ ـ **العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي: هويتها وأثر تكنولوجيا العصر فيها**، بحث دكتورة قبيلة فارس المالكي، جامعة بغداد / كلية الهندسة ـ قسم الهندسة المعمارية.
١٣٢ ـ **العمارة الإسلامية والبيئة «الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي»**، الأستاذ المهندس يحيى وزيري، إصدار عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ٢٠٠٤م.
١٣٣ ـ **العمارة الإسلامية**، مقالات منشورة على موقع الدكتور علي عمر أحمد بادحدح (http://islameiat.com/)، **بتاريخ ١٩ ـ ٦ ـ ٢٠٠٥م**.
١٣٤ ـ **العمارة الإسلامية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**، د. حسن نويصر.
١٣٥ ـ **العمارة الإسلامية وخصائصها**، د. عبدالقادر الريحاوي.
١٣٦ ـ **العمارة في صدر الإسلام**، د. كمال الدين سامح.
١٣٧ ـ **العمارة في المغرب الإسلامي**، مصطفى زيبس.
١٣٨ ـ **العمارة الإسلامية في طرابلس والشام**، عمر عبدالسلام.
١٣٩ ـ **العمران والبناء في القرآن وكلام خاتم الأنبياء**، المهندس بلقاسم زايري، وزارة الإعلام، دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
١٤٠ ـ **فقه العمارة الإسلامية**، خالد عزب (دار النشر للجماعات المصرية).
١٤١ ـ **الفلك ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية)**، د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
١٤٢ ـ **فنون الترك وعمائرهم**، أوقطاي أصلان آب، إسطنبول ١٩٨٩م.
١٤٣ ـ **الفن الإسلامي**، عفيف بهنسي.
١٤٤ ـ **القرآن منهل العلوم**، د. خالد فائق العبيدي، طبع الجامعة الإسلامية، بغداد، ط/١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
١٤٥ ـ **القرآن منهل العلوم**، د. خالد فائق العبيدي، ط/٢، طبعة منقحة ومزيدة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.
١٤٦ ـ **القوانين القرآنية للحضارات**، د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
١٤٧ ـ **كذبت ثمود بالنذر**، بحث العالم التركي هارون يحيى، منشور في كتبه وعلى موقعه على الشبكة العالمية.

١٤٨ ـ **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**، د. يوسف القرضاوي، سلسلة كتاب الجيب (٣)، المكتب الإسلامي، القاهرة.

١٤٩ ـ **مدخل إلى العمارة الإسلامية**، أمجد بوهميل بورفازكا (سويسرا، مركز هلاب).

١٥٠ ـ **مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم**، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط/٢، الموصل، العراق، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٥١ ـ **مسجد القرويين**، عبدالهادي التازي.

١٥٢ ـ **مساجد الإسلام**، طه الوالي، بيروت.

١٥٣ ـ **المساجد**، د. حسين مؤنس (الكويت ـ عالم المعرفة).

١٥٤ ـ **المساجد والقصور**، السيد عبدالعزيز سالم.

١٥٥ ـ **المصطلحات المعمارية من خلال وثائق المماليك**، ليلى إبراهيم، محمد أمين (القاهرة ١٩٨٨م).

١٥٦ ـ **المكان في القرآن**، بحث للدكتور وليد البدري، الأستاذ بالجامعة الإسلامية ببغداد.

١٥٧ ـ المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي، دار المسيرة، عمان ـ الأردن، ط/١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٥٨ ـ **المنظار الهندسي للقرآن الكريم**، د. خالد فائق العبيدي، دار المسيرة، عمان ـ الأردن، ط/٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٥٩ ـ **المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري**، منظمة العواصم والمدن الإسلامية.

١٦٠ ـ **موسوعة الآثار الإسلامية الليبية.**

١٦١ ـ **موسوعة حسن الباشا للعمارة والفنون الإسلامية**، د. حسن الباشا (القاهرة ١٩٩٧م).

١٦٢ ـ **موسوعة العمارة الإسلامية**، عبدالرحيم غالب.

١٦٣ ـ **النبات والإنبات ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسُّنة النبوية ـ ١٥ جزءاً ـ)**، د. خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٦٤ ـ **نظرات في تفسير القرآن الكريم**، الدكتور محسن عبدالحميد، ط٢، شركة الرشد للطباعة والنشر، بغداد العراق، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٦٥ ـ **الوعي الكوني في التصور الإسلامي** ـ الدكتور صبحي الصالح ـ الدروس الحسنية ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ هجري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المملكة المغربية ـ ص: ٥٩ ـ ٧٢.

المراجع الأجنبية (Bibliography):

166 - Collage Physics, F. W. Sears and M. W. Zemansky, 2^{nd}. Edition, 1978.

167 - Environmemtal Science - Managing Physical Resources, Vol. III, Morgan. Morgan. Wiersma, WCB, USA, 1993.

168 - Explorations An Introduction to Astronomy, Thomas T. Arny WCB, McGraw - Hill, 2nd. edition, USA, 1998.

169 - Foundation of Astronomy, Seeds & Horizons, 3rd. edition, Wadswarh Inc. 1991.

170 - Fundamentals of Engineering Materials¡ Peter A. Thornton / Vito J. Colangelo¡ Printice Hall Inc.¡ 1985.

171 - Fundamentals of Geology, Carla W. Montgomery, WCB, McGraw - Hill, 3rd. edition, USA, 1997.

172 - Fundamentals of Collage Physics, K. Nolan, WCB, McGraw - Hill, 2nd. edition, USA, 1993.

173 - Handbook of Concrete Engineering, Mark Fintel, CBS, 1986.

174 - Handbook of Mechanics, Materials and Structures, A. Blake, McGraw-Hill.

175 - High - Rise Building Structures, Wolfgang Schueller.

176 - Standard Handbook of Architectural Engineering, Robert Brown Butler, McGraw-Hill Professional; 1st. edition (1998).

177 - Wind Effects on Civil Engineering Structures, V. Kolousek, et al., Elsevier, Czechoslovakia, 1986.

برمجيات الموسوعات العلمية:

١٧٨ - **برنامج القرآن الكريم (سلسبيل)**، قرص مرن (٣.٥ إنج)، نسخة تحتوي على تراجم إنكليزية وفرنسية وإحصاءات حول القرآن الكريم.

١٧٩ - **برنامج المكتبة الشاملة**، الإصدار الأول، برنامج يحوي كتب التفاسير، المتون، المعاجم، الفقه، الشروح، وكل ما يحتاجه الباحث في أمور الشريعة.

١٨٠ - **برنامج سلسلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، ٨ أقراص ليزرية تتناول أوجه الإعجاز القرآني في مجالات العلوم المختلفة، صادر عن دار التراث، عمان، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م.

١٨١ - **برنامج المترجم الوافي (ترجمة عربي - إنكليزي وبالعكس)**، ATA Software، **الإصدار/٢**.

١٨٢ ـ **البرنامج العالمي للمسح الجوي جوجل إيرث (Google Earth)**، المرتبط بالأقمار الصناعية، المعتمد والمدعم من وكالة الفضاء الأمريكية ناسا (NASA) **وكذلك وكالة الفضاء الأوروبية يوروبا (EUROPA).**

١٨٣ ـ **برنامج مصحف النور للنشر المكتبي**، قرص **٣،٥** إنج، إصدار شركة سيمافور للبرامجيات، الإصدار الثاني.

١٨٤ ـ **برنامج مكتبة التفسير وعلوم القرآن**، قرص مدمج يحوي أكثر من **٤٠٠** مجلد من أمهات كتب ومراجع التفسير وعلوم القرآن المختلفة، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.

١٨٥ ـ **برنامج المكتبة الألفية للسُّنة النبوية**، نسخة تحوي على **١٠٠٠** مجلد من كتب الحديث الشريف، قرص مدمج، دار التراث، الإصدار الأول.

١٨٦ ـ **برنامج مكتبة الحديث الشريف على الحاسبة الإلكترونية يحتوي على ٤٥٠ كتاب من كتب الحديث الشريف**، قرص مدمج، شركة العريس للكومبيوتر وأنظمة الحواسيب.

١٨٧ ـ **برنامج مكتبة السيرة النبوية**، قرص مدمج يحوي أمهات كتب السيرة النبوية الشريفة وكتب التاريخ، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.

١٨٨ ـ **برنامج (في ظلال القرآن)**، قرص مدمج يحوي تفسير الأستاذ سيد قطب رحمة الله عليه (في ظلال القرآن).

١٨٩ ـ **موسوعة إنكارتا لسنين مختلفة: ٢٠٠٠، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣م**، مجموعة من أقراص مدمجة لأحدث وأكبر الموسوعات العلمية العالمية(Microsoft(R)Encarta . Reference(R) Library 2003(C)1993-2002 Microsoft Corporation).

١٩٠ ـ الموسوعة البريطانية ـ بريتانيكا (Britanica) **ـ الصادرة عن دائرة المعارف البريطانية لسنين مختلفة: ٢٠٠٠، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣م.**

١٩١ ـ **موسوعة البيئة ـ** Encyclopedia to the Environment Biosphere **ـ، قرص مدمج عن بيئة الأرض المائية والهوائية.**

١٩٢ ـ **موسوعة الفلك ريد شفت ٤ ـ** Red Shift 4 **ـ، قرص مدمج لأكبر الموسوعات الفلكية الحديثة.**

١٩٣ ـ **موسوعة لسان العرب**، قرص مدمج عدد **٣**، يحوي كل ما يحتاجه متعلم اللغة العربية من نحو، صرف، بلاغة، إملاء ومعاجم، إنتاج الجامعة العربية لعام **١٩٩٨**م.

١٩٤ ـ **الموسوعة الذهبية للحديث الشريف وعلومه**، قرص مدمج، يحوي كل المعاجم والشروح والمجلدات المعنية بعلوم الحديث الشريف، دار التراث، الإصدار الثاني، **١٤٢٢**هـ ـ **٢٠٠١**م.

١٩٥ ـ **موسوعة الراصد (العلمية، الطبيعية، الفلكية، التاريخية)**، أقراص مدمجة، إنتاج شركة لاليه العالمية للبرمجيات، دورلينك كيندرسلي **١٩٩٥**(C)1994-1995)) .
Dorling Kinderesley Mutimedia & (C) 1996 Laleh Computer Institute).

مواقع الشبكة العالمية:

١٩٦ ـ موقع الدكتور خالد العبيدي على شبكة الإنترنت (http://khalid-alubaidy.com/).
١٩٧ ـ مـواقـع قـنـاة ديـسـكـوفـري الـعـلـمـيـة (http://discoverychannel.áhttp:// www.discoverychannel.co.uk).
١٩٨ ـ موقع وكالة الفضاء الأمريكية ناسا (http://www.nasa.gov) .
١٩٩ ـ موقع الإسلام أون ـ لاين.
٢٠٠ ـ الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة ـ رابطة العالم الإسلامي http:// www.nooran.org/index.htm.
٢٠١ ـ مـوقـع الإرث الإسـلامـي (http: //muslimheritage.com/topics/default.cfm? ArticleID = 466).
١ ـ موقع الفن المعماري(http://www.m3mary.com/ www.m3mary.com).
٢ ـ موقع فن العمارة (http://www.geocities.com/big_saber/Architect.html).
٣ ـ موقع الحج والعمرة .(http://www.tohajj.com)
٤ ـ موقع الشيخ الدكتور علي عمر أحمد بادحدح (http://islameiat.com/main/ ?c = 199&a = 1338)
٥ ـ موقع الإسلام (http://elislam.8k.com/Makalat/M5.HTM).
٢٠٢ ـ موقع الأستاذ هارون يحيى (http://www.harunyahya.com/arabic/index.php).
٢٠٣ ـ موقع الدكتور زغلول النجار (http://www.elnaggarzr.com/Test_fre/ main.asp)
٢٠٤ ـ مواقع متخصصة مثل: الموقع (http://com.z6z.com/)... **الموقع** (http:// www.bbsa.org.uk/exSun.html)... **الموقع**: .-http://www.egyptsons.com
٢٠٥ ـ موقع http://www.muslm.net/vb/showthread.php?t = 14260
٢٠٦ ـ موقع http://www.perishednation.com
٢٠٧ ـ الـمـوقـع (http://www.alkhorcity.net/forums/printthread.php?t = 448 & page = 3 &pp = 10).
٢٠٨ ـ الموقع .(http://www.aletrah.com/forum/showthread.php?t = 9028).

٢٠٩ ـ الموقع ./http://myweb.saudi.net.sa/alawi

٢١٠ ـ الموقع: .http://uk.youtube.com/watch?v = 3tHbxwlDMHA

٢١١ ـ مواقع جامعات ومعاهد متخصصة.

مصادر أخرى:

٢١٢ ـ مجلة سلسلة عالم المعرفة الكويتية، أعداد مختلفة.

٢١٣ ـ مجلة العربي الكويتية، أعداد مختلفة.

٢١٤ ـ مجلة علوم، العراقية، أعداد مختلفة.

٢١٥ ـ مجلة كل العرب، العدد **٣٣٥**، يناير **١٩٨٩**.

٢١٦ ـ مجلة الوعي الإسلامي، مجلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، مجلة التربية الإسلامية العراقية.

٢١٧ ـ مجلة أطلال الآثارية السعودية، العددين ١٠، ١١.

٢١٨ ـ محاضرات لأساتذة متخصصين في مختلف المجالات.

٢١٩ ـ مناقشات دراسات عليا.

السيرة الذاتية



- الدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي.
- مواليد بغداد ١٩٦٤م.
- حاصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية من كلية الهندسة - جامعة بغداد عام ١٩٨٥م.
- حاصل على شهادة الماجستير في الهندسة الإنشائية / منشآت حديدية - من قسم هندسة البناء والإنشاءات - الجامعة التكنولوجية ببغداد عام ١٩٩٠م.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الإنشائية / منشآت معلقة - من قسم هندسة البناء والإنشاءات - الجامعة التكنولوجية ببغداد عام ١٩٩٧م.
- أستاذ مساعد في قسم هندسة البناء والإنشاءات - الجامعة التكنولوجية ببغداد، ومحاضر سابق في قسم الهندسة المدنية وقسم هندسة البيئة في كلية الهندسة - الجامعة المستنصرية ببغداد.
- عضو المؤتمر العام لنقابة المهندسين العراقيين - الدورة ٢٥ -.
- عضو جمعية المهندسين العراقيين بدرجة استشاري.

- عضو جمعية المهندسين الإماراتيين.
- عضو مجلس العمل العراقي في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- خبير هندسة إنشائية ومهندس رئيس منذ عام **٢٠٠٧**م... مصمم واستشاري لأكثر من **٢٣** عاماً في مشاريع مختلفة في العراق ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- له عدة بحوث في مجال الاختصاص منشورة في مجلات مرموقة داخل العراق وخارجه.
- مشترك في عدة مؤتمرات في مجال الاختصاص داخل العراق وخارجه.
- عضو الهيئة الاستشارية لمركز الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة في الجامعة الإسلامية ببغداد.
- عضو اللجنة الاستشارية في الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنة بالرباط.
- له **٤٤** كتاباً في مجال الإعجاز القرآني وعلوم القرآن منشورة داخل العراق وخارجه وأخرى قيد النشر.
- له كتابان في المجال الهندسي والحاسبات.
- محاضر في الإعجاز الهندسي والعلمي في عدة معاهد تنمية بشرية في بغداد.
- مشترك في عدة مؤتمرات وندوات ومحاضرات في مجال الإعجاز القرآني داخل العراق وخارجه. وله عدة محاضرات وبحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في مجلات وصحف مرموقة داخل العراق وخارجه.
- له أكثر من **١٢٠** حلقة مرئية تتعلق بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم عرضت في محطات تلفازية فضائية عربية مختلفة.

- مكتشف منظومة الثوابت الهندسية في القرآن الكريم.
- له اختراعات وابتكارات من القرآن والسُّنة تبنَّت بعضها شركات عالمية.
- له موقع على الشبكة العالمية بعنوان: (مشروع لعصرية الدعوة)، http://khalid-alubaidy.com/.
- حاصل على عدة كتب شكر من وزارات وهيئات ومؤسسات علمية مهمة في العراق ودولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة المغربية والمملكة العربية السعودية.

هذا الكتاب

يتطرق المؤلف في هذا الكتاب إلى علوم وفنون العمارة والهندسة المعمارية، تلك الهندسة الجميلة الرقيقة التي تعنى بترابط حاجة البشر للسكنى مع جمال المسكن وفلسفة التشييد وتوافر المواد واقتصادية التنفيذ، وكيف احتوى كتاب الله تعالى في آياته وأمثاله وقصصه ذكراً تصريحياً وتلميحياً واستنباطياً لتلك العلوم وتفرعاتها، وإن لم تحمل نفس الاصطلاحات المعروفة في عالمنا اليوم، والأمر نفسه ينطبق مع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام وما فيها من قصص وعبر تطرقت لنفس الموضوع واحتوت تفاصيل مهمة فيه.

سيجد القارئ الكريم تفاصيل عجيبة في هذا المجال العلمي الحيوي ذكرت قبل زماننا بأكثر من ١٤٠٠ عام خلت تدعونا نحن المسلمين للاعتزاز بديننا من جهة، وللاهتمام بالجانب العلمي البحثي في كتاب الله من جهة أخرى، بما يؤسس لمدرسة هندسية إسلامية متكاملة نفاخر بها العالم، ونضع من خلالها الحلول لما يواجهنا من مشكلات عصرية في مجال الطاقة والبيئة والسكن والاستثمار وتوزيع الموارد.